د. الياس داود القطّار

المشرق في القرون الوسطى
633 - 1516م

مركـــز المشـــرق
للأبحـــاث والدراسات
Levant Center for Research and Studies

المشرق في القرون الوسطى

633 - 1516م

الكتاب: **المشرق في القرون الوسطى 633 - 1516م**
المؤلّف: **الياس داود القطّار**
الموضوع: تاريخ
عدد الصفحات: **400**
القياس: 24 x 17
تدقيق لغوي: هاني الحلبي

الطبعة الأولى، 2019

© جميع حقوق النشر والترجمة محفوظة
مركز المشرق للأبحاث والدراسات
بيت المشرق ، ساحل علما - جونيه، لبنان
رقم الهاتف: 00961 9 636400
00961 81 835109
البريد الإلكتروني: levant.research.center@gmail.com

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل سواء التصويريّة أم الإلكترونيّة أو الميكانيكيّة، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن من مركز المشرق للأبحاث والدراسات.

أ.د. الياس داود القطّار

أ.د. في التاريخ الوسيط

المشرق في القرون الوسطى 633 - 1516م

بيروت 2019

مركز المشرق
للأبحاث والدراسات
Levant Center for Research and Studies

قائمة المحتويات

مقدّمة عامة 21

الباب الأول 23

المشرق في ظل الخلافة الأمويّة 23

مقدّمة في الدعوة الإسلاميّة وعهد الخلفاء الراشدين 25

الفصل الأول: الأوضاع السياسيّة - العسكريّة 29

أولاً - عصر الخلفاء الراشدين: التوسُّع خارج الجزيرة العربيّة: الفتوحات في بلاد الشام 31

فتح العراق وبلاد فارس 38

ج - نتائج الفتح 40

الفتح صلحاً 40

نقل السكان 40

تصنيف الأرض: عشر أو خراج 41

د - نهاية الخلافة الراشدة مع علي والنزاع مع معاوية 41

ثانياً - الخلافة الأمويّة معاوية (41 - 60هـ/ 660 - 680م) 43

يزيد بن معاوية (60 - 64هـ/ 680 - 683م) 47

ج - مروان بن الحكم 683 - 685م يؤسس للدوحة الأمويّة المروانيّة 48

د - عبد الملك بن مروان (65 - 85هـ/685 - 705م) 48

هـ - الوليد بن عبد الملك (86 - 96هـ/705 - 715م) 49

ز - الوليد بن يزيد (125 - 126هـ/ 743 - 744م) 49

ثالثاً - المردة - الجراجمة 51

الفصل الثاني: المجتمع - الثقافة - العمران 55

أولاً: المجتمع 57

عادات وتقاليد 57

فئات المجتمع 57

ج - أهل الذمّة 58

د - شيعة علي 62

هـ نشاطات دينيّة أخرى 63
ثانياً - الثقافة والفنون 65
ثالثاً - العمران 67
خاتمة: سقوط الخلافة الأمويّة في المشرق 70
الباب الثاني: المشرق في ظلّ الخلافتين: العبّاسيّة والفاطميّة 73
القسم الأوّل: الخلافة العبّاسيّة 73
الفصل الأوّل: الأوضاع السياسيّة - العسكريّة 75
ثانياً - الثورات والدويلات والكيانات شبه المستقلة في العهد العبّاسيّ 77
ثورة المنيطرة 79
ثورات من عهد المهديّ (158 - 169هـ/775 - 785م) حتى العهد الطولونيّ 264هـ/878م 82
الثورة السفيانّية 82
ثورة المبرقع 82
خروج ابن شيخ على سلطة العبّاسيّين 83
أ- ثورة الزنج: (255 ـ 270هـ/ 869 ـ 883م) 83
ب - دويلات وكيانات في قلب الخلافة العبّاسيّة 84
1 - الطولونيّون (264 - 291هـ/878 - 903م) والعبّاسيّون مجدّدًا (291 - 330هـ/903 - 941م) وحركة القرامطة 84
2 - حكم الإخشيديّين (330 - 358هـ/941 - 969م) 86
الدولة الحمدانيّة (944 - 1003م) 87
البويهيّون 90
الفصل الثاني: 93
الإدارة - المجتمع - الاقتصاد - الثقافة - العمران 93
أولاً - الإدارة العبّاسيّة 95
ثانياً - المجتمع 97
الحياة الاجتماعيّة 97
أوضاع أهل الذمة 98
ثالثاً - الحياة الاقتصاديّة 103
الزراعة والتحوّلات في العالم الريفيّ 103

ارض العُشر.... 104
ارض الخراج.... 104
ارض الصوافي والقطائع 105
الضيع.... 105
الوقف.... 105
الشركاء والشراكة 105
التلجئة.... 106
الإقطاع.... 106
الضرائب 106
الصناعة.... 107
الطرق التجاريّة.... 108
رابعاً - النهضة الثقافيّة المدنيّة والدينيّة 112
روافد النهضة.... 112
الرافد الهنديّ.... 112
الرافد الفارسيّ 112
الرافد الإغريقيّ الهلينيّ.... 113
ب - العلوم البحتة والعلوم الإنسانيّة 115
1 - الطب.... 115
2 - الفلسفة 116
3 - الفلك والرياضيّات.... 117
4 - التنجيم 118
5 - الأرقام الهنديّة 118
6 - الكيمياء.... 118
7 - علم الحيوان 118
8 - الجغرافية 118
9 - التاريخ 119
10 - الأدب والشعر.... 120
ج - العلوم والفكر الدينيّ ومذاهبه 121

بين العقل والدين 123
مذاهب السنّة 124
مذاهب الشيعة: 127
التصوّف 134
الاتجاهات الدينيّة الغريبة: المزدكيّة والخرميّة والمانويّة وغيرها 135
المدارس والتعليم 136
خامساً - العمران والفنون 138
الهندسة 138
الموسيقى 139
القسم الثاني: المشرق في العهد الفاطميّ 141
مقدّمة 143
الفصل الأول: الأوضاع السياسيّة - العسكريّة 145
أولاً - الأوضاع السياسيّة - العسكريّة في المشرق في النصف الثاني من القرن العاشر 147
الحملات البيزنطيّة 148
ثانياً - الأوضاع السياسيّة - العسكريّة في القرن الحادي عشر 150
ثورة علاّقة 150
الصراع مع البيزنطيّين وعقد الهدنة معهم 151
ج - دور أساسيّ لطرابلس في العهد الفاطميّ 151
د - صعوبات سيطرة الفاطميّين على المشرق 152
هـ - محاولات استعادة الهيبة الفاطميّة 152
و - التّسلّط السلجوقيّ 153
ثالثاً - الإمارات شبه المستقلّة 157
1 - إمارة ابن أبي عقيل 157
2 - إمارة بني عمّار 158
الفصل الثاني: الأوضاع الإداريّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة والعمرانيّة في ظلّ الفاطميّين........ 161
أولاً - الوضع الإداريّ والقضائيّ والقوة البحريّة 163
ثانياً - الأوضاع الاجتماعيّة - الدينيّة : الموحّدون - الدروز 165
ثالثاً - الأوضاع الاقتصاديّة 167

أ - الكوارث الطبيعيّة 167
ب - الزراعة.. 167
ج - الإقطاع 168
د - التجارة 168
رابعاً - الحياة الثقافيّة 169
خامساً - العمران: وضعيّة مدن وقرى المشرق في الربع الثاني من القرن الحادي عشر الميلاديّ في تقرير الرحالة ناصر خسرو 170
وصف بيت المقدس 177
وصف الدكة التي بوسط ساحة المسجد والصخرة التي كانت قبلة الإسلام 180
وصف المراقي المؤدية إلى الدكة التي بساحة الجامع.................................. 180
وصف قبر الخليل 181
كنيسة بيعة القيامة.. 183
الباب الثالث: المشرق في عهد الفرنج - الصليبيّين.................................. 185
مقدّمة 187
الفصل الأول: الأوضاع السياسيّة - العسكريّة.. 187
أولاً - في أسباب حروب الفرنج - «الصليبيّة» وظروفها 187
ثانياً - فتح الفرنج - الصليبيّين للمدن الساحليّة 1097 - 1124 وصولاً للقدس 191
أ - الحملة الشعبيّة وانطلاق قوات الحملة الأولى 191
ب - احتلال أنطاكية والسير باتجاه بيت المقدس مرورًا بالمدن اللبنانيّة 192
ج - احتلال القدس وتأسيس مملكة القدس اللاتينيّة وانتخاب «غودفروا» على رأسها...... 194
د - فتح المدن الساحليّة اللبنانيّة 196
هـ - الأوضاع السياسيّة من فتح المدن الساحليّة إلى محاولات الاسترداد الزنكيّة........ 203
ثالثاً - مقاومة الاحتلال وبداية عمليات الاسترداد: من عماد الدين زنكيّ إلى ابنه نور الدين 206
أ - مع عماد الدين زنكيّ.. 206
ب - مع نور الدين زنكيّ.. 208
رابعاً - صلاح الدين الأيوبيّ يتابع استرداد الأرض ويحقق أول نصر مبين 212
خامساً - تفكّك سلطنة صلاح الدين وإمارات الفرنج 219
سادسًا - المشرق في ظلّ الإمبراطوريّة الألمانيّة: الإمبراطور «فردريك»............ 221

سابعًا - الملك لويس التاسع الفرنسيّ يساند فرنج المشرق في منتصف القرن الثالث عشر 224
ثامنًا - المغول يفتكون بالمشرق 225
تاسعًا - المماليك يفتحون المشرق ويحسمون الوجود الفرنجيّ فيه 226
الفصل الثاني: الإدارة - المجتمع - الاقتصاد - الثقافة – العمران.. 231
أولاً - إدارة الفرنج.. 233
1 - «السانشال» 236
2 - «الماريشال» 236
3 - الشانسليه»... 236
4 - «الكامرياروس» Cameriarus.. 236
5 - «الشاتولان» 236
6 - «الفيكونت» Vicomte 237
7 - «الفياف» Fief.. 237
8 - تنظيمات الفرسان 238
9 - الكتبة.. 238
10 - المحتسِب 238
11 - الريّاس 239
ثانياً - المجتمع في ظل حكم الفرنج 241
أ - الجاليات الأوروبيّة والتنظيم المدنيّ –الاجتماعيّ 241
1 - «الكومونة البندقيّة» Commune vénitienne في صور وغيرها 242
2 - «كومونة الجنويّين» Commune des génois في صور وجبيل وغيرهما 242
3 - «كومونة البيزيّين» Commune des pisans في صور وغيرها و»كومونة الكاتلان» Catalans و»كومونات»
أخرى في صور وغيرها لـ «مرسيليا» و»مونتبليه» Montepellier و»سان جيل». 243
ب - السكان المحليّون.. 243
1 - المسلمون 244
- الإسماعيليّة.. 244
- النصيريّة.. 245
- الدروز 245
- الشّيعة الإماميّة... 245

2 - اليهود 246
3 - المسيحيّون 246
4 - النساطرة.. 247
5 - اليعاقبة (السريان الأرثوذكس) 249
أ - الموارنة... 249
ب - الأرثوذكس 251
ج - القرية وحدة الحياة الاجتماعيّة - الاقتصاديّة عند السكان المحليّين، ـ وموازية للـFief الغربيّ الأوروبيّ من ضمن النظام «الفيودالي»... 251
د - «البورجوازيّة» 252
هـ - المحتسِب.. 253
و- التأثير الاجتماعيّ في الحياة اليوميّة وفي التمازج العرقيّ 253
ثالثاً - الاقتصاد... 254
أ - العوامل الطبيعيّة.. 254
1 - الأوبئة... 254
2 - الزلازل وغيرها 255
ب - الزراعة.. 256
1 - المزروعات 256
2 - الحبوب... 256
3 - الحقول 256
4 - النخيل.. 256
5 - قصب السكّر 256
6 - السمسم 257
7 - التين والزيتون والكرمة 257
8 - الفوّة Garance.. 257
9 - الغابات 257
10 - القطن... 257
ج - الصناعات الحرفيّة 258
1 - صناعة الحرير 258

2 - صناعة النبيذ.. 259
3 - صناعة شراب الفقيع أو الفقاع Focay 259
4 - صناعة الزجاج والخزف.. 259
5 - صناعة الجلود.. 259
6 - المطاحن والأفران Furnus والمصابن 259
7 - صناعة النحاس 260
د ـ مدن ساحل المشرق، تسترجع تاريخها المجيد فتُعيد ربط شرق المتوسط بغربه 260
1 - التجارة الداخلية.. 260
2 - التجارة البحريّة.. 261
3 - التجارة « البندقيّة»... 261
4 - التجارة «الجنويّة» 262
5 - التجارة «البيزانيّة» 262
6 - التجارة الفرنسيّة: البروفنس ومرسيليا.. 262
7 - التجارة المسلمة 263
رابعاً - الأوضاع الثقافيّة 264
خامساً - العمران الحربيّ: الحصون والقلاع 266
أ - في لبنان 266
ب - في الأردن.. 271
ج - في سورية 271
د - في فلسطين.. 272
الباب الرابع 279
عهد السلاطين المماليك.. 279
المقدّمة 281
الفصل الأول: الأوضاع السياسيّة – العسكريّة.. 283
أولاً - الحملات المملوكيّة على الشّيعة والموارنة في كسروان في مطلع عهد المماليك وأثرها في جغرافية وجود
الطوائف والصراع السياسيّ.. 285
أ - الحملات على المسيحيّين الموارنة.. 285
ب - الحملات على كسروان.. 285

ثانياً - الصراع مع الفرنج في سواحل لبنان 289
أ - على عهد المماليك البحريّين 289
ب - على عهد المماليك البرجيّين 290
ثالثاً - محاربة المغول - التتار 293
أ - العراق تحت الاحتلال المغوليّ 293
ب - المغول في سورية ولبنان وفلسطين 296
رابعاً - الحرب ضد بلاد الأرمن 298
خامساً - أحداث المشرق على عهد المماليك البحريّين 299
ب – على عهد المماليك البرجيّين أو الشراكسة 301
1 - مشكلات منطاش 301
2 - دور ابن الحنش وغيره من العشير (التركمان والبحتريّون) في لبنان في الأحداث السالفة 303
3 - مشكلات تنم ويونس بلطا 303
4 - مشكلات الأمير جكم والأمير شيخ 304
5 - مشكلات شيخ ونوروز 304
6 - شيخ سلطاناً 305
7 - الأحداث في أواخر عهد الشراكسة: بنو بشاره وبنو الحنش في صدارة الأحداث 306
الفصل الثاني: الإدارة - المجتمع - الاقتصاد - العمران 309
أولاً - الإدارة 311
مقدّمة عامة 311
التقسيمات الإداريّة 311
أ- الضرب الثاني: قلاع الدعوة 320
ب - الوظائف الإداريّة 321
ج - الوظائف الإداريّة في النيابة 322
د - الوظائف الديوانيّة 325
هـ - الوظائف الدينيّة 325
و - المحتسِب 326
ز - وظائف أُخَر خارج الأصناف الثلاثة (سيوف، ديوانيّة، دينيّة) 328
ح - الوظائف في النيابات خارج الحاضرة 329

ثانياً - المجتمع 330
أ - المسيحيّون 330
1 - الموارنة.. 330
2 - الروم الملكيّون 332
3 - اليعاقبة والأحباش 333
ب - المسلمون.. 334
1 - الشّيعة الإماميّة 334
2 - النصيريّون العلويّون.. 336
3 - الدروز ودور الأمير السيّد عبدالله التنوخيّ.. 337
ج - فئاتُ الشعب والفتن الاجتماعيّة 338
د - التمييز الدينيّ 339
هـ - المدارس في المشرق في العهدَيْن الأيوبيّ والمملوكيّ.. 342
1 - المدارس في سورية: في دمشق 343
المدارس التي بُنيت في دمشق في العهد الأيوبيّ واستمرّت في العهد المملوكيّ.. 343
عهد السلطان صلاح الدين 582 - 570هـ.. 343
المدارس الشافعيّة 343
المدارس الحنفيّة 344
المدارس المشتركة.. 344
المدارس المالكيّة.. 344
المدارس الحنبليّة.. 344
عهد الملك الأفضل نور الدين592 - 582 هـ.. 345
المدارس الشافعيّة 345
المدارس الحنفيّة 345
عهد الملك العادل ونيابة ولده المعظّم عيسى 615 - 592 هـ.. 345
المدارس الشافعيّة 345
عهد الملك المعظّم عيسى 624 - 615 هـ.. 346
المدارس الحنفيّة: 346
المدارس الحنبليّة.. 346

عهد الملك الأشرف موسى بن العادل 635 - 625 هـ 346
المدارس الشافعيّة 346
المدارس الحنفيّة 346
المدارس الحنبليّة........ 347
عهد الملك الصالح إسماعيل بن العادل 643 - 635 هـ 347
المدارس الشافعيّة 347
المدارس الحنفيّة 347
المدارس الحنبليّة........ 347
عهد الملك نجم الدين أيوب بن الكامل 643 - 647 هـ 347
المدارس الشافعيّة 347
المدارس الحنفيّة 348
عهد الملك الناصر يوسف الأيوبيّ 658 - 648 هـ 348
المدارس الشافعيّة 348
المدارس الحنفيّة 348
ومن مدارس دمشق المملوكيّة: 348
المدارس التي بُنيت في حلب في العهد الأيوبيّ........ 349
المدارس الشافعيّة 349
المدارس التي بُنيت في حلب في دولة المماليك 350
المدارس الشافعيّة 350
المدارس الحنفيّة 351
المدارس المشتركة بين المذاهب الأربعة........ 351
المدارس التي بُنيت في حماه في عهد دولة المماليك 351
في مدينة بصرى سورية........ 352
في بغداد........ 352
في النجف 352
3 - المدارس في لبنان في العهد المملوكيّ........ 352
- مدارس طرابلس: 352
- مدارس بعلبك والبقاع وجزين: 353

مدرسة شيعيّة جعفريّة. 353
- مدارس الموارنة والدروز: 353
4 - المدارس في فلسطين 354
- مدارس القدس 354
- المدرسة الفارسيّة: 354
- المدرسة النحويّة: 354
- المدرسة (زاوية) الناصريّة: 355
المدرسة الفخريّة: 355
- المدرسة التنكزيّة: 355
- المدرسة البلديّة: 355
المدرسة الأشرفيّة: 355
- المدرسة العثمانيّة: 355
- المدرسة الخاتونيّة: 356
- المدرسة الأرغونيّة: 356
- المدرسة المزهريّة: 356
- المدرسة الجوهريّة: 356
- المدرسة المنجكيّة: 356
- المدرسة الجاوليّة: 356
- المدرسة الصبيبيّة: 356
- المدرسة الإسعرديّة: 357
- المدرسة الملكيّة: 357
- المدرسة الفاسيّة: 357
- المدرسة الأمينيّة: 357
- المدرسة الدواداريّة: 357
- المدرسة الباسطيّة: 357
- المدرسة الكريميّة: 358
- المدرسة الغادريّة: 358
- المدرسة الطولونيّة: 358

- المدرسة الفنزيّة: 358
- المدرسة الحسنيّة: 358
- المدرسة الصلاحيّة: 358
- المدرسة الكامليّة: 359
- المدرسة المعظميّة: 359
- المدرسة السلامية: 359
- المدرسة الوجيهيّة: 359
- المدرسة المحدثيّة: 359
- المدرسة الحسنيّة: 359
- المدرسة القشتمريّة: 359
- المدرسة البارو ديّة: 360
- المدرسة الجهاركسيّة: 360
- المدرسة الحنبليّة: 360
- مدرسة دار الحديث: 360
- مدرسة دار القرآن الإسلاميّة: 360
- مدرسة الطازيّة: 360
- المدرسة الأفضليّة: 360
- المدرسة اللؤلؤيّة: 361
- المدرسة البدريّة: 361
- المدرسة الميمونيّة: 361
- المدرسة الأباصيريّة: 361
- المدرسة الموصليّة: 361
- مدارس خارج القدس 361
5 - موضوعات التدريس 362
6 - تمويل المدارس ورواتب المدرّسين 362
ثالثاً - الاقتصاد 364
أ - المناخ الاقتصاديّ 364
1 - الطاعون والأوبئة 364

2 - الجراد 365
3 - الزلازل.. 366
4 - العوارض المناخيّة 366
5 - الرياح الشديدة.. 368
6 - تدهور العملات 368
ب - الزراعة.. 371
1 - المزروعات 371
2 - التقنيّات الزراعيّة... 372
3 - المواشي والوحوش والطيور.. 374
4 - الأوزان والمكاييل.. 375
ج - الصناعة 376
1 - الصناعات والحرف 376
2 - التنظيم الحرفيّ 376
د - التجارة البحريّة: الحركة التجاريّة العامة في البحر المتوسط منذ أواسط القرن الخامس عشر بعد سقوط القسطنطينيّة.. 377
1 - الدول التجاريّة الأوروبيّة 377
2 - خطوط التجارة 380
3 - أبرز الصادرات من المواد التجاريّة.. 381
4 - ازدهار بيروت.. 381
5 - دول التجارة الأوروبيّة 383
التجارة البندقيّة 385
نجد أنّ البنادقة قد باشروا تجارتهم منذ العام 1300م.................................. 385
1 - التجارة الجنويّة.. 386
2 - التجارة الكاتالونيّة.. 387
3 - التجارة الفلورنسيّة... 388
4 - تجارة جنوب فرنسا.. 389
رابعاً - العمران: مدينة طرابلس نموذجًا.. 390
أ - العمران في آخر القرن الثالث عشر والنصف الأول من القرن الرابع عشر.......... 390

ب - العمران في النصف الثاني من القرن الرابع عشر 392
ج - العمران في النصف الأول من القرن الخامس عشر 393
د - العمران في النصف الثاني من القرن الخامس عشر 393
هـ - آثار عمرانيّة مملوكيّة من دون نقوش تحدّد تاريخها 393
خاتمة عامة.. 397

مقدّمة عامة

المشرق هو ما يُصطَلح على تسميته اليوم بالدول الآتية: سورية، لبنان، فلسطين، يضاف إليه العراق الذي كان مركز الثقل في المنطقة من أواسط القرن الثامن حتى القرن العاشر الميلاديّ.

يثير مصطلح المشرق إشكاليات متعدّدة، فهو كما ذكرنا أعلاه كان مقتصراً، في المصادر الفرنسيّة على الدول المتاخمة لساحل المتوسط، ولا تجوز إضافة مصطلح العربيّ إليه لأن جغرافية المشرق العربيّ تتوسّع لتشمل ما يُسمّى اليوم بالمملكة العربيّة السعودية واليمن وحتى مصر والسودان مقارنة بالمغرب العربيّ.

بكل الأحوال، صحيح أن المشرق في القرون الوسطى قد اعتنق الإسلام، فمع ذلك لا هو المشرق الإسلاميّ ولا المشرق العربيّ، لأن الجماعات المسيحيّة التي كانت الأكثريّة في المراحل الأولى من الفتح الإسلاميّ، وجماعات وازنة في هذه المنطقة حتى القرن الحادي عشر الميلاديّ لم تكن مسلمة. طبعاً، كما لم تكن عربيّة العرق، بل سريانيّة من شتى أنواع السريان.

منذ عشرات السنين كنت قد أُصدرتْ كتبٌ ودراسات متعددة عن لبنان في القرون الوسطى. وصحيح أن الموضوع هو لبنان، ولكن هذه الدراسات كانت تضع هذا البلد، الذي يحتفل بمرور قرن على نشوئه، في إطاره التاريخيّ الإسلاميّ - العربيّ، منذ سلسلة الفتوح الإسلاميّة مروراً بالتاريخ الأمويّ فالعبّاسيّ فالفاطميّ فالفرنجيّ - الصليبيّ فالسلطنات المتعاقبة من سلجوقيّة إلى زنكيّة فأيوبيّة وأخيرًا مملوكيّة. لذا، قد نجد العديد من المعلومات قد وردت في سلسلة الكتب التي ألّفت خصوصًا ثلاثيّة لبنان في القرون الوسطى: **من الفتح العربيّ - الإسلاميّ إلى الاحتلال الفرنجيّ** و**عهد الفرنج – الصليبيّين**، و**عهد السلاطين المماليك**، أضف إليها **الشرق العربيّ في القرون الوسطى:** التحوّلات السياسيّة (بالاشتراك مع آخرين و**نيابة طرابلس في عهد المماليك).**

آليتُ في هذا الكتاب تقديم كتاب مبسّط إلى أقصى الحدود، وأسقطت منه الحواشي العلميّة وذكر المصادر والمراجع، لجعله في متناول أصناف القرّاء كافة، ومَن يرغب بمتابعة التفاصيل المملّة وإسنادها العلميّ فليرجع إلى مؤلفاتي المذكورة أعلاه.

وفي الختام يطيب لي شكر الدكتور جورج سليم والدكتور جوزيف عون لتكرُّمهما عليّ بقراءة مخطوطة الكتاب وتصويب لغته وبعض معلوماته.

أ.د. الياس داود القطّار

8 أيلول 2019

الباب الأول
المشرق في ظل الخلافة الأمويّة

مقدّمة في الدعوة الإسلاميّة وعهد الخلفاء الراشدين

ولد محمد رسول الله في السنة 571م أو ما يقاربها. توفّي والده عبدالله قبل ولادته ولحقته أمّه عندما بلغ السادسة من العمر، فتعهّده جدّه عبد المطلب، وعند وفاة الأخير انتقل ت كفالته إلى عمه أبي طالب. وهذه المرحلة هي الأكثر غموضاً في حياة محمد.

في الثانية عشرة من العمر رافق عمّه أبا طالب في رحلة إلى الشام. ثم عمل في تجارة خديجة بنت خويلد، أرملة إثنين من بني مخزوم، وقد كانت على درجة كبيرة من الثراء. وعندما بلغ الخامسة والعشرين تزوّج منها وهي تناهز الأربعين.

حالة اليُسر التي دخل فيها، نتيجة زواجه من خديجة، سمحت له الانصراف إلى التفكير في الكون، فكان يذهب إلى غار في أعلى جبل حرّاء حيث فوجئ يومًا بصوت يناديه: «إقرأ باسم ربك الذي خلق... (سورة العلق) ». فكان هذا أوّل الوحي. ثم تتالى الوحي ونزول الآيات على يد الملاك جبريل. وكانت زوجته خديجة أول امرأة أسلمت ثم تلاها علي بن بي طالب، ابن عمّه، فأبو بكر.

قوبلت دعوة محمد بدعوته إلى رسالة الله بإعراض قومه عنه. ولكنها وجدت قبولاً عند المستضعَفين من أهل مكة، فعمد أهله من قريش إلى التضييق على أتباعه فوجّههم محمد للهجرة إلى الحبشة، فخرجوا في هجرتين، ووجدوا في النجاشيّ النصرانيّ، ملك الحبشة، حامياً لهم. تابع محمد تبشيره ودعوته لترك عبادة الأوثان والانصراف إلى عبادة الله الواحد، وأعطاه اعتناق عمر بن الخطاب لدعوته، وهو من قادة قريش، دفعًا جديدًا. ولم يثنِهِ موتُ زوجته خديجة وعمّه أبي طالب، قبل ثلاث سنوات من الهجرة، عن متابعة سعيه لنشر رسالته.

في العام 620م جاء قوم من يثرب، من بني الخزرج، للمشاركة في سوق عكاظ، فعرض عليهم الإسلام. وبعد سنتين جاءه منها خمسة وسبعون شخصًا فبايعوه، وجعلوه حَكَمًا في الخلاف المستعِر بين الأوس والخزرج، وشجّعوه على السكن في مدينتهم فوضع خطة مرحليّة للرحيل عن مكة. وبدأت الهجرة إلى يثرب على مراحل كان آخرها مع وصول الرسول إليها في 24 أيلول سنة 622م. وقد اعتبر هذا التاريخ لاحقًا مطلعًا للسنة الهجريّة.

في يثرب بدأ الرسول بوضع اللبنة الأساسيّة لمشروعه الإيمانيّ والسياسيّ، ومنها بدأ الاحتكاك السياسيّ - العسكريّ مع مكة. وكان أول الغيث بعد اعتراض المسلمين المدنيّين لقافلة تجاريّة عائدة من رحلتها من الشام، في معركة بدر في رمضان 624م فعرف المسلمون فيها أولى انتصاراتهم بقيادة النبي بالذات.

ردّ القريشيّون بقيادة أبي سفيان على خسارتهم ببدر بمنازلة المسلمين في أُحُد في 625م فلم يحققوا نصرًا حاسمًا.

في العام 627م عاد تجمع الأحزاب الذي يضمّ المكيّين والبدو ومرتزقة وأحباشًا ويهودًا بمهاجمة المدينة وحصارها. فعمد الرسول، بنصيحة من سلمان الفارسيّ، إلى حفر خندق حول المدينة. وبعد حصار شهر لم يرِق للبدو هذا النوع من العمل العسكريّ الجامد. فانكفأت الأحزاب وعادوا أدراجهم مما ساهم في تشديد قبضة محمد على المدينة وارتفاع معنويّات المسلمين. وبادر الرسول إلى الاقتصاص من اليهود فقتل العديد منهم وأجلاهم من واحاتهم في المنطقة.

بعد نجاح النبي في صدّ هجوم الأحزاب بدأ بوضع أسس هوية الدين الجديد فحدّد يوم الجمعة للصلاة، وكرّس شهر رمضان للصوم، وأقّر العادة المتبعة بالحج إلى مكة ولثم الحجر الأسود، وحُوّلت الصلاة من اتجاه القدس إلى القبلة باتجاه مكة.

في العام 628م سار محمد ومعه حشد كبير من المسلمين إلى مكة فأذعن القريشيّون لواقع القوة الناشئة، ووقعوا صلح الحديبيّة، ودخل نتيجة ذلك العديد من القريشيّين في الإسلام، وبعد سنتين في أواخر كانون الثاني سنة 8هـ/630م دخل محمد إلى مكة من دون اعتراض من أَحد، فعفا عن مخاصميه، وعلى رأسهم أبو سفيان وعائلته، فحطّم أصنامها وجعل من الكعبة ارضا حرامًا على المشركين (سورة التوبة).

في السنة التاسعة للهجرة حاول محمد جسّ نبض الحاميات البيزنطيّة على حدود شبه الجزيرة العربيّة، فوصل إلى تبوك وصالح صاحب آيلة (العقبة) النصرانيّ كما صالح قبائل اليهود في واحات اذرح ومقنا والجرباء. وفي السنة نفسها، وهي سنة الوفود، كثرت وفود القبائل التي كانت ترد إلى المدينة لتقديم الطاعة للنبي والدخول في الدين الجديد.

في السنة العاشرة للهجرة دخل محمد إلى مكة على رأس موكب الحج، فكانت حجّة الوداع، إذ مرض بعد ثلاثة أشهر ومات في الثامن من حزيران سنة 632م.

في الدور المكيّ أُنزلت السور القرآنية التي لها علاقة بالله واليوم الآخر وفي الدور المدنيّ جاءت السور لتنظيم أمور الصلاة والصوم والحج والزكاة والجهاد ومسائل الزواج، الخ.

عاش محمد حياة زُهد في الطعام والملبس والمسكن. تزوّج من نحو اثنتي عشرة امرأة. ولدت له خديجة أولاداً عديدين لم يعِش منهم إلا فاطمة زوج علي. ثم ولدت له ماريّا القبطيّة إبراهيم الذي لم يعش طويلاً.

يؤمن الإسلام بأن «لا إله إلا الله»، ومحمدًا رسول الله وخاتم النبيّين وبأن القرآن كلام الله والشرك أعظم الآثام والى كون يوم الدين أو الآخرة حقيقة يذهب فيها الإنسان إلى عذاب الجحيم أو إلى لذات النعيم.

أركان الإسلام الخمسة هي: الشهادة - الصلاة - الزكاة - الصوم - الحجّ - أضيف إليها الجهاد.

الفصل الأول:
الأوضاع السياسيّة - العسكريّة

أولاً - عصر الخلفاء الراشدين:
التوسُّع خارج الجزيرة العربيّة: الفتوحات في بلاد الشام

انقسم المسلمون عند موت الرسول حول خلافته إلى ثلاثة أحزاب: حزب المهاجرين من مكة إلى المدينة وغالبيّتهم من قريش وهم طلائع مَن آمن برسالته، وحزب الأنصار وهم أهل يثرب الذين اعتبروا أنّه لولا احتضانهم لهجرة المسلمين لما نجحت الرسالة، ثم توحّد هذان الحزبان تحت اسم الصحابة. والحزب الثالث يعتقد بأن زعامة الإسلام معقودة لعلي بالنص والتعيين، لا بالانتخاب والمبايعة. وحق الخلافة من الله.

ظفرت جماعة المهاجرين، فانتُخب أبو بكر أول خليفة على المسلمين، فأعلن للأمة الجديدة: «أيّها الناس. إنّ مَن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات. ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت».

كان على المسلمين مع وضع أول لبنة في مداميك الخلافة الإسلاميّة أن يجابهوا عالمًا حضاريًا قديماً تميّز بثروة ثقافيّة مميّزة بدأت مع سلسلة حضارات متعاقبة ووصلت إلى الذروة مع الحضارة اليونانيّة واستمرارها بشكل مضخّم مع الحضارة الرومانيّة التي عرفت تجربة أولى في روما ثم ثانية في القسطنطينيّة، كان للمشرق نصيب فيها في أنطاكية والرها والإسكندريّة وخصوصًا في بيروت. وبينما كانت المجاري الحضاريّة تنمو في المدن كانت الأرياف من جهة والبادية وما بعدها تعيش حياة ريفيّة زراعيّة وتختزن جماعات سيكون لها دورها في تحديد مصائر المشرق. كان على المسلمين الأوائل، وهم عربٌ مقارعة إمبراطوريّة رومانيّة شرقيّة تتآكلها الانقسامات الدينيّة، وإمبراطوريّة ساسانيّة في إيران وأجزاء كبيرة من العراق، وهما أسرى حروب أثكلتهما لعشرات السنين من 540م إلى 629م.

جابهت أبا بكر حروبُ الردة من قبل بعض الأعراب الذين اعتبروا، على الطريقة القبليّة، أنّ ولاءهم للرسول انتهى بموته، فارتدّوا عن الإسلام باستثناء الحجاز. وخلال ستة أشهر تمكّن خالد بن الوليد ومعه عمرو بن العاص، بقوة السيف، من إخضاع المرتدّين في اليمن واليمامة وعمان وحضرموت والبحرين.

ما أن توحّدت الجزيرة بعد القضاء على الردة حتى بدأ التوجه للخروج من الجزيرة وفتح البلدان المجاورة وكانت وراء هذا المشروع الكبير عوامل عدة:

ضعف الإمبراطوريّتين المتجاورتين للجزيرة البيزنطيّة وفارس بعد سلسلة حروب دامية ومدمّرة بينهما نجمت عنها زيادة منسوب الضرائب على كاهل الرعايا في كل منهما.

الصراعات الدامية بين الفرق المسيحيّة حول تحديد هويّة طبيعتي ومشيئتي السيّد المسيح، وحالة الكراهية التي كانت تؤججها جماعة المونوفيزيّين في سورية ومصر والنساطرة في العراق وفارس للدولة البيزنطيّة، مما جعل هذه الجماعة تقف موقف اللامبالي من غزو المسلمين لبلادهم.

وجود قبائل عربيّة في سورية والعراق تشعر بمودّة تجاه بني قومهم من القبائل العربيّة الغازية.

الدوافع المادية: دعا أبو بكر المسلمين للجهاد في سبيل نشر الدين الجديد ورغّبهم في غنائم الروم، فجاءه المسلمون إلى المدينة بين محتسِبٌ وطامع. مما يدل على أن دافع الكسب الماديّ كان ملازماً للدافع الدينيّ في ذهن المجاهدين. فأبو بكر على ما يذكره البلاذريّ رأى توجيه الجيوش إلى الشام فكتب «الى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب في نجد والحجاز يستنفرهم للجهاد ويرغّبهم فيه وبغنائم الروم فسارع الناس اليه من بين محتسِب وطامع وأتوا المدينة من كل أوب».

رأى أبو بكر، بعدما استتبّت السلطة له، إرسال جيوش المسلمين إلى الشام. فعقد في مستهلّ شهر صفر سنة13هـ/633م، ثلاثة ألوية لكلّ من عمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، في كلّ منها 3000 رجل. ولم يزل أبو بكر يتبعهم بالإمداد حتى صار مع كلّ أمير 7500 محارب، ثم تنامى جمعهم بعد ذلك أربعة وعشرين ألفاً.

وأمر أبو بكر عمرو بن العاص أن يسلك طريق آيلة (العقبة) إلى فلسطين، وأن يتّجه شرحبيل ويزيد إلى تبوك، ومنها يتفرّع أحد الألوية إلى الأردن، والآخر إلى دمشق. أمّا أبو عبيدة الذي أصبح القائد الأعلى للمسلمين في ما بعد، فقد جاء للمشاركة في الفتح على رأس بعض الإمدادات.

سارت جيوش المسلمين العرب لفتح بلاد الشام أولاً، حيث كانت الخلافة تتوقّع حدوث المعركة الحقيقية. واستغرق احتلالها ثلاث سنوات قبل الوصول إلى سواحل لبنان الحاليّ. فجرت معركة اليرموك في 21 آب عام 636 م فاتحة الطريق أمام احتلال بلاد الشام، ثم معركة القادسية في العام 637م التي سهّلت عليهم احتلال بلاد العراق فبلاد فارس. فكانت هاتان المعركتان فاصلتين ومدخلاً

لفجر جديد في تاريخ البلاد الشرقيّة، وشرّعتا أبواب بلاد الشام ومصر وأفريقيا والعراق وبلاد فارس وأجزاء أخرى من أوروبا والشرق أمام قيام «إمبراطوريّة» إسلاميّة ذات شأن، وتأسيس دولة جديدة ستعرف حضارة مشهوداً لها.

أول احتكاك عسكريّ بين القوات القادمة من شبه الجزيرة العربيّة والروم البيزنطيّين كان في وادي عربة جنوبيّ منخفض البحر الميت، فانتصر فيه يزيد على سرجيوس بَطريق فلسطين ثم تابع يزيد مطاردة القوات المنكفئة إلى غزة فتغلّب عليهم ثانية عند قرية داثن في 4 شباط 634م. وتزامناً مع إرسال هذه الفرق الثلاث أرسل خالد لإلهاء الجند في العراق بفرقة من خمسمئة جندي ومعهم بنو شيبان من قبيلة بكر المقيمين على حدود فارس. وبسرعة قصوى تمكّن خالد وحليفه المثنى ابن حارثة سيّد شيبان من السيطرة على الحيرة في العراق، عاصمة الملوك اللخميين. كما تمكّن خالد من فتح عين التمر بالقرب من الكوفة.

أثناء هذه الفتوحات السريعة جاء إلى خالد كتاب أبي بكر يأمره بالالتحاق بجيوش المسلمين في الشام. ولما كانت العودة إلى المدينة ستأخذ وقتاً طويلاً ففضّل القيام بمغامرة خياليّة لاجتياز قلب الصحراء انطلاقاً من الحيرة في آذار 634م بطريق لا يعتمده أيّ من أهل البادية وصولاً إلى واحة دومة الجندل (الجوف)، ومنها إلى وادي السرحان فالى بُصرى فقراقر ثم سوى. ويتطلّب السير من قراقر إلى سوى خمسة أيام في بادية قاحلة. بالكاد كان يعرف البدو مواقع عيون الماء في هذه المسيرة القاحلة، فحالفه الحظ بأحد بني قبيلة طي كان قد رافق جدّه صغيرًا الذي حلّ له المشكلة. فقد كان خالد يستكثر من الماء الذي حمله معه والخيل يسقيها من أكراش الجمال المعبّأة بالماء نظرًا لأنّ لها إمعاء عدّة تختزن الماء. فكان ينحر الجمال فيأكل من لحمها جنده ويشرب الخيل من الكروش، وتمكن ابن طي من اكتشاف عين ماء قرب شجرة عوسج أرجعته بالذاكرة إلى ما رآه أيّام جدّه، فاحتفر الجند الأرض فوجدوا عينًا شربوا منها هم وخيلهم وجمالهم مما سمح لهم بمتابعة السير إلى جوار دمشق بعد رحلة دامت ثمانية عشر يومًا.

وصل خالد إلى مرج راهط فأغار على الغساسنة في يوم عيد الفصح فغلبهم وتوجه إلى بُصرى عاصمتهم فالتقى بالجيوش العربيّة التي كانت قد حققت نصراً على الروم في معركة أجنادين (أجنادين مكان مجهول لعله بين غزة والقدس) في 30 تموز سنة 634م. وبوصوله إلى بُصرى اتفق القادة المسلمون على تأمير خالد عليهم فبادر إلى احتلال المدينة صلحًا، ثم سقطت فِحل (فَحل)

صلحًا في 23 كانون الثاني سنة 635م وهو حصن على معبر الأردن ثم هزموا جيش الروم في مرج الصفّر في 25 شباط سنة 635م فانفتحت أمامه طريق دمشق.

فلما فرغ المسلمون من قتال من اجتمع لهم بمرج الصفر أقاموا خمس عشرة ليلة ثم رجعوا إلى مدينة دمشق في 14 محرّم سنة أربع عشرة، فأخذوا الغوطة وكنائسها عنوة وتحصّن أهل المدينة وأغلقوا بابها فنزل خالد بن الوليد على الباب الشرقيّ في زهاء خمسة آلاف ضمهم إليه أبو عبيدة، ويقال إنّ خالدا كان أميراً وإنما أتاه العزل وهو محاصِرٌ دمشق، وسمّى الدير الذي نزل عنده بدير خالد. ونزل عمرو بن العاص على باب توما وشرحبيل على باب الفراديس وأبو عبيدة على باب الجابية ويزيد على الباب الصغير إلى الباب الذي يُعرف بكيسان. وتمكّن خالد وأبو عبيدة من دخول المدينة كل بطريقة مختلفة والتقيا بالمقسلاط وهو موضع النحّاسين بدمشق. ووقّع خالد الصلح مع أسقف المدينة أجازه أبو عبيدة وأمضاه، لأنّ خالدًا فقد شرعيّة السلطة نتيجة عزله. وينص الصلح على الآتي «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها: أعطاهم أمانًا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يُهدَم ولا يُسكن شيءٌ من دورهم... لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية».

بلغت الجزية عند فتح خالد لدمشق دينارًا وجريبًا من الحنطة على الرجل ثم رفعها عمر بن الخطاب لاحقاً.

وقيل إن خالد صالح على أنصاف كنائسها ومنازلها فيردّ البلاذريّ مؤرخ الفتوحات على هذا الادعاء قائلاً: «وقال محمد بن سعد: قال أبو عبدالله الواقديّ: قرأت كتاب خالد بن الوليد لأهل دمشق فلم أرَ فيه أنصاف المنازل والكنائس. وقد روى ذلك ولا أدري من أين جاء به مَن رواه. ولكن دمشق لما فتحت لحق بشر كثير من أهلها بهرقل وهو بأنطاكية، فكثرت فضول منازلها...»، فنزل فيها المسلمون ويبدو أن هذه الفضول قاربت النصف فاعتقد بعض رواة الفتوح أن الصلح جرى على النصف.

بعد دمشق تمكّن العرب من فتح بعلبك، ولنا عودة إلى فتح بعلبك بالتفصيل، وحمص وحماه ثم شيزر (لارسا).

حشد هرقل جيشاً من خمسين ألفاً وعلى رأسه أخوه ثيودوروس. ولما كانت أعداد الجيش الإسلاميّ زهيدة بالقياس إلى عدد جيش الروم قرّر خالد إجلاء الجيش مؤقتًا عن المناطق التي كان احتلّها بانتظار الظروف المؤاتية التي تسمح له باتخاذ المبادرة بتحديد زمان المعركة ومكانها بما يتناسب مع أهليّة عرب البادية المكوّنين للجيش.

فالمكان المناسب هو حدود البادية والزمان هبوب رياح الخمسين الحارّة وما تحمله من غبار كثيف تعوّد عليه العرب. لذلك عمد خالد إلى تأجيل زمان المواجهة بانتظار الظروف المؤاتية المذكورة أعلاه. فقام بعملية إلهاء بانتظار شهر آب مقيماً مع خمسة وعشرين ألفًا من جنده في وادي نهر اليرموك، أحد روافد نهر الأردن. وفي 20 آب سنة 636م في يوم حار جدًّا شديد القيظ، شنّ البدو هجومَهم من دون أن تثنيهم الحرارة والغبار المعتادين عليهما عن عزمهم وهم وخيولهم تلبس ما خفّ من اللباس، بينما كان الروم يكادون يختنقون تحت خوذهم ودروعهم من الحديد. وبذكائه الاستراتيجي الفذّ فتح خالد طريقًا إلى النهر وفي طرفه فرقة من الجيش فكان الروم على متن أحصنتهم يلهثون وراء مجرى الماء فيصطادهم البدو كرفوف العصافير.

قتل ثيودوسيوس ومعه الآلاف من جيشه وهربت البقية الباقية فرحل الإمبراطور هرقل عن بلاد الشام مفسحًا الطريق أمام انتشار الفتح في بلاد الشام بسرعة قصوى حتى حدود مدينة أنطاكية. وبذلك يكون خالد بن الوليد قد سجّل مأثرة استراتيجية تعادل مآثر الإسكندر المقدوني وهنيبعل الفينيقي ونابليون لاحقًا الذين تميّزوا بحُسن تحديد مكان المعركة وزمانها. ولكن لم يحصد خالد بن الوليد ثمن النصر نتيجة عزل عمر بن الخطاب له من قيادة الجيش فمات فقيرًا معدمًا في حمص من دون أن يرى الذي جاء من أجله فاتحًا الطريق أمام 1500 سنة من التاريخ الإسلاميّ في العالم.

توفّي أبو بكر أثناء التهيئة للمعركة وحلّ محله في الخلافة عمر بن الخطاب فكتب إلى أبي عبيدة بن الجراح الذي رافق الجيوش الثلاثة الأولى التي قدمت لفتح بلاد الشام وكانت وظيفته إمدادها بالعسكر، ينبئه بموت الخليفة أبي بكر وتكليفه بقيادة الجيوش وبعزل خالد. فالخليفة عمر كما تجاهر به الروايات التقليدية كان يُضمِر العداء لخالد لأنه أثناء حروب الردّة وأثناء مبارزته لأحد قادتها تعامى عن سماع نطق ذلك الرجل بالشهادتين وقتله عندما سقط عن جواده لأنه كان مفتنًا بزوجته. أما السبب الحقيقي في رأيي فهو تخوّف عودة خالد من نصر أسطوري كان سيقلب الناس للمناداة به خليفة، كما يحصل ذلك دائماً في التاريخ.

طوى أبو عبيدة خبر عزل خالد أثناء المعركة لأنّ ذلك سيتسبّب بانشقاق جيش المسلمين وخسارتهم حلم المعركة التي يُفترض أن تكون مدخلهم إلى بلاد الشام وغيرها من البلدان. وما إن تقدّم خالد لمتابعة الفتح بعد النصر حتى أبرز له أمر الخلافة، فتسلّم أبو عبيدة القيادة فسقطت دمشق وسقطت أنطاكية وحلب وسائر مدن شمال بلاد الشام وبصعوبة افتتحوا قنسرين (كلس).

فتح شرحبيل بن حسنة الأردن عنوة وطبريّة صلحًا على أن يأمن لأهلها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكنائسهم ومنازلهم إلا ما جلوا عنه وخلّوه. واستثنى لمسجد المسلمين موضعاً. ثم أنهم نقضوا في خلافة عمر واجتمع اليهم قوم من الروم وغيرهم، فأمر أبو عبيدة عمرو بن العاص بغزوهم. ففتحها على مثل صلح شرحبيل ويُقال بل فتحها شرحبيل ثانية. وفتح شرحبيل جميع مدن الأردن وحصونها على هذا الصلح فتحًا يسيرًا بغير قتال ففتح بيسان وسوسية وأفيق وجرش وبيت رأس وقدس والجولان وتغلب على سواد الأردن وجميع ارضها. كما فتح عكا وصور وصفورية. ثم نقل معاوية قومًا من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن إلى صور وعكا وغيرها سنة إثنتين وأربعين ونقل من أساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص إلى أنطاكية

أولى المناطق التي فُتحت من السواحل كانت مدينة صور، ومناطق جنوبيّة أخرى، في أواخر عام13هـ/ 634 م إبّان عمليات فتح سواحل الأردن.

كانت بعلبك ومعها البقاع، ولا تزال حتى اليوم، الطريق الاستراتيجي لمرور الجيوش بين سورية وفلسطين. بالإضافة إلى ذلك كانت تتحكّم في آن معاً بالأرياف المحيطة بها وفي الطريق الرئيسيّة التي تربط دمشق بحمص.

فلأسباب جغرافية وعسكريّة، كان على القوات الإسلاميّة - العربيّة إلا تُهمل بعلبك، المدينة التي شكّلت إحدى القواعد البيزنطيّة التي اعتُمدت لصدّ موجة الفتح.

كانت بعلبك مدينة تجاريّة مهمّة بدليل أنّ الواقديّ، وهو أقدم مؤرخي الفتوحات، يذكر في روايته لفتح المدينة أنّ جنود المسلمين استولوا على قافلة كانت قادمة من الساحل إلى بعلبك وفيها أربعمئة حمل من السكّر والفستق والتين وغير ذلك. وهذا ما يبرز قيمة المدينة في صناعة الحلوى التي اشتُهرت بها، وكانت سابقة للعهد الإسلاميّ.

وبالنسبة إلى البلاذريّ (ت279هـ/ 892م) فإن أبا عبيدة فتح بعلبك نهائيّاً مع أرض البقاع، عندما سار إلى افتتاح حمص في أواخر سنة 635 م فسقطت المدينة بيده وكتب إلى أهلها عهداً جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب أمان لفلان بن فلان. وأهل بعلبك رومها وفرسها وعربها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم داخل المدينة وخارجها وعلى أرجائهم. وللروم أن يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلاً ولا ينزلوا قرية عامرة، فإذا مضى شهر ربيع وجمادى الأولى ساروا إلى حيث شاءوا. ومن أسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا. ولتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها وعلى مَن أقام منهم الجزية والخراج. وشهد الله وكفى بالله شهيداً».

هذا النصّ يوضّح بتراتبية متسلسلة العناصر الإتنية المتباينة التي كان يتألّف منها النسيج السكاني في بعلبك. فالأكثريّة هي من الروم، وفي درجة ثانية يأتي الفرس، وفي درجة ثالثة العرب، الذين بحسب نصّ الواقديّ، كانوا لا يحسنون التكلّم بالعربيّة بل باليونانيّة. بالإضافة إلى ذلك، يشكّل هذا النصّ أحد النماذج الواضحة لاتفاقيّات الذمّة التي عقدت بين المسلمين وأهل الكتاب (المسيحيّين واليهود والصابئة...) والتي تعطي الحرية للمعاهدين في الحفاظ على أنفسهم وأملاكهم ومنازلهم ودور عبادتهم ونشاطاتهم الاقتصاديّة (مثلا هنا، المطاحن والتجارة...)، لقاء تقديم الجزية والخراج.

وهكذا، فتح أبو عبيدة بعلبك صلحًا، وأعطى أهلها الأمان.

في رواية المؤرخ البيزنطيّ تيوفانس - وهو سابق للمؤرخين العرب - بعد النصر الحاسم الذي حققه العرب في معركة اليرموك ساروا إلى دمشق فأخذوها وأخذوا أرض فينيقيا.. ويُخبر البلاذريّ أنّ في عام 14هـ/635م، بعد فتح دمشق، أتى يزيد وعلى مقدّمته أخوه معاوية بن أبي سفيان إلى صيدا وعرقا وجبيل وبيروت، وهي سواحل، ففتحها فتحاً يسيراً، أي سهلاً صلحًا، وجلا كثير من أهلها. وتولّى فتح عرقا معاوية نفسه.

وإثر الفتح جاء معاوية بفرس وأسكنهم في بيروت، فازدهرت الزراعة فيها من جديد ونشطت حركة التجارة الداخلية مع دمشق ومن ثمّ مع مصر.

أمّا سقوط طرابلس فقد تمّ في عام 25 هـ/645م، على يد سفيان بن مجيب الأزدي، إبّان ولاية معاوية على الشام زمن خلافة عثمان بن عفّان (23 - 35هـ/ 644 - 656م). ورواية أخرى تجعله في 18 هـ في زمن سابق لعهد عمر بن الخطاب (13 - 23هـ/634 - 644م).

واستردّ الروم المدن الساحليّة بواسطة أساطيلهم، ولكن معاوية تمكّن من إعادة فتحها.

وهكذا، لم تمضِ إلا سنوات قليلة حتى فُتحت بلاد الشام وفلسطين ومصر والعراق وفارس في زمن خلافة عمر بن الخطّاب، وتواصل الفتح في أيام عثمان بن عفّان وفي ظلّ الخلافة الأمويّة. وكان لمعاوية الدور الأول والأساس في فتح المدن الساحليّة اللبنانيّة التي تبعت جند دمشق، ما عدا صور التي تبعت جند الأردن، كما رأينا ذلك سابقًا.

ولم تسقط القدس إلا في سنة 638 م وقيسارية في 640 م. هكذا بين 633م و640 فُتحت بلاد الشام بالكامل.

نتيجة هذا الفتح اليسير، أي السهل والفتح صلحاً قدم الخليفة عمر إلى الجابية قرب اليرموك لتنظيم شؤون الفتح ثم جاء إلى القدس بعد فتحها، وأكد على الصلح مع أهلها والتقى ببطريركها صفرونيوس.

إثر الفتح ضرب طاعون بلدة عمواس وفتك بآلاف الجند وبابي عبيدة. فكتب الخليفة إلى يزيد بن أبي سفيان بالقيادة فما لبث أن أصابه الطاعون أيضاً فانتقل ت ولاية الشام إلى أخيه معاوية. قسمت البلاد المفتوحة إلى ثلاثة أجناد: جند دمشق، جند الأردن، جند فلسطين أما جند قنسرين في شمال بلاد الشام فأضيف في عهد الخليفة الأمويّ يزيد بن معاوية.

فتح العراق وبلاد فارس

عندما ترك خالد بن الوليد العراق، بعد النصر السريع الذي حققه فيها، وأخذه للحيرة، كلّف مساعده المثنى بن الحارثة من بني شيبان بمتابعة الفتوحات هناك. فجرت بين الفرس وفرقة المثنى معركة الجسر قرب الحيرة في 26 تشرين الثاني سنة 634م. كان النصر فيها للفرس. هذه الخسارة لم تفتّ من ساعد المثنى الذي هاجم الفرس في تشرين الثاني من السنة التالية فانتصر عليهم في معركة البويب على الفرات. برغم هذا النصر، فضّل الخليفة عقد القيادة لرجل من الصحابة المرموقين هو سعد بن أبي وقاص الذي خرج ومعه ستة آلاف رجل، فاعتمد سعد الخطة العسكريّة نفسها التي

استعملت في اليرموك باختيار يوم شديد الحر كثير الغبار في أواخر أيار أو أوائل حزيران من العام 637م، فآلت النتيجة في معركة القادسية، قرب الحيرة، إلى مقتل رستم قائد الفرس وانفتاح بلاد ما بين النهرين أمام المسلمين. ومن القادسية سار سعد إلى المدائن عاصمة الفرس، فأخذها وتوقّف عند نهر دجلة الذي كان في أعلى درجات فيضانه، ثم دفعته الحمية إلى اجتياز النهر إلى ضفته الشرقيّة. وبعد أن استمتع سعد وجنده بترف إكسرى جاءه الأمر من الخليفة عمر باتخاذ الكوفة مقرًا للجند.

بعد فتح المدائن لحق جند المسلمين بجيش يزدجرد الساسانيّ، ملك الفرس، الذي تحصّن في جلواء، فطردهم المسلمون منها آخر سنة 637م. ثم فتحت الموصل في سنة 641 على يد عياض بن غنم، وجرت موقعة نهاوند بالقرب من همذان ثم تمّ احتلال خوزستان (عيلام) وعربستان سنة 640م. واحتلّ المسلمون أجزاء أخرى من بلاد فارس، وعلى رأسها اصطخر (برسبوليس) سنة 649 - 650م. ومنها توجّهوا إلى خراسان ووصلوا إلى إقليم ما وراء النهر (سيحون وجيحون أو أموداريا وسرداريا). وانتهى الأمر بيزدجرد، بعد سلسلة الانكسارات التي مُني بها، بمقتله على يد جنده في سنة 651م.

اتُخذت الكوفة مقرًا للجند ولقيادة العراق وبلاد فارس، وشادوا فيها بيوتًا ثابتة من اللبن بعد أن كان الجند يسكنون في تجمّعات من قصب، واتخذَ سعد لنفسه منزلاً فخماً قلّد فيه أبنية المدائن.

عُيّن للعراق واليان بعد الفتح، أحدهما عن الكوفة والثاني عن البصرة. فكانت إدارة أمير الكوفة تشمل البلاد في أواسط العراق وشماليّه كما تشمل الأقاليم الشماليّة من الهضبة الإيرانية بما فيها همذان وقزوين والري وأصفهان. أما أمير البصرة فكانت سلطته تشمل المناطق الجنوبيّة في العراق والأحواز وفارس وكرمان ومكران وسجستان وخراسان.

كانت الكوفة والبصرة مركزَيْ الجذب الإداريّ والحضاريّ في العراق في العهد الأمويّ. ولكن، في أواسطه، شهد العراق تأسيس ثالث مدنه الرئيسة، عندما طلب الحجاج بن يوسف الثقفي، في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، تأسيس مدينة جديدة تتوسّط العراق، لأن أهل الكوفة كانوا غير متعاونين معه، فكانت مدينة واسط التي بوشر البناء بها مع بداية العقد التاسع من القرن الأول الهجريّ. فبنيت فيها دار للإمارة والمسجد الجامع ملاصق لها، وجُعل بينها وبين خطط الناس، مكان خلاء، وجُعل خطط الناس المهنية في مكان، وخطط الهوية الجغرافية في مكان آخر. والخطط في

العراق هي الأراضي التي وزعت على المقاتلة، فكان لكل عشيرة مساحة من الأرض تسمى «خطة». وقد احتفظت واسط بمركزها الإداريّ في العهد الأمويّ وتوسّعت في العهد العبّاسيّ.

ج - نتائج الفتح

الفتح صلحاً

بعض المناطق من بلاد الشام فتحت عنوة وبعضها بسهولة. والفتح الأخير هو ما عُرِفَ باسم الفتح اليسير، بغير قتال، أي بصلح. وللصلح مفاعيله الشرعيّة والقانونيّة على صعيد الملكيّة العقارية والعلاقة مع أهل البلاد المفتوحة.

وهناك شبه إجماع، عند الفقهاء، على أنّ مدن الشام فُتِحت صلحاً والرساتيق لا عنوة ولا صلحاً، ولكنّها عوملت كالمدن.

نقل السكان

عندما كان يتمّ الصلح، كانت نصوصه تستثني منه ما جلا عنه المغلوبون وأخلوه من منازل وأملاك وأوقاف. وبنتيجة فتح سواحل المشرق، جلا عدد من أهلها ولحق بالبيزنطيّين. هذا الفراغ استتبع من قبل المسلمين عملية إسكان، كان لمعاوية الفضل الأساسيّ فيها منذ زمن الخليفة عثمان. لذلك، عمد معاوية إلى ترميم السواحل، وإسكان الناس فيها، فنقل إلى السواحل فرس بعلبك، بالدرجة الأولى إلى منطقة صور، وكذلك إلى عرقا وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا، وانتقل أُناس مجهولة هويتهم وغير محدّدة إلى السواحل من كلّ صوب، وأسكن اليهود طرابلس، كما أسكنهم معاوية أيضاً صور، وجاء بهم من الأردن.

شحن السواحل بالمقاتلة وإقطاع المنازل والأراضي الخالية لتشجيع الناس على السكن وزّع معاوية القطائع على الجند.

القطيعة، جمعها قطائع، هي قطعة من الأرض عائدة للدولة (ارض العشر) تعطى لعربيّ لإحياء مواتها. ويدفع مَن يحصل عليها الزكاة (مقدارها قرابة العشر) وهي أقلّ من الخراج، ويحصّل لنفسه موجبات الشركاء العاملين عنده من دون أن يكون له عليهم أيّ حقّ عام.

وأول فتح للسواحل، لم يأخذ في الاعتبار إمكان عودة الروم إليها لاسترجاعها. فبعد فتح معاوية لها، عاد الروم إليها، وتغلّبوا عليها في أواخر خلافة عمر بن الخطاب أو أول خلافة عثمان. فاضطر معاوية إلى إعادة فتحها ثانية. ولإغلاق الباب أمام احتمالات عودة الروم مجدداً، شحنها بالمقاتلة.

تصنيف الأرض: عشر أو خراج

ونتج عن عملية الفتح تصنيف للارض المفتوحة، فكانت أرض العشر ما جلا عنه أهله وأخلوه فأُقطع للمسلمين لإحيائه، وكان مواتاً لا حقّ فيه لأحد. والأرض الخراج، ما بقي بأيدي المعاهدين، أي أهل الكتاب.

ثمّ ثبت وضع الأرض على أساس الكيفية التي تمّ فيها الفتح، بغضّ النظر عما آلت إليه ملكيّة الأرض، في ما بعد، كما سنرى ذلك لاحقاً في الفصل العائد للعهد العبّاسيّ.

د - نهاية الخلافة الراشدة مع علي والنزاع مع معاوية

اعتمد زعماء المسلمين الشورى في انتخاب مَن سيخلف الرسول إثر وفاته، فانتُخب أبو بكر وبويع له في 8 حزيران سنة 632م. بمن حضر إلى المدينة من زعماء المسلمين، برغم عدم مشاركة علي بن أبي طالب لانشغاله بدفن الرسول. ثم بويع عمر بالخلافة في العام 634م. واستمرّ حتى العام 644م. تاريخ اغتياله، ثم من بعده بويع عثمان في 644م. وعند اغتياله بويع علي بن أبي طالب، ابن عم الرسول، وزوج ابنته فاطمة في 24 حزيران سنة 656م. ومنذ انتخاب أبي بكر، كان المؤيّدون لعلي معترضين على الانتخاب بالشورى، لأنّ الإمامة لعلي مثبتة بالنص والتعيين من الله ورسوله.

رفض طلحة بن عبدالله والزبير بن العوام وهما من الصحابة المميّزين الاعتراف بخلافة علي. وكانت عائشة أمّ المؤمنين تكنّ العداء له، فأيّدت مقاومي خلافته. اضطرّ علي لاستعمال القوة في قمع رفض منافسيه له، فجرت معركة بينه وبينهم في 9 كانون الأول، عرفت بيوم الجمل، وعرفت بذلك لأنّ عائشة كانت تؤلب الثائرين من على ظهر جمل راكبة عليه. وآلت المعركة إلى مقتل طلحة والزبير.

سيطر علي على الوضع بعد النصر واتخذ من الكوفة عاصمة له، ولكن معاوية كان له بالمرصاد، فرفض مبايعته واتهمه بالتأليب على مقتل عثمان، وألصق به تهمة قتله وجعل من قميص المغدور

الملطّخة بالدماء (قميص عثمان) حجة لتأليب الناس ضد علي. فانقسم المسلمون بين أغلبية مؤيدة لعلي في العراق، وأخرى لمعاوية في الشام.

نجم عن هذا الانقسام معارك بين الطرفين فجرت معركة في صفّين، شمال مدينة الرقة على نهر الفرات، وبعد مناوشات لأسبوعين هجم أهل العراق في 26 تموز 657م. على أهل الشام وكان النصر حليفهم، فاستدرك الداهية عمرو بن العاص الأمر، وأشار على معاوية برفع المصاحف على أسنّة الرماح، فأوقف علي القتال حقناً للدماء، والاحتكام إلى كتاب الله، والتحكيم بين القائدين المتخاصمين. وعُقد مؤتمر لهذه الغاية في اذرح بين معان والبتراء في كانون الثاني سنة 659م.

انتَدَب علي أبا موسى الأشعري لتمثيله في التحكيم، ومعاوية عمرو بن العاص، وبنتيجة المفاوضات اتفق المتفاوضان على خلع علي ومعاوية وجعل الأمر شورى بين المسلمين. وتذهب الروايات المتأخّرة في الزمن بأن عمرو أقنع أبا موسى بأن عليه التقدم أولاً لإعلان النتيجة، احترامًا لكبر سنّه. وفي إعلان النتيجة أعلن أبو موسى ما اتفق عليه مع عمرو وخلع علياً ومعاوية أما عمرو فثبت معاوية في الخلافة وخلع عليًّا. مهما يكن من صحة الرواية، فالمعروف أن عليًا خسر جولة التحكيم، لمجرد أنه قبل به وهو خليفة شرعيّ، بينما كان معاوية مجرد أمير على ولاية الشام. وهو لم يَدّعِ الخلافة إلا بعد سنتين على التحكيم في عام الجماعة سنة 661م في ايلياء (القدس).

كان على علي مجابهة خطر آخر بعد التحكيم من بعض أعوانه. هو خطر الخوارج الذين اعتبروا بأنه شكّك في ولاية الله له، فخرجوا عليه وهم ينادون أن «لا حكم إلا لله». سار هذا الفريق إلى العراق وعليهم عبدالله بن وهب الراسبي، فهاجمهم علي على ضفة النهروان، وفتك بالعديد منهم، ولكن هذه الكسرة القاسية لم تزحزح الخوارج عن متابعة الممانعة للسلطة في ظل الدولة العبّاسيّة. وإذ ضعفت مقدّراتهم العسكريّة، أرتأوا أن الحل لمجابهة السلطة هو في اعتماد سياسة الاغتيال لقادة المسلمين المتخاصمين معاوية ومعه حليفه عمرو بن العاص من جهة وعلي من جهة أخرى. نجح هؤلاء باغتيال علي على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم ونجا الإثنان الآخران. ودفن علي في النجف وبموته ازداد رفعةً على ما كان عليه في الأساس في حياته وأضحت النجف مركز حجّ شيعيّ يلي مكة، والمركز الشيعيّ الدينيّ الأعلى.

ثانياً - الخلافة الأمويّة

معاوية (41 - 60هـ/ 660 - 680م)

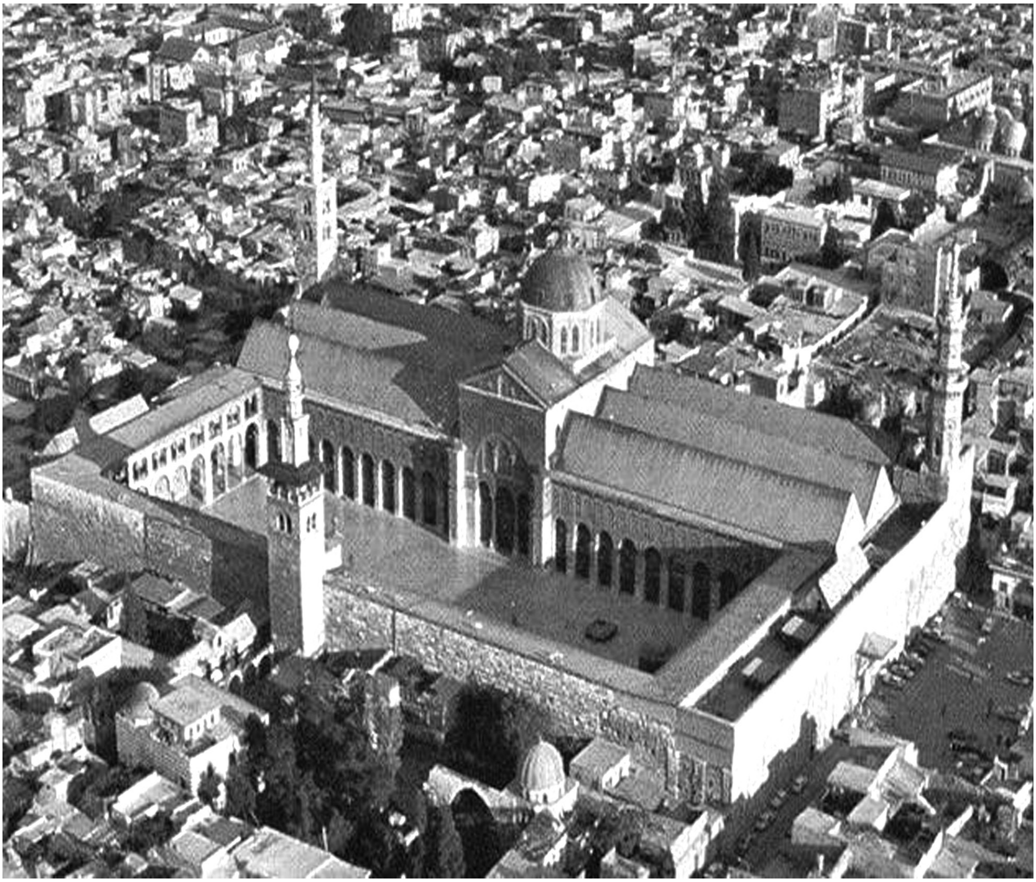

الجامع الأموي - دمشق

بدأت علاقة الأمويّين ببلاد المشرق مع الفتح الإسلاميّ - العربيّ، كما رأينا سابقاً. وتوثّقت هذه العلاقة بعد تعيين معاوية واليًا على بلاد الشام، ثمّ ارتقائه سدّة الخلافة واختياره دمشق عاصمة لدولته.

أسهم تكليف يزيد بقيادة إحدى فرق الجيش المتّجهة لفتح الشام، زمن أبي بكر، ثمّ إبقاؤه في القيادة، زمن عمر، ومعه أخوه معاوية، الذي سيحلّ محلّه إثر وفاته، واستمرار معاوية في إدارة الشام كلّه، زمن عثمان، في تأكيد سلطته وتركيزها في تلك البلاد، بحيث حصد نتيجة ذلك، إبان نزاعه مع الخليفة الراشدي الرابع عليّ بن أبي طالب بعد مقتل عثمان بن عفّان، وسمح له بالفوز بالخلافة وبتأسيس دولة وراثيّة سيحكمها من بعده أبناؤه وأنسباؤه من الأمويّين من 661م. إلى 750م.، عبر سلالتين: الأولى السفيانيّة التي أنجبت معاوية الأول (41 - 60هـ/ 660 - 680م)، وإبنه يزيد الأول (60 - 64هـ/ 680 - 683م) وحفيده معاوية الثاني (64هـ/ 683 - 684م) الذي حكم بضعة أشهر معتلاً وتوفي بمرض الطاعون. والسلالة الثانية المروانيّة نسبة إلى الخليفة الأمويّ الرابع مروان بن الحكم، وأنجبت مروان المذكور (64 - 65هـ/ 684 - 685م) وعبد الملك بن مروان (65 - 85هـ/685 - 705م) والوليد بن عبد الملك (86 - 96هـ/705 - 715م) وأخاه سليمان (96 - 99هـ/715 - 717م) وإبن عمّه عمر بن عبد العزيز (99 - 101هـ/717 - 720م)، ويزيد بن عبد الملك (101 - 105هـ/720 - 724م) وهشام بن عبد الملك (105 - 125هـ/ 724 - 743م) والوليد بن يزيد (125 - 126هـ/ 743 - 744م) ويزيد الثالث (744م) وإبراهيم (744م) ومروان بن محمد (127 - 132هـ/744 - 750م).

وبعد أن أمسك بزمام الأمور ولكي يضمن البقاء لدولته، استحدث معاوية نمطاً جديداً في ممارسة السلطة، فأقام في دمشق وأبقى نظام حكم الدولة الإسلاميّة الذي سبقه واعتمد على رجال أقوياء أكفاء دهاة لحكم الأمصار، وحظي على تأييد كامل من أسرته، واستأنف الفتوح وحركة الجهاد وألهى العرب عن الفتنة التي عانى الأمرّين منها، وإن يكن قد خرج منها ظافرًا. كانت دمشق وسط منطقة ريفيّة غنية زراعيّا، وقريبة من شواطئ المتوسط المفتتحة حديثاً، والتي كانت تشكل الخطر الفعلي على أيّة عملية استرداد بيزنطية للمشرق.

تمكّنت هذه الدولة من أن تحقق أكبر فتوحات عرفها التاريخ الإسلاميّ، إذ تمّ فتح الشرق حتى حدود الصين وشمال أفريقيا والأندلس، كما هدّدت القسطنطينيّة في عقر دارها منذ أن عمد معاوية إلى محاصرتها.

وقبل، تنعّمه بالسلطة وبعدها، جابهت معاوية مشكلات متعدّدة كان أهمها صراعه مع الخليفة الإمام علي ومع البيزنطيّين وقد تمثّل في مشاكل داخلية أثارها وجود الجراجمة - المردة، وصراع بريّ - بحريّ برز في الحملات البرّية في حرب الثغور، وفي الصوائف والشواتي وحصار القسطنطينيّة وفي التنافس البحريّ على شواطئ البحر وعلى جزر المتوسط، وفي المحاولات الأولى لبناء الدولة. هذه هي بعض الوجوه المعروفة التي طبعت عهد معاوية، أحد أبرز وجوه رجالات الدولة الذين أنجبهم الإسلام، في حكمه للدولة الأمويّة.

بمقتل الخليفة علي لم يبقَ أيّ منافس جديّ لمعاوية، فبويع بالخلافة في40هـ/ 661م فلم يرق الأمر لشيعة علي فبايعوا الحسن ابن علي خليفة، وانقسم المشرق بين غالبيّة شاميّة موالية لمعاوية وعراقيّة موالية للحسن، وكانت مكة والمدينة في ولاء فاتر للإثنين.

عمد معاوية إلى استدراج الحسن لصالحه، مراعياً ميوله المادية والنسائية، متنازلاً له عن ضياع وأموال وعطاء وافر من بيت مال الكوفة، فتنازل له عن الخلافة، واعتزل في المدينة حيث سيلقى مصرعه مسموماً على يد بعض نسائه، بدسيسة، لربما من معاوية.

وشهد عهد معاوية نشاطًا في صناعة السفن لإنشاء الأسطول الإسلاميّ وكانت مدينة عكا في البدء مركز هذه الصناعة التي انتقل ت لاحقًا إلى مدينة صور.

كان أهل الشام، وأكثرهم من النصارى وزوجته ميسون من بني كلب منهم، ركيزة سلطة معاوية. ولقد استعان بهم في تنظيم إدارته الحكومية التي كان كتّاب الديوان فيها هم أنفُسهم الذين عملوا في الديوان البيزنطيّ السابق. أرسى معاوية السلطة على قواعد جديدة، فأدخل مبدأ الوراثة، بحيث يُرشّح الخليفة مسبقًا مَن يرى أنه الأنسب من أبنائه لتبوّء ولاية العهد، ويحمل الناس على مبايعته. قرّب معاوية المسيحيّين إليه فتولى رجالهم بيت المال، ومنهم منصور ابن سرجون الذي كان يقوم بالمهمة نفسها زمن البيزنطيّين. وكان طبيبه نصرانيًا، وكان القديس يوحنا الدمشقيّ مقرباً من ابنه يزيد. والشاعر الأخطل كان مسيحياً وشاعر البلاط. ويُروى أنه كان يدخل على الخليفة عبد الملك، والصليب في عنقه ولحيته تنقط خمراً.

وعُرف عن معاوية الحنكة والدهاء السياسيّ حتى أضحى مثلاً فجعل بينه وبين الناس «شعرة معاوية التي لا تنقطع»، فإذا أرخى منافسوه شدّ عزيمته وإذا شدّوا أرخى من جهته «إذا مدّوها خلّيتها وإذا خلّوها مددتها».

انتهج معاوية سياسة عدائية تجاه الروم البيزنطيين لإبعاد أيّ حلم لهم بالعودة إلى الديار التي خسروها في المشرق. في البدء، لدرء الفتن الداخلية التي كانت تعصف بسلطته نتيجة التزاحم على مركز الخلافة اعتمد سياسة الصلح مع الروم، ودفع لهم جزية سنويّة، ثم عمد إلى الإغارة على أراضيهم. وتنظمت الإغارة في حملات سنويّة عرفت بالصوافي، وكانت جبال طوروس حاجزًا وسورًا طبيعيًا يفصل بلاد الإسلام عن بيزنطية.

كما اعتمد معاوية على بناء أسطول بحريّ مكّنه من مقاتلة الروم وعلى رأسهم ابن هرقل (كونستانس) والانتصار عليهم في معركة حملت اسم ذات الصواري سنة 34هـ/655م. في فينيكس (فنكي) على ساحل ليسا.

لا تقدّم لنا المصادر عن هذه الحقبة سوى وقائع عسكريّة، وتحديداً وقائع مرتبطة بالكرّ والفرّ في التنافس العربيّ - البيزنطيّ العسكريّ.

منذ ما قبل الحكم الأمويّ، في عهد الخلافة الراشدة، بدأ التنافس البحريّ العربيّ - الإسلاميّ مع البيزنطيّين، وكان هذا التنافس جزءاً من حركة الفتوح، ومن أسطع مظاهره تمكُّن معاوية في عام 32هـ/652م من غزو مضيق القسطنطينيّة. وقد مهّدت لذلك جملة نجاحات لمعاوية منذ العام 27هـ/647م عندما بدأت مشاريع غزوه لقبرص. ففي عام 33هـ/654م غزا معاوية الجزيرة المذكورة بخمسمئة مركب وفتحها عنوة، ونقل إليها جماعة من بعلبك. وقيل إنّ الغزوة جرت في 35هـ/656م، وفي مصادر أخرى في 38هـ. ويبدو أنّه كان لبيروت، التي كانت فرضة دمشق ودار صناعتها، على حدّ قول صالح بن يحيى، دور أساسيّ في عمارة المراكب التي جهّزت لغزو قبرص. وتبرز إحدى الدراسات أنّ عمارة السفن بوشر بها في طرابلس في سنة 645م، وكان يدير الأسطول فلسطينيون ولبنانيّون قاموا بغزوات قرصنة على الشواطئ وعلى جزر المتوسط. وفي عام 33 هـ/654م نادى معاوية بالناس وأمرهم بالسير إلى صيدا على أن يركب منها إلى رودس، فسار معاوية والمسلمون في تعبئة عامة إلى المدينة المذكورة وانطلقوا منها في أحد المراكب إلى رودس.

ولكن هذه الصوائف لم تمنع الروم في سنة 49هـ/669م عن غزو السواحل. ولربما كانت المدن اللبنانيّة مسرحًا لهذا الغزو، لأنه مرتبط بغزوة المردة في السنة نفسها.

يزيد بن معاوية (60 - 64هـ/ 680 - 683م)

بايع أهل الكوفة الحسين شقيق الحسن بالخلافة بعد موت أخيه وكان معتزلاً في المدينة. وعند موت معاوية رفض الحسين مبايعة ابنه يزيد سنة 680م وأمام لجاجة أهل الكوفة عليه بالمجيء إليهم خرج إلى الكوفة ومعه جماعة من 200 نفس فيهم نساؤه فاعترض طريقه إليها عبيدالله بن زياد عامل الأمويّين على العراق وأرسل فرقة من أربعة آلاف مقاتل عليهم عمر بن سعد بن أبي وقاص في العاشر من محرّم 61هـ/10 تشرين 680م. وبوصوله إلى كربلاء أحاط به جيش الأمويّين فآثر المقاومة وظلّ يقاتل دفاعًا عن النفس حتى استشهد واستشهد معه أكثر جماعته واحتزّ رأسه وحُمِل إلى يزيد بن معاوية بدمشق فأمر يزيد بأن تحمل شقيقة الحسين وإبنه اللذان رافقاه إلى كربلاء حيث دفن رأسه مع جسده. ولذلك فالشّيعة تحيي هذه المجزرة الأليمة خلال عشرة أيام تختتمها بيوم عاشوراء في العاشر من محرّم بمشاهد من الندب والحداد والجلد الدامي للجسد تخليدًا لما عاناه الحسين من الآلام. ونجم عن هذا الاستشهاد الأليم شرخ في الأمة الإسلاميّة لم يلتئم حتى اليوم.

وما كاد الأمويّون يرتاحون من مأساة الحسين حتى فاجأتهم ثورة أخرى على يد عبدالله بن الزبير ابن أخت عائشة أمّ المؤمنين في عهد يزيد. بايعت الحجاز ابن الزبير فجرّد يزيد عليه حملة كان في رجالها عدد من مسيحيّي الشام وعلى قيادتها مسلم بن عقبة فجرت المعركة في 26 آب سنة 683 قرب المدينة وتغلّب على جماعة ابن الزبير وتابع مسلم طريقه إلى مكة، حيث تحصّن ابن الزبير فمات في الطريق وخلفه الحصين ابن نمير السَكُوني، فما أن وصل مكة حتى رمى بالمنجنيق البيت الحرام، حيث لجأ ابن الزبير وكاد الحصين يحسم المعركة لو لم يصله نبأ موت يزيد فتراجع عن الحصار وعاد إلى دمشق فاشتدّ ساعد ابن الزبير وبويع بالخلافة في الحجاز والعراق حيث ولّى أخاه مصعبًا عليها، ومال إليه جنوب الجزيرة ومصر وبعض أنحاء الشام. وساعده في ذلك اعتلاء معاوية الثاني 683م الضعيف الشخصيّة لسدّة الخلافة لثلاثة أشهر وموته من دون أن يكون له عقب خلفًا له.

تابع يزيد سياسة ابيه العدائية تجاه الروم ثلاث مرات. الأولى في سنة 49هـ/669م قبل تسلّمه الخلافة فوصل جنده إلى مقربة من مدينة القسطنطينيّة ثم حاول حصارها في 669م شاركه فيه أبو أيوب الأنصاري الذي اشتهر بأنّه كان يحمل راية النبي محمد فمرض ودفن قرب أسوارها. حاول العرب اقتحام القسطنطينيّة في 54 - 60هـ/674 - 680م واشترك في الحرب أسطولا الفريقين وقد نجت المدينة بفضل سلاح يعود الفضل باختراعه إلى رجل من بعلبك يُدعى «كيلينكوس» كان قد لجأ إلى عاصمة الروم، ألا وهو النار الروميّة التي لا تنطفئ.

ج - مروان بن الحكم 683 - 685م يؤسس للدوحة الأمويّة المروانيّة

بويع مروان بن الحكم خليفة وهو ابن عم الخليفة عثمان بن عفان وكان رجلاً كهلاً، فجابهته ثورة ابن الزبير. مال إلى ابن الزبير القيسيّة بقيادة زعيمهم الضحاك بن قيس الفهري واليمنيّة بزعامة بني كلب المقيمين في بلاد الشام إلى جانب مروان، فجرت معركة بين الحزبين في مرج راهط قرب دمشق قتل فيها الضحاك في تموز سنة 684م. لم تمنع المعركة ابن الزبير من متابعة نشاطه كخليفة في الحجاز والعراق ولم يُحسَم أمره الا في ظل خلافة عبدالملك بن مروان.

يؤكد المؤرخ البيزنطيّ «تيوفانس» أن عرب فينيقيا وفلسطين كان لهم دور رئيس في تقرير الخلافة لمروان بن الحكم، عندما تجمّعوا في دمشق وأعلنوا تأييدهم له، وبعد موته لإبنه عبد الملك.

د - عبد الملك بن مروان (65 - 85هـ/685 - 705م)

لم تطل أيام مروان في الخلافة، فخلفه ابنه عبد الملك الذي وجّه حملة أخذت العراق من مصعب شقيق عبدالله بن الزبير، ثم تابع مطاردته لإبن الزبير بإرساله الحجاج بن يوسف الثقفي إلى مكة، فحاصرها في 25 آذار سنة 692م ورماها بالمنجنيق. وبعد حصار دام ستة أشهر قتل ابن الزبير واستتب الأمر لسلطة الأمويّين.

بعد سنتين من ذلك التاريخ عهد عبد الملك إلى الحجّاج بإخماد الثورات في العراق، خصوصًا تلك التي يقودها شيعة علي والخوارج. وعند وصوله إلى مسجد الكوفة تنسب إليه الروايات التاريخيّة إلقاء خطبة ناريّة دمويّة، أكدّ كلامها بالفعل بقطع رؤوس معارضيّه الذين تجاوز عددهم المئة ألف. فخمدت الثورات في البصرة والكوفة وفي العراق وفارس وفتك بالأزارقة بين 698 و699م، وهم من فرق الخوارج. وألحق عُمان بالدولة الإسلاميّة.

في مطلع عهد عبد الملك، إبان الأزمة مع ابن الزبير، كانت إغارة خيل الأعراب على بعلبك والبقاع وحمص فأدّى ذلك إلى فظاعات.

وقد جابهت عبد الملك مسألة الجراجمة - المردة، كما سنرى وقائع ذلك، ومسالة ابن الزبير وغيره من الطامعين بالخلافة. كما جابهت عهده وعهود خلفائه مسألة العصبية القيسيّة - اليمنيّة ومسألة شيعة علي. وتميّز عبد الملك بسعيه لتأكيد الهوية العربيّة للإدارة الإسلاميّة، وعودته إلى أسلوب الغزوات ضدّ الروم بعدما استتبّت له أمور الخلافة، والعمل على توسيع الفتوحات في أفريقيا.

هـ - الوليد بن عبد الملك (86 - 96هـ/705 - 715م)

في عهد الوليد بن عبد الملك، بلغت الخلافة الإسلاميّة، تقريبًا، أوسع مداها الجغرافي، والخلافة الأمويّة قمّة عظمتها وهيبتها وغناها. وأهمّ الأحداث السياسيّة في عهده، حسم مسألة الجراجمة - المردة.

في عهد الوليد بدأ بناء عنجر Garis قرب بعلبك.

و - يزيد بن عبد الملك (101 - 105هـ/720 - 724م) وهشام بن عبد الملك (105 - 125هـ/ 724 - 743م)

في أيام هشام نقلت صناعة الأسطول إلى صور، فقام البيزنطيّون بهجوم على المدينة في عام 107هـ/726م. لربما بسبب ذلك.

وفي عهد هشام، وُليّ الأسود بن بلال المحاربي قيادة غزو البحر. وفي هذا العهد تعرضت بيروت لغزوٍ بحريّ بيزنطيّ.

ز - الوليد بن يزيد (125 - 126هـ/ 743 - 744م)

ومع أن الأمويّين اختاروا عنجر مسكناً لاستجمامهم، فمن الواضح أن اثنين فقط من الخلفاء الأمويّين عرفا لبنان وهما: معاوية الأول والوليد بن يزيد.

الخليفة الوليد بن يزيد، الذي لربما زار بيروت وجوارها وولّى على بعلبك محمد بن عبيدة مولى سعيد بن العاص، نقل في أيامه الأسود بن بلال المذكور أعلاه في عام 125هـ/743م جماعة من أهل

قبرص إلى الماحوز بين صيدا وبيروت ثم أعاد الخليفة النازحين إلى الجزيرة. وقد ترك الخليفة الوليد المذكور شعراً في بيروت يقول فيه:

ربّ بيتٍ كأنّه متن سهم	سوف نأتيه من قرى بيروت
من بلاد ليست لنا ببلاد	كلما جئت نحوها حييت
أمّ سلام لا برحت بخير	ثمّ لا زالت جنتي ما حييت

وقال أيضاً في بيروت:

إذا شيت تصابرت ولا	اصبر إن شيت
ولا والله لا يصبر	في البرّية الحوت
ألا يا حبّ ذا شخص	حمت لقياه بيروت

وقال في سلمى بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان بن عفان التي أحبّ:

أراني قد تصابيت	وقد كنت تناهيت
ولو يتركني الحبّ	لقد صمت وصليت

....

سليمى ليس لي صبر	وإن رخصت لي جيت
فقبلتك ألفين	وفديت وحييت
ألا أحبب بزورٍ زا	ر من سلمى ببيروت

وقال أيضاً فيها:

أسلمى تلك حييت	قفا نخبرك إن شيت
فما صهباء لم تكسَ	قذىً من خمر بيروت

ثالثاً - المردة - الجراجمة

شغل المردة الجراجمة بال الخلافة الأمويّة منذ زمن معاوية.

يرد مصطلح الجراجمة في المصادر العربيّة، والمردة Mardaïtai في المصادر اليونانيّة، وهم بحسب رأي المؤرخين السريان شعب واحد بتسميتين. وليس هناك أمور كثيرة تجمع الموارنة بهؤلاء عقائديّا وسياسيّا.

لا نعرف أصل هؤلاء، الجراجمة والمردة، بالتحديد. فمنهم مَن يعتبر الجراجمة من الفرس، وفي ذلك تناقض مع الواقع التاريخيّ الذي لا يجيز أن يكون في خدمة الروم محاربون من الفرس أعدائهم التقليديين، ومن الذين يرجعونهم إلى أصل فارسيّ أبو الفرج الأصفهانيّ.

ويربط ابن عساكر الجراجمة بالأنباط.

وتذكر دراسة أخرى، استنادا إلى «هيرودوتس» و«استرابون» و«أريانوس» و«تاستوس»، أن «المردايتاي» أي المردة، كما يسمّيهم ابن العبريّ، هم من أصل فارسيّ، وهم قبائل «الماردين».

وفي النصوص التالية يتطابق المردة إلى حدّ كبير مع عسكر الروم الذين خرجوا من بيزنطية إلى جرجومة، وجاءوا مع الجراجمة، أو قادوهم، في عملية محاولة استعادة جبال لبنان.

والجراجمة قوم محاربون من أهل جرجومة، وهي مدينة فوق مدينة أنطاكية في جبال اللّكام، كانوا يعملون حرّاساً وأدلاًء ومرتزقة في جيش البيزنطيّين، ثمّ اتفقوا مع العرب، عند فتح مدينتهم صلحاً، على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وجواسيس لهم وأدلاء، وألا يدفعوا الجزية كباقي أهل الكتاب، وغير ذلك.

مع اندلاع الحرب الأهلية، بين معاوية والخليفة علي بن أبي طالب، ضعفت الحاميات العسكريّة المرابطة على الحدود مع بيزنطية، فاستغلّ البيزنطيّون الفرصة وقاموا بمحاولات لاستعادة سورية، فبدأت غزواتهم بهجمات شعبيّة، من أهل جرجومة ومن قبل النازحين عن المنطقة ومن العبيد والأسرى، للسلسلة الجبلية المطلّة على البحر في سورية ولبنان، فاضطر معاوية للتفاهم مع إمبراطور الروم، قسطنطين الثالث، لقاء قسط من المال يدفعه له، والتصالح معه ومع الجراجمة.

وعادت المشكلة نفسها مع بداية عهد عبد الملك بن مروان، والحرب الأهلية التي اندلعت مجدداً في السباق على الخلافة بينه وبين ابن الزبير، فوجّه الروم في عهد «يوستنيانوس» الثاني الجراجمة سنة 689م، ومعهم جيش من الروم والأنباط والعبيد، إلى السلسلة الجبليّة الغربيّة في سورية ولبنان مجدداً، فاضطّر عبد الملك إلى اتباع سياسة معاوية تجاههم، فصالحهم على ألف دينار في كلّ جمعة، ومال إلى الإمبراطور، لقاء أن تسحب بيزنطية هذه القوات من جبال لبنان. واستجاب يوستنيانوس لذلك، فسحب 12 ألف رجل، وبقيت حامية صغيرة لهم، تمكّن أحد قادة عبد الملك من القضاء على قائدها في خدعة. فتفرّق المردة في قرى حمص ودمشق، ورجع أكثرهم إلى مدينتهم في اللّكام وأتى الأنباط إلى قراهم.

ثمّ ظهرت المشكلة مجدداً على عهد الوليد بن عبد الملك سنة 708م، فافتتح مدينتهم وأخرجهم منها، على أن ينزلوا حيث أحبوا من بلاد الشام ويُعطى كلّ منهم 8 دنانير ولعيالهم القوت من القمح والزيت، وهو مدّان من قمح وقسطان من زيت، وأن لا يكرهوا على ترك النصرانيّة، وأن لا يلبسوا لباس المسلمين، ولا تؤخذ منهم ومن نسلهم الجزية، ولا يؤخذ من تجارتهم ما يؤخذ من المسلمين.

نتيجة هذه الأحداث، توزّع الجراجمة في أنحاء مختلفة من بلاد الشام. ونجد أثراً لذلك في منطقة من مدينة حماه تعرف بحيّ الجراجمة، وهي منطقة جبلية تكثر فيها المغاور.

وتورد رواية متأخرة لابن عساكر - لا تخلو من المبالغة والخيال ويصعب تأكيد وقائعها - كيفية القضاء على قائد الحامية الرومية على يد سحيم بن مهاجر الذي ولي أمر طرابلس زمن عبد الملك بن مروان، ثمّ ولي غزو البحر زمن الوليد بن عبد الملك.

المصادر السريانيّة كإبن العبريّ وميشال السوريّ تطلق على هؤلاء الجماعة اسم روميّين مردة كانوا يدعون (Marîdayî ou Liphourê)، أطلق عليهم السريان وسكان سورية لقب جراجمة، وهم رجال لصوص سيّرهم قسطنطين للاستحواذ على المنطقة الممتدّة من جبل الجليل إلى الجبل الأسود وعلى لبنان أجمع.

أسهم الجراجمة بعد ذلك الوقت في الحروب إلى جانب المسلمين، فساعدوا مثلاً مسلمة بن عبد الملك في حربه ضدّ يزيد بن المهلّب سنة 101هـ/720م

وقد استعملهم الخليفة هشام بن عبد الملك في حصن الموره في جبل اللكام.

ويبدو أن الجراجمة كانوا لا يزالون موجودين في جبل اللكام في القرن العاشر الميلاديّ، إذ يذكر إبراهيم بن يوحنا، من القرن المذكور، وجود دير للسيدة العذراء مريم يعرف بدير الجراجمة في جبل اللكام في ذلك القرن.

الفصل الثاني:
المجتمع - الثقافة - العمران

أولاً: المجتمع

عادات وتقاليد

شراب الورد كان رفيق الساهرين في أنسهم. ولكن هذه العادة العربيّة اخترقها خلفاء معاوية بشربهم للمنكَر، فكان يزيد بن معاوية مدمنًا على شراب الخمر، والوليد بن عبد الملك يشرب يوماً ويصحو يومًا آخر، وعبد الملك يشرب مرّة في الشهر. واستفاض يزيد الثاني في شرب المسكر وفي العشق، حتى أنه مات كمدًاً على إحدى قيانه، وبزّ الوليد بن يزيد الجميع بحيث كان يسبح في بركة مملوءة خمرًا ويتهكم فيها على ما حرّمه الله في القرآن الكريم.

استهوى الغناء والرقص الخلفاء الأمويّين وكذلك حفلات الصيد وسباق الخيل واللعب بالنرد.

فئات المجتمع

انقسم المجتمع إلى أربع فئات، في رأسها طبقة الحاكمين الأمويّين والعرب الفاتحين، يليهم الموالي أي المسلمون من غير العرب، الذين كانوا فئة مسلمة تعاني من الشعور بالدونيّة، بالقياس إلى المسلمين العرب.

لم يكن الرقيق يُعتَق بمجرد دخوله في الإسلام.

ولقد عانت الحقبة الأمويّة من الانقسام القبليّ القيسيّ اليمنيّ، أي عرب الشمال وعرب الجنوب، ومن الصراعات القبليّة العشائريّة، وعلى الرغم من أنّ الإسلام يدعو إلى الوحدة في الأمة ونقض العصبيّة. ومن أهم قبائل القيسيّة قبائل بني ربيعة ومُضر وقيس. أما اليمانيّة، في بلاد الشام، فكان بنو كلب متقدمين فيهم. وبزواج معاوية من امرأة من بني كلب، وكذلك ابنه يزيد، ارتفع شأن اليمانيّة، فعمد بنو قيس إلى مناصرة المناوئين لمعاوية وإبنه وحفيده معاوية الثاني. وساهم انتصار اليمانيّة على القيسيّة، في مرج راهط (684م)، بانتقال الخلافة من نسل معاوية إلى مروان بن الحكم، وبتثبيت دعائم الحكم المرواني. ولكنّ خلفاءه تقلّبوا بين القيسيّة واليمانيّة. ففي زمن الوليد بن عبد الملك، ويزيد الثاني، والوليد الثاني، مال الخلفاء إلى القيسيّة؛ أمّا سليمان بن عبد الملك، ويزيد الثالث، فمالوا إلى اليمانيّة. هذا الصراع القيسيّ اليمانيّ كان أحد أسباب سقوط الدولة الأمويّة.

ج - أهل الذمّة

أما أهل الذمّة (مسيحيّون ويهود وصابئة المعرَّفون اليوم باسم المندائيين من تلاميذ يوحنا المعمدان، ثم ألحق بهم الزرداشتيون وغيرهم) الذين ظلوا لثلاثة قرون، تقريبًا، الأكثريّة في الارياف المشرقيّة، فكانوا ينعمون بعهود الأمان التي وقّعوها مع المسلمين إبّان الفتوحات الإسلاميّة. فتمتّع الذميّون، لقاء دفع الجزية والخراج، وعدم حمل السلاح، بقسط من الحرية في أمور شرعهم، وفي الأمان على حياتهم ومنازلهم ودور عبادتهم وتجارتهم.

تُنسَب إلى عمر بن عبد العزيز القيود التي وضعت على النصارى، والمعروفة بالشروط العُمَرية. وقد نسبت عند بعض الباحثين خطأ إلى عمر بن الخطاب، بل هناك تشكيك في أنها من ابتداع ابن عبد العزيز، ولربما وضعت فعليًا في عهد هارون الرشيد على يد أبي يوسف مؤلف كتاب «الخراج». وردت هذه الشروط في مصادر متأخرة، من هنا ضعف إسنادها إلى ابن الخطاب وإبن عبد العزيز. فقد نُمي إلى ابن عبد العزيز الحظر على النصارى بتقلّد المناصب الحكومية، وأن لا يتشبّهوا بالمسلمين في اللباس وفي ركب الخيل، وأن لا يُحدثوا كنيسة أو ديرًا أو مقامًا دينيًا لم يكن موجودًا قبل الفتوحات، ولا تسمع شهادتهم على مسلم الخ.

واشتُهر من المسيحيّين في العهد الأمويّ القديس يوحنا الدمشقيّ حفيد منصور بن سرجون الذي كان قائماً في الديوان الأمويّ عهد معاوية، وخلفه فيه ابنه والد يوحنا الذي عمل فيه أيضاً قبل أن يتركه في خلافة هشام، واعتزاله الإدارة وانصرافه إلى التعبد والزهد والإقامة في دير مار سابا قرب مدينة القدس حتى وفاته في 748م. اشتُهر يوحنا بمحاججاته اللاهوتيّة مع المسلمين، ودفاعه عن النصرانيّة، وكتابة قصص تُعنى بالزهد، وتأليف الترانيم الدينيّة.

كان المسيحيّون في الشرق على نوعين: الملكيّة أو الملكانية نسبة إلى ملك الروم، واليعاقبة (السريان الأرثوذكس) الرافضين الانصياع لمذهب الروم وهم المنتَسبون إلى يعقوب البرادعي (القرن السادس). كان الروم من الملكيّة يقولون بـ «الطبيعتين والمشيئتين في السيّد المسيح». أي أن المسيح له جوهر إلهي وإنسانيّ في آن معاً. أما اليعاقبة والأرمن والأقباط، فيقولون بـ»الطبيعة الواحدة» معتبرين أنّ الله أصبح إنسانا بتجسّده بالمسيح، لكنه بقي في جوهره إلهاً كاملاً، رغم اتخاذه صورة البشر.

اقترح الروم مع هرقل حلاً وسطاً يقول بطبيعتين منصهرتين في شخص المسيح مما يجعل منهما مصدر مشيئة واحدة وفعل واحد. ولكن هذه المحاولة لم تعمّر طويلاً فعاد الملكيّة إلى القول

بالطبيعتين والمشيئتين في يسوع الناصري، وكفّروا في المجمع المسكوني السادس في القسطنطينيّة عام 680م القائلين بالمشيئة الواحدة.

في خضمّ هذه الصراعات والمحاولات التوفيقيّة نشأت الكنيسة المارونيّة، وهي إحدى الكنائس الشرقيّة الأنطاكية المنبثقة من مذهب الملكيّة، نشأت بانفصالها عن الملكيّين. ولا يزال الغموض يلفّ أصلها التاريخيّ ومراحل تطوّرها الأولى. لذلك كان إيمانها عرضة لجدل خلال فترة طويلة.

ينتسب الموارنة، من حيث الإسم، إلى الراهب مارون، أحد أبرز قديسي الكنيسة الملكيّة. عاش في أواخر القرن الرابع الميلاديّ ومطلع القرن الخامس، في منطقة قورش التي تقع في شمال سورية. وكان هذا القديس قد ابتدع مدرسة في النسك، في العراء، على جبل فوق أنطاكية، بحيث لم يكن يأوي، إلى كوخ بجانب المعبد - الذي حوّله عن عبادة الشيطان وكرّسه لله الواحد - إلا عندما يسوء الطقس فوق العادة.

ذاعت شهرتُه العجائبية في حياته. ويُعتقد أنّ هذا القديس قد توفّي حوالي العام 410م. وبعد وفاته انتشرت طريقته النسكيّة في بلاد الشام. وفي حوالي العام 452م بنى الإمبراطور البيزنطيّ ديراً على ضفاف العاصي، تختلف الاجتهادات في تحديد مقرّه، في منطقة حمص، أو معرّة النعمان، أو شرق حماه على اسم القديس مارون. بعد سنة من المجمع الخلقيدوني ملك (ثاودوسيوس) مرقيانوس (451 - 457م)... ملك سبع سنين، ولسنة خلت من ملكه بنى دير مارون الذي بحمص...».

بعض الغموض في تحديد موقع مكان دير مار مارون في طريقه إلى الحلّ، مع اكتشاف نقوش ولقايا أثرية مارونيّة لدير مار مارون (قطع أثرية، كنيسة الفسيفساء، صلبان، كؤوس، مباخر وعليها كتابات ورموز باليونانيّة مهداة لدير مار مارون طلباً للشفاعة) في محيط مزار السيدة العذراء للروم الأرثوذكس في مدينة حماه.

وفي القرنين الخامس والسادس الميلاديّين، تكاثر أتباعه في شمال سورية، وخصوصًا في وادي العاصي، وجهات من العراق، وشمال لبنان، وكانوا يعملون على نشر الدعوة لمبادئ المجمع المسيحيّ الخلقيدوني الذي تبنّته الكنيسة، لمواجهة معتقدات اليعاقبة والنساطرة وغيرهما التي كانت الأكثر انتشاراً في البلاد الشرقيّة. وأدّى الصراع، بين الموارنة وبين هؤلاء، إلى جملة اضطهادات وحصلت مذابح قُتل في إحداها 350 راهبًا، لربما بعضهم كان مارونيّاً.

وترجّح إحدى الدراسات أنّ هؤلاء الموارنة كانوا من الأنباط، يقطنون المناطق الزراعيّة في الأرياف، ويعملون في الزراعة. وبعض النظريّات ينسبهم إلى أصل حثيّ.

كان دير مار مارون على العاصي نقطة انطلاق لحركة جماعة رهبان مار مارون. فهذا الدير أصبح مركز نشاط نسكيّ ولاهوتيّ واقتصادي.

في سبعينيات القرن العشرين المنصرم أصدر الأب بطرس ضو كتاباً أسماه تاريخ الموارنة. يثبت فيه اكتشاف المكان الذي تنسَّك فيه القديس مارون، وهو بلدة كفرنبو، والمكان الذي شيِّد فيه قبره، وهو بلدة براد.

قبل بضع سنوات انبرت وسائل إعلام، للاهتمام بحياة القديس مارون وللمواقع التي شغلها في حياته وبعد مماته وترافق ذلك مع اهتمام السلطة في سورية بالأمر.

وبدأت وفود حجّ إلى بلدة براد، كرّست ناووسًا، في كنيسة براد على أنّه قبر القديس مارون، توافقاً مع اجتهاد الأب بطرس ضو سابقاً.

كلام الأسقف «تيودوريتوس» في كتابه «أصفياء الله» الذي حرّره بين عامي 440 - 445م عن قبر القديس مارون، هو المعلومة الوحيدة التي تتكلم على ذكرى القديس مارون في أبرشية قورش في شمال سورية، ليتلو ذلك انقطاع كليّ عن أي ذكر للقديس مارون في تلك المنطقة، ليعود اسمه للتداول في منطقة أخرى على مجرى العاصي، حيث يقال إنّ تلامذة القديس مارون قد بنوا أديرة عدّة، من بينها دير أمّ على درجة كبيرة من المهابة والأهمية، يفترض أن يكون قد شيّد كما رأينا أعلاه في مدينة حماه.

أضف إلى ذلك أنّ التقليد التاريخيّ المارونيّ يُخبر عن وجود جثمان هذا القديس في الدير المذكور، وانتقال هامته منه إلى دير كفرحي فوق مدينة البترون في جبل لبنان. فلماذا هذه القطيعة ولماذا لم يخلّد ذكر القديس مارون في تلة في القورشية، وفي القورشية عمومًا، بل على ضفة نهر العاصي التي سنحددها لاحقاً؟ فباستثناء هذا الكلام العام على قبر القديس مارون لا نجد ذكراً له في شمال سورية، خصوصًا في حماه أو غيرها من مدن مجاورة.

كان الموارنة يقيمون في الأرياف السوريّة واللبنانيّة الشماليّة، ولم تكن هذه الجماعة الريفيّة المارونيّة على علاقة جيدة بالأساقفة وبجمهور المسيحيّين في المدن، بسبب هيمنة العائلات الثرية

وعائلات الأعيان على مجريات الحياة الدينيّة والاقتصاديّة. وفي مطلع العهد الأمويّ، وبعد رحيل البيزنطيّين، وفقدان الأمل بعودتهم فعليّاً، انفجر الصراع بين أهل الريف، المُمثّلين برهبان القديس مارون، وأهل المدن، على زعامة الكرسي البطريركيّ الإنطاكي، لأنّ البطاركة أصبحوا خارج أنطاكية، لا يقيمون مع رعيتهم، بل في القسطنطينيّة. وكان العديد من بطاركة أنطاكية قد درجوا على عدم الإقامة فيها منذ مطلع القرن السابع بسبب الظروف السياسيّة المتغيّرة، وكانوا يُنتَخبون من خارج المنطقة، وفي خارجها.

وعندما حاول البيزنطيّون تعيين بطريرك على أنطاكية، لا ينتمي لأهله ولا يقيم بين أفراد رعيته، امتنع رهبان مار مارون عن القبول بالبطريرك الجديد، واستغلوا فترة فراغ الكرسي البطريركيّ من بطريرك لسنوات عدّة، وانهيار التنظيم المركزي لطائفة الملكيّة، فاعتبروا المركز خالياً، وبادروا إلى تنصيب رئيس رهبان دير مار مارون على العاصي - الدير الأمّ - الأسقف يوحنا مارون بطريركاً على أنطاكية في السنوات الأولى من حكم الخليفة يزيد بن معاوية. ولعلّ اعتناق البطريرك الإنطاكي «مكاريوس» لمبدأ المشيئة الواحدة، وإقامته في القسطنطينيّة، وإقالته واستبداله بـ «تاوفانس» الذي استمرّ مقيماً خارج البلاد، هو ما ولّد الشعور بالفراغ ودفع الموارنة إلى عدم القبول به بطريركاً مفروضاً من الخارج، فاعتبروا المركز خالياً.

ذهب بعض المصادر المارونيّة المتأخرة في الزمن اتجاهات عدّة بربط الموارنة بالمردة والجراجمة. ولكن ليس هناك من علاقة وثيقة بين الموارنة وهؤلاء إلا العلاقة في الزمن.

كان مجيء الجراجمة المردة مصادفاً لنقل يوحنا مارون كرسيَّه إلى جبل لبنان في حوالي سنة 685م بحسب ما تذكر التواريخ المارونيّة، بعد هجوم البيزنطيّين على دير مارون في العاصي، وقتلهم العشرات من رهبانه في فترات المدّ والجزر مع الفتح ومحاولات البيزنطيّين استرداد المنطقة. فاحتمى، يوحنا مارون، لربما، بالمردة الجراجمة من تعقّب القوات البيزنطيّة له. وبعد تمكّن هذا البطريرك من إزاحة خطر القائدين البيزنطيّين موريق Maurikios وموريقيان Markianos، اللذين هاجما الموارنة عند سفوح جبال لبنان، وانتصار الموارنة عليهما، (دفن موريق في أميون حيث شيّدت كنيسة على قبره وموريقيان في عكار)، وبمساندة الجراجمة - المردة، وبسبب قيام متغيّرات في السلطة في بيزنطية، بدأ بناء الطائفة المارونيّة في جبال لبنان. وكان الكرسي الأول لبطاركتها في كفرحيّ في منطقة البترون حيث، بحسب التقليد المارونيّ، دفن يوحنا مارون، ثمّ انتقل بطاركتها إلى يانوح قرب بلدة

العاقورة. كما اتخذوا مراكز بطريركيّة أخرى أحياناً، ولكنّ أكثرهم استمرّ في يانوح، حيث آثار الهيكل لا تزال قائمة، إلى العهد الصليبيّ عندما اضطروا مكرهين إلى الانتقال إلى دير سيدة إيليج في جوار بلدة ميفوق.

كان الموارنة مقيمين في وادي العاصي في سورية حين كتابة المسعوديّ لكتابه «التنبيه والإشراف» في سنة 345هـ/ 956م وهي السنة التي توفّي فيها، وأمرهم مشهور في الشام وغيرها. ويذكر هذا المؤرخ أن ديرهم كان قائماً في شرق حماه وشيزر وهو ذو بنيان عظيم وفيه من آلات الذهب والفضّة والجوهر شيء عظيم، وحوله أكثر من ثلاثمئة صومعة للرهبان، وهو يقرب من نهر الأرنط (العاصي) وخرُب على زمن المسعوديّ بسبب فتن الأعراب وحيف السلطان. وكان أكثر الموارنة موجودين في جبل لبنان وسنير وحمص وأعمالها كحماة وشيزر ومعرة النعمان.

ولربما أسهمت هجمات البيزنطيّين في القرن العاشر على وادي العاصي في تدمير دير مار مارون.

د - شيعة علي

انتشر الموارنة في جبال لبنان بفضل تسامح الأمويّين، وبدأ التشيّع يغزو الجبال الجنوبيّة من لبنان، ولا سيما في جبل عامل، بفضل تأثير أبي ذرّ الغفاري الذي تشير بعض المراجع إلى تعريجه على الجنوب اللبنانيّ في عهد معاوية، وسكنه بين ميس الجبل والصرفند. فالجبل المذكور كان مهيّأ للأسلمة مع وجود قبيلة عاملة قبيل ظهور الإسلام، وبفضل وجود عناصر عربيّة فيه، لربما، منذ عهد الاسكندر الكبير. ويذهب بعضهم إلى أن عدداً من خواص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب نشروا التشيع في السواحل، وتذهب الأخبار إلى أن من أسباب التشيّع الهرب من عمليات القتل التي كانت تطاول الشّيعة في دمشق زمن معاوية وخلفائه. وتردُّد بعض رجال الشّيعة الأوائل كسلمان الفارسيّ وعبد الله بن مسعود إلى سواحل الشام، فضلاً عن الهجرات من الداخل.

ولكن، عمليًا، إنّ انتقال بلاد الشام إلى التشيّع، لم يتمّ إلا في العهد العبّاسيّ. ففي العهد الأمويّ كان مصطلح التشيّع غامضاً ويدلّ على المشايعين للخليفة علي ولإمامته بعد النبي محمّد. وإذا كان من الصعب تحديد نشوء الشّيعة بشكل دقيق، فمن الممكن التفكير بأنّه في العهد العبّاسيّ بدأت الدلالة على هذا التيّار الإسلاميّ باسم الشيعة. قبل ذلك، كان الكلام يجري على شيعة علي. ومن نافلة القول إن التشيّع كان حركة عربيّة بحتة ولم يكن ردّ فعل فارسيّاً على الفتح الإسلاميّ. وشيعة

لبنان الإثني عشرية. الإماميّة، الذين حملوا في زمن لاحق بعد القرن الثاني عشر هـ/ الثامن عشرم، اسم (المتاولة) هم عرب. ورغم هذه الآراء فمن غريب الصدف أن تكون عناصر فارسيّة كثيرة قد استقرّت في لبنان الجنوبيّ، كما رأينا، وقد تشيّعت شيئاً فشيئاً، على ما يبدو. وهذا التسامح والتنوّع الدينيّ في السواحل: مسلمون، يعاقبة، وملكيّون، لربما ساهم بوجود المذهب الأوزاعيّ السنيّ المعتدل.

هـ نشاطات دينيّة أخرى

تحوّلت مدن الثغور، كطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا والصرفند وصور رباطاً (مركزًا جهاديًا متقدّمًا في مواجهة العدو) للصحابة. وكانت هذه المدن قد فقدت دورها التجاريّ منذ زمن بعيد بسبب سقوط أوروبا بيد البرابرة، والحرب الفارسيّة - البيزنطيّة، وزلازل بيروت، وخروج العديد من أهلها في أثر البيزنطيّين عند الفتح العربيّ، وحلول مسلمين محلّهم حوّلوا المدن مراكز للجهاد ومراكز مرابطة دينيّة وعسكريّة لا تتجانس مع الحركة التجاريّة.

أبو الدرداء هو أول المرابطين المعروفين، نزل في بيروت وسبق سلمان الفارسيّ الصحابي المتوفى في 34هـ/654م.

ومن المرابطين المشهورين أيضاً بحسب الروايات الشيعيّة المتأخرة زمنياً، أبو ذرّ الغفاري، الذي أقام عند الصرفند حيث لا يزال المسجد يحمل اسمه. وقد توفّى أبو ذرّ خارج لبنان في الربذة.

ولعلّ الإمام الأوزاعي هو أهم المرابطين.

في صيدا اشتهر أسقفها، بولس الإنطاكي، الذي ولد في أنطاكية وتوفي فيها سنة 154هـ/770م. وكانت له مؤلفات لاهوتيّة عدّة هي ردود على اليهود ورأي النصارى بالنبي محمد ورأي في البدع المنتشرة في أيامه وتفسيرات الإنجيل وشرح للفضائل المسيحيّة وعرض للشرع النصرانيّ.

واشتهر يوحنا مارون - أول بطريرك على الطائفة المارونيّة – بكتابات تنسب إليه.

وكانت الكنائس المسيحيّة غنية بموجوداتها في العهد البيزنطيّ. وجاء في إحدى الروايات أن الوليد بن عبد الملك انتزع العرش المذهّب الكائن في كنيسة بعلبك الفخمة ونقله إلى مسجد عمر في القدس.

عرف العهد الأمويّ نشوء حركات دينيّة وفلسفيّة وفلسفيّة - دينيّة برزت أكثر فأكثر في العهد العبّاسيّ.

من هذه الفرق المعتزلة التي أبصرت النور في البصرة على يد واصل بن عطاء (ت 748م) الذي اعتمد مع أصحابه على العقل دون النقل. كان واصل متأثراً بالحسن البصري الذي كان يقول بحريّة الإرادة التي يأخذ بها القدرية أصحاب القدرة الذين كانوا على خلاف مع الجبرية الذين يؤمنون بالقضاء والقدر الناجم عن الإذعان لإرادة الله وسلطانه. أضافت المعتزلة إلى ذلك نفي وجود الصفات الإلهية كالقوة والحكمة والحياة لأنّها تناقض وحدة الله. ولقد بلغت هذه النزعة بتحكيم العقل في شرح مفاهيم الإسلام بعدها الكبير في مطلع العهد العبّاسيّ وخصوصًا مع المأمون.

أمّا الشّيعة فيؤمنون بصحة إمامة علي وحقه الشرعيّ بها وحق أبنائه بها. وبينما يؤمن المسلمون السنة أن الواسطة بين الله والإنسان هي الوحي يؤمن الشّيعة بأن الإمام هو الواسطة. فالله يختاره وهو الواسطة إلى الهداية. فهو رأس الجماعة وقد اختصه الله بذلك وهو من آل البيت من ذرية فاطمة وعلي ويختص بالعلم الذي يتوارثه الأئمّة وهم معصومون. ذهب بعض الشّيعة من غير الإماميّة بتجسّد الألوهية بالإمام الذي له صفات الذات الإلهية النورانية وعلي وأولاده سلسلة متلاحقة من الحلول الإلهي.

وتعتقد الشّيعة بالمهديّ أي المخلص الذي يأتي في نهاية الزمان. ومن فرق الشّيعة الإماميّة والإسماعيليّة والقرامطة والدروز والنصيريّة.

كان الصراع بين شيعة علي والأمويّين كما مع الخوارج المدخل الأكبر للانقسام السياسيّ والاجتماعيّ في الدولة الأمويّة. لم تنتهِ ثورة مشايعي علي مع كربلاء في 61 هـ بل استمرت في ثورة عين الوردة في 65هـ ومن بعدها في حروراء. واستمرّ الخوارج في ثورتهم حتى 77هـ. تتبع الأمويّون أئمّة الشّيعة الاثني عشرية وقتلهم. ولربما كانت هذه الحالة مدخلاً لقبول أئمّة الشّيعة بنقل الإمامة إلى العبّاسيّين تحت شعار الرضى من آل البيت. وقد نظم أول ديوان لهذه الدعوة في زمن الخليفة سليمان بن عبد الملك شكّل فيه عرب بني مسلية ومواليهم من الفرس ركنه الأساسيّ. واعتمد التستر فيه على اسم الإمام. انتشر الدعاة بشكل تجار فجمعوا الشّيعة إلى جانبهم وأخذت البيعة للإمام محمد بن عبدالله وأعطيت القيادة لابي مسلم الخراساني. تعرَّض أئمّة الطالبيّين للاضطهاد. وخصوصًا ما لاقاه الإمام أبي هاشم، مما دفعه إلى أن يعهد بالإمامة إلى محمد بن علي العبّاسيّ.

ثانياً - الثقافة والفنون

احتلّ العرب بلدانًا كانت قد وصلت إلى درجات عالية في مضمار الثقافة والعمران، فنقلوا وهم الفقراء في هذا المضمار، حضارة الشعوب المغلوبة وعملوا على تطويرها وأقلمتها مع متطلبات حياتهم.

أول واضع للنحو العربيّ كان أبو الأسود الدؤلي (ت. 688م) في مدينة البصرة. ثم ظهر بعده في البصرة أيضاً الخليل بن أحمد، الذي تنسب إليه عروض الشعر العربيّ وواضع أول معجم عربيّ «كتاب العين»، ومن الذين تتلمذوا عليه سيبويه وهو فارسيّ (ت. 793) الذي يُنسب اليه في العهد العبّاسيّ وضع أول مصنّف للنحو «الكتاب».

أدّت دراسة القرآن الكريم إلى ظهور علميّن هما الفقه وعلم الحديث. فالحديث هو الكلام المنسوب إلى النبي أو الصحابة. والقرآن والحديث أساس في أصول الدين والفقه. والحقبة الأمويّة غامضة بالنسبة لمشاركتها في بلورة علوم الفقه والحديث. ومن الذين عايشوا هذه الحقبة في أواخرها، وفي مطلع العهد العبّاسيّ، وهم قلة، كل من المحدّثين الحسن البصري وإبن شهاب الزهري (ت. 742م). وعرف عبدالله بن مسعود في الكوفة (ت. 652م) بأنّه محدّث ثقة.

بدأ تدوين التاريخ على يد رواةٍ، منهم، عَبيد بن شريه الذي صنف لمعاوية كتبًا في أخبار العرب القديمة منها «كتاب أخبار الملوك وأخبار الماضين». كما اشتهر وهب بن منبه اليهوديّ اليمني الأصل (ت. 728) وهو من المصادر عن زمن ما قبل الإسلام، برغم الشك بصدق رواياته. أضف اليهم كعب الأحبار اليهوديّ الأصل، الذي تقرّب من معاوية وأكثر من ذكر الأحاديث المنسوبة للرسول.

جرى في عهد عبد الملك بن مروان، ثم في عهد ابنه الوليد، تعريب الدولة. فقد نقلت لغة الدواوين من اليونانيّة والفارسيّة إلى العربيّة وسكَّت النقود الإسلاميّة، وكان من الطبيعيّ أن يُستخدم في هذه الدواوين السكان المحليّون من الذين كانوا يلمّون باللغة العربيّة إلى جانب إلمامهم باليونانيّة والفارسيّة. كانت النقود قبل عهد عبد الملك نسخة عن النقود المتداولة عند البيزنطيّين والفرس حتى أن صورة معاوية كانت مسكوكة على بعضها. وفي العام 695م ضرب عبد الملك أول دنانير ذهبية ودراهم فضية عليها فقط كتابة عربيّة ومصطلح لا إله إلا الله.

وأعاد عبد الملك تنظيم شؤون البريد لربط دمشق بالمدن الإسلاميّة.

اشتهر في الحجاز عمر بن أبي ربيعة بشعره الغنائيّ الغزليّ، والحب الإباحيّ وجميل بن معمر أو جميل بثينة بشعر الحب العذريّ العفيف. هذا في الحجاز أما في المشرق فقد ظهر الشعر السياسيّ مع مسكين الدرِامِي. وقام حماد الراوية (713 - 772م) بأول محاولة لجمع شعر ما قبل الإسلام المعروف بالجاهليّ.

الفرزدق (حوالي 640 - 728م) وجرير (ت 729م) والأخطل (حوالي 64هـ=710م) ولدوا في العراق واشتهروا بالمدح والهجاء. كان الأخطل مسيحيّا مناصرًا للأمويّين. تقاذف جرير والفرزدق الهجاء المرّ في ما بينهما.

ازدهرت الخطابة ومن أشهر أعلامها الإمام علي بن أبي طالب والحجاج بن يوسف وزياد بن ابيه.

كان عبد الحميد الكاتب في آخر عهد مروان بن محمد أوّل مَن اعتمد الرسائل كفنّ كتابي.

اقتصرت الموسيقى عند عرب ما قبل الإسلام على الحداء للإبل والهزج في الحروب والإنشاد. ومن الآلات الموسيقيّة الدفّ والمزمار، وعرف الغساسنة وهم مسيحيّون إنشاد الجوقات على الطريقة البيزنطيّة، والأمراء اللخميّون في الحيرة العود. وكان للرسول موقف سلبيّ من الموسيقى، لأنّها مرتبطة بالطقوس الوثنيّة، وهذا ما حمل الفقهاء وعلماء الدين على ذمّها. ومع ذلك انتشرت الموسيقى وكان طويس (632 - 711) على ما تزعم الروايات، أوّل مغنٍّ في الإسلام، غنّى في المدينة بالعربيّة مصحوبًا بالدف. ويُعزى إلى ابن سريج تلميذ طويس إدخال العود الفارسيّ إلى الحجاز. وكان ابن سريج تلميذاً أيضاً لسعيد بن مسجح (ت 714م) الذي استوحى ألحانه من التراث الرومي والفارسيّ. ومن المغنين ابن محرز (ت 715م) من أصل فارسيّ ومعبد (ت 743م) الذي اشتهر في عهدي الوليد الأول والثاني. واشتهرت في بلاط الأمويّين مغنيتان هما حبابة وسلامة محظيتا الخليفة يزيد الثاني.

اشتهر معاوية بولعه بالأشعار والقصص والأخبار، وخصوصًا أخبار البطولات العربيّة في ما قبل الإسلام.

ثالثاً - العمران

بقيت دمشق تقريبًا على حالها كما كانت زمن البيزنطيّين، متميّزة بشوارعها الضيقة. والى جانب سكانها الأصليّين من المسيحيّين، الذين ظلوا حتى عهد متأخر الأكثريّة من السكان من الذين لم يُجلوا عنها في أثر البيزنطيّين، دخلها أقوام من العرب الذين سكنوا في أحياء خاصة بهم، محافظين فيها على تنظيمهم القبليّ.

عمد الخليفة يزيد بن معاوية إلى جرّ المياه من بردى، أو إصلاح القناة القديمة بقناة جديدة إلى المدينة عرفت باسم نهر يزيد.

اقتضى إبراز تميّز النظام الجديد بشكله الأمويّ كما ذكرنا تعريب الدواوين والعملة. ولكن الأمويّين ذهبوا أبعد من ذلك ببنائهم أبنية مميّزة من جوامع وقصور، للتأكيد على أن الدين الجديد هو الرسالة الإلهية الأكمل. فأوّل أمكنة للصلاة الجماعية كانت في عهدهم. وأوّل تجسيد لنصوص القرآن ونقوشه كانت في قبة الصخرة. وتلت ذلك مساجد ضخمة وجميلة في دمشق وحلب والمدينة والقدس، للدلالة على نشوء مجتمع جديد هو المجتمع الإسلاميّ، المتمايز عما سبقه بشكله المسيحيّ أو اليهوديّ.

ابتنى سليمان في فلسطين مدينة الرملة، وفيها قصر له ومسجد، يأتي بالدرجة الثالثة بعد المسجد الأمويّ في دمشق وقبة الصخرة في القدس. وقد عمل عبد الملك على بناء قبة الصخرة بطريقة فخمة، ربما لتحويل الحجّاج عن مكة، حيث كان قد استفحل أمر ابن الزبير. وبلغت الدولة الأمويّة عهدها الذهبي مع الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي كان عهده عهد البناء بامتياز. وسّع الوليد المسجد الحرام في مكة، ورمّم مسجد المدينة.

كان مسجد البصرة أول مسجد بُني خارج الجزيرة العربيّة، على يد عتبة بن غزوان سنة 637م. وفي سنة 638م. اختار سعد بن أبي وقاص الكوفة مركزًا لجيشه فاختطّ شوارعها، وبنى فيها مسجداً بسيطًا، كمسجد البصرة، مكوّنًا من بناء مربّع تحيط به في البداية جدران من قصب، استبدلت بجدران من طين. وعند تسلّم زياد بن ابيه إدارة الكوفة اعتمد في البناء الفن الفارسيّ، فأقام

الأعمدة في البناء. وابتنى الخليفة علي بن أبي طالب مسجدًا في الكوفة في عام 656م. لا نعرف شيئاً عنه.

في حمص قسمت الكنيسة إلى قسمين، واحد منه حوّل جامعاً، والقسم الثاني بقي كنيسة.

كان الأمويّون أول من استحدث المحراب والمئذنة في الجامع.

يستمدّ جامع قبّة الصخرة أهميته من كون النبي في الإسراء والمعراج قد وقف على صخرة في القدس قبل معراجه إلى السماء. ابتنى الخليفة عبد الملك على الصخرة قبّة نقش على دائرتها أنّ الخليفة عبد الملك هو الذي ابتناها، ولكن الخليفة العبّاسيّ المأمون، أزال اسم عبد الملك من النقش. فنجم عن بناء القبّة عمل هندسي رائع وفخم، لا يزال إلى حدّ ما محافظًا على شكله الأصليّ، برغم الإصلاحات التي تعرّض لها نتيجة الزلازل.

يطلق اسم المسجد الأقصى على مجمل الأبنية الدينيّة الإسلاميّة في القدس. والمسجد الأقصى بناه عبد الملك قرب القبّة. هدمه الزلزال فأعاد الخليفة المنصور بناءه في سنة 771م.

ابتنى الخليفة الوليد بن عبد الملك في سنة 705م، على كنيسة القديس يوحنا، المسجد المعروف بالجامع الأمويّ. ويصعب التعرّف إلى ما كان في الأصل من الكنيسة في الجامع. المئذنتان الجنوبيّتان هما من بقايا برجيْ الكنيسة، أمّا المئذنة الشماليّة فمن بناء الوليد. عمل على بناء المسجد مهندسون روم بيزنطيّون وكان الصنّاع من الفرس والهنود والمصريّين. وجدران المسجد مزدانة بالفسيفساء، وفيه صور أشجار ومدن، وقد طُمست الصورة ولم تستكشف إلا بعد ترميم الجامع في سنة 1982م.

ابتنى الأمويّون قصورًا في بادية الشام كانت في الأصل حصونًا. نعرف منها قصر عين التمر المعروف بالأخيضر. ورمّم يزيد بن عبد الملك قصر الموقّر. وأقام الوليد بن يزيد قي قصرَيْ القسطل والأزرق في شرق الأردن، وقصر المشتى. وابتنى الوليد الأول قصر قصير عمرة على الضفة الشرقيّة للأردن.

ابتنى هشام بن عبد الملك قصر الحير على طريق القريتين - تدمر كما ابتنى خربة المفجّر قرب أريحا، وفيه حمام متّسع وفيه فسيفساء.

بنى الأمويّون مدينة عنجر، التي كانت مصيفاً لهم، ثم أصبحت مركزاً سياسيّاً. وقد شهدت عنجر نزاعاً كبيراً بين إبراهيم بن الوليد الذي أعلن نفسه خليفة، بعد موت ابيه، ومروان بن محمد. وتمكّن مروان من الانتصار وتسلّم الخلافة.

أما مدينة عنجر فقد أسسها الخليفة الأمويّ الوليد بن عبد الملك في أوائل القرن الثامن الميلاديّ. ففي موقع على الطريق المؤدي من الشاطئ اللبنانيّ إلى دمشق كانت تقوم مدينة قديمة تُعرف باسم جرّا «GERRHA». وبقرب عين ماء كانت تُعرف باسم عين جرّا التي أعطت الموقع اسمه الحاليّ.

تتألف المدينة الأمويّة التي بُنيت من ركام المدينة القديمة، من سور عظيم مستطيل الشكل مدعّم بأبراج نصف دائرية، وتخترقه أربع بوابات محصّنة تنفتح باتجاه الجهات الرئيسة الأربع، وتتصل ببعضها عبر شارعين رئيسيّين يقطعان المدينة إلى أربعة أحياء. وتقوم على جانبي هذين الطريقين صفوف من الدكاكين، فيما ينتشر في أحياء المدينة الأربعة عدد من القصور والحمامات والساحات العامة والمجمّعات السكنية إلى مسجد صغير. ويبدو من خلال أسلوب البناء الذي يعتمد على تعاقب مداميك طوب الفخار والحجارة الكلسية، أن مهندسي عنجر قد تأثروا بالأسلوب البنائي البيزنطيّ، كما تأثر واضعو مخططها بمخططات المخيمات العسكريّة التي كانت رائجة في العصور اليونانيّة والرومانيّة والبيزنطيّة. وكان لعنجر دور تجاريّ مهمّ على تخوم الصحراء إلى جانب دورها كمركز راحة وصيد للخليفة الأمويّ ولبلاطه.

كان في بعلبك جامع على اسم الخليفة عمر، ومزار منسوب إلى السيدة حفصة زوج النبي، والصحيح مقام «أم حفص» أخت الصحابي «معاذ بن جبل» لانّ حفصة ماتت في المدينة المنوّرة. ومسجد إبراهيم في داخل القلعة، ومسجد في رأس العين على اسم الحسين، ومزار للسيدة خوله بنت الحسين، والجامع القديم. وهذا الجامع قد بُني من بقايا آثار بعلبك الرومانيّة.

خلت المساجد وحتى القصور من التصوير (من رسم ونحت) للإنسان والحيوان لأنّ التصوير، وبحسب مذاهب السنة، هو من خصائص الله. أما الشّيعة فقد أجازوا ذلك، خصوصًا في المجتمعات الفارسيّة الإسلاميّة حيث زهت المنمنمات الجميلة. واعتبر التصوير مناهضاً لفكرة التوحيد، وفيه شرك، وعبادة أوثان. لذلك اعتمد الفنانون على الأشكال الهندسية والنباتية. وبرغم هذا التحريم، نجد تصاوير في قصير عمرة الذي بناه الوليد بن عبد الملك في الأردن، ويُفترض أن تكون من عمل رسّامين نصارى. ونجد صورًا لراقصات وموسيقيّين وحفل طرب، ونجد أيضاً كتابة بالعربيّة وفيها أسماء يونانيّة.

خاتمة: سقوط الخلافة الأمويّة في المشرق

الصراعات القيسيّة اليمانيّة، والصراع على وراثة العرش، كانت في أسباب سقوط الخلافة الأمويّة. أضف إليها نقمة شيعة علي الذين كانوا ينظرون إلى الأمويّين كسلطة مغتصِبة لحقهم في الخلافة، وقد مال إليهم الناقمون على حكم الأمويّين، وعلى الأوضاع الاقتصاديّة والاجتماعيّة، خصوصًا في العراق. وكان لانغماس الخلفاء الأمويّين في الحياة الدنيا، وتهتّك بعضهم، وتراخيهم في أمور الممارسة الإسلاميّة للدين، أثره السيئ عند الناس.

وبموازاة النقمة الشيعيّة كانت تنمو نقمة أخرى يقودها العبّاسيّون الذين ينتسبون إلى العباس عمّ الرسول. فقد أعلن هؤلاء حقهم بالخلافة، وألّبوا شيعة علي إلى جانبهم تحت شعار الولاء لآل البيت. واختاروا في جنوب البحر الميت قرية الحميمة مركزًا لهم.

أنشأ العبّاسيّون في الكوفة منظمة ادّعت أنّ محمد بن الحنفيّة قد تنازل لهم عن حقه في الخلافة، وانتدبوا شخصًا مجهول الهوية الحقيقية ليؤلب الناس لصالح ثورتهم ويُدعى أبو مسلم الخراساني، الذي لربما كان إيرانياً بنسبته إلى خراسان. وقد نجح الأخير في أن يُطيح بالأمويّين في معارك جرت في 749 - 750م.

جاهر أبو مسلم بالثورة في حزيران سنة 747م، رافعًا راية سوداء ترمز إلى راية النبي محمد، اعتُمدت كشعار للعبّاسيّين. فسار على رأس اليمانيّة إلى مرو، فحاول عبثًا عامل الأمويّين فيها نصر بن سيّار، صدّه عن أخذها، فلم يفلح، فطلب نجدة الخليفة الأمويّ مروان الملقب بـ «الحمار» فلم ينجده لانشغاله بالثورة الناشبة في مدن الشام.

بعد مرو سقطت الكوفة سنة 749 دون كبير مقاومة، لأنّها كانت ملجأ أبي العباس الذي أعلن منها نفسه خليفة للمسلمين. حاول مروان صدّ زحف الثائرين، فرحل من حرّان التي كان قد اتخذها عاصمة له، إلى حيث التقى بهم على الضفة اليسرى للزاب الكبير، أحد روافد دجلة، في كانون الثاني 750م، وعلى قيادتهم عبدالله بن علي عمّ أبي العباس. خسر مروان المعركة، فانفتحت مدن الشام أمام جيش الثوّار، ولم تستسلم دمشق إلا في 26 نيسان سنة 750م بعد حصارها لأربعة

أشهر. ولحقت قوات عبدالله بمروان الهارب من أمامها، فقبضت عليه في بوصير في مصر فقتل في 5 آب سنة 750. ودُفن هناك، وحُمِل رأسه مع شارات الخلافة إلى أبي العباس.

ولرمي الرعب في نفوس المناهضين للسلطة الجديدة، دعا عبدالله بن علي للمصالحة بين الفريقين، ثمانين رجلاً من الأمويّين إلى مأدبة في 25 حزيران سنة 750م في مدينة أبي فطرس على نهر العوجا بالقرب من يافا. وفي أثناء المأدبة قطع رؤوس كل المشاركين فيها، ثم بسط البسط والسجاد على الموتى والمحتضرين، وأكمل الوليمة. ولم ينجُ من هذه المذبحة سوى أمير واحد، هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، الذي فرّ هاربًا إلى الأندلس، حيث سيوفق بإنشاء إمارة أمويّة جديدة، وقد لُقّب بالداخل وبصقر قريش. وعمد عبدالله إلى نبش قبور الأمويّين والتمثيل برفاتهم.

أسباب كثيرة أسهمت في سقوط الدولة الأمويّة بأيدي العبّاسيّين وقد ذكرناها أعلاه. كانت المصاعب الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة والدينيّة التي واجهت الأمويّين أكبر من أن تستوعبها دولة، أشبه ما تكون بقبيلة موسّعة، اعتمدت سياسة تمييز الجيش والإدارة بالعنصر الشاميّ عن غيره من عرب وأعاجم، فأثارت نقمة أهل المقاطعات الأخرى عليها. وشملت المفاضلة المميّزات الإقطاعيّة وارض الصوافي. لذلك، أسهمت «الأرستقراطية» وقيادات عسكريّة وكبار الملاكين في الثورة؛ كما أسهم فيها الفلاحون والحرفيّون الذين أغرتهم الدعاية العبّاسيّة، بالإشاعات التي بثتها، عن عزمها تخفيض الضرائب. ولعلّ الصراع مع شيعة علي والخوارج كان الأكثر فعلاً في الانشقاق. وأسهم التفاف شيعة علي والعبّاسيّين والفرس حول الشعار الغامض «الرضى من آل محمد»، أو آل البيت في تكوين كتلة فاعلة من الناقمين الذين لهم جذورهم وامتداداتهم التي أسهمت في تقويض أسس كيان الدولة الأمويّة، معتمدين في ذلك الكتمان من جهة، ودعاية تستنكر «كفر» الأمويّين وتحمّلهم تبعة الفساد المادي والروحيّ المنتشر في المجتمع من جهة أخرى. لم يكن استبدال الأمويّين بالعبّاسيّين مجرد انقلاب سلالي، بل ثورة بكلّ معنى الكلمة. ولم تكن ثورة عرق ضدّ عرق، بل عرب ضدّ عرب، ومن هنا فهي انقلاب على مفهوم الدولة الذي مارسه الأمويّون؛ وانقلاب على المفاهيم الاجتماعيّة والاقتصاديّة. ومع أن التنافس العرقيّ أسهم في إذكاء الثورة، فإنّ عدم الرضى على عدم المساواة بين العرب وغير العرب كان المحرّك الرئيس. وعندما ستنجح هذه الثورة سيحدّد الدين هويتها لا العرق، وستنشأ طبقات جديدة في المجتمع.

الى جانب العلويّين أي شيعة علي والعبّاسيّين كانت النقمة على الأمويّين مستفحِلة عند الموالي، خصوصًا عند الفرس منهم. وقد وجدت الثورة العلويّة، ورديفتها العبّاسيّة تربة خصبة في خراسان وفي بلاد فارس بشكل عام.

لمزيد من المعلومات عن الفتوحات وعهد الأمويّين راجع:

بالنسبة للمصادر الأساسيّة، تراجع مخطوطة يشوع العمودي السريانيّ الشاهد العيان على مجريات الأحداث السابقة للفتح الإسلاميّ - العربيّ، وكتب الفتوح (الواقديّ، البلاذريّ، الآزدي، ابن أعثم، الخ) وحوليات اليعقوبيّ وخليفة بن خياط وإبن عساكر والطبريّ. وهذه المصادر تؤرخ أيضاً للعهد الأمويّ وجزء من العهد العبّاسيّ. أضف إليها عبد الرحمن أبي زرعة والمسعوديّ والأصفهانيّ وابن العبريّ وميشال السوريّ. وعلى صعيد المصادر اليونانيّة نجد Theophanes وTheodoret de Cyr.

وفي طليعة المراجع مؤلفاتي الآتية: - **الشرق العربيّ في القرون الوسطى:** التحوّلات السياسيّة (بالاشتراك مع د.انطوان ضومط، د. جوليات الراسي، ود. مونيك مراد)، الدار اللبنانيّة للنشر الجامعي، بيروت 1996. - **نيابة طرابلس في عهد المماليك**، منشورات الجامعة اللبنانيّة، بيروت 1998. - **لبنان في القرون الوسطى، من الفتح العربيّ - الإسلاميّ إلى الاحتلال الفرنجيّ**، بيروت 2003. ط. جديدة منقحة في منشورات الجامعة اللبنانيّة، بيروت 2016. - **لبنان في القرون الوسطى. عهد الفرنج – الصليبيّين**، 2008. - **لبنان في القرون الوسطى، عهد السلاطين المماليك**، منشورات فينيكس، جامعة الروح القدس - الكسليك، 2015. أضف إليها فيليب حتي في تاريخ العرب وكمال الصليبيّ وهنري لامنس وعمر تدمري ودائرة المعارف الإسلاميّة، الطبعة الثانية بالفرنسيّة.

الباب الثاني:
المشرق في ظلّ الخلافتين:
العبّاسيّة والفاطميّة

القسم الأوّل:
الخلافة العبّاسيّة

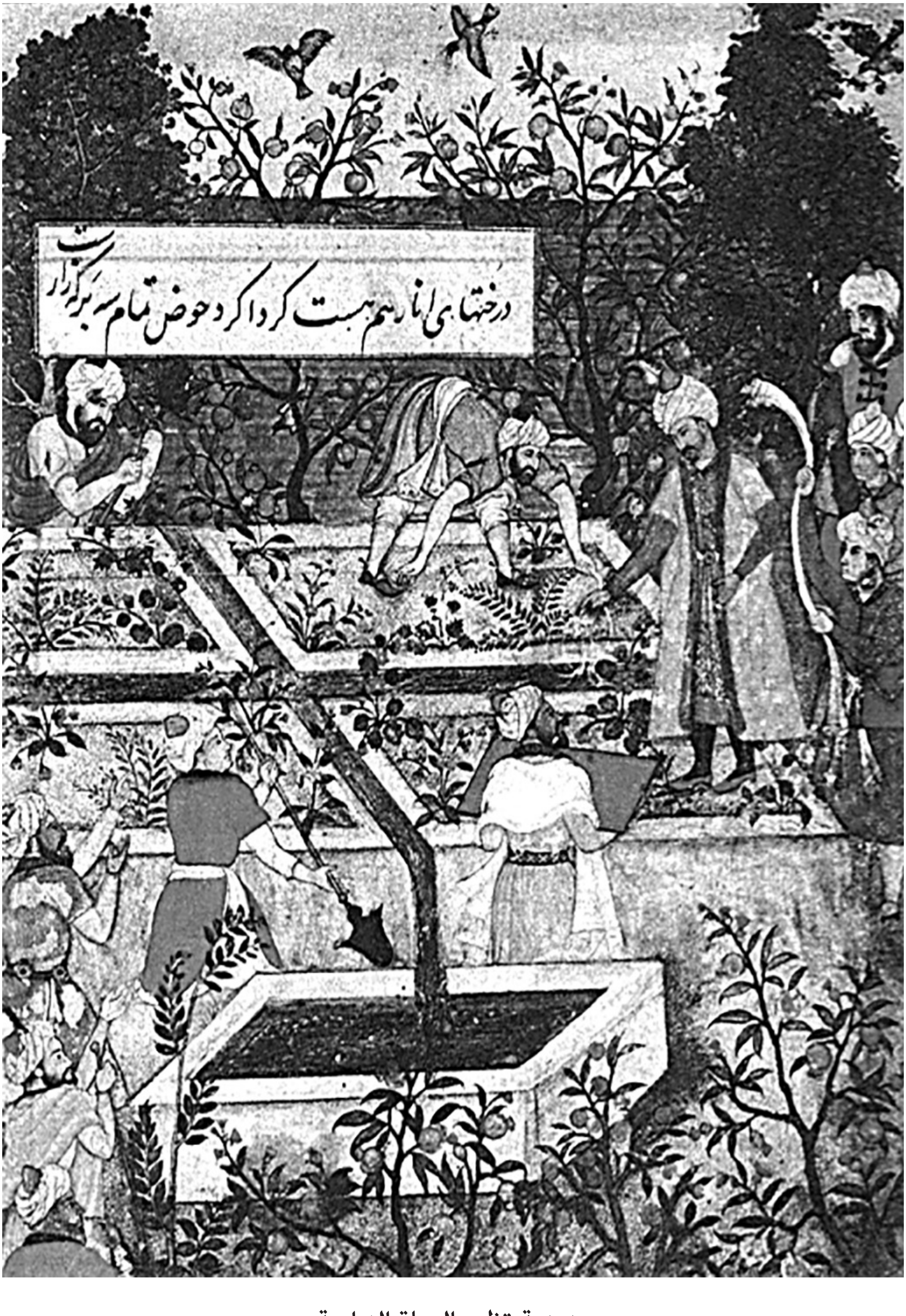

منمنمة تظهر الحياة الزراعية

كانت الدولة الأمويّة دولة متوسطيّة ساحليّة، برغم كون دمشق عاصمتها، وبزوالها انتقل الحكم الإسلاميّ إلى الداخل وارتبط بالشرق الأقصى، أكثر من ارتباطه بالمتوسط. ونتيجة لذلك سيتلاشى دور دمشق، ومعه سواحل سورية وفلسطين ولبنان الحاليّة.

بنى السفّاح سلطته على القوة والبطش، فلم يتورّع عن اتخاذ لقب السفّاح، ولم يتورّع، كما رأينا عمّه عبدالله بن علي من إبادة الأمويّين، وحذا حذوه أبو جعفر المنصور وخلفاؤه، وهذا ما سمح للدولة العبّاسيّة أن تعمّر من سنة 750م إلى 1258م. كانت دولة الأمويّين دولة دنيويّة، أمّا العبّاسيّون فسعوا لربط الخلافة بالشعائر الدينيّة، فارتدى الخليفة العبّاسيّ بردة النبي في المناسبات الرسميّة، وفي الصلاة، وفي تعلّقهم بأمور الدين وبجمع الفقهاء وعلماء الدين حولهم. وبينما كانت الصفة العربيّة هي الطاغية على الدولة الأمويّة، كانت الخلافة العبّاسيّة خلافة كل الشعوب الإسلاميّة، بحيث إنّ الإدارة في مطلع هذه الدولة كانت إلى حد ما فارسيّة، ثم أضحت تركيّة، والعرب عنصر كسائر عناصر هذه الدولة. والحلف العبّاسيّ العلويّ الذي كان في أساس سقوط الأمويّين، سرعان ما انتكصت أواصره، بعد أن خابت آمال العلويّين، عندما اكتشفوا أنّ العبّاسيّين لا يعملون في سبيل قضيتهم، بل لصالحهم كعبّاسيّين. وأبعد من ذلك، وبسقوط العدو المشترك، نهج العبّاسيّون على إضعاف قادة الشيعة، والفتك بهم وبمَن يلوذ بهم. وبما أن الكوفة، حيث أعلن السفّاح خلافته، كانت موالية لشيعة علي، انتقل منها إلى الأنبار التي أسماها الهاشمية واتخذها عاصمة له حيث سيتوفّى في سنة 754م.

الفصل الأوّل: الأوضاع السياسيّة - العسكريّة

أولاً - أبو جعفر المنصور (754 - 775م) المؤسس الحقيقيّ للخلافة العبّاسيّة وهارون الرشيد باني مجدها

بدأ أبو جعفر المنصور عهدَه بالقضاء على منازعة عمّه عبدالله بن علي له على الخلافة، على يد أبي مسلم الخراساني. وما إن انتهى من القضاء على عمّه حتى باشر التخلص من أبي مسلم، الذي، عند موت أبي العبّاس، واستخلاف المنصور، كتب إليه يعزيّه من دون أن يهنّئه بالخلافة، إلا على مضض، بعد غضب المنصور عليه، فقتله في قصره كما قتل أبا سلمة الخلال. والإثنان عبدالله وأبو مسلم هما الأساس في نجاح الثورة العبّاسيّة. ثم انتقل لضرب زعماء الشيعة، فقتل من أئمتهم إبراهيم. وهو من نسل الحسن، في 14 شباط 763م واحتزّ رأسه، وأخاه محمد النفس الزكية في 6

كانون الأول 762م الذي قُتل مصلوبًا. فأعلن الشّيعة العداء للعبّاسيّين، واتهموهم باغتصاب السلطة والخلافة.

للتأكيد على هيبة الخلافة الجديدة، عمد الخليفة المنصور إلى بناء عاصمة للعبّاسيّين، تضاهي دمشق والمدينة والقسطنطينيّة، هي بغداد، أو مدينة السلام، في موقع على ضفة دجلة الغربيّة. واستغرق البناء أربع سنوات أنفق فيه المبالغ الطائلة، وعمل فيه آلاف المهندسين والفَعَلة. واعتمد الشكل المستدير لعاصمته الجديدة، وجعل للسور حائطين من اللبن بينهما خندق، وابتنى حائطًا ثالثاً داخل السور علوه قرابة الثلاثين مترًا.

كانت للمدينة أربعة أبواب: باب الكوفة، باب البصرة، باب خراسان وباب الشام تنفتح على الجهات الأربع للخلافة العبّاسيّة. وفي قلب المدينة يقوم قصر الخلافة، قبّته خضراء وبابه مطلي بالذهب. والى جانب القصر المسجد الرئيس. وفي أواخر أيام حياته ابتنى المنصور على ضفة دجلة، خارج المدينة، قصرًا أسماه الخلد، وآخر لإبنه المهديّ في شرق المدينة أسماه الرصافة.

بعد بضع سنوات توسّع العمران في بغداد التي أضحت من كبريات مدن ذلك الزمان، وازداد التأثير الفارسيّ في الدولة الإسلاميّة، في ممارسة الحكم وفي اللباس والمجالس والغناء والآراء والأفكار، من دون أن يتعدّى ذلك ركيزتي الدين واللغة العربيّة.

هذه المدينة بلغت مجدها بعد نصف قرن من تأسيسها زمن الخليفة هارون الرشيد (786 - 809م). فلم يعُد لها نظير في الجلالة والفخامة وكثرة العلماء وكثرة دورها المفروشة بالطنافس والطراحات والآنية المطلية بالذهب والمرصعة بالحجارة الكريمة وأسواقها ومساجدها وحماماتها وخاناتها وحياة البلاط وعلية القوم التي يستفحل البذخ عندها في الاحتفالات والمناسبات. واشتهرت نساء البلاط كزبيدة زوجة الرشيد، واخته عُليّة بألبسة معينة وعصائب مطرّزة، والخفاف المرصع بالجواهر، فقلّدتهما النساء الأخريات، وأضحى ذلك ما نسمّيه اليوم «موضة» دارجة.

ومنذ عهد الرشيد أضحى البلاط مسرحًا للشعراء والموسيقيّين والمغنين والندماء، وكذلك في بيوت أفراد البيت الخليفي والوزراء وكبار رجالات الدولة.

الحرب الضروس بين الأمين والمأمون، وبين الأخير وعمّه إبراهيم بن المهديّ، دمّرت المدينة. فاضطر المأمون لاتخاذ قصر الوزير السابق جعفر البرمكي مسكنًا له في شرقي بغداد. لكن المأمون لم

يتأخر في إعادة الحياة إلى المدينة التي أضحت سوقًا لحاصلات الصين من الحرير والمسك والخزف والطيوب والمعادن وأصباغ من الهند والحجارة الكريمة والأرقاء من بلاد الأتراك والأرزّ والحنطة من مصر والزجاج والفواكه من بلاد الشام والحرائر والعطور من بلاد فارس.

كان لكل تجارة سوق خاصة بها.

تذهب الروايات التاريخيّة إلى أن «شارلمان» إمبراطور الغرب، أقام علاقات وديّة مع هارون الرشيد، كل منهما لغاية في نفسه. ف«شارلمان» يسعى لصداقة لمجابهة بيزنطية والرشيد لمجابهة أمويّي الأندلس. ومن هدايا الرشيد لإمبراطور الغرب ساعة كبيرة متقنة تعزف موسيقى.

أمّا مع الروم فكانت العلاقات حربيّة على الثغور. مما أجبر الملكة «إيرينة» الوصيّة على الإمبراطور «قسطنطين» السادس لعقد صلح مع العبّاسيّين بعد وصول جيوشهم بقيادة هارون، الذي كان لا يزال أميراً، إلى مقربة من القسطنطينيّة. مما شجّع والده على تسميته على ولاية العهد بعد أخيه موسى الهادي. واستمرّ هارون الرشيد في حالة العداء مع الروم بعد تبوّئه الخلافة، ولكن لم تتجاوز قواته، وقوات خلفائه جبال طوروس، إلا في أيام المعتصم في سنة 838م الذي احتلّ عمّورية.

ثانياً - الثورات والدويلات والكيانات شبه المستقلة في العهد العبّاسيّ

أ - انتقال السلطة إلى العبّاسيّين وتحرّك الثورات الاجتماعيّة - الاقتصاديّة في المشرق

لم يمرّ انتقال السلطة من الأمويّين إلى العبّاسيّين بخير على جبال لبنان. فإثر سقوط الدولة الأمويّة في منتصف القرن الثالث الهجريّ/ 750م، سيعرف الجبل اللبنانيّ، ثورة هي ثورة المنيطرة. وسيكون لشخصية دينيّة إسلاميّة، هي الأوزاعي، دور كبير في مهاجمة السلطة العبّاسيّة بسبب استخدامها للعنف.

عندما استقرّ الأوزاعي في بيروت، انتزع العبّاسيّون السلطة من الأمويّين الذين أبادوا معظمهم ونقلوا العاصمة إلى الكوفة فبغداد، فضعف عمومًا موقع دمشق ولبنان وبلاد الشام عامة اقتصاديًا، واجتماعيًا، بعدما كان مركز الثقل السياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ، فيها، في عهد الدولة الأمويّة. وفي مطلع العهد العبّاسيّ، كانت ولاية الشام ومصر ولاية واحدة، وعليها صالح بن علي (ت 764م)،

ابن عمّ السفّاح والمنصور. وبقي أحفاد صالح يتوارثون حكم بلاد الشام ومصر مدّة طويلة من الزمن.

أبقى الخلفاء العبّاسيّون الأوائل على نظام الأجناد، الذي كان معمولاً به زمن الأمويّين، وحصّنوا السواحل، وشحنوها بالمقاتلة، وربما كان سبب ذلك كثرة غارات البيزنطيّين على البلاد الإسلاميّة، وخصوصًا في عهد «قسطنطين» الخامس (740 - 775م). ولكن هذا الاهتمام لم يؤدّ إلى تحسّن الأوضاع العسكريّة كما كانت في عهد بني أميّة، كما لم يؤد عمل الإمام الأوزاعي إلى تشجيع المرابطة في الساحل، بتخصيص الأعطيات لأهله.

وزاد في الانهيار الاقتصاديّ، في البلاد الشاميّة، تحوّل مسالك التجارة عن بلاد الشام ومصر إلى بلاد فارس والعراق. فالتبدّل الكبير الذي طرأ على انتقال السلطة من دمشق إلى بغداد، كان في أساس توجّه الدولتين المتناقض: فالأمويّون كانوا متوجهّين بشكل أساسيّ إلى أمور وشؤون المتوسط، بينما توجّه العبّاسيّون إلى الشرق. الخليفة العبّاسيّ كان آسيوياً، تجارته تتوسّع في الخليج العربيّ - الفارسيّ وبحر الهند. و»إمبراطوريّته» تكبر باتجاه آسيا الوسطى، بينما كانت تضعف سلطته في أسبانيا والمغرب وحتى في مصر. وموقفه من الإمبراطوريّة البيزنطيّة كان موقفاً دفاعياً، فالصوافي كانت مجرّد حركة تجدّد الجهاد المقدّس من دون فعالية مهمّة. وكان التفكّك قد بدأ يعمّ الأرياف منذ أواخر عهد الأمويّين، فتسبب ذلك بهجوم البدو على المناطق الزراعيّة وتحويلها إلى مراعٍ للمواشي. وعبثاً حاول العبّاسيّون وقف ذلك في عهد المنصور، والرشيد (170 - 193هـ/786 - 809 م) والمأمون (198 - 218هـ/813 - 833 م). وقد حاول المنصور، وكذلك المأمون لاحقاً، ضبط مساحة الأرض المملوكة، وهو ما يُعرَف بـ «الروك» وذلك تسهيلاً لعمل مسح الأرض لجباية الخراج والعشر، فاصطدما بمقاومة البدو، وبمقاومة أصحاب الأملاك الزراعيّة المتخوّفين من زيادة الضرائب.

الأجواء المعادية للمسيحيّين بدأت عام 751 - 752م، عندما أقدم الفاتحون الجدد على قتل العديد منهم، واستمرّت هذ الأجواء العدائيّة مع الضرائب التي فرضها المنصور العام 757م على المسيحيّين، حتى على الذين يكونون معفيّين منها عادة، كالرهبان وثروات الكنائس. هذا، وغيره قاد إلى مجموعة ثورات في أرجاء الخلافة العبّاسيّة، كانت من أبرزها ثورة المنيطرة.

ثورة المنيطرة

سبق ثورة المنيطرة (في سفح جبل صنين) وصول البيزنطيّين إلى طرابلس والى اللاذقيّة بطريق البحر في العام 140هـ/ 758م. ولعلّ هذا الغزو هو الذي شجّع أهالي المنيطرة وجوارها على الثورة.

كانت الدوافع المباشرة لهذه الثورة، هي: سياسة الضرائب التي اعتمدها الخليفة المنصور العام 758م، والجور والتضييق اللذان مارسهما عمّاله على الناس كلّهم، بحيث ابتُلي الأهالي بالعوز وقلّة الدراهم. فأنباط جبل لبنان كانوا يتذمّرون من الذين كانوا على خراج بعلبك، ويتعمّدون قهر الناس. ولذلك أمسك الناس في البدء عن قتال هؤلاء الأنباط بسبب هذا التذمّر. ولكن عندما كثروا وبدأ سبي بعض قرى البقاع تغيّرت الأمور، بعد تعديل ما تحلّه الدولة من عائدات ماليّة من الأراضي أي الخراج ولا سيّما لدى الأنباط النصارى.

محاولة «الروك» الأوّلى التي قام بها أبو جعفر المنصور أثارت استياء النصارى في جبل لبنان. فتقدّم أهالي جبّة المنيطرة في العام 759 - 760م بشكوى ضدّ عامل بعلبك بشأن الخراج، فلم يلقوا منه آذانًا صاغية. وصادف أن الروم كانوا قد نزلوا بعسكرهم في طرابلس، كما ذكرنا، فتشجّع أهالي جبّة المنيطرة، وقاموا بأعمال التحدّي ضدّ عامل بعلبك، هذا في الوقت الذي كان فيه صالح بن علي العبّاسيّ والياً على بلاد الشام.

أوّل إشارة إلى هذه الثورة نجدها عند المؤرخ البيزنطيّ «تيوفانس»، الذي يذكر أنّ « في العام 760م قام في لبنان شخص يدعى تيودور (يعطيه الكاتب صفة السوريّ او السريانيّ) بثورة ضدّ العرب في القرى الواقعة خارج هليوبوليس (بعلبك). ففرّ العديد من الجهتين، ولكن أخيراً خسر وكلّ اللبنانيّين الذين كانوا معه قتلوا».

هذه الرواية تجعل الثورة في جوار بعلبك، ولعلّ ذلك في قرى جبل لبنان القريبة من بعلبك، وتعطي إسمًا لقائد الثورة، «تيودور»، هو غير اسم القائد الذي ستقدّمه الروايات العربيّة اللاحقة، ومصير هذا القائد مختلف عن المصير الذي سنعرفه وهو القتل.

وتلي إشارة «تيوفانس» رواية لهذه الثورة نجدها عند ابن سلاّم (ت224هـ/856م) الذي يقول في معرض كلامه على خروق أهل الذمّة للعهد: « وقد كان نحو من هذا قريباً الآن في دهر الأوزاعي بموضع بالشام، يقال له: جبل اللبنان، وكان به ناس من أهل العهد فأحدثوا حدثاً، وعلى الشام

يومئذ صالح بن علي، فحاربهم وأجلاهم فكتب إليه الأوزاعي، فيما ذكر لنا محمد بن كثير عنه برسالة طويلة، فيها:

«قد كان من إجلاء أهل الذمّة، من أهل جبل لبنان، مما لم يكن ممالئًا عليه خروج من خرج منهم، ولم تطبق عليه جماعتهم، فقتل منهم طائفة، ورجع بقيتهم إلى قراهم، فكيف تؤخذ عامة بعمل خاصة؟ فيخرجون من ديارهم وأموالهم؟ وقد بلغنا إن من حكم الله جلّ وعزّ انّه لا يؤخذ العامة بعمل الخاصة، ولكن يأخذ الخاصة بعمل العامة، ثمّ يبعثهم على أعمالهم فأحق ما اقتدى به ووقف عليه حكم الله تبارك وتعالى وأحق الوصايا بأن تحفظ وصية رسول الله وقوله: من ظلم معاهداً أو كلّفه فوق طاقته فأنا حجّيجه. من كانت له حرمة في دمه فله في ماله والعدل عليه مثلها. فإنهم ليسوا بعبيد فتكونوا من تحويلهم من بلد إلى بلد في سعة، ولكنهم أحرار أهل ذمّة، يرجم محصنهم على الفاحشة، ويحاصّ نساؤهم نساءنا من تزوجهنّ منا القسم، والطلاق، والعدّة سواء،»... ثمّ ذكر رسالة طويلة.

نستخلص من هذا النصّ أن استحلال دم النصارى في جبل لبنان هو نتيجة خرق ما لشروط الذمّة القائم على استحداث بناء دينيّ ما.

وتجمّع أهالي المنيطرة وجوارها حول شاب يدعى بندار، وحوّلوه ملكاً عليهم. فتحصّن بندار في القرية ولبس التاج، ورفع «راية الصليب»، وأخذ هو وجماعته يغيرون على البقاع حيث أوقع جيش العبّاسيّين الهزيمة بهم، ثم لحقهم إلى المنيطرة وأخذ حصنهم. ففرّ بندار إلى طرابلس وهرب مع الروم، (وهذا ما يرجّح كونه من الروم لا من الموارنة). وإثر ذلك أصدر الوالي صالح بن علي أمراً بتهجير أهالي المنيطرة وجوارها وتشتيتهم في البلاد، وعفا بعد ذلك عن قسم منهم، ولكن الأكثريّة بقيت مشرّدة.

وقد أخبر البلاذريّ: «خرج بجبل لبنان قوم شكوا عامل خراج بعلبك، فوجّه صالح بن علي بن عبد الله من قتل مقاتلتهم وأقرّ من بقي منهم على دينهم وردّهم إلى قراهم وأجلى قوماً من أهل لبنان».

الأرجح أنها كانت ثورة لأسباب اقتصادية، ولم تكن شاملة الجماعات كلّها من سكان الجبل.

يبدو أن الولاة العبّاسيّن، بعد ثورة المنيطرة، عمدوا إلى إبعاد نصارى لبنان عن المناطق المسيطرة على الدروب الجبلية التي تربط الساحل بالداخل. فحشّوا جاليات من المسلمين، منهم البحتريّون والتنوخيّون، على التوطّن فيها.

وقد سهّل عملية استقرارهم بوسط لبنان أنّه كان قليل السكان.

ثورة المنيطرة هذه، هي جزء من سلسلة ثورات جاءت نتيجة إقصاء قسم من الأرستقراطية العربيّة عن الحكم، وانحلال دور الشام لصالح العراق. فقامت ثورتا أبي الورد والسفياني، وأصيب الطالبيّون والعلويّون بخيبة أمل كبيرة عندما شعروا بأنّ العبّاسيّين جيّروا التحالف الذي كان قائماً بينهم زمن الأمويّين لصالحهم فقط. ومن أبرز ثورات الطالبيّين: ثورة كلّ من محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم.

هذه الثورة، ذات الطابع المسيحيّ البحت، كانت لها مثيلاتها عند المسلمين، في عهد الرشيد والأمين (809 - 813 م) والمأمون والمعتصم (833 - 842 م)، ولم تكن فقط انتفاضات شعبيّة ضدّ جور العبّاسيّين بل رفضًا لكل ما هو عبّاسيّ. فالعبّاسيّون لم يُفلحوا في استمالة أهل بلاد الشام إلى جانبهم. فكانت المنطقة في حالة رفض للعبّاسيّين. وبلغت نقمة الناس على العبّاسيّين قول أحدهم للمنصور» الله أعدل من أن يجمعك علينا والطاعون»، فأمر المنصور بقتله فوراً. وهذا ما حدا بالخليفة المتوكل (232 - 247هـ/847 - 861 م) للتفكير بنقل العاصمة، إلى دمشق، لعلّه يُفلح في التخفيف من غلوائهم.

وهذا أيضاً ما يفسّر إقبال بلاد الشام على تقبّل الخوارج، إلى حدّ ما، وعلى التشيّع إلى حد كبير وقد طغى على الوجود السنيّ منذ القرن التاسع الميلاديّ. وكان على رأس المتشيعيّن سكان العديد من المناطق اللبنانيّة على المذهب الإثني عشري - الإمامي، وعلى مذاهب الإسماعيليّة والقرمطيّة والنصيريّة ثم الدرزيّة لاحقاً. وكان القرامطة منذ 902م قد حاولوا الاستيلاء على المنطقة ففشلوا رغم فتكهم بأهل بعلبك. وبقي هؤلاء يهدّدون بلاد الشام حتى نجاح الدولة الفاطميّة بإقصائهم عنها في 977م، مخلّفين وراءهم العديد من المحبّذين لهم في وادي التيم والأشواف وبجوار حلب. وهذا ما يوضح إلى حدّ ما انتشار المذهب التوحيديّ الدرزيّ في هذه الأرجاء. ويبدو أن التشيّع كان قد بدأ ينتشر في بلاد الشام بشكل واضح بعد عهد المتوكّل العبّاسيّ، زمن أحمد بن طولون الذي دانت له البلاد من مصر إلى بلاد الشام.

ثورات من عهد المهديّ (158 - 169هـ/775 - 785م)
حتى العهد الطولونيّ 264هـ/878م

عرفت بلاد الشام في هذه الفترة غزوات كثيرة وثورات كثيرة غير ثورة المنيطرة.

الثورة السفيانّية

شهدت بلاد الشام صراعات أحدها الثورة التي عُرفت بالسفيانّية التي سعت لإحياء الخلافة السفيانّية الأمويّة. فقد جرت هذه الحركة بين 195 و198هـ/810 و813م، إبان الصراع بين الأمين والمأمون، وتزعمّها علي بن عبدالله بن خالد بن يزيد بن معاوية الذي عُرف باسم أبي العميطر. والعميطر كنية الحرذون. فقد أعلن عليّ المذكور نفسه المهديّ، وبويع بالخلافة في دمشق في ذي الحجّة العام 195هـ/810م. في خلافة الأمين، وقال انّه ابن شيخي صفين: الإمام علي ومعاوية، لأنه ابن نفيسة بنت عبيدالله بن العبّاس بن علي. وقد مشت معه اليمنيّة، ووقفت في وجهه القيسيّة، فانتقم منها انتقاماً شديداً. وعندما دعا لنفسه بالخلافة قوي على عامل دمشق، وأخرجه منها، وأعانه الخطاب بن وجه الفلس مولى بني أمية، الذي كان قد تغلّب على صيدا، فسيطرت هذه الحركة على صيدا والجنوب والبقاع وبعلبك والسواحل وحمص وقنسرين ووادي التيم ودمشق وكانت مصر معها. ولمّا لم تقف إلى جانبه القيسيّة أعمل فيها القتل. وانتهت حركتُه بسرعة بسبب النزاع بين الفرعين السفيانيّ والمروانيّ، عندما زاحمه مسلمة من نسل عبد الملك بن مروان على ادّعاء الخلافة.

وفي عهد المأمون جاء عبدالله بن طاهر إلى الشام لهدم حصونه وهدم صور والمعرّة في 209هـ/824م.

ثورة المبرقع

انتهت ثورة أبي العميطر فشهدت المنطقة ثورة جديدة على يد المبرقع في العام 227هـ/842م في عهد الخليفة المعتصم (218 - 227هـ/833 - 842م). والمبرقع (أبو حرب اليماني) هو تميم أبو حرب من اللخميين القائمين في غور الأردن، استقطب اليمنيّين ومنهم بنو عاملة في الجنوب، واعتمد في ثورته على الفلاحين. ومشاركة الفلاحين في الجنوب تعكس عدم رضى على السياسة الاقتصاديّة التي

اتبعها العبّاسيّون. وقد تمكّن العبّاسيّون من القضاء على ثورته، مستغلين زمن حرث الأرض وانكفاء الفلاحين إلى ارضهم، وبالتالي ضعف عديد مؤيديه بسبب ذلك، فانقضوا عليه وأنهوا حركته.

خروج ابن شيخ على سلطة العبّاسيّين

ولم يمضِ ربع قرن على هذه الأحداث، حتى شهدت المنطقة خروج حاكم جندَيْ فلسطين والأردن أحمد بن عيسى بن شيخ بن الشليل الربعي الشيباني على السلطة، في منتصف القرن الثالث الهجريّ حتى أواخر القرن الرابع الهجريّ/القرن العاشر الميلاديّ. فقد امتنع ابن شيخ عن مبايعة الخليفة المعتزّ (251 - 255هـ/866 - 869م) وفرّ إلى مصر سنة 252هـ/866م. وبعد أن صفح عنه المعتزّ عاد إلى حكم البلاد مستولياً على فلسطين والأردن ودمشق، متمنّعاً عن إيصال الأموال إلى الخليفة، وساعياً لاحتلال مصر. فأوكل الخليفة أمره إلى ابن طولون الذي طرده من مصر، كما أن أماجور التركيّ حاكم دمشق، تابع الحرب ضدّه وهزمه، فهرب ابن شيخ إلى صور وتحصّن بها، ثمّ عُينّ والياً على أرمينيا سنة 257هـ/870م.

أ- ثورة الزنج: (255 ـ 270هـ/ 869 ـ 883م)

ازدهرت في القرن الثالث الهجريّ/التاسع الميلاديّ تجارة العبيد السود، فعصابات من المرتزقة كانت تأسر السود فى البلدان الأفريقية وتبيعهم للتجار في أسواق النخاسة ومَن يشتريهم للعمل سخرة في الزراعة. وكان أكثر انتشار لهم في جنوب العراق في مدينة البصرة في المستنقعات.

ثار السود ومعهم شعوب الزط وفقراء ومعدمون يقطنون البصرة ضدّ السلطة وجعلوا من مدينة المختارة (جنوب البصرة) مركزاً للثورة مهددين الخلافة الإسلاميّة. وكان لهذه الثورة أثرها في النتاج الأدبيّ فترك فيها الشاعر ابن الرومي قصيدة تحتوي على وصف شنيع ونقد لاذع لهؤلاء الزنج.

نتيجة الحالة الاقتصاديّة المتردية ثار الزنوج بقيادة رجل فارسي يُدعى علي بن محمد، ادعى أنّه سيخلص هؤلاء المعدَمين من الرق والظلم. ووعدهم بالعتق من العبودية والعدل والمساواة وتوزيع الأموال بين الناس. وكان هؤلاء يكسحون السباخ بالبصرة والأملاح التي كانت تغطي شواطئ الخليج الفارسيّ (العربيّ)، لتنقية الأرض من الأملاح؛ وجعلها صالحة للزراعة. سافر في عام 249هـ إلى البحرين ليدعو الناس إلى الثورة ثم قصد بغداد فجمع مجموعات كبيرة من الثوار الزنوج فسيطر على البصرة والقادسيّة ودمّروها وقتل العديد من سكانها.

تحرّك الخليفة المعتمد أخيرًا، فأمر بقمع الثورة ففشل فزحف هؤلاء على الأهواز وأخذوها وردّوا حملات العبّاسيّين المتكررة عليهم واحتلوا جزءًا من بلاد فارس والبحرين وشرق العراق.

نجح الخليفة العباسي الموفق عام 257هـ بالانتصار على الثورة بعد حملات عسكريّة متكررة ذهب فيها قرابة نصف مليون رجل، وهو رقم مبالغ فيه، وتمكّن من إلقاء القبض على زعيم ثورة الزنج، علي بن محمد، وقطع رأسه عام 270هـ.

ب - دويلات وكيانات في قلب الخلافة العبّاسيّة

1 - الطولونيّون (264 - 291هـ/878 - 903م) والعبّاسيّون مجدّدًا (291 - 330هـ/903 - 941م) وحركة القرامطة

تفسّخت الدولة العبّاسيّة، فقامت دويلات في قلبها، وعلى أطرافها، لأسباب سياسيّة وعسكريّة عدّة. فبسبب سيطرة الأتراك على الخلفاء، اضطرّ هؤلاء إلى منح قوادهم حكم الولايات، حتى غدا معظم الولاة من الأتراك الذين سعى بعضهم - بسبب ضعف السلطة المركزيّة - إلى الاستقلال. هذه السياسة أفسحت المجال أمام الحكّام المحليّين للاستيلاء على مقاطعاتهم، كالحمدانيّين مثلاً، الذين بارك الخليفة بدعتهم، فاستغلّ القرامطة الوضع وأقاموا دويلتهم، وضعف نفوذ العرب، وخصوصاً بعد تنفيذ كتاب الخليفة المعتصم إلى عامله على مصر بحلّ الجيوش العربيّة من ديوان الجيش، فغدا معظم ولاة مصر وعمالها من الأتراك. وكان الولاة الأتراك مستقرّين في بغداد أو سأمراء، ويرسلون نوّاباً عنهم إلى ولاياتهم، شرط أن يرسلوا المال المطلوب. وكان منهم أحمد بن طولون، الذي بدأ فيها نائباً لوالي مصر، وأسس دولة حملت اسمه.

أحمد بن طولون (220هـ/270هـ/ - 835 - 884م)، تركيّ سُبي من فرغانة. وأُرسِل هدية إلى المأمون، ثم عُيّن سنة نائباً لوالي مصر.

عمل ابن طولون على فرض نظام عسكريّ قويّ، وعلى تطويع جيش ناهز المئة ألف، قوامه الترك الذين يتحدّر منهم ومن الزنوج. وعمد، بعد وفاة والي سورية، إلى الاستيلاء عليها، وأنشأ قاعدة بحريّة في عكا.

اشتهر ببنائه للمسجد الذي يحمل اسمه ويتميّز بمئذنته الملتوية على شاكلة مساجد سأمراء.

وعندما أرسل الخليفة المعتمد (256 - 279هـ/870 - 892م) العبّاسيّ إلى ابن طولون يستعجله دفع الخراج أجابه: «لست أطيق ذلك والخراج في يد غيري». وبدهائه، استمال إليه الخليفة، الذي أقرّه على الولاية، وضمّ إليه سورية وفلسطين ولبنان، ثمّ استقلّ سنة 264هـ/ 877م.

أعلن أحمد بن طولون، استقلاله في مصر ورفضه سلطة خلافة بغداد، مستغلاً الصراعات في البلاط العبّاسيّ، وضعف موقف الخليفة، بسبب ثورات الزنج، فضمّ إلى حكمه بلاد الشام أجمع، حتى أنطاكية، وقد ساعده على ذلك، كونه كان مسؤولاً عن مراقبة السواحل وحمايتها.

وأكمل خمارويه (884 - 895م) سياسة ابيه أحمد بن طولون، وبعدما انتصر عليه الخليفة الموّفق العبّاسيّ في فلسطين، انهزم إلى مصر. ثمّ وقع الصلح بين الخليفة المعتضد وخمارويه، وتزوّج إبنة الأخير. وقد عُرف عن خمارويه أنه بنى قصرًا كثر فيه استعمال الذهب وصوره، وصور نسائه والمغنيّات محفورة على الخشب.

وبقيت المنطقة بيد الطولونيّين، الذين أقرّ العبّاسيّون حكمهم على مصر والشام مع الخليفة المعتضد العبّاسيّ في 286هـ/899م، على زمن هارون بن خمارويه بن طولون.

مات خمارويه اغتيالاً وخلفه جيش بن خمارويه (895 - 896م)، وهارون (896 - 904م) فشيبان (904 - 905م) الذي انتهت معه دولة الطولونيّين وعادت مصر إلى حكم العبّاسيّين.

في ظلّ الطولونيّين، ظهرت حركة القرامطة، في عام 288هـ/902م، وهم الفرقة الشيعيّة الإسماعيليّة المنتسبة إلى أحد دعاة الإسماعيليّة حمدان بن الأشعث، المعروف بحمدان قرمط، يدعون إلى تحقيق عدالة اجتماعيّة «اشتراكية».

سار القرامطة باتجاه دمشق فجرت معركة بينهم وبين طغج الفرغاني، عامل الطولونيّين في دمشق، في وادي القردان والأفاعي من أعمال دمشق في رجب 289هـ/901م. ثمّ حاصر هؤلاء دمشق. وبعد ذلك، عندما وصلت القوات المصريّة، جرت المعركة بين القرامطة، بقيادة يحيى بن زكرويه، وبين عسكر الطولونيّين في كناكر وكوكبا، على مسيرة يوم من دمشق، وكان ذلك في غرّة شهر رجب من سنة 290هـ/902م، في البقاع الغربيّ، حيث قتل يحيى. وخلف الحسن بن زكرويه أخاه يحيى، فهاجم حمص وحماه وحلب، وضرب الدينار باسمه، وأباد أهالي بعلبك، حتى لم يبق منهم

إلا اليسير. ثم سار إلى بلدة سلميّة، وقتل مَن فيها من بني هاشم، وكلّ ما وجده فيها من إنسان وحيوان، وكان يريد من جرّاء ذلك القضاء على أي أثر للإسماعيليّين وأئمتهم.

ومع عودة العبّاسيّين عام 903م إلى حكم المنطقة، عاد الصراع مجدّداً بين البيزنطيّين وسواحل بلاد الشام. وانطلق من الساحل المذكور «ليو» الطرابلسيّ ليغزو «سالونيكا» في اليونان. وقام «ليو» المذكور مع «دميان» الصوريّ بإسقاط الدولة الطولونيّة في مصر سنة 292هـ/904م.

2 - حكم الإخشيديّين (330 - 358هـ/941 - 969م)

بعد سقوط الدولة الطولونيّة عادت سلطة العبّاسيّين إلى بلاد الشام، ولكنّهم وقعوا في خطأ إسناد ولاية مصر إلى محمد طغج، أحد قادة الطولونيّين السابقين الذي لم يلبث أن استقلّ بها.

ففي سنة 330هـ/941م، أعلن والي مصر، محمد بن طغج - الملقب بالإخشيد (بياض الشمس) - استقلاله عن الخلافة العبّاسيّة، فضمّ بلاد الشام إليه، فأقرّه عليها الخليفة العبّاسيّ المستكفي (333 - 334هـ/944 - 946م). وكان الخليفة المقتدر قد ولاّه (295 - 320هـ/908 - 932م) على دمشق فسار إليها، ثمّ ضمّ إليه الخليفة المتقي لله (329 - 333هـ/940 - 944م) الشام والحجاز وغير ذلك.

خلف الإخشيد ولدان (أبو القاسم أنوجور (946 - 960) وعلي (960 - 966م) لم تكن مقاليد السلطة بيدهما، بل بيد خصي حبشي يُدعى كافور أبو المسك، سرعان ما تولى السلطة منفرداً بين سنتي 966 و968م. وقد أحسن كافور الدفاع عن الدولة الإخشيديّة في وجه أطماع الحمدانيّين. وعرف عن كافور بخلُه فلم يتورّع الشاعر المتنبي عن هجائه، عندما لم يجزل له العطاء، بعدما كان قد مدحه.

كان أبو الفوارس أحمد (968 - 969م) آخر أمراء الإخشيديّين. معه انتهت الدولة التي لم تترك آثاراً عمرانيّة مميّزة.

وشهدت البلاد نزاعاً بين دولة الحمدانيّين الشّيعة الإماميّة في حلب والإخشيديّين السنّة. وفي عهد الحسن بن عبيدالله بن طغج ورد القرامطة إلى دمشق، فوقعت الحرب بينهم وبين الحسن سنة 357 هـ/967م، فكان نصيب الأخير الهزيمة.

شهدت المنطقة زمن الإخشيديّين، حملة بيزنطية بقيادة «الفسيلفس نقفورس فوقاس» Niképhoros Phokas (963 - 969م) سنة 357 - 358هـ/968م، وكانت الدولة الإسلاميّة ضعيفة

بسبب تنافس الفاطميّين والإخشيديّين والبويهيّين والحمدانيّين على اقتسامها. وصل نقفور إلى حلب فمعرّة النعمان فكفرطاب فشيزر فحماة فحمص التي أخذ منها رأس القديس يوحنا، فعرقا في لبنان، فأسر أهلها بعد حصارها تسعة أيام، وأخذ خلقاً ومالاً كثيراً، وأسر أمير طرابلس أبا الحسن أحمد بن نحري الأرغلي. ثمّ وصل إلى طرابلس فحاصرها برّاً وبحراً ولم يفلح بأخذها، فخرّب القرى والمدن في جوارها، وفي ساحل اللاذقيّة، وبعد رحيله عاد المسلمون إلى عرقا فسكنوها.

ارتاح الإخشيديّون من الصراع مع البيزنطيّين فتفاجأوا بالفاطميّين عندما أرسل الخليفة الفاطميّ المعزّ قائد جيشه، جوهر الصقلّي، إلى مصر فقضى على الحكم الإخشيديّ سنة 358هـ/969م. ومن مصر أرسل أحد قوّاده جعفر بن فلاح للسيطرة على بلاد الشام، فدانت له مدن لبنان، ودخل دمشق عام 360هـ/971م. وكانت صور أولى المدن التي سقطت بيد الفاطميّين.

في زمن هذه الدويلات المتعاقبة، قامت في المشرق دولة اشتُهرت بالسيف وبالشعر وبالبطولات شبه الملحميّة، هي الدولة الحمدانيّة.

الدولة الحمدانيّة (944 - 1003م)

إمارة إسلاميّة شيعيّة أسَّسها ناصر الدولة أبو مُحمَّد الحسن بن أبي الهيجاء في مدينة الموصل. وامتدَّت باتجاه حلب وشمال بلاد الشام.

نشأت هذه الإمارة في شماليّ سورية على يد سيف الدولة الحمدانيّ (944 - 967م) الذي استولى على حلب وحمص وطرد منها عامل الإخشيد.

خلف سيف الدولة سعد الدولة أبو المعالي شريف (967 - 991م) فسعيد الدولة أبو الفضائل سعيد (991 - 1001م) فأبو الحسن علي (1001 - 1003م) ابن سعيد وشقيقه أبو المعالي (1001 - 1003).

تولّى ناصر الدولة الموصل زمن الخليفة العبّاسيّ جعفر المُقتدر بِالله، فسيطر على مناطق من شمال العراق، فاعترف الخليفة بحكمه لها مُقابل مبلغٍ من المال يدفعه. ولمَّا استولى البويهيّون على الحُكم في بغداد، ترك سيف الدولة، أخو ناصر الدولة، الموصل وتوجَّه إلى مدينة حلب فانتزعها من حكم الإخشيديّين سنة 944م. ثم استولى على حِمص، وعجز عن السيطرة على دمشق. ذاعت شُهرة سيف الدولة بصراعه مع الروم البيزنطيّين في شمال سورية، وبجعله حلب منارة للأدباء والعلماء.

سعى سيف الدولة، بعد أن ثبَّت سلطته في حلب وجوارها إلى التوسُّع، فاستولى على قنَّسرين والثُغُور الشاميّة وأنطاكية وحِمص، واستعدَّ لِلزحف نحو دمشق، مستغلاً ضعف سلطة الإخشيد فيها، فأرسل المذكور جيشًا إلى الشَّام بِقيادة ابي المسك كافور. والتقى الجيش الإخشيديّ بِسيف الدولة عند الرستن، حيث انهزم. فتقدَّم سيف الدولة إلى دمشق، فدخلها في شهر رمضان من سنة 333هـ / شهر أيَّار سنة 945م.

فخرج الإخشيد بِنفسه إلى الشَّام، فدخل أهالي دمشق في طاعته مُجددًا، فانسحب سيف الدولة إلى حِمص فحلب حيث لحقه إليها الإخشيد فانسحب إلى الجزيرة الفُراتيَّة فالرقَّة. لم يتمكَّن الإخشيد من البقاء طويلًا في حلب، فتوصَّل إلى عقد اتفاق صُلح مع سيف الدولة في شهر ربيع الأول سنة 334هـ/ تشرين الأول (أكتوبر) سنة 945م حصل سيف الدولة بنتيجته على البِلاد المُمتدة من قرية جوسية إلى حِمص فحلب وسائر أعمالها وتزوّج من فاطمة إبنة الأخشيد.

وبعد كرّ وفرّ بين الإخشيديّين وسيف الدولة في الاستيلاء على دمشق وخسائر متبادلة عادوا إلى فكرة الصلح السابق واتَّفقوا على إعادة إحياء صُلح سنة 334هـ / 945م.

اشتهر سيف الدولة الحمدانيّ بصراعه مع الروم البيزنطيّين، فسطّر له التاريخ مآثر عظيمة. فالحُدود بين الدولتين، الحمدانيّة والبيزنطيّة، تبدأ من شماليّ سُميساط على الفرات، وتمُرُّ بين حصن منصور وزبطرة، وشماليّ الحدث ومرعش، وقد اتبعت سلسلتيْ جبال طوروس حتَّى أبواب قيليقية ونهر اللامس، واتَّجهت، نحو الشمال إلى شرقي سُميساط فأرمينية.

استأنف البيزنطيّون، زمن إمبراطورهم قسطنطين السابع، نشاطهم العسكريّ في سنة 336هـ/ِسنة 947م، فأغاروا، بِقيادة الدمستق برداس فوقاس، على أطراف الشَّام. وفي سنة 338هـ/ِسنة 949م استولوا على مرعش، وزحفوا نحو طرسوس بِقيادة ليون بن برداس فوقاس، فتصدَّى لهم مُحمَّد بن ناصر الدولة عند بوقا شماليّ أنطاكية، إلَّا أنَّهُ تعرَّض لِلهزيمة.

جَهّز سيف الدولة جيشًا ضخمًا، وخرج على رأسه في 15 ربيع الأوّل 339هـ/ 1 أيلول 950م مهاجمًا الأراضي البيزنطيّة، واصطحب معهُ ثلاثة من الشُعراء هُم المُتنبي وأبا فراس وأبا زُهير المُهلهل، فهاجم إقليم قباذق وقيصريَّة وسمندو وخرشنة، ووصل إلى صارخة فاقترب من القسطنطينيّة، وانتصر على قُوَّةٍ عسكريّة بِقيادة ليون بن برداس فوقاس، ثم انكفأ إلى حلب، بسبب فصلِ الشتاء،

فكمن له ليون بن برداس فوقاس عند جبال طوروس بين البستان والحدث، وألحق بجيشه خسارة كبيرة. فعاد سيف الدولة أدراجه إلى حلب.

عاد سيف الدولة لمصادمة البيزنطيّين في جُمادى الأولى سنة 340هـ/تشرين الأول 951م، فأحرق القُرى قُرب المصيصة، وأعاد بناء مرعش التي دمَّرها الروم قبل بضع سنوات، وفي سنة 342هـ/سنة 953م قام بأهم الحملات التي قام بها في حياته؛ بهجومه على مدينة ملطية.

وأشهر معارك سيف الدولة، كانت في سنة 343هـ/سنة 954م، عند تشييده حصن الحدث، فهاجمه الدمستق برداس فوقاس على رأس جيشٍ ضخمٍ، يُقدَّر بِخمسين ألف مُقاتل. وجرى قتالٌ عنيف بين الطرفين استمرَّ من أوّل النهار إلى وقت العصر، وقد خلّدها الشاعر المتنبي في إحدى قصائده.

وتتابعت معارك سيف الدولة مع البيزنطيّين في سنة 345هـ/سنة 956م، عندما غزا الأناضول، غير أنَّ البيزنطيّين تمكّنوا من دُخُول طرسوس، وميافارقين. وهاجموا، بِقيادة الدمستق "نقفور فوقاس"، حصن الحدث، واستولوا عليه صلحًا، فأجلوا أهله عنه وهدموه.

خرج سيف الدولة في سنة 349هـ/سنة 960م على رأس جيشٍ كبير، فكمن البيزنطيّون لِلمُسلمين في درب مغارة الكُحل، وهو أحد دُروب جبال طوروس التي كان المُسلمون يعبرون من خلالها من الشَّام إلى الأناضول والعكس. فانقضَّ عليه ليون بِقُوَّاته، فدارت بين الطرفين معركة في 15 رمضان المُوافق فيه 8 تشرين الثاني (نوفمبر) تعرَّض فيها سيف الدولة لِخسارةٍ كارثية، وفي السنة ذاتها، نقل "نقفور فوقاس" الحرب من مناطق الحُدود إلى قلب الدولة الحمدانيّة، فاستولى بدايةً على قيليقية ومدينة عين زربة.

وتوَّج "نقفور فوقاس" نشاطه العسكريّ في شمال الشَّام باستيلائه، في ربيع الأول سنة 351هـ/نيسان 961م على المُدن والحُصُون التابعة لِإمارة حلب، واستولت قواته على منبج وأسرت أميرها الشاعر أبا فراس الحمدانيّ، فظلَّ في الأسر مُدَّة أربعة أعوام، ولم يفلح سيف الدولة بالدفاع عن حلب، فانسحب إلى قنّسرين، فيما تقدَّم الروم وحاصروا المدينة يوم السبت 18 ذي القعدة 351هـ/18 كانون الأول 961م؛ انسحب "نقفور فوقاس" من حلب بعد ثمانية أيَّامٍ فعاد إليها سيف الدولة لِيجدها خرابًا، فانصرف إلى إعادة تعميرها.

تتابعت الحرب بين المُسلمين والبيزنطيّين طيلة عامين، وفي تلك الفترة تولّى "نقفور فوقاس" عرش الإمبراطوريّة البيزنطيّة، وتوقَّف سيف الدولة عن الخُروج مع الجُيُوش بعد أن أقعده المرض.

شيَّد سيف الدولة قصره الشهير بقصر الحلبة على سفح جبل الجوشن، الذي كان آية في الفن المعماري البديع، كما شيَّد العديد من المساجد، واهتمّ ببناء الحُصون المنيعة والقلاع القويّة. وخرب هذا القصر عندما اقتحم "نقفور فوقاس" حلب.

ومن أبرز آثاره، تجديد بناء المسجد الجامع في حلب، بعد أن دمَّره "نقفور فوقاس". ومن أهم آثار سيف الدولة المعماريَّة التي ما زالت قائمة: مسجد النُقطة، وهو مسجدٌ شُيِّد في موضع الصخرة الذي قيل بِأنَّ رأس الإمام الحُسين بن علي وُضع عليها عندما حمله معه موكب ابن زياد من كربلاء إلى الشَّام. وقد اعتنى سيف الدولة بتحصين قلعة حلب وجدَّد أسوارها.

شهدت الحياة الثقافيّة نهضةً كبيرةً في ظلِّ الحمدانيّين؛ فظهر الكثير من العُلماء والأطباء والفُقهاء والفلاسفة والأدباء والشُعراء. فاستقبل في بلاطه الفنَّانين والأدباء والشعراء، أمثال المُتنبي وابي الفتح عثمان بن جني النحوي. ولما كان سيف الدولة شاعرًا فقد أجزل العطاء لِلشُعراء. كما اشتُهِر أهل بيته في نظم الشعر ومنهم ابن عمّه أبو فراس الحمدانيّ.

واجتمع في بلاط سيف الدولة اللُغويّون والنحويّون مثل ابي علي الفارسيّ، وإبن خالويه، وإبن جني، فضلاً عن الفيلسوف ابي نصر مُحمَّد الفارابي.

كما لمع من المسيحيّين تحت رعاية سيف الدولة مُهندسون ورياضيّون وفلكيّون، وأشهرهم ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة، والمُجتبى الأنطاكي، وقيس المارونيّ.

إضافة إلى ما ذكرناه من دويلات لعبت دورًا مهمًا في حياة الخلافة العبّاسيّة تستوقفنا دولة البويهيّين.

البويهيّون

سنة 945م تمكنت عائلة من القواد العسكريّين يدعون «البويهيّين»، جاؤوا من مقربة بحر قزوين من بلاد الديلم من سكان جبال البورز الواقعة إلى الجنوب من غيلان، من الهيمنة على السلطة في بغداد وفي بعض المقاطعات. وقد أطلقوا على أنفسهم ألقابًا شتى منها لقب «شاهنشاه»

(تسمية ملك الملوك الإيرانية). وكان هؤلاء شيعة بطريقة غامضة، قبلوا بسلطة الخليفة السنّي، ومن الممكن أن يكونوا شيعة زيديّة.

كان بويه جد العائلة من أهل الديلم، تمكّن بمساعدة الفلاحين من السيطرة على جبال الديلم ثم على الهضبة الإيرانية. بعد عملهم في الخدمة العسكريّة للأمراء المحليّين، انخرط بعضهم في الجيش الساماني، ثم توجهوا إلى الشرق، فاحتلوا ما زنداران (طبرستان) وجرجان حيث أقاموا الدولة الزيارية، وخدم بعضهم آل البريدي ملتزمي الضرائب في واسط والبصرة. خلف بويه أولاده الثلاثة علي وحسن وأحمد، فعملوا على احتلال القسم الأكبر من جنوبيّ إيران وغربيه، أي أصبهان وشيراز والأهواز وكرمان، ثم استولوا على العراق، مستفيدين من سوء وضع الخلافة العبّاسيّة بعد ثورات الزنج والقرامطة وغيرها، وتمكّن أحدهم معزّ الدولة من أخذ بغداد في 334هـ/945م، وتسلم مقاليد السلطة السياسيّة فيها، ولم يبقَ للخليفة إلا السلطة الإسمية، لأن البويهيّين لم يستطيعوا إيجاد البديل له في مذهبهم الجديد الإمامي الإثني عشري الذي يعد بعودة المهديّ، فحصروا الخليفة في المهام الدينيّة الصرفة، وكلما خالفهم كان مصيره القتل والعزل، وأحياناً سمل العيون. وأناطوا بأنفسهم جميع السلطات المدنيّة، بما فيها حق تعيين الخلفاء والوزراء، وإقالتهم.

أبقى البويهيّون على الترتيبات المعتمدة في إدارة بغداد وإدارة الولايات، ومع موازنتهم بين المذاهب، حوّلوا الشعائر الدينيّة إلى شعائر شيعيّة، فاحتفلوا بعاشوراء وعيد الغدير. ولم يكفّروا القرامطة والإسماعيليّة، كما لم يتعرّضوا للخلافات بين المذاهب السنيّة. والى عهدهم يعود نشوء نظام الإقطاع العسكريّ. لم يفلحوا في السيطرة على شماليّ العراق حيث الحمدانيّون، ولكن عضد الدولة استطاع الاستيلاء على الموصل، وحصر الحمدانيّين في حلب. ولا يبدو أنهم كانوا يسعون لتوسيع دولتهم في بلاد الشام ومصر، كما لم يعتبروا القرامطة أعداء لهم.

قامت الدولة البويهيّة على أسس عشائرية، والإبن الأكبر يرث أباه، ولا يحق له التدخل في أملاك إخوته، فعماد الدولة كانت له شيراز، وركن الدولة الريّ، ومعز الدولة بغداد. ولقد ساءت الأحوال الاقتصاديّة في عهدهم، وكثرت حركات الزعر والعيّارين.

الفصل الثاني:
الإدارة - المجتمع - الاقتصاد - الثقافة - العمران

أولاً - الإدارة العبّاسيّة

الخليفة هو رأس الدولة والسلطات كلّها. يساعده وزير يفوّض إليه السلطة المدنيّة، وقاضٍ يفوّض إليه الشؤون الشرعيّة وأميرٌ للجيوش يفوّض إليه شؤون الحرب وينوب عنه في المعارك.

رفع العبّاسيّون من شأن الخلافة فجعلوها إمامة دينيّة كبرى. وكإمام كانت هيبة الخليفة عندما تضعف أمام أعين الناس يلجأ إلى الصفة الدينيّة في الخلافة لإعلاء شأنه.

ومن بين الموظفين المحيطين بالخليفة الحاجب الذي يقدّم أصحاب الشأن للخليفة، والجلاد والمنجم.

استمدّ العرب والمسلمون منصب الوزارة من التركيبة الإداريّة الفارسيّة. فهو ينوب عن الخليفة وكلما ابتعد الخليفة عن ممارسة مهماته، كان الوزير هو البديل. والوزير هو مَن يعيّن العمال والقضاة ويعزلهم. وألغيت الوزارة زمن الخليفة المقتدر، وعُيّن أمير الأمراء.

وُزّعت الإدارة بين دواوين عدة، أو وظائف كانت نموذجًا لحكم الدول أو الدويلات المتعاقبة، ومنها: ديوان الجيش، ومكتب لحفظ الوثائق وتحرير الرسائل، وخزينة تضبط الدخل والإنفاق.

كان ديوان الخراج مهمة أساسيّة ولرئيسه صاحب الخراج مقام مهم.

الزكاة كانت أحد مصادر دخل الدولة، يؤديها المسلم عن المزروعات والمواشي والتجارة. أضف إليها ضريبة العُشر، وضريبة الخراج هي أكبر موارد الدولة، تجبى من أهل الذمّة كما من المسلمين على محصول الأرض.

كانت الرسائل الرسميّة تصدر عن ديوان التوقيع.

أمّا ديوان النظر في المظالم، فيعود إلى عهد الأمويّين، إلى عبد الملك بن مروان. وأوّل مَن اعتمده من العبّاسيّين كان المهديّ. الغاية منه النظر في مظالم الناس ومراعاة العدل.

كان يرأس ديوان الشرطة صاحب الشرطة ويهتمّ بالحرس الملكيّ. وكان المحتسب مسؤولاً عن الشرطة المدنيّة، من حيث الإشراف على الأسواق والأخلاق ومراقبة الموازين والتجارة ومنع المنكرات والحفاظ على الآداب العامة.

ونجد ديوان البريد، والمسؤول عنه يُدعى صاحب البريد. يعود الاهتمام به إلى زمن معاوية. ومع الرشيد تمّ تنظيم البريد بشكل دقيق، فكان في كل عاصمةٍ لقطرٍ ما من الدولة العبّاسيّة، مركز للبريد، وله طرق رئيسيّة واضحة. كما استعملت السلطة العبّاسيّة الحمام الزاجل لنقل الأخبار. وكان للبريد لوائح في المركز الرئيسيّ في بغداد وعليها محطاته، وقد استعان بها كتبة تقويم البلدان أي الجغرافيّون العرب والمسلمون. ومن أوائل علماء الجغرافيا ابن خُرداذبه (ت912م) مؤلف كتاب «المسالك والممالك» الذي كان يعمل صاحبًا للبريد في جبال بلاد فارس. وقد ارتبطت بغداد بدمشق عن طريق الأنبار والرقة.

فوّض الخلفاء العبّاسيّون شؤون القضاء إلى أحد الفقهاء ويُسمّى بالقاضي. وإذا تسلم هذه الوظيفة في بغداد حمل تسمية قاضي القضاة. وأوّل مَن حمل هذه التسمية كان أبو يوسف (ت 808م) في عهود المهديّ والهادي والرشيد.

ثانياً - المجتمع

الحياة الاجتماعيّة

تضاءَل نفوذ العنصر العربيّ في المجتمع العبّاسيّ لأن الخلافة العبّاسيّة حققت نفسها وفرضت ذاتها بواسطة الأعاجم، خصوصًا الفرس إلى حد كبير. وساهمت في ذلك الزيجات من إماء فارسيّة ثم تركيّة وغير ذلك. أضف إلى ذلك أنّ موظفي الدولة كانوا من الفرس، فمن الترك إلى حد ما.

لا نعرف الشيء الكثير عن حياة العامة فجلّ كتب التاريخ، وعلى رأسها كتاب «الأغاني»، عُنيتْ بطبقة الخلفاء والموسرين وأخبار المغنين والجواري.

في العصر العبّاسيّ الأول تمتّعت المرأة بقسط من الحريّة، سواء أكانت من الفئة الحاكمة أو من الفئة الشعبيّة. ولم يتم التضييق على المرأة إلا منذ العهد البويهيّ، في القرن العاشر الميلاديّ، عندما عُزلت في المنزل وفُرض عليها الحجاب. فأين كان وضع الخيزران أمّ الرشيد وعلية أخته وزبيدة زوجته وبوران زوجة المأمون؟ وأين أصبح بعد الانحطاط السياسيّ، الذي حطّ رحاله في الدولة العبّاسيّة الثانية، عندما ازداد التسرّي والجنس والهتك، فتدنّت معه منزلة المرأة الحرّة، فأُلزمت بقيود أضحت تراثًا حتى اليوم لتمييزها عن الجواري والقيان والراقصات.

أضحى واجب المرأة خدمة المنزل فقط وتربية الأولاد. تضع على رأسها قبّعة، وتضع في معصمها الأساور، وفي رجلها الخلخال. ويضع الرجل على رأسه قلنسوة من اللبد أو الصوف، والقاضي عمامة ويلبس سروالاً وقميصًا وقفطانًا وعباءة.

اتخذ الخلفاء والأمراء والأعيان ندماء لهم من العلماء والأطباء والشعراء والمغنين والموسيقيّين. وكان يتمّ الجلوس في ديوان، والمقاعد فيه تختلط فيها الكراسي بالوسائد على طراريح، والطعام يقدّم في المجالس وفي الحياة اليوميّة على أطباق قد تكون من نحاس أو فضة، تبعًا للوضع المادي لصاحب المنزل، وتوضع على موائد من خشب يكون ترصيعها مرتبطاً أيضاً بالحالة المادية. وتحفل كتب التاريخ بأخبار معاقرة الخمر من الشعراء والأعيان، وحتى الخلفاء، برغم تحريم الإسلام له.

انتشرت الحمّامات العامة في مدينة بغداد. وقيل إنها كانت بالآلاف، وهي تستعمل للنظافة وللهو. تدخلها النساء في أيام خاصة من الأسبوع أو لربما كانت لهنّ حمامات خاصة.

كان الناس يتسلّون في أوقات فراغهم بلعب الشطرنج والنرد والصولجان والرماية والسيف والترس وسباق الخيل والجريد والصيد، وهو منذ ما قبل الإسلام من أمتع وسائل اللهو عند العرب.

أكثر الخدم كانوا أرقاء من بيض وزنج. البيض من الروم والسلاف والبربر والأرمن. بعضهم خصيان لخدمة دور الحريم، وآخرون غلمانٌ لنزق الرجال، حتى أنّ الشعراء تغنّوا بهم.

الجواري من الرقيق كنّ مغنيات وراقصات وسراري، وقد شغف الرشيد بجارية تُدعى ذات الخال وأخرى دنانير. وكانت بعضهنّ على درجة عالية من الثقافة والعلم. وذهبت الروايات أن الجواري والسراري كنّ بالآلاف في بلاطات الخلفاء وحتى الأعيان والموسرين.

أوضاع أهل الذمة

أهل الذمة في الأصل هم أهل الكتاب من (نصارى) مسيحيّين ويهود وصابئة، ثم توسّع النطاق ليشمل الزرادشتيين والمانويّين.

اتخذت في ظلّ حكم المنصور (754 - 775م) إجراءات تمييز ضدّ المسيحيّين فتعرّضوا خلالها لحقبة سوداء ولكل أنواع التنكيل. ويسرد المؤرخ البيزنطيّ «تيوفانس» (ت 818م) قائمة بمثل هذه الإجراءات، ومنها:

عام 757م: حظر بناء كنائس جديدة ونشر الترانيم خارج جدران الكنيسة ومجادلة المسلمين.

عام 758م: إخضاع الرهبان للجزية.

عام 760م: إقصاء النصارى عن الكتابة في ديوان بيت المال ثمّ إعادتهم إليه.

عام 767م: أُمر بنزع الصلبان عن قباب الكنائس، وبإقامة الشعائر الدينيّة ليلاً ومنع تعلمّ الآداب النصرانيّة.

عام 770م: أُمر بحلق اللحى وباعتماد قلانس طول الواحدة منها ذراع ونصف.

عام 773م: أُمر بوسم اليهود والنصارى بالحديد الحامي، فهرب هؤلاء إلى الأراضي البيزنطيّة نتيجة لذلك.

الإجراءات التي تُنسب إلى خلافة المهديّ (158 - 169هـ/775 - 785م) تبيّن أنّ عدداً منها يرقى إلى عهد المنصور.

أوّل تنظيم لأحوال أهل الذمّة في عهد الرشيد يعود إلى القاضي أبي يوسف يعقوب ابن إبراهيم بن حبيب الأنصاري، المستشار القانونيّ لجعفر البرمكي، والذي خلع عليه الخليفة الرشيد لقب قاضي القضاة، لأوّل مرّة في الإسلام، وكلّفه تأليف كتاب في القانون هو كتاب «الخراج»، وفيه يعالج الأحوال الواجبة في معاملة المسيحيّين. ويُطلعنا النصّ على مقدار ما يجب أن تدفعه كلّ طبقة من طبقات المجتمع النصرانيّ: الصيارفة وتجّار النسيج وأصحاب الضياع والتّجار والأطباء يدفعون 48 درهماً في السنة. أما التّجار الصغار وأصحاب الحِرف: فكانت جزيتهم بين 48 و24 درهماً سنويّاً. أما العمّال فيدفعون 12 درهماً. ولم يكن يُسمَح للمسيحيّين بالإقامة في مدن المسلمين وأسواقهم. ويُسمح بترميم الكنائس ويُحظّر إحداث أيّ منها. كما يجب أن لا تظهر الصلبان في العلن. ويُوصي بين عامي 786 و 798م، في خلافة الرشيد، بأن لا يترك أحد منهم يتشبّه بالمسلمين في لباسه ولا في مركبه ولا في هيئته الخ....

وفي رمضان 191هـ/ نيسان 807م أصدر الرشيد أوامره من الرقّة بهدم الكنائس بالثغور، وأخذ أهل الذمّة، حتى في بغداد، بمخالفة هيئة المسلمين في لباسهم ومركوبهم، ولكن جبرائيل بختيشوع جرّه إلى إبطال ذلك.

صرف المأمون (198 - 218هـ/813 - 833م) كلّ مَن كان في خدمته من الذميّين وسجن ألفين وثمانمئة منهم، تطبيقاً للآية القرآنية التي تقول: «أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم» (سورة المائدة، الآية 51). وفي عام 223هـ/838م سعى أبو داوود بن المعتصم (218 - 227هـ/833 - 842م)، الذي يعدّه البطريرك المؤرخ ميخائيل السوريّ «عدوّ النصارى»، إلى استصدار أمر من ابيه يُحظر الاحتفالات الكنسيّة وما يرافقها.

في شوال العام 235هـ/18 نيسان –16 أيار 850 م أمر المتوكل «بأخذ النصارى وأهل الذمّة كلّهم بلبس الطيالسة العسليّة والزنانير وركوب السروج بركب الخشب وبتصيير كرتين على مؤخرة السروج

وبتصيير زرّين على قلانس مَن لبس منهم قلنسوة مخالفة لون القلنسوة التي يلبسها المسلمون وبتصيير رقعتين على ما ظهر من لباس مماليكهم، مخالف لونهما لون الثوب الظاهر الذي عليه، وأن تكون إحدى الرقعتين بين يديه عند صدره، والأخرى منهما خلف ظهره، وتكون كلّ واحدة من الرقعتين قدر أربع أصابع، ولونهما عسليًا. ومَن لبس منهم عمامة فكذلك يكون لونها اللون العسلي. ومن خرج من نسائهم فبرزت فلا تبرز إلا في إزار عسلي. وأمر بأخذ مماليكهم بلبس الزنانير وبمنعهم لبس المناطق. وأمر بهدم بيعهم المحدثة، وبأخذ العُشر من منازلهم، وإن كان الموضع واسعاً صيّر مسجدًا. وإن كان لا يصلح أن يكون مسجداً صيّر فضاء. وأمر أن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمّرة تفريقاً بين منازلهم وبين منازل المسلمين. ونهى أن يُستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان... ونهى أن يتعلّم أولادهم في كتاتيب المسلمين، ولا يعلّمهم مسلم. ونهى أن يُظهروا في شعانينهم صليبًا وأن يشملوا في الطريق، وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض».

أُبعد النصارى واليهود في عهد المقتدر (295 - 320هـ/908 - 932م) عن كتابة الدواوين وفُرض عليهم لبس الغيار وغيره من الإجراءات المعروفة.

بعض الدراسات الحاليّة تعتقد أن الشروط العُمَرية وثيقة ترقى إلى القرن الرابع للهجرة لا إلى العهود الأولى للإسلام. يبدو أن المسيحيّين لم يتعرّضوا للاضطهاد الحقيقيّ، إلا نادراً. لقد عانوا آثار الأحداث التي كان وراءها مسيحيّون. ومن أهمّ العوامل التي أدّت إلى ضمور وجودهم: الضغط الاجتماعيّ والاقتصاديّ والتمييز ومعاملتهم كهامشيّين من دون تكافؤ فرص وحقوق المساواة في المواطنية. ومفهوم أهل الذمّة الشرعيّ (غير القرآنيّ) الذي حلّ محلّ مفهوم أهل الكتاب، إنمّا هو مفهوم ساسانيّ.

برغم هذا الواقع السلبيّ تمتّع المسيحيّون بنوع من الحريّة في مناقشات دينيّة في عهد المهديّ، عندما قَدّم ثيموتاوس بطريرك النساطرة سنة 781 دفاعًا عن النصرانيّة. كما جرت مناقشات أيام المأمون عن محاسن النصرانيّة والإسلام. ووجدت في العهد العبّاسيّ ترجمات للكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد باللغة العربيّة. وكانت أكثريّة أطباء الخلفاء من النصارى وخصوصًا من النساطرة.

كانت أكثريّة المسيحيّين في ظل الخلافة العبّاسيّة تنتمي إلى الكنيسة اليعقوبيّة والنسطوريّة. أكثريّة اليعاقبة في سورية والنساطرة في العراق. عرف بطريرك النساطرة بالجاثليق، وكان كرسيّه في بغداد. كان لليعاقبة دير في بغداد، ولكن لم يسهّل لهم النساطرة إقامة كرسيّ لبطريركهم فيها.

نشأت كنيسة النساطرة في بلاد ما بين النهرين، ووصلت إلى أقصى توسّعها في القرنين السادس والرابع عشر الميلاديّ من مصر إلى البحر الأصفر في الصين مستفيدة من موقعها في بغداد. بدأ الضعف يتآكلها بعد القرن الثالث عشر نتيجة الصراعات بين المغول والصليبيّين والمسلمين، ونتيجة اضطهادات الترك والمغول الداخلين حديثاً إلى الإسلام لها. فتقلّصت المجموعات المسيحيّة في آسيا الوسطى وبلاد فارس وانحسرت كنيسة النساطرة في مناطق نشأتها في شمال بلاد ما بين النهرين. وكانت مجازر تيمورلنك الحدث الذي أنهى إلى حدّ كبير كنيسة النساطرة في توسّعها في الشرق.

تركت الكنيسة إرثاً أدبيّاً وفلسفيّاً ولاهوتيّاً كبيراً وارتبطت بها العديد من المدارس الفكريّة الشهيرة كمدرسة الرها ومدرسة نصيبين ومدرسة جنديسابور. وساهمت مساهمة أساسيّة في النهضة العبّاسيّة.

زمن البطريرك طيموثاوس الأول (780 - 823)، أبرز بطاركة كنيسة النساطرة، كان الكرسي البطريركيّ في قطيسفون تتبعه عشرات الملايين من المؤمنين، ثمّ نقل كرسيَّه من كاتدرائية كوخي في قطيسفون إلى دير الجاثليق على الضفة الغربيّة لدجلة في بغداد في حي دُعي بدار الروم، بعد انتصار العبّاسيّين وتحوّل مركز الخلافة إلى بغداد. وحصل تقارب بين الخلفاء وبطاركة كنيسة النساطرة. وأضحى بطريرك النساطرة ممثلًا عن جميع المسيحيّين ضمن الدولة العبّاسيّة على اختلاف مذاهبهم. وانتقل مركز البطريركيّة إلى سأمراء زمن البطريرك إبراهيم الثاني (837 - 850) بعد انتقال الخلافة إليها، ثم عاد إلى بغداد مع البطريرك سرجيوس (860 - 872) سنة 865.

في القرن العاشر ضعفت الخلافة العبّاسيّة وانتقل ت السلطة لأيدي عائلات تركيّة فنشطت القوانين المعادية لأهل الذمّة وانتشرت أعمال الشغب من قبل العامة ضدّهم.

الاضطرابات التي حصلت في بغداد في مطلع القرن الحادي عشر أدت إلى تدمير الكنائس وإحراقها من قبل العامة وقتل جمع كبير من المصلّين، ولم تخفّف مبادرة الخليفة المقتدر بالله (908 - 932) بقيامه بعقاب المتسبّبين بذلك من تخفيف التوتر عندما أُجبر البطريرك سبريشوع الثالث (1064 - 1072) بالإشراف على تنفيذ الشريعة الإسلاميّة بين رعاياه. وساءت العلاقات أكثر بوصول السلاجقة إلى السلطة.

كان وضع اليهود أفضل من وضع المسيحيّين في الخلافة العبّاسيّة. فمنهم الصيارفة.

كان الصابئون المعروفون بالمندائيّين، طائفة يهوديّة - نصرانيّة تُنسب إلى تلامذة يوحنا المعمدان، وقد ذكرت في القرآن واعتبر أفرادها من أهل الذمّة. سكن أكثرهم قرب الأنهر لوجود فريضة الاغتسال في ديانتهم. والصابئة نوعان: صابئة البابليّين، وصابئة حرّان، وهؤلاء يُنسَبون خطأ للصابئة لأنهم وثنيّون، وقد انتحلوا هذا الاسم ليحصلوا على أمان أهل الكتاب. وكان من بينهم ثابت بن قرة الفلكيّ، وإبن وحشيّة الفلكيّ الذي يُنسَب إليه كتاب «الفلاحة النبطيّة».

ثالثاً - الحياة الاقتصاديّة

فشل العبّاسيّون، في المرحلة الثانية من حكمهم، مع بزوغ الدويلات المتعدّدة من الإبقاء على وحدة السلطة السياسيّة. ولكن هذا الواقع لم يلغِ المجتمع الموحّد اقتصاديّاً، ضمن عالم إسلاميّ واحد على ما يبدو.

كانت توجد في الواقع وحدة اقتصادية تصل حوض المتوسط بحوض المحيط الهنديّ، تتنقل في أرجائها الجيوش والتّجار والصناع والعلماء والحجّاج والأفكار والتقنيّات في مدن كبيرة تتطلب أغذية ومواد أوّلية للصناعة وسلعًا تظهر غنى مدن الحضارة الجديدة بهويتها الإسلاميّة.

وفي الأرياف عمد التّجار إلى استغلال رؤوس أموالهم في تملّك الأرض، وإدخال أساليب وتقنيّات جديدة وزراعات جديدة.

كان العرب يحتقرون الزراعة، وكانت التجارة في أوّل الأمر بيد مَن لم يكونوا مسلمين. ثم مع الوقت تزايد عدد المساهمين فيها من مسلمين وعرب.

منذ أيام الخليفة المنصور بلغ التّجار المسلمون حدود الصين، يبحثون بالدرجة الأولى عن الحرير، عبر ما سُمّي بطريق الحرير، من الصين إلى سمرقند فتركستان الصينيّة. وبموازاة هذه التجارة قامت سفارات ودوّنت أسماء بعض الخلفاء العبّاسيّين بتهجئة صينية. ولا نعرف الشيء الكثير عن العرب في الصين قبل رحلة «ماركو باولو» في القرن الثالث عشر. وبواسطة التجارة انتقل الدين الإسلاميّ إلى الجزر الهنديّة.

يبدو، أنّ التجارة باتجاه الشرق، كانت أوسع وأغنى منها في المتوسط في زمن الدولة العبّاسيّة. كان التّجار المسلمون يحملون إلى الشرق التمور والقطن والصوف والزجاج، ويعودون بالحرير والعاج والإبنوس والرقيق. وقد استفاد التّجار من هذه التجارة فجمعوا ثروات طائلة وحتى خرافيّة.

الزراعة والتحوّلات في العالم الريفيّ

عُرف عن العرب احتقارهم للزراعة وعيشهم حياة بدويّة أساسها الرعي. ولكن ضرورات الحياة من جهة، واحتواء الدولة الإسلاميّة على عناصر فاقت العنصر العربيّ عددًا، ولها تاريخها في الميدان

الزراعيّ، جعلت الزراعة مزدهرة. فمثلاً في المشرق كانت بغداد وسط نهرَيْن غزيرَيْن، في بقعة خصبة حملت تسمية السواد، وهي صفة الأرض الزراعيّة الخصبة، فازدهرت فيها الزراعة، يشجّع على ذلك كون الزراعة تدرّ عبر الخراج على الأرض، موارد دخل للملاكين وللدولة، لأن هذه الضريبة لا تتأثر بدخول ملاكيها في الإسلام، أو بقائهم من أهل الذمة وغيرهم.

ساهمت الدولة العبّاسيّة بشق الأقنية على دجلة والفرات وإصلاح تلك القديمة منها، ومنها قناة عيسى التي تربط الفرات عند الأنبار بدجلة عند بغداد، أضف اليها قنوات أخرى كثيرة.

كانت العراق تنتج الشعير والحنطة والأرز والتمر والسمسم والقطن والقنب، خصوصًا في منطقة السواد في السهل الجنوبيّ. وفي غوطة دمشق كانت تنمو الأشجار المثمرة والبقول والأزهار. وفي ساحل المتوسط كان ينمو قصب السكر. وكانت صناعة الروائح العطرية من الورد والزنبق وزهر البرتقال والبنفسج مزدهرة في دمشق.

في العهد الأمويّ نشأ نظام لملكيّة الأرض وضع الأرياف تحت رحمة المدن. ومنذ القرن العاشر وضع العسكريّون أيديهم على الأرياف مما ولّد أزمة اقتصادية عميقة. وما نعرفه عن ملكيّة الأرض يأتي من الدراسات الفقهيّة التي تصف أنواع الأملاك بشكل نظريّ، لا عمليّ، كما هو الواقع على الأرض فعلياً

ارض العُشر

يعترف الإسلام شرعاً بنوعين من الأرض: الملكيّة الفردية في شبه الجزيرة العربيّة والملكيّات العامة للأمة في الأراضي المفتوحة. والذين يتملّكون هذه الأرض يدفعون للدولة من إنتاج ارضهم الزكاة التي توازي العشر تقريباً.

ارض الخراج

الأرض التي عاهد المسلمون أهل الكتاب عليها هي أرض الخراج. ومن الناحية القانونيّة لم يحتفظوا بالملكيّة الكاملة التي أصبحت ملكيّة الأمّة الإسلاميّة، ولكنهم ينعمون فيها بشبه ملكيّة كاملة، من حيث حقهم في البيع والشراء والإرث، ويدفعون عنها الخراج، الذي تتغيّر نسبته بحسب المناطق، وكان أزود من العُشر. ومع تزايد اعتناق الدين الإسلاميّ من قبل السكان المحليّين، وحتى لا تخفّ الجباية على الأرض، كرّست الأرض التي صنّفت أرض خراج زمن الفتوحات الإسلاميّة ارضاً

تدفع الخراج، مهما تغيّرت هوية مالكها دينيّاً على أن تخضع لديوان الخراج، بغض النظر عما آلت إليه ملكيّة الأرض، وما إذا صارت لمسلم أو لغير مسلم. وكان معنى ذلك منع تحويل الأرض الخراجية إلى عشرية حتى ولو أسلم صاحب الأرض بعد الفتح، أو اشتراها مسلم، أعربيّاً كان أو غير عربيّ.

ارض الصوافي والقطائع

الأرض التي جلا عنها أهلها أو تُركت زمن الفتح أضحت ملكاً للدولة، وحملت اسم الصوافي ووزّعت قطائع على أشخاص مسلمين يتصرّفون بها لزمن غير محدود كأنها ملك لهم مع ما يتوجب عليهم من إحيائها ودفع العشر عن إنتاجها.

الضيع

الأرض الملك والقطائع تدفع الزكاة، أي العشر، ولذلك تُدعى أرض العشر وارض الضيع وتتبع لديوان الأراضي.

الوقف

ويعترف الشرع بنوع آخر من الأرض هو الوقف: وقف الأرض لصالح عام أو لذرية ما مقابل تقديم خير ما من حاصل الإنتاج. ويُمنَع توزيع وتوريث الوقف وبيعه. واستثماره يخضع لقواعد دقيقة.

وللعمل في الأرض اعتمد نظام الشراكة وهي على أنواع:

الشركاء والشراكة

ارض الخراج يستثمرها مالكها مباشرة. أما أرض الضيع فتعطى لشركاء لاستثمارها، مقابل تقديم ما يستلزم ذلك من مواد ويد عاملة، ودفع ضريبة محدّدة. واليد العاملة هذه كانت حرّة لا عبودية لها ويسمّيهم القانون مزارعين. والمزارعون يعملون في الأرض، ويقدّمون أحياناً جزءاً من البذار، والآلات الزراعيّة، والحيوانات، ويدفعون عيناً في غالب الأحيان جزءاً من المحصول للملتزم أو المالك. والعقود بين الشريك وصاحب الأرض هي:

المساقاة: في الأرض المرويّة، وللشريك الحق بنصف الإنتاج.

المغارسة: في الأرض التي تزرع أشجاراً، وعندما يصبح المحصول قابلاً للقطاف يحصل الشريك على جزء من الأشجار. والفرق بين ما يدفعه الشريك من خراج في الأرض العُشر وما يدفعه المالك من عُشر يصبّ في مصلحة مالك أرض العشر.

التلجئة

منذ القرن العاشر ستعرف الدولة الإسلاميّة، وخصوصًا في القرن الحادي عشر، اتجاهين كبيرين سيسمحان بتقوية الملكيّات الكبيرة وإفقار الفلاحين. وتقوية الملكيّات الكبيرة تمّ بواسطة التلجئة، بحيث إن الملاّك يضع نفسه في حماية ملاّك أقوى تسجّل باسمه الأرض تجاه مصلحة الضرائب وتدفع الضريبة له. وقد نشأ ذلك في ظلّ قيام طبقات العسكر.

الإقطاع

في القرن التاسع، بعدما كان الخلفاء يدفعون الأجور للجيش، بدأوا يوزّعون عليهم القطائع. ولكن توقف الفتوحات حال دون وجود أرض جديدة، فلجأ الخلفاء إلى حلّ يقوم على: التنازل للعسكريّين عن حق جباية الضرائب على أرض الخراج، لقاء دفع العُشر للدولة. وأعطي هذا التنازل عن الأرض اسم الإقطاع، الذي لم يغيّر طبيعة ملكيّة الأرض ولم يكن له طابع وراثيّ. ولكن نتائج ذلك كانت مصيبة للأرياف. فبواسطة التلجئة تمكّن العسكريّون من زيادة أملاكهم. وكان هؤلاء الملاكون للضرائب يعملون على استخراج الحدّ الأقصى من الأرض التي حصلوا عليها. وبذلك خفّ الفارق بين أرض الخراج وبين أرض العشر عملياً. وكان متملّك الأرض يستفيد من الفرق بين دفع العشر وتحصيل الخراج. وبسرعة تمكّن العسكريّون من التحرّر من دفع العشر بحيث آلت الضرائب المحصّلة كلّها لصالح ثروتهم. وبذلك انتشر البؤس عند الفلاحين، في وقت كانت الاضطرابات السياسيّة والمنازعات الدينيّة تعمل على زيادة إفقارهم.

الضرائب

يدفع المسلمون ضريبة الزكاة أو الصدقة، وغير المسلمين الجزية على الرأس. أما الخراج فهو على الأرض المُلك، كائناً من كان مالكها.

كان الخراج يُجبى في غالب الأحيان من الملكيّات الصغيرة، بينما العُشر على الملكيّات الكبيرة. وكانت الضرائب تُجبى من المحصول تبعاً لغنى الأرض، ونوعيّة الزراعة، وهو ما يُعرف بـ «المقاسمة»، أو كانت الضريبة تفرض على مساحة الأرض، وهو الغالب في بلاد الشام. ونسبتها تخضع لنوعية الزراعة وخصوبة الأرض ونوعية الريّ. فالأرض المرويّة طبيعيّاً تدفع ضعف الأرض غير المرويّة. والقيمة الضريبيّة النظريّة تدعى «عبرة». كانت الدولة هي التي تُجبي الضرائب تحت إدارة العامل، ولكنّها كانت تفضّل الاعتماد على ضامن يُجبي الضرائب ويترك لنفسه ربحًا ما، وتكون مدّة العقد لسنتين أو ثلاث.

الحيوانات كانت أيضاً تخضع للضرائب. وبما أن القطعان كانت للبدو المسلمين فقد كانت تُجبى منها، إذاً، الزكاة. أمّا غير المسلمين، فيدفعون ضريبة على الرأس.

الجزية كانت تقدّر بـ 12 درهماً للفقراء، أي ما يوازي ديناراً، وللطبقات الوسطى 24 درهماً ما يوازي دينارين، وللأغنياء 48 درهماً أي 4 دنانير. وبالنسبة للفقراء كانت هذه الضريبة توازي 10 إلى 15 يومَ عمل لعامل مياوم.

الصناعة

ارتبط ازدهار التجارة بصناعة مزدهرة. كانت العراق وفارس تنتج السجاد الفاخر، والحرير، فعرفت مناديل الرأس الحريريّة بالكوفيّة نسبة لمدينة الكوفة وانتشرت مشاغل البسط والديباج والثياب الموشّاة بالذهب والعباءات الصوفيّة والحريريّة والفرش والستائر وأغطية المقاعد والمساند في بلاد فارس. وفي سورية ومصر كانت صناعة الموبيليا والقناديل وأدوات الطبخ.

الزجاج كان يصنع بالدرجة الأولى في صيدا وصور وغيرهما. واشتهرت دمشق بصناعة الفسيفساء والقرميد القاشاني.

ومنذ القرن الثامن الميلاديّ دخلت صناعة الورق من الصين، فساهم ذلك في كتابة المخطوطات.

كما ازدهرت صناعة الجواهر من لؤلؤ وياقوت وزمرد وفيروز وذهب وفضة. فالذهب والفضة كان منبعهما من خراسان، والياقوت واللازورد من ما وراء النهر، واللؤلؤ من البحرين، والعقيق من صنعاء، والحديد من لبنان، والكحل من أصفهان الخ.

الطرق التجاريّة

كانت دمشق مركزًا لالتقاء القوافل في المنطقة. فمنذ أن جعلها الخلفاء الأمويّون مقرًّا لهم، وقبل ذلك، كانت مدينة ملأمّة لالتقاء القوافل الخارجة من آسيا الصغرى، ومن بلاد نهر الفرات، والمتّجهة إلى بلاد العرب ومصر.

مدينة البصرة كانت تربط سفن العرب بالشرق، وكان نهرا الفرات ودجلة، شريانَيْن رئيسيّين للتجارة، وثمّة قناة صالحة للملاحة كانت تبدأ من الفرات وتجتاز إقليم ما بين النهرين وتربط بغداد بآسيا الصغرى وسورية وبلاد العرب ومصر في حين كانت قوافل وسط آسيا تمرّ عبر بخارى وفارس.

كان الحجّاج يتواعَدون في دمشق، طريق القوافل الرئيسة، وتمرّ طريق قوافل الحجّاج في شرق الأردن، ثمّ يختم الحجّ في مسجد القدس، حيث كان يلتقي الحجّاج المسيحيّون بالحجّاج المسلمين، فتتاح الفرصة للمبادلات التجاريّة. وفي 15 أيلول من كلّ عام كانت تُقام في القدس أسواق كبيرة، يتردّد إليها عدد كبير من التّجار من مختلف الأمم، غير أنّ تلك الطريق كانت ثانوية.

كان المشرق مترابطًا بشبكة طرق مواصلات، واحد منها يربط الشرق بالغرب، وعليه كانت مدن طرابلس وبيروت وصور وعكا الساحليّة على مسافة أيام قلائل سيراً على الأقدام بعيداً عن دمشق. ومن المحتمل أنّها كانت منذ بداية العصور الوسطى تتزوّد بمؤونتها منها. كان هناك بنوع خاص طريق هام آخر ينتهي إلى سورية، ذلك هو مجرى نهر الفرات الصالح للملاحة. وعلى هذا الطريق موقعان مهمّان: الرقّة وبليس، واستمرّت الرقّة مزدهرة بفضل العلائق التي تربطها بنصيبين MISIBE والموصل ودمشق. وكانت بليس على بعد يوميْن سيراً على الأقدام من الرقّة. وعلى بعد يومين نجد حلب، وهي مركز تجاريّ في شمال سورية مثلما كانت دمشق في وسطها، ويواصل قسم كبير من البضائع الواردة إلى هذا الموقع طريقه إلى أنطاكية واللاذقيّة ومنها إلى البحر.

طريق آخر يربط الشمال بالجنوب، وعليه سوقان إسلاميّتان كبيرتان هما حلب ودمشق متصلتان بطريق قوافل يمرّ بحماه وحمص. وكانت حمص على طريق آخر محاذية للصحراء يصلها بالرقة والفرات. والمنفذ الطبيعيّ كان طرابلس وطرطوس وجبلة.

تبدأ الحركة التجاريّة في الشرق الأقصى، فينطلق منه طريق أول إلى الهند فالخليج العربيّ، فالبصرة فبغداد ثمّ يتجه غرباً إلى دمشق فالموانئ اللبنانيّة والفلسطينية أو يتجه من دمشق شمالاً

بغرب إلى حلب فاللاذقيّة أو طرابلس. والطريق الثاني من الشرق الأقصى عبر المحيط الهنديّ إلى البحر الأحمر، ومنه يتفرّع إلى سيناء فدمشق فالموانئ اللبنانيّة والفلسطينية أو يتفرّع عبر الصحراء إلى النيل فالقاهرة ومنها إلى الموانئ المتوسطية المصريّة أو إلى دمشق.

يحدّد ابن خُرداذبه الطرق ومسافاتها على الشكل الآتي:

من حمص إلى جوسية 16 ميلاً ثمّ إلى قارا 30 ميلاً ثمّ إلى النبك 12 ميلاً ثمّ إلى القطنية 20 ميلاً ثمّ إلى دمشق 24 ميلاً.

والطريق من دمشق إلى طبريّة: من دمشق إلى الكسوة 12 ميلاً ثمّ إلى جاسم 24 ميلاً ثمّ إلى فيق 24 ميلاً ثمّ إلى طبريّة مدينة الأردن 6 أميال.

والطريق من الرملة إلى طبريّة: من طبريّة إلى اللجون 20 ميلاً ثمّ إلى القلنسوة 20 ميلاً ثمّ إلى الرملة مدينة فلسطين 24 ميلاً. والطريق من الرملة إلى بيت المقدس 18 ميلاً.

والطريق من الرقّة إلى حمص ودمشق على الرصافة: من الرقة إلى الرصافة 24 ميلاً ثمّ إلى الزراعة 40 ميلاً ثمّ إلى القسطل 36 ميلاً ثمّ إلى سلميّة 30 ميلاً ثمّ إلى حمص 24 ميلاً ثمّ إلى شمسين 18 ميلاً ثمّ إلى قارا 22 ميلاً ثمّ إلى النبك 12 ميلاً ثمّ إلى القطيفة 20 ميلاً ثمّ إلى دمشق 24 ميلاً.

الطريق من حمص إلى دمشق على بعلبك وهو طريق البريد: من حمص إلى جوسية أربع سكك ثمّ إلى بعلبك ست سكك ثمّ إلى دمشق تسع سكك.

طريق من جسر منبج إلى منبج فحلب فالأثارب فعمق أنطاكية فاللاذقيّة فجبلة فطرابلس فبيروت فصيدا فصور فالقدس فقيسارية فأرسوف فيافا فعسقلان فغزّة.

هذه المسافات نفسها نجدها في كتاب الخراج لقدامة بن جعفر. ولكن بالنسبة للطريق بين حمص ودمشق وبين بعلبك وطبريّة يعطي محطات إضافية وأكثر دقة مما جاء عند ابن خُرداذبه.

ويرى قدامة أنّ طريق دمشق الرصافة هي طريق العمران.

أمّا الطريق البرّية فمن الرصافة إلى الخربة 35 ميلاً فالعذيب 24 ميلاً فنهيا 20 ميلاً فالقريتين 20 ميلاً فجرود 36 ميلاً فدمشق 30 ميلاً.

وهناك طريق من سلميّة إلى دمشق تُعرف بالطريق الأوسط. ومن سلميّة إلى فرعايا 18 ميلاً فشريك 20 ميلاً فصدد 18 ميلاً فالنبك 35 ميلاً.

ويحدّد المسافة من حمص إلى دمشق على طريق البقاع فيذكر أنّ بين حمص وجوسية 13 ميلاً وجوسية وإيعات 20 ميلاً وإيعات وبعلبك 3 أميال ومن بعلبك يسرة على جبل يُسمّى رمى 50 ميلاً.

ومن بعلبك إلى طبريّة على طريق الدراج: من بعلبك إلى عين الجر (عنجر) 20 ميلاً والى القرعون 15 ميلاً. ومن القرعون إلى قرية يقال لها العيون (مرجعيون) تمضي إلى كفرليلي (كفركيلا) 20 ميلا ومن كفرليلي إلى طبريّة 15 ميلاً.

والطريق من دمشق إلى جبال الأردن: فالطريق المستقيم من دمشق إلى الكسوة 12 ميلاً ومن الكسوة إلى جاسم 24 ميلاً ومن جاسم إلى أفيق 24 ميلاً ومن أفيق إلى طبريّة 6 أميال. ثمّ من طبريّة يفترق الطريق إلى الرملة فرقتين إلى اللجون وبيسان.

يذكر المقدسي أنّ في أسفل بحيرة طبريّة جسراً عظيماً على طريق دمشق. ويُضيف إلى ما ذكره السابقون من الجغرافيّين أن الزبداني تقع بين بعلبك ودمشق وتشكّل مرحلة. ويذكر أن المسافر بين بانياس وقدس أو إلى جبّ يوسف بريد من بريدين. ومن طبريّة إلى اللجون أو إلى جبّ يوسف أو إلى بيسان أو إلى عقبة أفيق أو إلى كفركيلا (التي ورد ذكرها كفرليلى) مرحلة. وتأخذ من بيسان إلى تعاسير بريدين ثمّ إلى نابلس مثلها ثمّ إلى بيت المقدس مرحلة. وتأخذ من جبّ يوسف إلى قرية العيون مرحلتين ثمّ إلى القرعون مرحلة ثمّ إلى عين الجرّ مرحلة ثمّ إلى بعلبك مرحلة. وهذا يُسمّى طريق المدارج (ورد ذكرها أعلاه الدراج). وتأخذ من الجشّ إلى صور مرحلة ومن صور إلى صيدا مرحلة ومن صور إلى قدس أو إلى مجدل سلم بريدين، ومن مجدل سلم إلى بانياس بريدين. وتأخذ جبل لبنان إلى نابلس أو إلى قدس أو إلى صيدا أو إلى صور نحو مرحلة. وتأخذ من الرملة إلى بيت المقدس أو إلى بيت جبريل أو إلى عسقلان أو إلى الكرية مرحلة مرحلة.

كانت البضائع تأتي من الشرق الأقصى والهند الصينيّة وسومطره وجاوا والهند والتيبت وإيران وبلاد ما بين النهرين وإثيوبيا وشبه الجزيرة العربيّة ومصر. ويتمّ نقلها أما عن طريق البرّ أو عن طريق الخليج الفارسيّ أو البحر الأحمر باتجاه دمشق وحلب وبغداد. دمشق كانت المركز الأهم في العلائق التجاريّة بسبب وجودها على بعد ثلاثة أو أربعة أيام من مرافئ المتوسط.

كان التّجار الغربيّون يجدون في سورية منتجات الشرق كلّه على وجه التقريب. ولم يكونوا بحاجة للقيام برحلات طويلة للحصول عليها في قلب آسيا. فالسفن التجاريّة كانت ناشطة في المحيط الهنديّ كما في أزهى عصور الخلفاء.

كانت السفن تشحن من السند والهند والهند الصينيّة عند عودتها بالمسك وخشب الصنبر والفلفل والقافلة (الهال) والقرفة وجذور الخولجان وجوز الطيب والكافور والقرنفل وباختصار التوابل. وكانت اللآلئ من البحرين. كما كان الأوروبيّون يبحثون عن السلع المصنّعة في الشرق العربيّ أو المصدّرة إليه من الشرق الأقصى أو من بلاد فارس. ومنها بالإضافة إلى ما ذكر أعلاه: الأرز، الليمون، المشمش، الزبيب، العطور، الأدوية، الصباغ، الأخشاب، الصندل، القطن، الحرير الخام، الدمقس نسبة لدمشق، البلدكان نسبة لبغداد، الموسلين نسبة للموصل، الغزّ نسبة لغزّة، وأنسجة من وبر الحيوانات والأصباغ والصابون والأواني.

كان العرب ينافسون الصينيّين في تجارة المحيط الهنديّ. فسيلان (سريلانكا اليوم) كانت مركز التجارة البحريّة في الشرق وكذلك باروتشي Baroch (خليج كامبي في الهند) وديبال Daybal (جوار نهر الأندوس) محطتين للسفن الصينيّة.

الشرق الأقصى كان المورّد للمواد الطبيّة والبهار والقنا والخيزران والعودان.

رابعاً - النهضة الثقافيّة المدنيّة والدينيّة

روافد النهضة

لم تشتهر الدولة العبّاسيّة بمآثرها العسكريّة وفتوحاتها بل بما أنتجته على الصعيد الثقافيّ والحضاريّ عمومًا.

ينبوع هذه النهضة لم يكن عربيّاً، بل سريانيّا متأثرًا بالثقافة الإغريقيّة، وفارسيّاً وهنديّاً. فبفضل الترجمة، على يد المسيحيّين السريان، تمّ التعرّف إلى كتب «أرسطو» و«أفلاطون» و«الأفلاطونيّة» المحدثة وكتب «جالينوس» في الطب.

الرافد الهنديّ

أخذ المسلمون والعرب من الهند الحكمة والأدب والرياضيّات. ففي سنة 154هـ/771م ترجم محمد ابن إبراهيم الفزاريّ رسالة في الفلك من التراث الهنديّ. وبعد قرن من قيام الدولة العبّاسيّة وضع الخوارزميّ (ت 850م) قوائمه الفلكيّة التي عرفت باسم «الزيج»، والتي جمع فيها أصول الفلك الهنديّة واليونانيّة وزاد عليها. ونقل الفضل بن نوبخت ترجمات فلكيّة فارسيّة. كما يعود للمسلمين وللعرب فضل نقل الأرقام العربيّة إلى أوروبا. والأرقام المستعملة عند العرب هي في الأساس هنديّة. كما أخذ العرب عن الهنود الكسور العشريّة.

الرافد الفارسيّ

استفاد المسلمون والعرب من آداب الفرس وفنونهم. طليعة الكتب من أصل فارسيّ، في الأساس هنديّ، هو كتاب كليلة ودمنة، الذي نقله ابن المقفع إلى العربيّة، بلغة فنيّة لا مثيلَ لها. وبتأثير من الآداب الفارسيّة دخلت المحسّنات اللفظيّة إلى العربيّة، بما فيها من تزويق، وبديع، وبيان وسجع.

واستعان المسلمون والعرب بالطب الفارسيّ على يد عائلة بختيشوع المسيحيّة النسطوريّة. وكان جورجيوش بختيشوع (ت 771م) فاتحة هذه السلسلة من الأطباء التي استمرّت في خدمة الخلفاء قرابة قرنين من الزمن وبقيت على نصرانيّتها.

الرافد الإغريقيّ الهلينيّ

عندما دخل العرب إلى المشرق، وجدوا أمامهم حضارة تختصر تجربة مجموعة من الحضارات زهت في الشرق منذ الفينيقيّين والمصريّين القدامى وبلاد ما بين النهرين واليونان والفرس والرومان القدامى ثم البيزنطيّين. عشرات المراكز الثقافيّة السريانيّة الكبرى، كأنطاكية، والرها، وعشرات الأديرة، تنضح بالفكر والفلسفة والفن واللاهوت من منطلقات الحضارة اليونانيّة. هذا اللقاح الثقافيّ شجّع عليه خلفاء من طينة هارون الرشيد، وخصوصًا المأمون، الذي قيل إنّه كلّف طائفة من علماء السريان باقتناء مخطوطات يونانيّة لصالح بيت الحكمة الذي أنشأه في بغداد. كانت الترجمة تتم بنقل الكتب اليونانيّة إلى السريانيّة ومنها إلى العربيّة.

كان المأمون متأثرًا بالفلسفة، يسعى للتوفيق عبرها بين العقل والإيمان. وهذا ما شجّعه على بناء بيت الحكمة في بغداد في سنة 830م، وهو عبارة عن مكتبة عامة ومركز مخطوطات ومركز ترجمة.

انصب الاهتمام على كتب الفلسفة والطب، ونال الأدب حظوة أقلّ. ومع ذلك فقد قام منجم المهديّ تيوفيل بن توما الرهاويّ، الذي كان على مذهب الموارنة سكان جبل لبنان، بترجمة بعض أقسام من «إلياذة» «هوميروس» إلى العربيّة بأحسن من النصّ اليونانيّ.

أوّل المترجمين المعروفين، كان أبو يحيى بن البطريق (ت 796 أو 806م) الذي ترجم كتاب «جالينوس» في الطب، وكذلك «أبقراط» و»بطليموس» و»إقليدس». واشتهر أيضاً يوحنا (يحيى) بن ماسويه (ت857م) السريانيّ النصرانيّ.

أهمّ المترجمين كان حنين بن إسحق (809 - 873م) المسيحيّ النسطوريّ. درس على يوحنا بن ماسويه، ثم تلقّن اليونانيّة، ودخل بعدها في خدمة جبريل بن بختيشوع، طبيب المأمون، مما سهّل له الطريق لتسلّم أمر بيت الحكمة، فعمل من جهة على نقل كتب الحكماء اليونانيّين إلى العربيّة، ومن جهة أخرى على إصلاح ما يترجم منها إلى العربيّة. التحق به في عمله ابنه اسحق، وإبن إخته حبيش بن الحسن، وغيرهما، كعيسى بن يحيى وموسى بن خالد. ويقال إنّ حنين كان ينقل النصوص من اليونانيّة إلى السريانيّة، وإبنه والآخرون إلى العربيّة. وتُنسب لحنين بن إسحق ترجمة كتب «جالينوس» و»أبقراط» و»ديسقوروس» و»أفلاطون» و»أرسطو» وترجمة العهد القديم (التوراة) إلى العربيّة من اليونانيّة. وكما لمع في الترجمة، كذلك لمع في الطب وفي أخلاقه السامية، التي دفعته لرفض طلب الخليفة المتوكل بتركيب دواء يسمح بقتل أحد أعدائه.

والى جانب حنين بن إسحق نجد ثابت بن قرة (836 - 901) من الصابئة، أي بقايا تلاميذ يوحنا المعمدان من جماعة حرّان. اهتمّ ثابت بعلوم الرياضيّات والفلك، فترجم كتب «أرخميدس» و»أبلونيوس» ونقّح ترجمة حنين لـ «إقليدس». وتوارث بعده العلم ابن سنان (ت 943م) وحفيداه ثابت (ت 973م) وإبراهيم (ت 946م) وإبن حفيده أبي الفرج. واشتهر من الصابئة البتانيّ (ت 929م).

ومن بين طلائع المترجمين لعلوم الرياضيّات والفلك من الحرّانيين الصابئة، الحجّاج بن يوسف بن مطر، الذي وضع أوّل ترجمة لكتاب «إقليدس» في أصول الهندسة و»المجسطي» لـ «بطليموس» وقد وضع أصول الهندسة قبل ترجمة حنين. وهناك ترجمة لقسطا بن لوقا (ت 922م) البعلبكيّ المسيحيّ.

وفي أواخر القرن العاشر الميلاديّ اشتهر في الرياضيّات والفلك يحيى بن عدي، وهو من المسيحيّين اليعاقبة (ت 974م) وأبو عيسى بن زرعة (ت 1008م).

ومن المميّزين في مساهمتهم في الترجمة وفي النتاج الثقافيّ ثلاثة مسيحيّين من لبنان الحاليّ، وهم:

- قسطا بن لوقا البعلبكيّ: نصرانيّ من بعلبك عاش في أواسط القرن الثالث الهجريّ التاسع الميلاديّ (ت912م)، الطبيب والفيلسوف والمهندس والموسيقيّ وعالم الفلك والرياضيّات. كان ملمّا باليونانيّة والعربيّة والسريانيّة وقد سافر إلى بلاد الروم في طلب المخطوطات ثمّ استقرّ به المقام في بغداد مركز الحياة الفكريّة آنذاك ومركز الترجمة والنقل. عرّب العديد من الكتب. إنما اشتهر أولاً وأخيراً كمترجم من اللغة اليونانيّة. واليه يعزون ترجمة ما لا يقلّ عن 17 كتاباً، وقد ألّف 69 كتاباً، ومات في أرمينيا.

ومن مؤلفاته: **المدخل إلى الهندسة**. و**المدخل إلى الهيئة وحركات الأفلاك والكواكب**. و**الفرق بين النفس والروح**. و**المدخل إلى المنطق**. و**كتاب السياسة**. و**شرح مذاهب اليونانيّين**. و**قوانين الأغذية**. و**شكوك كتاب إقليدس**. و**الحمام**. و**الفردوس**. و**استخراج المسائل العددية** وغيرها...

- تيوفيل بن توما الرهاويّ المارونيّ (**ت784م**) : منجّم، مترجم ومؤرّخ. مارونيّ من الرها على «مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان من مذاهب النصارى» على حدّ قول ابن العبريّ. رئيس المنجمين عند المهديّ العبّاسيّ. وله كتاب جيد في التاريخ نقل عنه المؤرخون ولم يصلنا. ومن المؤرخين

الذين نقلوا عنه، اغابيوس المنبجيّ (من القرن الرابع هـ/العاشر م)، بحيث كان المصدر الأساسيّ لمعلوماته، وقد اختصره على ما يبدو. نقل من اليونانيّة إلى السريانيّة بعض كتب أرسطو، وهو الذي جعل صورة الحركات السريانيّة الخمس على شبه صورة الحركات اليونانيّة في ترجمته لكتاب «هوميروس» كي لا تختلف كتابة الأعلام في اللغتين، فتابعه على كتابة صور الحركات على هذا النحو السريان، إلا النساطرة.

- قيس المارونيّ: يرد ذكره عند المسعوديّ، وله كتاب حسن في التاريخ انتهى بتصنيفه إلى خلافة المكتفيّ، نشرت مقاطع منه على يد المستشرق «نو» الفرنسيّ. ولا ندري ما إذا كان قيس من لبنان أو من أرجاء بلاد الشام.

ب - العلوم البحتة والعلوم الإنسانيّة

تمكّن المسلمون، ومن بينهم جماعة من العرب، من هضم ما اقتبسوه من تراث الحضارات القديمة والانتقال إلى تمثّل الإنتاج العلميّ الخاص بهم.

1 - الطب

كان أرباب الطب من المسيحيّين، خصوصًا النساطرة ومنهم يوحنا بن ماسويه (777 - 857م)، وحنين بن إسحق (809 - 873م). وقد عرف عن الأوّل، وهو تلميذ جبريل بن بختيشوع تشريح الجثث، وخصوصًا جثث القردة لأنّ الدين الإسلاميّ كان يمانع في تشريح الجثث البشريّة. وتركزت الجهود على طبابة العين، مع ابن ماسويه وحنين بن إسحق. واستمرت أسرة بختيشوع متربعة على علم الطب سبعة أجيال حتى القرن الحادي عشر الميلاديّ.

أنشأ المسلمون الحوانيت لبيع العقاقير الطبيّة. ومن أوائل كتب الصيدلة ما ألّفه جابر بن حيّان. الأطباء والصيادلة كانوا يجتازون امتحاناً خاصًا لإعطائهم الإذن بمزاولة المهنة. ووجد في بغداد مستشفى (بيمارستان) أنشأه هارون الرشيد.

من أعلام الطب في العصر العبّاسيّ: علي الطبريّ وعلي بن العبّاس المجوسيّ والرازيّ وإبن سينا. لم يكن هؤلاء من العرب ولدوا خارج المشرق العربيّ، زاول منهم علي الطبريّ والرازيّ نشاطهما في بغداد، أما الآخران فظلا خارج المشرق. عمل الطبريّ طبيباً للمتوكل، ووضع كتابه «فردوس الحكمة» سنة 850م. أما الرازيّ وهو أبو بكر محمد بن زكريا (865 - 925م)، وهو الذي اختار

موقع بيمارستان بغداد وترأس عليه. يُنسب إليه اختراع الفتيلة في الجراحة. وضع في الكيمياء «كتاب الأسرار». وأشهر رسائله في «الجدري والحصبة». وأهم مؤلفاته كتاب «الحاوي» الذي نقل إلى اللاتينيّة في القرن الثالث عشر.

وعُرف في الطب علي بن عيسى، الذي اشتهر بعلم الكحل، ووضع كتاب «تذكرة الكحالين» وهو نصرانيّ من القرن الحادي عشر الميلاديّ. وإبن جزلة (ت 1100م) وهو أيضاً نصرانيّ وله كتاب «تقويم الأبدان في تدبير الإنسان»، استوحى فيه كتاب الطبيب النصرانيّ ابن بطلان. ونذكر يعقوب، ابن أخي حزّام، من زمن الخليفة المعتضد، وواضع كتاب «الفروسية وشيات الخيل» وفيها معلومات عن تربية الخيل والبيطرة.

2 - الفلسفة

اعتمد بعض المفكرين المسلمين العقل طريقًا للوصول إلى حقيقة الأشياء. ومن أبرز فلاسفتهم الكنديّ والفارابي وإبن سينا وإخوان الصفاء. الكنديّ كان عربيّاً، أما الفارابي فتركيا، وإبن سينا فارسيّاً، أمّا إخوان الصفاء فمزيج من جنسيّات مختلفة.

كان الكنديّ أبو يوسف يعقوب بن إسحق مشرقيّا من الكوفة. سعى لمزج آراء «أفلاطون» و»أرسطو»، واتخذ الرياضيّات من مدرسة «فيثاغورس» أساسا للعلم. كان الكنديّ فيلسوفًا وعالمًا بالتنجيم والكيمياء والبصريّات والموسيقى. ما وصلنا من مؤلفاته هو من ترجمات لاتينيّة لها. وله ثلاث رسائل في الموسيقى، من الناحية النظريّة.

تابع الفارابي مسألة التوفيق بين الفلسفة والإسلام وهو من بلاد ما وراء النهر درس في بغداد ثم التحق ببلاط سيف الدولة الحمدانيّ، وتوفي في دمشق سنة 950م. لقب بـ (المعلم الثانيّ» بعد أرسطو. ومن مؤلفاته «رسالة فصوص الحكم» و»رسالة في آراء أهل المدينة الفاضلة» و»السياسة المدنيّة» مستوحيًا فكرة النظام الفاضل من جمهوريّة أفلاطون وتصوّرات أرسطو. والفارابي عالم موسيقيّ وله «كتاب الموسيقى الكبير».

إبن سينا كان نتاجه خارج المشرق.

في أواسط القرن الرابع الهجريّ، العاشر الميلاديّ، ظهرت مدرسة إخوان الصفاء في البصرة، وكانت لهم مراكز في بغداد. جمع الإخوان الفلسفة والدين والسياسة، وكانت لهم ميول إسماعيليّة،

وكانوا، على ما يبدو، ميّالين لهدم النظام السياسيّ القائم، فأحاطوا أنفسهم بالتستر. ألّف هؤلاء مجموعة «رسائل إخوان الصفاء»، وهي موسوعة فكريّة تشير إلى أسماء المؤلفين فيها، ولكن، على ما يبدو، كانت أسماء، لربما، وهميّة، لأنّها لم تكن معروفة. بلغ عدد الرسائل إثنتين وخمسين، تعالج موضوعات علميّة وفلسفيّة وموسيقيّة وفلكيّة الخ.

3 - الفلك والرياضيّات

ذكرنا سابقًا كيف دخل علم الفلك إلى الديار الإسلاميّة. أوّل الأرصاد الدقيقة انتقل ت من فارس إلى بيت الحكمة، على عهد المأمون، فرصدت حركات الأجرام السماويّة. ودققوا في انحراف دائرة البروج، ومواقيت اعتدال الليل والنهار، والسنة الشمسيّة. وكان لدمشق نصيبها من المراصد، فبنى المأمون مرصدًا في جبل قاسيون. وكانت المراصد تضمّ أدوات مقياس الارتفاع، والإسطرلاب، والمزولة، أي الساعة الشمسيّة. أوّل إسطرلاب كان من صنع إبراهيم الفرازيّ (ت 777م). ومصطلح إسطرلاب يونانيّ يشي بأن صانعه استوحى الإسطرلاب اليونانيّ.

في زمن الخليفة المنصور تمّ قياس طول الدرجة الأرضيّة، وأُجري القياس في سهل سنجار وأيضاً قرب تدمر، وتوصل إلى نتيجة أنّ درجة الطول ستة وخمسين ميلاً عربيّا وثلثي الميل، بحيث إنَّ النتيجة لا تزيد عن طول الدرجة الحقيقي في موضع التجربة، سوى 2777 قدمًا. وربما شارك في هذا الاختبار أبناء موسى بن شاكر والخوارزميّ.

ومن علماء الفلك، أبو العباس أحمد الفرغاني، من فرغانة، الذي أمره المتوكل سنة 861م بعمل مقياس النيل في مصر. ومن كتبه: «المدخل إلى علم هيئة الأفلاك».

وعائلة أبناء ابن شاكر أنشأت مرصدًا في منزلها في بغداد. ومن الذين عملوا في هذا المرصد عبد الرحمن الصوفي (ت 968م)، مؤلف كتاب: «الكواكب السائرة».

أبو عبدالله محمد بن جابر البتاني، من صابئة حرّان، من مطلع القرن العاشر، هو أهم فلكيّ في تاريخ الإسلام. كان حقل أبحاثه في الرقّة. وقد عمل على إصلاح بعض ما توصل إليه «بطليموس» فضبط حساب الأفلاك التي يدور فيها القمر، وبعض النجوم السيّارة، وضبط مقدار الانحراف في دائرة البروج، وطول السنة في الأقاليم الحارة، وطول الفصول الأربعة، ومعدل دائرة الفلك الذي تجري فيه الشمس.

البيروني أبو الريحان محمد بن أحمد (973 - 1048) مؤلف كتاب: «الآثار الباقية عن القرون الخالية»، عالم عظيم في العلوم الطبيعيّة والرياضيّة يشتمل كتابه على منمنمات فريدة في نوعها عن شخصيات من الإنجيل والقرآن، وهو قد أنتج ما أنتج، وعاش خارج المشرق. أضف إليه عالم آخر عاش خارج جغرافية المشرق هو عمر الخيّام.

4 - التنجيم

اشتهر فيه أبو معشر البلخي (886م). الذي جاء من بلخ للإقامة ببغداد، وقد عرف من خلال ترجمات كتبه إلى اللاتينيّة، التي من خلالها، نعرف أنّه ربط المدّ والجزر بتأثير القمر.

5 - الأرقام الهنديّة

دخلت إلى الحضارة العبّاسيّة عن طريق الفزاريّ الذي ترجم إلى العربيّة كتاب «السند هند» في عهد الخليفة المنصور. والأرقام الهنديّة هي المعروفة في الغرب بأرقام العربيّة ومعها الصفر. على أن تعميم استعمال هذه الأرقام تأخر حتى القرن الحادي عشر الميلاديّ. وأبرز شخصية في علم الرياضيّات، مؤلف الزيج أي كتاب تقويم الفلك، وأقدم مَن وضع كتابًا في الحساب وفي الجبر هو الخوارزميّ (780 - 850م)، فهو من خارج المشرق من خوارزم.

6 - الكيمياء

عرف علماء الكيمياء المسلمون والعرب بإدخالهم التجربة العلميّة إلى أبحاثهم، ومع ذلك لم يتركوا نظريّات عامة كما يُفترض.

ومن مشاهيرهم: جابر بن حيّان، وكان هاجسه تحويل المعادن إلى ذهب. وعُرفت عنه أبحاث في التكليس، وإرجاع المعدن إلى أصله بالأوكسيجين.

7 - علم الحيوان

اشتهر فيه الجاحظ (ت 868 أو 869م) الذي عاش في البصرة، وهو مُصنّف كتاب «الحيوان».

8 - الجغرافية

ساهمت الفروض الدينيّة في تطور الجغرافية، وكذلك اتساع التجارة باتجاه الصين وروسية.

أوّل ما كُتب في وصف الصين، بيانٌ دُوّن في سنة 851م، على يد كاتب مجهول. وأوّل بيان عن روسية ما كتبه أحمد بن فضلان بن حماد سنة 921م، الذي زار ملك البلغار بطلب من الخليفة المقتدر.

تعرّف المسلمون إلى كتاب الجغرافيّ اليونانيّ «بطليموس» عبر الترجمات التي كان في طليعتها ما نقله يعقوب بن اسحق الكنديّ وثابت بن قره. كانت هذه الترجمة مصدر معلومات الخوارزميّ في كتابه «صورة الأرض». وقد رسم الخوارزميّ مع تسعة وستين عالماً، بطلب من المأمون، خريطة لصورة الأرض تظهر الأرض والسماوات.

أوّل الكتب الجغرافيّة كانت لإبن خرداذبه (ت 912) الذي وضع دليلاً للطرق أسماه «كتاب المسالك والممالك». أما ابن واضح اليعقوبيّ، واضع كتاب «كتاب البلدان»، فعاش خارج المشرق في خراسان وأرمينية. ووضع قدامة بن جعفر، وهو مسيحيّ، كتاب «الخراج» الذي يستعرّض فيه التقسيمات الإداريّة في الدولة العبّاسيّة، وتبعه ابن رسته في كتاب «الأعلاق النفيسة» وإبن الفقيه الهمذاني في «كتاب البلدان».

ومن الجغرافيّين المشهورين نتذكّر الاصطخريّ وإبن حوقل والمقدسيّ، ويعنينا من هؤلاء المقدسيّ من حيث إنّه من المشرق من بيت المقدس، وكتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، وهو كتاب مفيد وغنيّ بالمعلومات. والى هذه المجموعة نضيف ياقوت (1179 - 1229) مؤلف «معجم البلدان» وهو من أبويْن يونانيّين، أُسر وبيع في بغداد، فاشتراه تاجر من حماه، لذلك عرف بالحمويّ، وقد عمل عند سيّده في تجارته، ثم أعتقه، فاشتغل في النسخ لتأمين معيشته، فتنقل في البلدان لبيع المخطوطات. وكان صدور أوّل نسخة من كتابه في الموصل سنة 1224م.

9 - التاريخ

ظهرت المؤلّفات التاريخيّة في الحقبة العبّاسيّة. ومن الذين كتبوا عن الجاهليّة هشام الكلبيّ الكوفيّ (ت 819م).

أوّل تدوين للأحاديث الدينيّة ولسيرة الرسول، كان مع محمد بن إسحق (ت 767م)، مؤلف «سيرة رسول الله» ومن المؤسف، أن هذه السيرة وصلتنا عبر كتاب ابن هشام (ت 834م). تلا ذلك

ما كتبه موسى بن عقبة (ت 758م) عن الفتوحات الأولى في «كتب المغازي» وما ينسب إلى الواقديّ (ت 823م) في «فتوح الشام».

وعُرف من مؤرخي الإسلام أحمد بن يحيى البلاذريّ (ت 892م)، في «فتوح البلدان». واشتهر أبو جعفر الطبريّ، من طبرستان في بلاد فارس، وهو من خارج المشرق. أمّا مَن كان من المشرق، وعرف شهرة كبيرة، فكان أبو الحسن علي المسعوديّ، الذي ولد ببغداد، وكان معتزليّاً، زار أرجاء كثيرة من العالم الإسلاميّ، واستقرّ في أواخر حياته في مصر والشام، وهو مؤلف كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر».

10 - الأدب والشعر

لم يكن الأدب العربيّ عربيّا صرفًا، بل كان نتاج العرب والشعوبيّة، أي المسلمين والمسيحيّين من غير العرب.

أولى تجليّات الأدب العربيّ كانت مع الجاحظ (ت 868م) في مدينة البصرة، ثم تلاه بديع الزمان الهمذانيّ (969 - 1008م)، والثعالبيّ (961 - 1038م) والحريريّ (1054 - 1122م). وقد تميّز الأدب مع هؤلاء بالتصنّع والتأنّق والزخرفة والسجع، وخصوصًا مع فنّ «المقامة»، التي يعود فضل إطلاقها إلى بديع الزمان الهمذانيّ، وشهرتها إلى الحريريّ. وهي متعة أدبيّة تقوم على الصناعة البيانيّة، والأقصوصة الطريفة.

واشتهر أبو الفرج الأصفهانيّ (897 - 967م) في كتابه «الأغاني» الذي يؤرخ لكنوز الشعر والأدب. قدّم كتابه هذا إلى سيف الدولة الحمدانيّ.

اعتبرت «ألف ليلة وليلة» من روائع الأدب العربيّ تحكي مجد الخلافة العبّاسيّة. ولكن في الواقع هي من أصل فارسيّ، من كتاب يحمل اسم «هزار أفسان»، أي ألف قصة. وقد وُضع النصّ الأول للكتاب في العراق، في أواسط القرن العاشر على يد الجهشياريّ (ت 942م). وألف ليلة وليلة خليط من قصص هنديّة وفارسيّة ويونانيّة وعبرانيّة ومصريّة وقصص شرقيّة ونوادر وقصص من بلاط هارون الرشيد، وظلّ موضوع الكتاب يُرفد بالقصص من القرن العاشر إلى زمن المماليك في مصر، حينما اكتملت صياغته.

على صعيد الشعر ظهر ميل للتجديد والخروج عن النمط الجاهليّ والأمويّ.

كان الشاعر الضرير بشّار بن برد (ت 783م) في طليعة المجدّدين بالخروج عن أساليب الشعر الجاهليّ، وقد مات قتلاً لاتهامه بالزندقة. والأكثر شهرة هو أبو نواس (ت 810م) الذي عُرف بمجونه وشربه الخمر وحبّه للحياة. وهو يعكس صورة الحياة المترفة زمن الرشيد وأولاده.

ولم يكن المجون وحده يستهوي كل الشعراء، فأبو العتاهية يقدّم المشهد الثاني من حياة بغداد بزهده وتقشفه وتشاؤمه.

ومن شعراء بغداد المميّزين أبو تمام (ت 845م) وأبو العلاء المعريّ والبحتريّ، ولاحقًا المتنبيّ وإبن الروميّ وأبو فراس الحمدانيّ.

ج - العلوم والفكر الدينيّ ومذاهبه

استتباب الإسلام وتحديد هوية لعالم إسلاميّ قائم بذاته

ظلت سورية نصرانيّة في أكثريتها في العهد الأمويّ. ولكن مع الدولة العبّاسيّة، ومع التشدّد الذي مارسته، ازداد عدد الداخلين في الإسلام. وانتصرت اللغة العربيّة على لغات الشعوب المكوّنة للخلافة العبّاسيّة مع انتشار الإسلام. وتأخّر هذا العامل في جبال سورية ولبنان الحاليّين. ولقد تركت اللغة الآراميّة - السريانيّة مفرداتها في اللغة العربيّة.

في نهاية القرن الرابع الهجريّ العاشر الميلاديّ، أضحى المسلمون أكثريّة، حتى في الريف، لهم نظامهم الدينيّ الواضح، من شعائر وشريعة وعقائد، المختلف عن نظام أهل الكتاب، وغير المسلمين. نظام أعطاهم وعيًا بأنّ لهم هويّة متمايزة كمسلمين. فبرز عالم قائم بذاته هو «العالم الإسلاميّ» الواضح للعين المجردة.

الأبنية الفخمة، دينيّة كانت أو زمنية، من قصور وخانات، كانت انعكاسًا لعظمة هذا العالم الإسلاميّ ودلالاته. القصور عكست عظمة السلطة وحياتها المترفة مع قصور الحريم والجنائن.

مع القرن العاشر الميلاديّ، كان الناس في وسط عالم معرّف ومحدّد بلغة الإسلام: الصلوات الخمس، الخطبة، الصوم، الحجّ والتقويم الإسلاميّ الهجريّ واللغة العربيّة، وإدراكهم أنّهم ينتمون إلى أمّة، تسمو على القبليّة والعائليّة والعشائريّة واللون والفئة الاجتماعيّة.

كان على المسلمين مواجهة تحدّي أهل الكتاب والزرادشتيّين، فحاولوا الاجابة بما وصل إليهم من ثقافات سابقة، وأثمر ذلك في المشرق، وخصوصًا في العراق. فقامت حركات طلب المعرفة والتفكير بها في المعرفة الدينيّة. المشكلة الأولى كانت مسألة السلطة، لمن يكون القرار، وما نوعه؟ أهو لعائلة النبي، أم لكل المسلمين؟ أو للصحابة؟ ما حدود سلطة الخليفة؟

وطرحت قضايا عن طبيعة الله، وصفاته، وعلاقته بالبشر، وما مدى حريّة الإنسان؟ وهل يخلق أفعاله بنفسه؟ أو أن لا إرادة حرّة له، وكيف يحاكم بعد الموت بالإيمان أو بالأعمال؟

في مقابل هذه النزعة، برز علماء ومدارس فقهيّة لاحقًا تشكك بإمكانية بلوغ الحقيقة بواسطة العقل. فالجدل المنطقي والمناظرة ستضرب وحدة أمّة الله، والوحدة أهم من التوصّل إلى اتفاق في مسائل العقيدة. بالنسبة لإبن حنبل، كلمة القران، بنصّها هي الأساس الثابت، من دون تأويل منطقيّ، إلا في حالات الضرورة القصوى. وصفات الله هي صفات إلهيّة، ولا تقاس على الصفات البشريّة. ومن هذه الصفات أنّ القرآن هو كلام الله، وهو غير مخلوق، وعلى الإنسان الانصياع لإرادة الله، بالإيمان وبالأعمال. مع الأشعريّ (ت. عام 935م)، الله واحد، وصفاته جزء من جوهره، فهي ليست الله ولكن ليست غير الله.

بعكس علوم الطب والفلك والرياضيّات والكيمياء، التي برز فيها مسلمون من غير العرب، كانت علوم الدين بشكل أساسيّ من إبداع هؤلاء.

القرآن هو مصدر العقيدة الأساسيّ، والمرجع الحَكَم بكل شوارد الدين الإسلاميّ، من حيث إنّه كلام الله. وتليه بدرجة ثانية السنّة التي هي مجموع كلام وأفعال الرسول محمد، التي دُوّنت في الحديث في القرن الثاني للهجرة، بعدما كانت تتناقل شفاهًا. وقد يتوسّع الحديث ليشمل ما عمله وقاله الصحابة والتابعون.

خلال القرنين الأول والثاني، وبسبب الخلافات الدينيّة والسياسيّة، غزر عدد الأحاديث المنسوبة للرسول.

وتقضي صحة الحديث أن تحتوي على إسناد، ومتن يتلو الإسناد وصيغته «حدثني فلان قال حدثنا فلان عن فلان... قال حدثني فلان أنه سمع النبي قال كذا...». اقتصر نقد الحديث على شخصيّة الرواة، من حيث صدقهم، وأمانتهم في النقل.

جُمعت الاحاديث في ستة كتب، أوثقها عند السنّة «صحيح البخاريّ» لمحمد بن إسماعيل البخاريّ (810 - 870 م)، الذي جمع 7275 حديثًا من أصل 600000 حديث، كان قد سمعها في مدة ست عشرة سنة، في العراق والشام والحجاز ومصر.

الفقه، هو الشريعة الإسلاميّة المبنيّة على القرآن والسنّة. والشريعة، هي أوامر الله الموجودة في القرآن، وفي الأحاديث، وتشمل: الوصايا والقوانين التي ترعى الصلاة والمعاملات والعقوبات. ولما كانت أمور كثيرة استجدّت، بعد الخروج من الجزيرة إلى المشرق وغيره، عمد المسلمون إلى الإفتاء الذي يعتمد القياس، أي الاستدلال والاجتهاد، من طريق المقارنة والتشبيه واتفاق الأمّة الإسلاميّة، اي الإجماع.

بين العقل والدين

شهدت الحضارة العبّاسيّة صراعاً اتخذ تسمية الصراع بين مذاهب الفلاسفة والدين، وكانت فرقة المعتزلة على رأس هذه المذاهب.

بدأت المعتزلة في عهد الأمويّين، ولكنها لم تأخذ مداها إلا مع العبّاسيّين، وخصوصًا في عهد المأمون. ففي ظلّ هذا الخليفة صدر إعلان سنة 827م ينادي بخلق القرآن، مخالفًا فيه توجّه الفقهاء إلى أنّ القرآن موجود بشكله اللفظيّ منذ الأزل، على لوح محفوظ عند الله. وضاعف المأمون إيمانه بخلق القرآن، إلى تطهيره الدولة من الرافضين لتوجّهاته، وبإنشائه لديوان المحنة لامتحان مَن ينكر عقيدته، ونتيجة لذلك اضطهد الإمام ابن حنبل. وتابع المعتصم تأييده لفكر المعتزلة، إلا أن المتوكّل انقلب على توجّهات المأمون والمعتصم والمعتزلة وأعاد عقيدة السلف الصالح.

مال العديد من المفكرين والأدباء إلى فكر المعتزلة، والى اعتبارها الشك هو الطريق لليقين والعلم، ومنهم الجاحظ، ولأن المعتزلة تأثرت بالتوجهات السياسيّة للخلافة العبّاسيّة، فقد تمكّن الأشعري أبو الحسن علي البغدادي (635م)، وهو الذي تربّى على يد فقيه معتزليّ من دحض آرائها في قولها بالعدل وبخلق القرآن. يعتبر الأشعريّ مؤسس علم الكلام وهو الذي نادى بأن على المسلم إطاعة أوامر الدين بلا ممانعة، «بلا كيف» أي من دون التساؤل عن كيف وكيف. ونتيجة لذلك توقّف الاجتهاد في الإسلام السنيّ وتوقّفت حركة الفكر الدينيّ.

تابع الفيلسوف الغزاليّ (1058 - 1111م) ما بدأ به الأشعري. اعتمد الشك طريقًا لليقين، وكان من أرباب المدرسة النظاميّة في بغداد، ومارس التصوّف والتنسك طيلة اثنتي عشرة سنة، أمضى منها سنة في مكة، وسنتين في سورية، فاستقر أخيرًا في بغداد، حيث وضع كتابه «إحياء علوم الدين». والى الغزالي يعود الفضل بتثبيت العقيدة الإسلاميّة.

مذاهب السنّة

المذاهب المعتمدة حتى اليوم هي أربعة، إذا وضعنا جانباً مذهب الأوزاعي.

المذهب الحنفيّ: المذهب الشرعيّ الأقدم، والأكثر انتشارًا هو المذهب الحنفيّ، نسبة للإمام أبو حنيفة النعمان ابن ثابت (ت 767م)، وهو فارسيّ الأصل، كان يعتمد الرأي والاستنباط في الأمور الفقهيّة. كان يعمل في التجارة ثم مال إلى الفقه. وكان من تلامذته أبو يوسف (ت 798م) مؤلف «كتاب الخراج»، الذي لخّص فيه أهم أفكار أستاذه. لم يسعَ أبو حنيفة لتأسيس مذهب شرعيّ، لكنّ أفكاره واجتهاداته، أسست لمذهب عرف باسمه وتميّز بتساهله، وهو الأكثر انتشارًا في العالم الإسلاميّ، نتيجة أخذ السلطنة العثمانيّة به، وبقاء الشعوب التي كانت خاضعة لها على هذا المذهب.

المذهب المالكيّ: المدرسة الثانية، هي تلك التي أسسها الإمام مالك بن أنس (715 - 795م). له كتاب يحمل اسم «الموطّأ». نشأ هذا المذهب في المدينة، ثم انتشر في الأندلس والمغرب، وهو لا يزال معتمدًا في أفريقيا الشماليّة.

المذهب الشافعيّ: المدرسة الثالثة، هي الشافعيّة، وتدعو للاعتدال، ومؤسسها الإمام محمد بن إدريس الشافعيّ القرشيّ (ت 820م)، وهو من مواليد غزّة. درس على مالك في المدينة، ولكنه عاش في بغداد، وتوفي في مصر، ودفن في سفح المقطّم في القاهرة. يتبع هذا المذهب ساحل مصر وشرق أفريقيا وفلسطين وجزء من شبه الجزيرة العربيّة، حيث لا يقوم المذهب الوهابي وسواحل الهند.

المذهب الحنبليّ: المدرسة الرابعة، نسبة للإمام أحمد بن حنبل. وهو أحد الأئمّة المتشدّدين الذين وقفوا بوجه التجدّد وبوجه المعتزلة. وقد تعرّض ابن حنبل للاضطهاد زمن المحنة في خلافة المأمون فالمعتصم. وبعكس المذاهب الثلاثة المذكورة أعلاه، ليس له مؤيّدون كثر، باستثناء الوهابيين.

المذهب الأوزاعيّ: بالإضافة إلى هذه المذاهب الاربعة أزهر في ربوع المشرق مذهب خامس عاش قرنين من الزمن ثم أفل نجمه هو مذهب الإمام الأوزاعيّ.

وهو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمر بن محمد، المعروف بالأوزاعيّ، نسبة إلى قبيلة أوزاع، من عرب اليمن، أو سبي اليمن، المتوطنين بلاد بعلبك في عهد عبد الملك بن مروان. كانت ولادته ببعلبك سنة ثمانٍ وثمانين للهجرة، ومنشؤه في البقاع، ثمّ نقلته أمّه إلى بيروت. تنقّل بين مختلف أقطار الشرق الإسلاميّ طلباً للعلم، واستقرّ أخيراً في بيروت، وعاش فيها إلى أن توفّي سنة سبع وخمسين ومئة (157هـ/774م) في أواخر عهد أبي جعفر المنصور. ودفن في محلة «حنتوس» التي ستحمل اسم الأوزاعي في ضاحية بيروت الجنوبيّة.

درس الأوزاعي على يحيى بن كثير، وسمع من الحسن البصريّ وإبن سيرين. سمع في البصرة من قتادة، وفي الكوفة من عامر الشعبيّ، وفي مكة من بن أبي رباح، وفي المدينة من ابن شهاب الزهريّ ومن نافع المدنيّ، وفي دمشق من المكحول الشاميّ وغيرهم. وكانت له اتصالات بالإمام مالك بن أنس، والإمام سفيان الثوريّ، وكانت له مناقشات مع أبي حنيفة. وكان إماماً محدّثًا متخصصًا بالسنّة النبويّة، وفقيه مذهب، من أهل الحديث، لا من أهل الرأي، ولم يكن قدرياً.

كان الأوزاعيّ إمام أهل الشام وعالمهم في زمانه. قيل إنّه أجاب في سبعين ألف مسألة شرعيّة. وروي عنه ستون ألف مسألة. وأفتى وهو بعمر خمس وعشرين سنة. وكان أمره في الشام أعزّ من أمر السلطان، واعتُبر عالم الأمة.

أسس مدرسة فقهيّة سنيّة خاصة به، اعتمدت سننها في المشرق طيلة قرنين من الزمن، حتى منتصف القرن العاشر الميلاديّ، وآخر من عمل بمذهبه القاضي أحمد بن جندلم (والصحيح ابن خرّام). كما اعتمدت في الأندلس قرابة نصف قرن قبل أن تهيمن عليها مدرسة الشافعيّ. فقد تراجع مذهب الأوزاعيّ في الأندلس، بعد وصول عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام الأمويّ إليها.

كانت سلطته تفوق سلطة الخليفة. وعندما مرّ الخليفة المنصور في بيروت، سمع الأوزاعيّ يخطب في المسجد فأعجب به كثيراً. وقد استشاره بعد ذلك في بعض الأمور. وكان، كما ورد في المصادر، رأساً في العلم والعمل، بارعاً في الكتابة والترسّل، مجتهداً في العبادة يمضي الليل يصلّي. اشتهر

بصفاته الخلقيّة: فكان فاضلاً، كريماً، شريفاً، متسامحاً، كبير القلب والعقل، شغوفاً بالعدالة والحريّة ومدافعاً مستميتاً عنهما.

استقرّ في بيروت حيث أمضى أكثر وقته، هو وعائلته وأهله، معطياً للمدينة المذكورة، بوجوده فيها، مجداً جديداً في حقل القانون، يُضاف إلى مجدها السابق في عهد البيزنطيّين في القانون الرومانيّ.

تحوّل منزله الذي كان قائماً في المحلة المعروفة بـ «سوق الطويلة»، حيث يُظنّ انّه سكن، وحيث كُرّست لاحقًا قاعة على اسمه نتيجة لذلك، إلى مدرسة، ومكان للعبادة، يؤمّه الناس من كلّ حدب وصوب للتعلّم منه، وإيجاد الفتاوى التي تجيب عن تساؤلاتهم؛ أو طلباً للعدالة بواسطة رسائل يوجّهها إلى النافذين.

رفض الأوزاعي تبوّء أعلى مناصب القضاء، ومارس حياداً تاماً تجاه السلطات المتعاقبة والشيع الإسلاميّة.

كان هذا الإمام إنسانيّاً في تعليمه وفي مواقفه في الدفاع عن المضطهدين من غير دينه، وبرز ذلك بوضوح في دفاعه عن النصارى بوجه جور العبّاسيّين، ولا سيّما منهم صالح بن علي الذي هجّرهم من ديارهم في جبل لبنان الأوسط إثر حادثة بسكنتا وثورة بندار.

ترك الأوزاعي آثاراً مكتوبة كثيرة لم يصلنا منها إلا ما بقي في متون كتب التاريخ والفقه.

عارض الأوزاعي الحكم العبّاسيّ، وهرب مختبئاً منهم في جبل الجليل، وحاول العبّاسيّون القبض عليه على يد والي الشام، أو قتله، مستغلّين فرصة الثورة في المنيطرة، ولكنه تردد في تحقيق ذلك خوفاً من غضب أهل الشام. وعندما استقرّ عبدالله بن علي في دمشق، وكان في قمةّ الغطرسة بعد النصر، حاول استدراجه، في ظلّ أجواء مرعبة، إلى الجواب عن أسئلة تتعلّق بما فعله العبّاسيّون بالأمويّين، بدمائهم وأموالهم. فأحسن الأوزاعيّ الجواب، من دون أن يعطي لعبدالله تبريراً لما فعله العبّاسيّون. وعندما حاول الأخير استدراجه إليه بتوليته على رئاسة القضاء رفض بلباقة.

مات مختنقاً من الفحم الذي أدخلته له زوجته إلى الحمام في الشتاء. وعند وفاته حمله المسلمون إلى مثواه الأخير وسط مشاركة المسيحيّين واليهود.

ولسنا نعرف بين فقهاء المسلمين من أظهر نبل العاطفة ما أظهره الأوزاعيّ في دعوته إلى الأخوّة الإنسانيّة. فإنّ معاصره العراقي أبا حنيفة (ت769م)، الذي يُعتبر مذهبه من أكثر المذاهب الإسلاميّة

سماحة، قد تغاضى عن قطع النخيل وغيره من الأشجار عند مقاتلة المشركين، ولكن الأوزاعيّ منع عملاً كهذا. كان أبو حنيفة يحرّم أكل اللحم إذا كان من ذبح مرتدّ، وكان مرتدّاً ذمياً، ولكنّ الأوزاعي كان يحلّله. ولم يقرّ الأوزاعي بقتل الرهائن، الخ.

وكان الأوزاعي متقدّماً على غيره من أئمّة الإسلام في ما يخصّ سيرة النبي، فقد سئل: «أكل ما جاءنا عن النبي نقبله؟ فقال: نقبل منه ما صدّقه كتاب الله عز وجلّ، فهو منه، وما خالفه فليس منه»، فقيل له: «إن الثقات جاؤوا به. قال: فإن كان الثقات حملوه عن غير الثقات؟».

هذه الحركة التشريعيّة أُقفل بابها، عندما أُغلق باب الاجتهاد، كردّ على الحركات التجديديّة. فاكتفى المسلمون بما أتى به أهل هذه المذاهب الأربعة، ولم يعد للقياس من صلاحيّة وتلاشى مبدأ الإجماع.

مذاهب الشيعة:

أمّا الشّيعة فلا يقبلون الإجماع، بل بما أدلى به الأئمّة المعصومون من ذرية علي. وبعكس السنّة الذين أقفلوا باب الاجتهاد، منذ زمن الغزالي، فما يزال الشّيعة يأخذون به.

كان حظ الشّيعة منكودًا في ظل العبّاسيّين، ولئن اتخذ المأمون شعار الشّيعة الأخضر، وعقد البيعة بولاية العهد لعلي الرضا، إلّا أنّ ذلك لم يعمّر أبعد من حكم المتوكّل، الذي انقلب على إجراءات أخيه، فدمّر سنة 850م قبر علي في النجف، وقبر الحسين في كربلاء. وتتابع اضطهاد الشّيعة ممن ولي الخلافة بعد المتوكل، فاعتصموا بالتقيّة منهاجًا لدرء الاضطهاد عنهم. والتقيّة هي أن يتظاهر المسلم بالدين السائد ويُخفي في قلبه عقيدته.

الإمام الشيعيّ، يختلف عن الخليفة العبّاسيّ، بأنه لا يرث عن النبي السلطة بمفهومها السياسيّ والعسكريّ والدينيّ، بل له حق تفسير الشريعة، من حيث أنّه إمام معصوم، منزّه عن الإثم. الإمام الأول عند الشّيعة هو علي يخلفه ابنه الحسن فالحسين الذي منه ذرّية الأئمّة. ومن مذاهب الشيعة:

الإثني عشرية: يبلغ عدد الأئمّة عند الشّيعة الإماميّة، او الإثني عشرية إثني عشر إمامًا. آخرهم محمد الإمام الثاني عشر الذي اختفى سنة (878/264م). لربما قتل أو غاب في كهف بجامع سأمراء، ولم يترك ذرّية وهو الإمام المستتر أو المهديّ المنتظر، الذي لا يزال حيًّا ويعود في آخر الزمان، فيحكم العالم كله. هذا الإمام المهديّ هو «قائم الزمان».

تعاطى أئمّة الشّيعة مع العبّاسيّين بوسائل مختلفة، فمثلاً جعفر الصادق (700 - 765م) الإمام السادس، كان مسالماً يدعو للمقاومة السلميّة إلى حين مجيء المهديّ. كما أن المأمون (813 - 833م) من جهة أخرى عيّن علي الرضا. وهو بمثابة الإمام الثامن عند الشيعة. وريثًا له. ولكن محاولته جوبهت بمعارضة فقهاء على رأسهم أحمد بن حنبل.

وأتباع الشّيعة الإماميّة، أقرب الشّيعة إلى السنّة ولا يمارسون التطرّف الذي اشتهرت به الفرق المنبثقة من الإسماعيليّة.

أبرز الركائز العقائديّة عند الشّيعة الإماميّة هي: إمامة علي - عصمة الإمام - التقية (الممارسة السرّية) للشعائر الدينيّة - زواج المتعة.

وكما يقول القلقشنديّ: الشّيعة هم الذين شايعوا علياً بن أبي طالب، وقالوا بإمامته وخلافته نصّاً ووصاية: إمّا جليّاً أو خفيّاً، وأنّ الإمامة لا تخرج عنه وعن بنيه إلا بظلم من غير ذلك الإمام، أو بتقيّة منه لغيره.

وبالإضافة إلى ذلك يذكر الشهرستاني أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وهي ليست قضيّة مصلحيّة تُناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم، بل هي قضيّة أصوليّة، وهي ركن الدين... ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيب، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمّة وجوبًا عن الكبائر والصغائر، والقول بالتولّي والتبريّ قولاً وفعلاً، وعقداً، إلا في حال التقيّة.

بعد استقرار الفاطميّين في مصر، في أواسط القرن العاشر الميلاديّ، انقسم الشرق بين الإسماعيليّة، عقيدة الفاطميّين، والإماميّة عقيدة الأمراء الحمدانيّين، زعماء سورية الشماليّة في أواخر القرن التاسع الميلاديّ.

الإسماعيليّة: فرقة شيعيّة لا تتوافق مع الشّيعة الإماميّة بموضوع تعاقب الأئمّة بعد الإمام السادس جعفر الصادق. فهي تعتبر أنّ الإمام السابع، بعد جعفر، هو ابنه إسماعيل (ت 760م) الذي توفّي على حياة ابيه، لا شقيقه موسى الكاظم. فالأئمّة الظاهرون هم سبعة من علي إلى إسماعيل. فقد عمد جعفر إلى تعيين ابنه الثاني موسى، فاعتبرت أنه لا يحق للوالد تغيير التكليف الإلهي، بولاية العهد لموسى، بدلاً من إسماعيل الذي توفّي قبل خمس سنوات من موت ابيه.

وبتأثير من الفلسفة «الفيثاغوريّة» قدّس الإسماعيليّة الرقم سبعة. فالنظام الكوني والسموات وتجليّات الله والأنبياء سبعة. كل نبي أساس هو السابع يليه ستة ناطقون.

كان الإسماعيليّون مُنظّمين بطريقة سريّة، متراصّة هيكليّة، ينشرون الدعاة من المركز الرئيس في بلدة سلميّة في سورية، يبشّرون بمفاهيمهم الباطنيّة للدين الإسلاميّ، بمعنى أنّ لكلّ آية قرآنية ظاهراً وباطناً. والباطن هو شرحهم وفهمهم لهذه الآية. ومن عقائدهم الباطنيّة مفهوم نشوء الكون، بتجلي الجوهر الإلهي، وتناسخ الأرواح، وحلول الألوهيّة في إسماعيل وفي كل إمام سابع، يليه، حتى رجعته مهديًّا.

وهؤلاء الإسماعيليّون يعملون على تأويل القرآن الكريم، وقد انقسموا شيعاً عدّة كان من بينها بالدرجة الأولى، القرامطة، والفاطميّون، الذين وحدهم من بين فرق الشيعة، تمكّنوا من تأسيس دولة و»إمبراطوريّة». وقد ذهب بعض المشايعين لإسماعيل إلى أنّه لم يمُت، وأنه سيعود ليظهر كقائم وكمهديّ، وكان آخرون يقولون بإمامة ابنه محمد. الفرقة الأولى تعتقد بأنّ جعفر أعلن وفاة ولده إسماعيل تقيّة منه لحمايته، وهي تسمّى بـ «الإسماعيليّة الخالصة»، والفرقة الثانية وتُعرف بـ «المباركية» وتعترف بأن محمد بن إسماعيل هو صاحب الحقّ الشرعيّ، وقد عيّنه في ذلك جعفر الصادق بنفسه. فعند وفاة محمد بن إسماعيل نحو عام 179هـ/796م في أثناء خلافة هارون الرشيد، انقسمت المباركيّة قسمين: قسم الأغلبية الذين رفضوا وفاة محمد وقالوا إنّه حيّ وسيعود في المسقبل القريب وهو الإمام السابع والأخير، وقسم اعترف بوفاة محمد وجعلوا الإمامة في ذريّته، وهو ما سيقول به عبدالله (المهديّ) المؤسس للفاطميّين. ومع الوقت، توافق قادة الإسماعيليّة الخالصة، وقسم الأغلبية من المباركيّة، على أن الوقت قد حان لإعلان مهديّة محمد بن إسماعيل، الذي حلّ محلّ ابيه كمهديّ.

وليست لدينا معلومات مهمّة عن هذه الفترة الممتدّة من نشوء الإسماعيليّة إلى القرن التاسع ميلاديّ. يبدو أنّهم نشأوا كحركة سريّة في العراق وخوزستان، ثم في سورية. فمنذ عام 877 - 878م بدأت الدعاية الإسماعيليّة تزدهر على يد حمدان قرمط، يساعده في ذلك صهره عبدان، ودُعي تلامذته قرامطة. وكانت الدعوة تمتدّ في بلاد فارس وجوارها على يد ابن حوشب وابي عبدالله الشيعيّ في المغرب التي وصل إليها في عام 893م. وعندما أسس أبو سعيد الجنابي، تلميذ حمدان قرمط، دولة قرمطيّة في البحرين، كانت الدعوة الإسماعيليّة تنتظم في قيادة مركزيّة واحدة موقعها

الأهواز ثمّ البصرة، وفي ما بعد في سلميّة في سورية. وكان الجميع يقرّون بأنّ محمد بن إسماعيل، هو الإمام الذي اختفى، والذي سيعود كقائم لحكم العالم. وبغياب الإمام كان زعماء الحركة يدعون أنفسهم حجّة.

في العام 899م، عندما تسلّم عبيدالله المهديّ زعامة الحركة في سلميّة، وقع انشقاق في الحركة بسبب مطالبة عبيدالله بالإمامة لنفسه ولأجداده، فنزع حمدان وعبدان دعمهما عنه، واغتيل عبدان على يد داعٍ يُدعى زكرويه. وكان عبيدالله يشكّ في صدق نيات زكرويه، فترك سلميّة، وسافر سرّاً إلى رقادة حيث سيؤسس الخلافة الفاطميّة عام 910م.

لوّن الإسماعيليّون عقائدهم ببعض كلام الفلاسفة، فقالوا في الله: لا نقول هو موجود، ولا موجود، ولا عالم ولا جاهل، ولا قادر ولا عاجز، وكذلك في الصفات جميعها. وهو ليس بقديم ولا محدث، بل القديم أمره، وكلمته، والمحدث: خلقه وفطرته.

أبدع الله بالأمر العقل الأوّل، الذي هو تامّ بالفعل، ثمّ متوسطه أبدع النفس التالي الذي هو غير تامّ، وكان الإنسان متميّزاً عن سائر الموجودات بالاستعداد الخاص لفيض الأنوار. وهذه النظريّة دخلت إلى معتقدات الإسماعيليّة في القرن العاشر الميلاديّ، بتأثير النيو أفلاطونية. وفي العالم العلويّ عقل، ونفس كليّ وحكمه حكم الشخص الكامل البالغ، ويسموّنه الناطق، والنبي، نفس مشخّصة، وهو كلّ أيضاً، وحكمه حكم الطفل الناقص المتوجّه إلى الكمال، ويسمّونه الأساس، وهو الوصيّ. فالتاريخ يتألّف من حلقات. وفي كلّ حلقة سبعة عصور، وكلّ عصر يبدأ بنبي ناطق يحمل رسالة موحىً بها. والناطقون الأول كانوا: آدم، نوح، إبراهيم، موسى، عيسى ومحمد. ولكل ناطق رجل أساس أو صامت، كانت مهمته الكشف عن باطن الرسالة الإلهيّة وسبعة أئمّة. وكلّ إمام سابع، من كلّ عهد، يصل إلى المرتبة العليا ويصبح ناطق العهد، فاسخاً شرع الناطق السابق، ليعلن شرعاً جديداً. وفي عهد النبي محمد، الإمام عليّ كان الأساس. ومحمد بن إسماعيل هو الإمام السابع. وعندما سيعود هذا الأخير سيكون سابع ناطق، القائم أو المهديّ وسينسخ شرع الإسلام، وستكون رسالته هذه المرّة محتوية على الوحي الكامل لحقائق الباطن من دون وحي ظاهر. وخلال غيبته تحلّ محلّه اثنتا عشرة حجّة، ويأتي بعد الحجّة هرمٌ من الدعاة.

ولما تحرّكت الأفلاك والطبائع بتحريك النفس والعقل، كذلك تحرّكت النفوس والأشخاص بالشرائع بتحريك النبيّ والوصيّ في كلّ زمان دائراً على سبعة فسبعة حتى ينتهي إلى الدور الأخير، ويدخل زمن القيامة، وترتفع التكاليف، وتضمحلّ السنن والشرائع.

وهذه الحركات الفلكيّة والسنن الشرعيّة هي قائمة لتبلغ النفس إلى حال كمالها. وكمالها بلوغها إلى درجة العقل واتحادها به، ووصولها إلى مرتبته فعلاً. وذلك هو القيامة الكبرى، فتنحلّ تراكيب الأفلاك والعناصر والمركبات وتتصل جزئيّات الحق بالنفس الكليّ وجزئيّات الباطل بالشيطان المضلّ المبطل.

وما من فريضة وسنّة وحكم من الأحكام الشرعيّة: من بيع وإجارة وهبة ونكاح وإطلاق وجراح وقصاص وديّة وله وازن من العالم. ولكل حرف وازن من العالم، وطبيعة يخصّها.

فعن هذا صارت العلوم المستفادة من الكلمات التعليميّة غذاء للنفوس، كما صارت الأغذية المستفادة من الطبائع الخلقيّة غذاء للأبدان. وقد قدّر الله أن يكون غذاء كلّ موجود مما خلق منه. فعلى هذا الوزن صاروا إلى ذكر أعداد الكلمات والآيات، وان التسمية مركّبة من سبعة وإثني عشر. ودعوا الناس إلى إمام في كلّ زمان.

القرامطة: انبثق القرامطة من الإسماعيليّة عندما أقدم حمدان قرمط، وهو من غلاة دعاة هذه العقيدة، على الانشقاق عنها، فحملت اسمه.

بعد فشل الدعاية الإسماعيليّة، انتشرت دعوتهم بين الأوساط الفلاحيّة، واتخذت شكل الثورة الفلاحيّة المسلّحة عام 890م، وكان لهم تأثير كبير في السكان في سورية ولبنان الحاليّين.

في العام 261هـ/874م دخل حمدان قرمط في المذهب الإسماعيليّ، وتولى أمر الدعوة في مسقط رأسه في سواد الكوفة، وعاونه في ذلك زوج أخته عبدان، وقام بنشر الدعوة في جنوب فارس حيث نجح بضمّ أبي سعيد الجنابي إليه.

ومثّلت الدعوة الإسماعيليّة في هذا الزمن، في النصف الثاني من القرن الثالث هـ/التاسع م. حركة موّحدة تبشّر بقرب ظهور محمد بن إسماعيل كمهدي. وكانت لحمدان قرمط مراسلات مع رئاسة الدعوة في سلميّة، ولكن عندما تولّى عبدالله بن الحسين (الذي سيحمل تسمية الإمام المهديّ في ما بعد) رئاسة الدعوة المركزيّة، لاحظ حمدان أن عبدالله بدأ يحوّل في بعض معتقدات الإسماعيليّة، في

ما يخصّ الإمامة. فأرسل حمدان صهره عبدان إلى سلميّة للوقوف على حقيقة الأمر، فعلم من خلال لقاءاته مع عبدالله أنّه بدلًا من إعلان مهديّة محمد بن إسماعيل كما ذكرنا، فإن الرئيس الجديد يدعو لإمامته هو، وإمامة أسلافه الزعماء السالفين. وفور تلقّي حمدان ما يجري من تغييرات قرّر قطع صلته بالرئاسة المركزيّة، ورئاسة الدعوة في سلميّة. وبعد فترة اختفى حمدان وقُتل عبدان على يد أحد الموالين للسلميّة. وقبل التغييرات المذكورة كان رؤساء الدعوة يتولون مرتبة الحجّة أو النواب الكاملين للإمام الغائب، ولكن بعد ذلك حوّل عبدالله مرتبتهم إلى أئمّة فقط. فكان ذلك أوّل انقسام خطير في الدعوة الإسماعيليّة.

اعتمدت الدعوة القرمطية على تضحيات ماليّة من قبل المنضوين إليها، من رجال ونساء، بحيث إنّه من المؤكد أنهم كانوا يدفعون خُمس ما يُدخلون. وقيل كلّ ما يدخلون. فقد اعتمد حمدان قرمط على ضرائب كان يزيد مقدارها إلى أن وصل إلى الخمس المذكور، وذهب أبعد من ذلك لتحقيق الإلفة إلى دعوة أتباعه إلى جمع أموالهم في موضع واحد، ويصرف ذلك عليهم مشتركاً بحيث لم يبق بينهم فقير. وكان يختار رجلاً في كلّ قرية يكلّف بجمع الأموال وتفريقها. وذهبت كتابات بعض المؤرخين إلى أن القرامطة غالوا في مبدأ الإلفة إلى حدّ دعوا فيه إلى الاختلاط بين النساء والرجال لتحقيق الاتحاد الأخويّ.

كانوا يفسّرون القرآن تفسيرًا رمزيًا ويؤمنون بالمساواة، ولكنهم برغم حسنات دعوتهم، كانوا يبيحون قتل المخالفين لهم ولو كانوا مسلمين. وهم من أركان ثورة الزنج بين عامي 868 و883م. وفي العام 899م أسسوا دولة عاصمتها الإحساء ومنها يقومون بغارات على أرجاء الدولة العبّاسيّة، فاستولوا على اليمامة وعُمان، وخرّبوا أجزاء من العراق، واحتل أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي، أحد كبار دعاتهم، مكة سنة 930 وحمل الحجر الأسود إلى بلدة هجر حيث بقي حتى عام 951م. وفي إحدى هجماتهم على بلاد الشام، هاجموا بلدة سلميّة، حيث يقيم الإمام الإسماعيليّ المستور فأبادوا منها البشر والحيوانات. ليقضوا على الإمام. ولماذا الحيوانات؟ لانهم يؤمنون بالتناسخ وبأن روح الإمام قد تكون حالّة في أحد الحيوانات أو ستحلّ فيها بعد المجزرة.

ومن القرامطة أو من الإسماعيليّة انبثق الحشّاشون الذين ازدهرت سلطتهم انطلاقاً من قلعة «الموت» شماليّ غربي قزوين. ومن الإسماعيليّة انبثق الفاطميّون الذين كانوا التكريس العملي

للدعوة الإسماعيليّة. وقد تمكن الفاطميّون انطلاقا من مصر من السيطرة على سواحل لبنان الحاليّ وعلى سيطرة متأرجحة على البقاع ودمشق والداخل السوريّ.

النصيريّة: ينتسبون إلى محمد بن نصير الفهري الذي عاش في النصف الثاني من القرن التاسع الميلاديّ، وهو من أتباع الإمام الشيعيّ الحسن العسكريّ (ت 874م).

يعتقد النصيريّة بتجسّد الألوهيّة في علي. وهم يختلفون عن الدروز، وطبعًا الإسماعيليّة، في نواحٍ كثيرة من العقيدة. وتعيش غالبيتهم في شماليّ سورية وقرب أنطاكية.

يؤّولون القرآن شأنهم في ذلك شأن كلّ الباطنية. ويحللون أنفسهم من بعض الفرائض الإسلاميّة.

يخصّص النصيريّون كلمة إمام للأئمّة الاثني عشر من الشّيعة الإماميّة. ولهؤلاء مميزات خصوصية عن بقية البشر من حيث المزايا الروحيّة. فهم معصومون عن الخطايا وهم مصدر الإرادة الإلهية بدون وحي ولا واسطة. وعلم الباطن مختصّ بهم. ولكل من الأئمّة الاثني عشر بابه، فمثلاً الإمام علي بابه سلمان الفارسيّ، والإمام الثاني عشر الأخير حسن العسكريّ بابه هو أبو شعيب محمد بن نصير الفهريّ أو النميريّ. وباختفاء الإمام العسكريّ في دهليز سأمراء بقيت صفة الباب مع محمد أبي شعيب المذكور (ت 254هـ/868م)، وتتتابع الأبواب حتى السيّد الحسين بن حمدان الخصيب أو الخصيبيّ (ت 878هـ/957م). جرت محاولات لتوحيد الإسماعيليّة والنصيريّة ففشلت وزادت من الفرقة بين الفرقتين. وقبر الخصيبيّ شمال حلب ويعرف باسم قبر الشيخ يابراق. وكان للعلويّين مركزان مهمّان دينيّاً: الأول في حلب والثاني في بغداد أقفل بعد غزو هولاكو، ثمّ انتقل مركز حلب إلى اللاذقيّة. وللخصيبي كتاب مهمّ هو «الهداية الكبرى».

اتخذ النصيريّون الباب مرجعًا لهم، ولكنهم تفرقّوا بين أبواب عديدين، ثمّ انحلّت التشكيلات الدينيّة وتفرّقت على مراكز دينيّة متعدّدة يرأسها مشايخ.

اجتهادات كثيرة حاولت تقديم شروح لاشتقاق كلمة نصيريّة، ولكن أقربها إلى التصديق أنّها مشتقة من انتسابها إلى ابن نصير. وفي الأساس كان النصيريّون يحملون اسم النميرية نسبة إلى لقب ابن نصير ثمّ منذ الخصيبي حملوا التسمية المعهودة.

ومن طلائع الذين عرّفوا بهذه الفرقة النوبختيّ، الذي يتهّم ابن نصير بادّعاء النبوة وبأنّه مرسل من الإمام العسكريّ ويقول بالتناسخ وبربوبيّة الإمام علي.

في رأس الكون عند النصيريّة نجد الإمام عليّ، وتحت ألوهيّته نجد عَالمًا روحانيًا من كائنات سماويّة ينبثق منه أو تفيض عنه بشكل تراتبيّ مقامات عدّة، أوّلها الإسم وهو محمد وثانيها الباب وهو سلمان الفارسيّ، ثمّ باقي أهل المراتب من المقامات السبعة. وتحت هذا العالم نجد العالم الظلماني حيث الأجسام، وفي الأسفل العالم الظلماني الكبير المتشكّل من كلّ الأضداد للعالم النوراني. والهبوط من العالم الأعلى يتمّ بسبع مراحل والارتقاء إليه يمرّ بسبع مراحل أيضاً.

وللنصيريّة شروح في مسألة الوحي وفي تعليم العقيدة ولهم أعيادهم الخاصة بهم فضلًا عن الأعياد الإسلاميّة المتعارف عليها.

التصوّف

الإسلام لا يدعو إلى الحياة الرهبانيّة، كما جاء في حديث منسوب للنبي «لا رهبانيّة في الإسلام». ومع ذلك كان التصوّف ميلًا إلى الزهد والتأمل، بعيداً عن الحياة المدنيّة. في القرن الثاني بدأ الميل إلى التصوّف يقوى، ويتأثر بالمسيحيّة والبوذيّة والأفلاطونيّة المحدثة، بحيث اعتقد البعض أنّ التصوّف يقود إلى الاتصال بالله. وتطوّر التصوّف ليصبح مع مشايخ الطرق والمريدين، في القرن الثالث عشر، شبيهًا بالرهبانيّة المسيحيّة. وأوّل استعمال للفظة صوفيّ هو من القرن التاسع الميلاديّ.

منذ القرن الثاني للهجرة، اعتبر المتصوّفون أنّ التصوّف هو الطريق لتطهير النفس، وهو الذي يوصل إلى الاتحاد بالله، بواسطة نور باطنيّ، لا بواسطة العلم بالله عن طريق العقل، أو بواسطة التقاليد الدينيّة. وهو ما يُعرف بالحلوليّة.

أوّل مَن نادى بمذهب «الاتصال بالله» كان ذو النون المصريّ (890م)، وهو القائل إنّ حقيقة معرفة الله يمكن التوصل إليها بواسطة «الوجد». وبتأثير الحضارة الهنديّة تمّ الكلام على شمول الألوهيّة. ونادى «الحلاج» (922م)، وهو من أصل فارسيّ، بأنه «الحق» فضُربت عنقه، بعدما صُلِب، وهو القائل:

أنا من أهوى ومن أهوى ... أنا نحن روحان حللنا بدنا
فاذا أبصرتني أبصرته ... واذا أبصرته أبصرتنا.

ومن أهم القائلين بالوحدة والشموليّة، محي الدين ابن عربيّ (1165 - 1240م)، الأندلسيّ الأصل، المدفون في جبل قاسيون فوق دمشق. وهو قد سعى لجعل التصوّف عِلمًا، وهو يعتقد بشمول الألوهيّة الوجود كلّه.

اشتهر ابن الفارض (1181 - 1235م) بالشعر الصوفيّ، وله أنشودة في الحب الإلهيّ هي «التائية الكبرى». وأهم فليسوفين متصوّفين هما، الفارابي والغزاليّ، والأخير سعى للتوفيق بين التصوّف والإسلام.

في القرن الثاني عشر للميلاد ظهرت الهيئات الصوفيّة المنظّمة وكانت طليعتها القادريّة، نسبة إلى عبد القادر الجيلانيّ (1077 - 1166م). كما قامت الطريقة الرفاعيّة نسبة لأحمد الرفاعيّ (ت 1183م)، فالطريقة المولويّة نسبة لجلال الدين الروميّ (ت 1273م)، وطريقته تعطي الموسيقى حيّزًا في مراسيمها.

يسكن الدراويش المنضوون إلى الطرق الصوفيّة في التكايا والزوايا والرباطات، وهي أشبه ما تكون بالأندية الاجتماعيّة. وبفضل المتصوّفين، أدخلت السبّحة إلى الممارسة الدينيّة، ولعل أصلها مسيحيّ. وقد درج استعمالها منذ القرن التاسع الميلاديّ، كما بدأ الاتجاه لتكريم الأولياء ومنهم رابعة العدويّة (717 - 801).

الاتجاهات الدينيّة الغريبة: المزدكيّة والخرميّة والمانويّة وغيرها

كان معظم هذه الحركات منتشراً عند الفرس، خصوصًا تلك التي تعتنق المزدكيّة. وهي دين فارسيّ ظهر في زمن الساسانيّين. وقد ظهرت المزدكيّة بشكل الخرميّة ومعظم أتباعها من الكتّاب. وحملت الخرميّة لواء التمرد المسلح في إيران، مرتكزة إلى مبادئ مزدك في الحقل الاجتماعيّ. كما نشطت حركة الزنادقة، وهم أتباع المانويّة، ثم عمّمت الكلمة على الملحدين والمستهترين بالدين. والمانويّة دين دعا إليه ماني في مطلع الدولة الساسانيّة، وقد ظهر في جنوب العراق. ومع معاملة الإسلام لهم كأهل ذمة انتعشت حركتهم وامتدت إلى العراق. وقد ناصبهم المعتزلة العداء، ودحضوا دعواهم. ولقد حاربهم الخلفاء العبّاسيّون المتتابعون بقوة. وطال الاضطهاد بعض الكتاب والشعراء.

المدارس والتعليم

كان الأولاد يُحصّلون دراستهم في كتاتيب ملحقة بالمسجد، أو في المسجد بالذات. فيتعلّمون قراءة القرآن والكتابة والقراءة والخط والصرف والنحو والأحاديث النبويّة والسيرة وقواعد الرياضيّات والأشعار. كانت البنات يتلقّين أيضاً التعليم الدينيّ الأوليّ، والميسورون من الناس كان يتمّ تعليمهم بواسطة مؤدّبين. وعلى المعلّمين استعمال القسوة، فالعصا لمن عصى من التلامذة.

في العصور الأولى من الدولة العبّاسيّة كان التعليم حرّاً، وكان المعلم حرّاً في ما يعلّم، ولا يأخذ أجراً. منذ القرن الرابع الهجريّ بدأت الفروق تظهر في التدريس بين الجوامع والمساجد. فكانت الجوامع تحتوي على حلقات علم متنوّعة، وتتخذ أسماءها من اسم شيخ الحلقة، أو من اسم العلم الغالب عليها: حلقة أهل الحديث، حلقة النحويين، وكانت تُدرّس في هذه الحلقات العلوم الدينيّة، وهناك حلقات لأصحاب الفتوى والوعظ والمناظرة. وأبرز الجوامع في بغداد ثلاثة: جامع المنصور وجامع المهديّ وجامع القصر. أما المساجد فكانت تخصّص لعلم من العلوم، مثلاً الفقه على مذهب معيّن وبعضها خاص بتعليم القرآن أو غيره.

لم يكن التعليم مقتصراً على التعليم الابتدائيّ فقط، بل كان للتعليم العالي مقامُه. فدار الحكمة مثلاً، كانت داراً للترجمة ومعهداً عالياً للتعلم. على أنّ أوّل مدرسة علميّة نظاميّة كانت «المدرسة النظاميّة» التي بُنيت في مرحلة لاحقة من التاريخ العبّاسيّ، في القرن الحادي عشر في سنة 1065م، على يد نظام الملك وزير السلطان السلجوقيّ ألب أرسلان وولده ملكشاه. كانت قد سبقت، منذ أواخر القرن الثالث الهجريّ، مدارس لم تتخذ خصائص المدرسة النظاميّة من حيث استقلال البناء، ووجود الأوقاف لها، ووجود الأقسام الداخلية فيها، وتعيين المُدرّسين. كانت النظاميّة مدرسة فقه، أساس التدريس فيها علم الحديث. كانت الغاية من النظاميّة توحيد الأمة الإسلاميّة فكريّاً، وقد ابتدأ بناؤها في ذي الحجّة سنة 457هـ وتم افتتاحها في ذي القعدة سنة 459هـ وكانت تقع قرب شاطئ دجلة فوق دار الخلافة. أوقف نظام الملك لمدرسته ضياعًا وسوقًا بنيت على بابها وكتبًا، وجعل لمن يعمل فيها قسطًا من الوقف، وللطلبة مخصّصات يعيشون منها. وتولى التعليم فيها أكابر العلماء. وكانت الدراسة فيها تمتد قرابة أربع سنوات. والى النظاميّة نضيف مدرسة أبي حنيفة التي تمّ افتتاحها قبل خمسة أشهر سنة 459هـ وتعد أطول مدارس بغداد عمراً، والمدرسة المستنصريّة التي ابتدأ بناؤها على يد الخليفة المستنصر بالله في سنة 635، وكانت تدرس المذاهب الفقهيّة

الأربعة، وبلغ عدد طلابها 248، بمعدل اثنين وستين طالباً لكل طائفة، ومدّة الدراسة بين أربع وست سنوات. وهناك مدارس أخرى كثيرة في بغداد نفسها، وفي البصرة، وواسط، وأربيل، والموصل وغيرها.

كانت المساجد غنية بالكتب المخطوطة دينيّة كانت أم فلسفيّة وفلكيّة وأدبيّة.

ترافق التعليم مع وجود حوانيت الورّاقين منذ مطلع العصر العبّاسيّ، بحيث كان يوجد قرابة المئة حانوت في القرن التاسع الميلاديّ. تعرّف المسلمون إلى الورق الصينيّ في القرن الثامن الميلاديّ، وأوّل مَن أدخل صناعة الورق إلى بغداد الفضل بن يحيى البرمكيّ.

خامساً - العمران والفنون

الهندسة

اعتمد الأمويّون على الحجر في مبانيهم، فبقيت آثارهم قائمة في الجامع الأمويّ في دمشق، وقبّة الصخرة في القدس، ومدينة عنجر في البقاع اللبنانيّ. أما مباني العبّاسيّين من دار الخلافة إلى قصر الخلد والرصافة والثريا والتاج وغيرها فقد اندثرت، كما مباني حضارات بابل وأشور، لأنّها مبنيّة بالطين. وفي العاصمة العبّاسيّة الثانية سأمراء نجد بعض بقاياهم في الملويّة، حيث يقوم برج يقلد زقورات بلاد ما بين النهرين.

وسأمراء، أو سُرّ من رأى، هي العاصمة الثانية للعبّاسيّين، وقد أنشأها الخليفة المعتصم الذي ارتأى بناء عاصمة جديدة هربًا من استياء أهل بغداد منه نتيجة تقريب الأتراك إليه. وأضحت سأمراء عاصمة للمعتصم، ولثمانية خلفاء من بعده. فاختار موقعاً في شرقيّ دجلة، بنى فيه قصورًا له ولكبار قادته، والمسجد الجامع، وغيره. لم يبقَ من مساجد بغداد سوى مآذنها، وخصوصًا تلك العائدة لجامع الخفافين، وقمرية وباب الدير، وهي من عهد الناصر لدين الله، أبدانها أسطوانية، ورقابها رشيقة، ومقرنصات أحواضها مركبة، ونجد من فترة الناصر مأذنة جامع النوريّ في الموصل، ومآذن داقوق وأربيل وسنجار، وتتميّز بارتفاعها، وبالتشكيلات الزخرفيّة عليها، وأجملها حدباء الموصل، من عهد نور الدين زنكيّ في عام 568هـ/1173م.

كان الفقهاء على عداوة قاسية مع فن التصوير، ومع ذلك نجد أثرًا خجولاً للتصوير في بعض القصور.

راجت صناعة الورّاقين وازدهرت فنون الخط، والتذهيب، والزخرفة، والتزويق، والتجليد، فزخرفت الكتب بألوان زاهية زرقاء وذهبيّة، وجرت تحلية صفحات الكتب بمنمنمات جميلة. التصوير في المخطوطات بدأ في القرن الحادي عشر، وقد يكون ذلك من عمل مصوريّن مسيحيّين، أو حتى مسلمين. وكانت فارس غنيّة بهذا التوجه، لا بفضل الميول الشيعيّة، على ما يظنّ البعض، بل بتوجّه من ذهنيّة العنصر الفارسيّ، لأنّ بلاد فارس لم تتشيّع إلّا بعد قيام الدولة الصفويّة، في

مطلع القرن السادس عشر الميلاديّ. فالفرس تميّزوا بفن الزخرفة من قبل الإسلام، سواء في الحفر على الخشب، أو في حياكة السجّاد الغنيّ بمشاهد من الحياة، وصناعة القاشانيّ.

تجاوبًا مع توجّهات الفقه الذي يحرّم تصوير الأشكال البشريّة والحيوانيّة، اعتُمد الخطّ العربيّ للتزيين. وأضحت للخطاطين مكانة مرموقة في المجتمع الإسلاميّ.

الموسيقى

رعى الخلفاء العبّاسيّون فنّ الموسيقى، برغم تنكّر علماء الشرع لها. فقد اهتم المهديّ الخليفة العبّاسيّ بسياط المكي، ثم أحضر إلى بلاطه إبراهيم الموصلّي (742 - 804م) تلميذ سياط. وهو واضع أصول الموسيقى الإسلاميّة التقليديّة، وهو أوّل من وَقّع الإيقاع بالقضيب. وأضحى إبراهيم نديماً للرشيد. والى إبراهيم تمتّع بلاط العبّاسيّين بجامع القرشي ابن سياط بالتبنّي.

عظمة عهد الرشيد، وأبّهة خلافة العبّاسيّين، كانت نتيجة إحاطة هذا الخليفة بلاطه بالموسيقيّين والمغنّين والعلماء والشعراء، وإجراء الأرزاق عليهم. ونجد أخبار الرشيد ومن تلاه في كتب «الأغاني» و»العقد الفريد» و»الفهرست».

ومن المغنّين الذائعي الصيت مخارق (ت 854م)، أضف إليه إسحق بن إبراهيم الموصلي (767 - 850م)، من عهد المأمون والمتوكل، وهو من أهم الموسيقيّين المسلمين بعد ابيه، لا بل أهم من ابيه كواضع لأسس الموسيقى الشرقيّة.

تأثر المسلمون بترجمات كتب الموسيقى عن اليونانيّة، وأوّل مَن استعمل علامات الموسيقى اليونانيّة الأصل، كان الفيلسوف الكنديّ، وتبعه الرازيّ (865 - 925م) الذي وضع كتاباً في هذا الفن. ويُعتبر الفارابي الفيلسوف أهمّ مَن كتب في أصول الموسيقى في كتابه «كتاب الموسيقى الكبير».

القسم الثاني:
المشرق في العهد الفاطميّ

مقدّمة

انقسم الشّيعة كما ذكرنا سابقًا إلى فرق عدّة، ومنها الإسماعيليّة التي اتخذت من مدينة سلميّة في سورية مركزًا لها، وأخذ الدعاة يدعون الناس فيها إلى عقيدتهم.

وصادف أنّ أفراداً من قبيلة كتامة البربريّة حجّوا إلى مكة، فتقرّب أحد دعاة الإسماعيليّة، أبو عبدالله الشيعيّ، منهم. فرحل في إثرهم إلى شمال أفريقيا حيث عمل على كسب دعم القبائل البربريّة، فأسس في المغرب دولة إسماعيليّة، دُعيت الدولة الفاطميّة، تيمّنا بفاطمة الزهراء إبنة الرسول وزوجة الخليفة الإمام علي. وعندما استتبت الأمور لصالحه، استدعى إمام الإسماعيليّة من مدينة سلميّة إلى المغرب، حيث نودي به أميراً للمؤمنين، وتلقّب بعبدالله المهديّ سنة 297هـ/909م.

عمل عبدالله المهديّ في المغرب على بناء دولة قويّة، قوامها جيش قويّ، دعامته الأساسيّة قبيلة كتامة البربريّة. ولتمتين سلطته بقوة، تخلّص من أبي عبدالله عام 910 - 911م، خصوصًا أنّه المرجع الأساس في التحقق من صحة شخصيّة الخليفة الفاطميّ، المشكوك بصحته، بعد ما عمد القرامطة إلى الفتك بالبشر والحيوانات في مدينة سلميّة كما أسلفنا.

اختلفت الروايات التاريخيّة في صحة، وعدم صحة، انتساب الفاطميّين إلى علي بن أبي طالب، وهو تساؤل لم يجد أجوبة مقنعة عليه، ورغم ذلك تعاقب المهديّ ثمّ ابنه القائم (322 - 334هـ/934 - 945م) والمعزّ (358 - 365هـ/969 - 976م) على زعامة الدولة الفاطميّة في المغرب، وتمكّن الأخير من تحقيق حلم الفاطميّين بنقل مركز الخلافة إلى الشرق.

وسعيًا للوصول إلى الشرق، وجّه الفاطميّون حملات عدّة إلى مصر، استطاعت إحداها احتلال الإسكندريّة لفترة من الزمن، في عهد الخليفة القائم سنة 334هـ/945 - 946م.

تدهور الأوضاع الاقتصاديّة والسياسيّة في آخر عهد الإخشيديّين، سهّل عملية وصول الفاطميّين إلى مصر، كما كان لوجود القائد المتميّز بمهارته العسكريّة وحسن تعاطيه مع الناس، جوهر الصقليّ، في قيادة الجيش، أثره في سرعة اكتساح مصر والانتصار على الجيش الإخشيديّ. فقد وعد جوهر سكان مصر بالإبقاء على معتقداتهم ومذاهبهم. وسرعان ما تبددت تقيّة جوهر، واكتشف المصريّون، بعد فوات الأوان، بأن الفاطميّين يعملون على بناء دولة شيعيّة، معادية للعبّاسيّين السنّة، تختلف

عنها في أمور كثيرة بدءاً بالآذان على «خير العمل» وانتهاء ببناء مدينة القاهرة التي ستنافس بغداد على زعامة العالم الإسلاميّ، وتقهر توجّهاتها بهذا الخصوص.

تعاقب على الخلافة في مصر عشرة خلفاء فاطميّين كان من أشهرهم العزيز وإبنه الحاكم وحفيده المستنصِر. عُرف العزيز بثقافته وحسن معاملته للرعية على اختلاف مجموعاتها الدينيّة، أما الحاكم فعُرف ببطشه وتقلّب مزاجه وسوء معاملته للسنّة وأهل الذمّة، وقتله لموظفيه، وإليه يُنسب المعتقد الدرزيّ. أما المستنصِر الذي حكم قرابة الستين سنة، فتميّز عهده بالرخاء في مطلعه، ثم انقلبت الأمور إلى مجاعة ووباء.

الفصل الأول:
الأوضاع السياسيّة - العسكريّة

أولاً - الأوضاع السياسيّة - العسكريّة في المشرق في النصف الثاني من القرن العاشر

بعد سيطرتهم على مصر، عمل الفاطميّون على نشر سلطتهم على بلاد الشام، وصولاً إلى بغداد. فأرسل جوهر الصقليّ أحد قواده، جعفر بن فلاح الكتامي إليها، وبعدما هَزم أبا محمد بن عبدالله بن طغج الإخشيديّ والقرامطة في الرملة في فلسطين سنة 359هـ/970م، سار إلى دمشق فتملّكها بصعوبة بعدما قاومه أهلها بضراوة ومن ثم تملّك ساحل الشام، وأقام الخطبة للمعزّ دلالة على إنهاء الحكم العبّاسيّ. ولكنّ القرامطة، المعادين للإسماعيليّة بشراسة، شنّوا هجمات على دمشق، بدفع من ظالم بن موهوب بن عقيل، الذي كانت عائلته تحكم حوران والبثنية من قبل الإخشيديّين، ومن العبّاسيّين والحمدانيّين. فقد دعم الخليفة العبّاسيّ المطيع (334 - 363هـ/946 - 974م) القرامطة بالسلاح والمال، أما الحمدانيّون فكانوا يُمنون النفس باستغلال الفرصة لضمّ دمشق إلى إمارتهم، مستغلّين الواقع المرتبك. ساعد مقتل جعفر في عام 360هـ/ 971م، القرامطة على احتلال دمشق بقيادة أحمد بن مستور، وتقدّموا باتجاه القاهرة، لكن محاولتهم باءت بالفشل، فعادوا أدراجهم إلى دمشق، والنصر الوحيد الذي حققوه تراجع أحلام الفاطميّين بأخذ بغداد.

حاول العبّاسيّون استرجاع دمشق، بواسطة ظالم بن موهوب العقيلي في 357هـ/968م و358هـ/969م، ولكن وصول القائد الفاطميّ أبي محمود إبراهيم بن جعفر المغربي إليها، وتعيين ابن أخته جيش بن الصمصامة والياً على دمشق، وضع حدًّا لسيطرة العبّاسيّين عليها في 19 ذي القعدة 363هـ/11 آب974م.

عانى الفاطميّون في دمشق، وفي غيرها من المدن في المشرق، وحتى في القاهرة، من ظهور حركة اجتماعيّة اقتصادية على يد مجموعات من الشبّان الرافضين للواقع الحياتيّ القائم، فتحوّلوا إلى ما يُعرَف اليوم بتسمية «ميليشيات» تُدعى «الأحداث» أو «العيّارين» أو الحرافشة. وهي عصابات في الأحياء المدنيّة، ألزمت الفاطميّين في دمشق على خوض معارك معهم منذ العام 977م حتى العام 999م، في أوائل عهد الحاكم بأمر الله (996 - 1021م).

عاود العبّاسيّون الكرّة بانتزاع دمشق من الفاطميّين، يشجّعهم على ذلك ميل سكان المدينة، وغالبيتهم من السنّة، إليهم؛ فنجحوا في ذلك على يد هفتكين (الفتكين) التركيّ، الذي كان قد هرب من بغداد من وجه البويهيّين، وأقام بضواحي حمص، وصمد بوجه محاولات ظالم العقيلي الموالي للفاطميّين، والمقيم حاكمًا من قبلهم في بعلبك. وبعدما كان العيّارون قد استولوا عليها، سلّمها أهلها إليه في 364هـ/ 975م، فقدم هفتكين إلى المدينة وتغلّب عليها في سنة364هـ وأقام الدعوة للعبّاسيّين، وأزال دعوة الفاطميّين وطرد ظالم العقيلي من بعلبك.

ثم قام هفتكين بمحاولة السيطرة على صيدا، ونزع حكم الفاطميّين منها، ففرّ حاكمها ظالم العقيلي إلى صور.

لعبت طرابلس دورًا مميزًا أساسيّاً لصالح الحكم الفاطميّ وتمكينه من دمشق وفي الساحل.

فقد تمكّن حاكمها نزال الكتامي من ردّ غزوات البيزنطيّين عنها في 370هـ/ 980م، ومن أخذ المبادرة بالردّ على البيزنطيّين بانتزاع اللاذقيّة منهم، ومن أسر قائدهم «كرموك» وحمله إلى طرابلس ومنها إلى مصر.

كما ساهم نزال، بإخراج بكجور والي دمشق منها سنة 381هـ/991م، بعدما انقلب على السلطة الفاطميّة هو وغلامه رصيف حاكم بعلبك من قبله. واستعانت الدولة الفاطميّة أيضاً بإبن نزال عندما حاول بكجور، فاشلًا، وضع يده على حلب سنة 381هـ/ 991م. ومرّة أخرى استعان الفاطميّون بنزال عندما عمد والي دمشق، منير الخادم من قبلهم، إلى الاستقلال بها سنة 381هـ فهاجمه نزال قرب دمشق وانتصر عليه في 381هـ/ 991م (أو في 382هـ) ثمّ توفّي في السنة نفسها.

الحملات البيزنطيّة

عانى المشرق في ظل حكم الفاطميّين له من سلسلة حملات بيزنطيّة آلت إلى الفشل في محاولة استرداد الشرق من قبل الأباطرة البيزنطيّين.

1 - حملة تزيمسكس (969 - 979م) Johannes Tzimiskès المعروف بإبن الشمشقيق أو ايوني شموشكين في 364 - 365هـ/975 - 976م

استغلّ الإمبراطور ابن الشمشقيق (كلمة أرمنيّة تعني قصير القامة) الصراع الفاطميّ - القرمطيّ فقام في عام 976م بحملة على بلاد الشام. فاحتلّ أنطاكية وبقي الروم فيها من عام 969م إلى

عام 1085م، ودخل حمص، ثمّ سار عبر مجرى نهر العاصي إلى بعلبك فخرّبها وأخذ جماعة من أهلها، وهادنته دمشق. وبلغ قيسارية في فلسطين، ولم يكمل طريقه في فلسطين، عندما وصله خبر الإنزال البحريّ الفاطميّ في بيروت، وبمروره على الساحل استسلمت له صيدا، وامتنعت عنه بيروت، وأخذ جبيل عنوة، فنهبها كما نهب بيروت. ثمّ قصد طرابلس التي قاومته بضراوة، بمساندة الجند الفاطميّ بقيادة ريان الخادم، مدّة أربعين يوماً. وأمام طربلس أصيب بعوارض تسمم، من تدبير منافسيه على السلطة في القسطنطينيّة، فقفل راجعًا إلى بلاده حيث توفي.

ومن المرجّح أن غزوات الروم المتكرّرة لمنطقة العاصي وجند حمص وجند حلب كانت السبب في إجلاء الموارنة عن تلك المناطق. والدليل على ذلك أن الوجود المارونيّ في تلك النواحي كان قائماً بشكل ملحوظ في زمن المسعوديّ (ت 956م)، ولم يبقَ من هذا الوجود شيء يستحقّ الذكر بعد خروج الروم من أنطاكية في أواخر القرن الحادي عشر. والظاهر أن بعض الموارنة هرب من الروم إلى حلب بينما نزح البعض الآخر إلى شمال لبنان.

2 - حملات باسيل الثاني

تابع الإمبراطور باسيل الثاني (365 - 416هـ/ 975 - 1025م) النشاط البيزنطيّ السابق بحملة على طرابلس عام 365هـ/976م. وجرت حملة أخرى عام370هـ فردّ ابن نزال وإبن شاكر من طرابلس بهجوم على اللاذقيّة. وعندما حاول الفاطميّون انتزاع حلب من أيدي الحمدانيّين، استنجد صاحبها بالإمبراطور البيزنطيّ باسيل الثاني، فاستجاب له بحملة سارت إلى حلب، حيث استقبله صاحبها سعيد الدولة الحمدانيّ وعقد معه معاهدة تحالف. ثمّ سار الإمبراطور منها إلى شيزر فحمص فطرابلس التي استسلم له واليها المظهر ابن نزال، ولكن قاضي المدينة علي بن عبد الواحد بن حيدرة، رفض الاستسلام، وتابع المقاومة بقيادة شقيق الوالي، فصمدت في وجه الذي حاصرها أكثر من أربعين يوماً، فتركها خائباً. وكان باسيل قد ملك أيضاً عرقا وهدمها ثمّ انصرف عنها، ثمّ عاد المسلمون وعمّروها.

وتتابعت غزوات الروم الفاشلة لطرابلس، فكانت غزوة في السنة ذاتها في 383 هـ/993م، ثمّ بعد ثلاثة أشهر تمّ غزو عرقا وسبي جماعة منها، وأخرى في 385هـ و386هـ 996م لم ينتج منها إلا التخريب.

ثانياً - الأوضاع السياسيّة - العسكريّة في القرن الحادي عشر

تسلّم الحاكم بأمر الله (386 - 411هـ/996 - 1020م) الخلافة الفاطميّة، فعيّن سليمان بن جعفر بن فلاح حاكمًا على دمشق، فما كان منه إلّا أن أعطى ولاية طرابلس لأخيه علي بن جعفر. فسارع «الأحداث» للثورة عليه فهرب من دمشق إلى مصر.

وتمادى «الأحداث» في ثوراتهم، وضمن هذا الإطار يمكن وضع ثورة علّاقة في صور.

ثورة علاّقة

في عام 387هـ/997م قامت في صور، ثورة ضدّ الحكم الفاطميّ، تزعمّها ملّاح يُدعى علاًّقة، وانضمّ إليها «أحداث» المدينة وفقراؤها. عمد علّاقة إلى قتل المسؤول الفاطميّ عن صور، ومسؤولين آخرين، وضرب السكّة باسمه وعليها شعار: عزّ بعد فاقة، وشطارة بلباقة، للأمير علاًّقة»؛ أو كما تقول باقي المصادر «عزّ بعد فاقة للأمير علّاقة». ونعتقد بأنّ الشعار الأول يعبر عن واقع علّاقة، فمصطلح شطارة مستمدّ من الشطّار والعيّارين أي «الأحداث».

عيّن الخليفة الحاكم بأمر الله على ولاية دمشق ابن الصمصامة، الذي كان سليمان قد صرفه عنها. وعند تسلّمه السلطة مجدّداً، أرسل عشرين مركبًا من الأسطول الفاطميّ لمحاصرة صور، وفيها ابن حمدان وفايق الخادم وجماعة من العبيد، وسارت من دمشق قوىً برّية وكذلك قوى مدن الساحل.

استنجد ثوار صور بالروم، فأرسل الإمبراطور البيزنطيّ باسيل سفناً عدّة، خسرت المعركة أمام الفاطميّين. فأطبق الفاطميّون الحصار على صور بحرًا وبرًّا، فاستسلم أهل المدينة لهم، فدخلوها وقبضوا على علاًّقة وجماعته، ونهبوا المدينة، وقتلوا وسبوا جماعة من أهلها. وحُمِل علاًّقة إلى مصر، حيث أُلبِس طرطوراً من رصاص، وسُلخ جلده حيّا، وطُيّف به ثمّ قُتل، وحُشي جلده تبنًا وصُلِب. وقُتل معه مَن أُسِر من أهل صور، وأُعطيت الولاية على المدينة لإبن ناصر الدولة الحمدانيّ.

الصراع مع البيزنطيّين وعقد الهدنة معهم

سعى الفاطميّون لإبعاد البيزنطيّين عن المنطقة، استدراكًا لما جرى إبّان ثورة علاقة، فأرسلوا ابن الصمصامة، والي دمشق، والقاضي ابن حيدرة من طرابلس وواليها ميسور الصقلبي. جرت المعركة في أفاميا، فخسروها في البدء، ولكن محاولة اغتيال قائد الروم، قلبت موازين المعركة لصالحهم.

نتيجة ذلك سار البيزنطيّون في حملة جديدة على بلاد الشام في سنة 389هـ/999م أو 390هـ بقيادة الإمبراطور باسيل مجدّداً. فسار إلى أفاميا فشيزر فمصياف فحمص فبعلبك متوجّهًا إلى دمشق، وإزاء تجمّع قوات الفاطميّين لقتاله، بقيادة ابن الصمصامة، والي دمشق، ابتعد عن دمشق وهاجم عرقا وهدم حصنها وأحرقها وحاصر طرابلس وقطع الماء عنها. وحاصرها قرابة أحد عشر يوماً، من 6 إلى 18 كانون الأول من العام نفسه. ولكنّ إصرار السكان على المقاومة، أدّى إلى الفشل، بعد مساندة صاحب صيدا، ابن شيخ للطرابلسيّين.

وأمام تعثّر محاولات الجانبين تحقيق نصر مبين، وُقّعت هدنة لعشر سنوات، بين الإمبراطور باسيل والخليفة الحاكم بأمر الله.

ج - دور أساسيّ لطرابلس في العهد الفاطميّ

إضافة إلى ما ذكرناه أعلاه، عن مشاركة طرابلس في مقاومة البيزنطيّين، كان لها دور في أحداث حلب، بعدما لجأ أمير حلب، أبو الهيجاء الحمدانيّ، إلى الإمبراطور باسيل الثاني، لمساعدته ضدّ الفاطميّين في العام 400هـ/1009م فطلب الحاكم بأمر الله، من قائد طرابلس العسكريّ الوالي أبي سعادة وقاضيها ابن حيدرة المستولي على النظر في طرابلس وفي سائر الحصون، نجدة الموالين للفاطميّين. ونتيجة الصراعات بين الولاة الفاطميّين، قُتل القاضي ابن حيدرة، فحلّ ولداه الحسن وهبة الله ابن حيدرة مكانه في قضاء طرابلس.

تصرّفات الخليفة الحاكم الغريبة، في مصر والمشرق، آلت إلى هدم الكنائس، والقتل، والأحكام الغريبة العجيبة، ومنها إجبار المسيحيّين على حمل الصلبان في أعناقهم بطول ذراع وزنة خمسة أرطال، واليهود قرمات من خشب على مثال الوزن المذكور.

د - صعوبات سيطرة الفاطميّين على المشرق

في العام 415هـ/1024م، أصبح أسد الدولة صالح بن مرداس، الذي كان من معتنقي الدعوة الدرزيّة ثم انقلب عليها، وهو رئيس قبيلة كلاب، أميرًا على حلب فوضع يده على حصن عكّار عام 1025م، ثمّ ملك قلعة بعلبك وسيطر على صيدا، ولم يبقَ للفاطميّين إلّا صور. وعمد ابن مرداس للتحالف مع قبيلة طيْ، في جند الأردن وفلسطين، فجرت بينه وبين أنوشتكين الدزبري، القائد الفاطميّ، معركة في الأقحوانة (قرب طبريّة) عام 1029م، حيث مقام النبي شعيب الشهير عند الدروز، انهزم فيها، ولا يزال صدى هذه المعركة يتردد حتى اليوم عند الدروز. ونتيجة لذلك تخلّت جماعته عن بعلبك وصيدا وصور وعكّار وغيرها لأصحاب السلطان.

بعد معركة الأقحوانة، خضعت بعلبك لمتولّي دمشق، ثم تغلّب عليها مسلم بن قريش صاحب الموصل، ثمّ تتش السلجوقيّ.

هـ - محاولات استعادة الهيبة الفاطميّة

سعى الخليفة الظاهر (411 - 427هـ/1020 - 1035م) لاستعادة السلطة على سواحل المشرق، في محاولة للجم تطلّعات القادة المحليّين، بإقامة كيانات خاصة بهم. فأرسل أسطوله وجيشه البري لهذه الغاية.

ولم تكن محاولة انتزاع بعض الحصون من البيزنطيّين ناجحة، فعمد الأخيرون للهجوم على عكّار وعرقا فسبوا الكثيرين من الأهالي وكثر التخريب.

نجح البيزنطيّون باستمالة والي طرابلس ابن نزال إليهم في عام 423هـ/ 1031م، على أن يؤدي لهم جزية سنويّة. فهاجمه الفاطميّون في العام 424هـ/ 1033م، ففرّ إلى أنطاكية، وأعاده البيزنطيّون بالقوة إلى طرابلس. ولكن رفضَ الأهالي الانصياع للبيزنطيّين، أعاد طرابلس إلى الفاطميّين.

كما عادت حلب إليهم في عام 427 أو 429هـ/1037م، على يد نوشتكين الدزبري. وسكن الصراع الفاطميّ البيزنطيّ، إلى حين، عندما عقد الإمبراطور ميخائيل هدنة مع الخليفة المستنصر (427 - 487هـ/1036 - 1094م)، أثمرت انتعاشاً اقتصادياً، وتحرير المسيحيّين المعتقلين في مصر، والترخيص بتجديد بناء كنيسة القيامة. ثمّ تكرّرت الهدنة عام 437هـ.

لكن هذه الهدنة لم تمنع انتكاس العلائق البيزنطيّة - الفاطميّة في عام 446هـ/ 1054م، عندما مالوا للتحالف مع السلاجقة، فردّ المستنصر على ذلك بإرسال جيشه إلى أعمال أنطاكية، فردّ البيزنطيّون على هذا الإجراء، بحملة بحريّة فاشلة على طرابلس.

و - التّسلّط السلجوقيّ

الاضطرابات والتدهور اللذان لازما حكم البويهيّين دفعا الخليفة العبّاسيّ للتخلص منهم. ويُعزى للماوردي (ت 450 هـ/1058م) أنّه عمل على كتابة «الأحكام السلطانيّة» مساندة للخليفة لاستعادة سلطته، بإيعاز من الخليفة، ليكون دليل عمل نظريّاً ومنهجًا للإدارة، مبرزًا فيه صلاحيات وواجبات الخليفة، وخصوصًا مراقبة الأمراء والحق بعزلهم.

بدأ اتصال الخليفة بزعيم قبائل الغز الأتراك، بقيادة طغرلبك السلجوقيّ السنّي، عندما سعى الأخير إلى كسب اعتراف الخليفة به في سيطرته على خراسان. وتوسّعت العلاقات مع طغرلبك، كلما توسّعت سيطرته وإظهاره الطاعة للخليفة، خصوصًا منذ العام 446هـ/1054م. فأمر الخليفة بالخطبة لطغرلبك في جوامع بغداد، وبعد سنة في 447هـ/1055م دخل طغرلبك إلى بغداد.

لم يتصرّف السلاجقة مع أهل بغداد بطريقة أفضل من تصرف البويهيّين، فثار عليهم أهل العاصمة العبّاسيّة، وجرت مذابح فأنكر الخليفة هذا التصرّف، وهدّد بترك المدينة، فسعى طغرلبك لتلطيف الأجواء وتزويج الخليفة القائم بأمر الله بإبنة أخيه.

وظلت الأمور تتأرجح بين الهدوء والظلم نتيجة جشع السلاجقة. وكان للخلفاء المتعاقبين مواقف عدائية من تحكم الأتراك بشؤون الناس. وتمادى السلاجقة في غيّهم، فأمروا الخليفة سنة 485هـ/1095 بوجوب مغادرة بغداد، إلّا أنّ الموت المفاجئ للسلطان، أفسح المجال لعدم تنفيذ الأمر في عام 488هـ/1094م.

دام تّسلّط السلاجقة قرابة نصف قرن، أُهملت فيه مشاريع الري، وتفاقمت الأزمات المعيشيّة، ونشط العيّارون والشطّار، وزاد الإقطاع العسكريّ في العراق، فعمد الخلفاء وأهل العراق إلى التصدّي لذلك، وما كان من الخليفة المسترشد بالله عام 512هــ/1118م، إلّا أن قطع الخطبة للسلطان السلجوقيّ. وأعلن هذا الخليفة، متكلًا على تقرّبه من الشعب، بتخفيف الضرائب، وضرب العيّارين والشطّار، والإثارة الدينيّة ضد السلاجقة، الذين بادروا لمهاجمة بغداد، ففشلوا باقتحامها، وآلت

الأمور إلى الصلح بين الخليفة والسلطان عام 525هـ/1129م. وبادر الخليفة المسترشد إلى مهاجمة السلاجقة في إيران، ولكنّه خسر المعركة، وأُسِر وقتل، فحلّ محلّه في الخلافة الراشد، الذي تابع مناوأة السلاجقة، فاقتحم هؤلاء بغداد، ففرّ منها الخليفة، واغتيل في أصفهان عام 532هـ81139م. فخلفه المقتفي بأمر الله. فتابع الأخير سياسة التصدّي للسلاجقة، فنجمت عن ذلك صدامات، قتل فيها العديد من أهل بغداد.

عمل الخليفة المقتفي، الذي دام حكمه 24 سنة، على إضعاف النفوذ السلجوقيّ. وبادر إلى مهاجمة السلطان في إيران، فردّ السلطان محمد بن أرسلان بحصار بغداد، ولكن مقاومة البغداديّين ردّته إلى الوراء. وضعفت سلطة السلاجقة، بموت محمد عام 554هــ/1159م. وبعد سنة توفّى الخليفة المقتفي، وبويع ابنه المستنجد بالله سنة 555هـ/1160م. ولم يدم هذا الخليفة طويلاً، فمات مسموماً، فخلفه ابنه المستضيء بالله في عام 566هــ/1170م. وتوقف تعرّض السلاجقة للخلافة في بغداد، وخصوصًا بعد سطوع نجم صلاح الدين الأيوبيّ، الذي أنهى الدولة الفاطميّة عام 567هـ/1171م وأعاد الخطبة للعبّاسيّين. وساهم في ضعف السلاجقة استبداد أتابكتهم بالسلطة، وعند وفاة المستضيء في عام 575هـ/1179م، تمّت البيعة لإبنه أحمد الذي لعب دوراً مميزاً في استعادة الخلافة مكانتها.

مع مجيء السلاجقة إلى العراق، حدث خلل في التركيبة السكانيّة، فقد فرّ عدد من أهل البصرة وواسط إلى بغداد، فارتفعت الأسعار وحدثت مجاعة. وبرغم الحالة السياسيّة، نشطت الزراعة في الأرياف، فاتسعت القرى، واستمرّت دور العلم في نشاطها، وشهدت المرحلة السلجوقيّة ظهور ثلاث مدارس شهيرة: النظاميّة ومدرسة أبي حنيفة ومدرسة الشيخ عبد القادر الكيلاني. ولكل منها أوقاف كبيرة.

مع مبايعة أبي العبّاس أحمد بن المستضيء بالخلافة في 575هـ/1179م، انتعشت الخلافة خلال 46 سنة من حكمه. فعمل لإنهاء نفوذ السلاجقة في إيران، وعمل على هدم دار السلطنة في بغداد عام 583هـ/1187م، ولكنّه عجز في بادئ الأمر عن قهر جيش السلطان السلجوقيّ طغرل الثالث. فأعاد الكرّة فدخل همذان في عام 582هـ 1186م، وتابع الخليفة تعقب السلطان إلى أذربيجان، فأسره، واعتقله في قلعة قرب تبريز، ولكنّ السلطان تمكن أن يهرب من السجن في 587هـ/1190م، ومهاجمة همذان. فما كان من الخليفة إلّا أن تحالف مع الخوارزميّة، الذين كانوا يناصبون السلاجقة

العداء، ويتحصّنون في ما وراء النهر، عارضاً عليهم توليتهم على أقاليم السلطنة السلجوقيّة. فبادر علاء الدين تكش، ملك الخوارزميّين، إلى مهاجمة السلاجقة، فانتصر الخوارزميّة، وقتل طغرل بك في المعركة في عام 590هـ/1193م، فانتهت سلطة السلاجقة، وحلّت محلّها الدولة الخوارزميّة.

لم تدم علاقة التعاون طويلا، إذ طالب الخوارزميّة بالخطبة لهم في بغداد، فرفض الخليفة طلبهم، فبادلوه بقطع الخطبة له في بلاد سيطرتهم. وأوقف نفوذ الخوارزميّين، بروز المغول على مسرح الأحداث بأن قضوا على نفوذهم المذكور.

تعاقب على الخلافة بعد الناصر ابنه الظاهر، الذي حكم تسعة أشهر، فخلفه المستنصِر بالله، الذي بدأ خطر المغول في عهده يجثم على العراق. وعندما توفّي في عام 640هـ1243/7م خلفه المستعصم الذي دام حكمه من 640 إلى 656هـ/1243 - 1258م، وكان ضعيفًا مسترسلاً باللهو، فسّهل ذلك الأمر على هولاكو زعيم المغول، فسقطت بغداد في يده، وقتل الخليفة، الذي طُوي بموته تاريخ العبّاسيّين المديد.

بعد زوال السيطرة السلجوقيّة، وفي عهد الخليفة المستنصر، أعجب الرحّالة بالمساحات الخضراء التي تحيط ببغداد، وقد أشار إلى ذلك كل من بنيامين التطيلي في عام 1173م وكذلك ابن جبير في عام 580هـ/1184م وغيرهما.

في عام 1064 م بدأ بعض الأتراك الغزّ السلاجقة الاستقرار في طرابلس، فأدى ذلك إلى خروجها عن سيطرة الدولة الفاطميّة، عندما توجّه زعيم الغزّ الملك هارون بن منان التركماني، ومحمود بن مرداس إليها عام 456هـ/1064م، وعيّنا عليها حكّاماً من قبلهم. وعادت طرابلس إلى حكم الفاطميّين بحيلة من أمين الدولة ابن عمّار، قاضيها في خدمة سلطان مصر الذي استمال إليه قادة الثوار، ففتحوا أبواب المدينة لحصن الدولة، القائد الفاطميّ، الذي ترك طرابلس بيد ابن عمّار.

ونزل في صور أمير الجيوش بدر المستنصري بالعسكر المصريّ في عام 462هـ محاصراً عين الدولة ابن أبي عقيل الغالب فيها. فاستنجد المذكور بالأمير قرلوا مقدّم الأتراك المقيمين في دمشق، فوصلوا إلى صيدا، وعديدهم إثنا عشر ألف فارس، وحاصروها؛ وعندما علم بدر بذلك رحل عن صور، فانكفأ الأتراك إلى دمشق، فعاد بدر إلى حصارها برًّا وبحرًا مدة سنة. ولم يوفّق بدر في تحقيق أمانيه بسبب مساندة الأتراك لصور.

وفي عام 471هـ تمكّن تاج الدولة تتش، صاحب دمشق السلجوقيّ، من أخذ صيدا، ومن أخذ بيروت. وفي العام نفسه، سنة471هـ كان ثغرا صور وطرابلس في أيدي قضاتهما، قد تغلّبا عليهما ولا طاعة عندهما لأمير الجيوش بدر.

في عام 482هـ أعاد الفاطميّون فتح ثغرَيْ صور وصيدا. وكان في صور أولاد القاضي عين الدولة بن أبي عقيل بعد موته. ثمّ رحل العسكر عنهما، ونزل على ثغري جبيل وعكا فافتتحهما. وفي سنة 486 (او482 أو 485 أو 489هـ في مصادر أخرى) خرج من مصر عسكر كبير إلى ثغر صور، لما عصى واليها الأمير خير (أو منير) الدولة الجيوشي، وتمكّن الجيش المصريّ من صور فنهبها، وأسر خلقًا كثيرًا.

مجددًا سعى الفاطميّون لتأكيد سلطتهم على صور، فجاء العسكر المصريّ ونزل في المدينة عام490هـ عند ظهور عصيان واليها المعروف بالكتيلة، فافتتحها بالسيف، وقتل فيها خلقًا كثيرًا، ونهبها. وخرجت بعلبك عن السيطرة الفاطميّة عندما أقدم مسلم بن قريش، صاحب الموصل، على إخضاعها وترك عود بن الصقيل فيها وأقطعه البقاع، ولكن تاج الدولة تتش تمكّن من السيطرة عليها وأسر عوداً وولّى فيها مملوكه كمشتكين في سنة 496هـ/1102م.

ثالثاً - الإمارات شبه المستقلّة

1 - إمارة ابن أبي عقيل

أوّل ذكر لها، في صور، يعود تاريخه إلى سنة 429هـ ومؤسسها عبدالله بن علي بن عياض في 450هـ.

كان لإبن عقيل دور في ردّ حملة الأسطول البيزنطيّ على طرابلس في 448هـ/1057م، كما كان له دور في تسليم حلب للفاطميّين في العام نفسه.

خلف عبدالله بن علي بن عياض أباه واشتهر كمحدّث. وخلفه ابنه محمد الذي تغلّب على صور وخلع طاعة الفاطميّين عام 455هـ/1063م، وبسط نفوذه على صيدا. خلفه في 465هـ/1073م ابنه نفيس ومعه أخواه. وكان عين الدولة ابن عقيل قاضيًا على صفد عام 462 هـ.

في عام 462 هـ نزل أمير الجيوش بدر محاصرًا عين الدولة محمد... بن عياض بن أبي عقيل. فاستنجد المذكور بالأتراك الموجودين في دمشق، ونجح بردعه، ولكن بدرًا عاد مجددًا إلى حصار صور لمدّة سنة، فدفع الأهالي ثمن ذلك معاناة شديدة. في عام 471 كانت صور لا تزال مستقلة بيد قاضيها ابن أبي عقيل.

في عام 469هـ/1077م سار أتسز بن أوق الخوارزميّ التركمانيّ إلى طرابلس، ثمّ تحوّل إلى صور حيث عقد حاكمها، النفيس، هدنة معه.

ظلت صور شبه مستقلة إلى عام 482هـ/ 1089م، عندما تمكّن الفاطميّون من إعادة احتلالها، ومعها صيدا، كما سقطت جبيل وعكا بأيديهم بعدما كان تتش السلجوقيّ قد ضمّها إلى سلطته. واشتهر من آل عقيل المحدّث في دمشق أبو طالب علي بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي عقيل الصوريّ.

2 - إمارة بني عمّار

تختلف الآراء في أصل بني عمّار. فالبعض يُرجعهم إلى أصل عربيّ، والبعض الآخر إلى أصل مغربيّ، من قبيلة كتامة، التي كانت على المذهب الإسماعيليّ، ولها دور أساسيّ في قيادة الدولة الفاطميّة عسكريّا وإداريّا.

عاشت هذه الإمارة قرابة الأربعين سنة. وحمل لواءها ثلاثة:

أمين الدولة، أبو طالب (عبدالله أو الحسن) بن محمد بن عمّار وهو المؤسس.

جلال الملك أبو الحسن علي بن عمّار، وهو ابن أخ أمين الدولة انتزع الحكم بالقوة بعد موت عمّه أمين الدولة من عمّ آخر بمساعدة ابن منقذ.

فخر الملك بن عمّار وقيل أبو الفضل عمّار وهو أخو جلال الملك.

المرجح أن تاريخ حكم بني عمّار لطرابلس، هو بين عامي 457 - 462هـ/ 1065 - 1070م على يد القاضي أمين الدولة أبي طالب عبدالله بن محمد بن عمّار بن الحسين بن قندس بن عبد الله بن إدريس بن أبي يوسف الطائي (ت464هـ) الذي كان أوّل من تغلّب عليها من الولاة الفاطميّين.

بدأ أمين الدولة حكم طرابلس سنة 457هـ. وضمّ جبيل إلى نفوذه. وفي عهده قطع الآذان للخليفة الفاطميّ «حيّ على خير العمل»، من جهة وأبقى على سكّ العملة التي تحمل اسم الخليفة الفاطميّ، من جهة أخرى. وهو يعتبر مؤسس دار العلم في طرابلس.

تسلّم السلطة بعد أمين الدولة أخيه (أو ابن أخيه) أبو الحسن علي الملقب بجلال الملك (464 - 492هـ/1072 - 1098م) فعمل على تحييد طرابلس عن الصراع السلجوقيّ الفاطميّ.

عمل جلال الملك للسيطرة على جبلة في عام 469هـ/ 1077م، فامتدّت إمارته من جبلة إلى جونية، وتميّزت بدار العلم الشهيرة، واعتمد سياسة المصاهرة مع قادة ذلك الزمان. واشتُهر بالمنح التي كان يوزّعها على أهل العلم في دار العلم.

عام 482هـ/1089. انتزع ناصر الدولة الجيوشي، قائد بدر الجمالي، جبيل من يد ابن عمّار. وانتزع خلف بن ملاعب صاحب حمص عرقا من ابن عمّار، ومنه انتقل ت إلى تاج الدولة تتش، وبقيت بيده وبيد ابنه شمس الملوك دقاق. وتمكّن تاج الدولة تتش، أخو السلطان ملكشاه، من

تملكّها سنة 483هـ/ 1090م (أو 485هـ في مصدر آخر). وتمكّن تتش من السيطرة على ساحل المشرق وحاصر طرابلس، ولكن جلال الملك عرف أن يبعده عنها بالحيلة، أمّا عرقا وعكّار وصيدا فقد سقطت بيده.

بنى جلال الملك جامعًا باسمه في طرابلس. وجدّد دار العلم. وكان بلاطه، محطّ أنظار العلماء والأدباء والشعراء.

وأشهر الشعراء الذين عاشوا في كنف بني عمّار، وخصّوهم بأشعار كثيرة، كان ابن الخيّاط الذي عاش في طرابلس قرابة عشر سنين، ودرس في دار العلم.

ومن الشعراء الذين تغنّوا بفخر الملك بن عمّار، أبو الحسن علي بن إبراهيم المعروف بإبن العلائي المعريّ، ومواهيب بن حديد المعريّ.

خلف فخر الملك أخاه جلال الملك، في سنة 494هـ. وكان آخر حكّام طرابلس من آل عمّار عندما استولى الفرنج على المدينة. واشتهر أيضاً من آل عمّار: أبو المناقب عمّ جلال الملك، وشرف الدولة بن فخر الملك، وشمس الملك أبو الفرج محمد بن أمين الدولة أبي طالب. وأبو القاسم علي بن عمار القاضي.

الفصل الثاني:
الأوضاع الإداريّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة والعمرانيّة في ظلّ الفاطميّين

أولاً - الوضع الإداريّ والقضائيّ والقوة البحريّة

كان على رأس السلطة المركزيّة، في الدولة الفاطميّة، خليفة بمثابة إمام، إذ إنّ عقيدة الدولة كانت شيعيّة - إسماعيليّة. ويأتي بعده في الدرجة الثانية الوزير، وفي درجة ثالثة قاضي القضاة وهو يتقدّم على داعي الدعاة الذي يلي قاضي القضاة، وكثيراً ما كان قاضي القضاة هو داعي الدعاة نفسه.

أمّا في الولايات فكان رأس السلطة القاضي ثمّ الوالي.

كان بإمكان أي شخص أن يصل إلى مرتبة الوزارة، بحيث إن بعض أبناء المشرق اللبنانيّين وصلوا إلى هذا المركز، ومن هؤلاء:

- عيسى بن نسطوروس من صور، على زمن العزيز بالله، وولداه زرعة وصاعد على زمن الحاكم بأمر الله.

- بعض بني أبي الفتح من عرقا: أبو محمدعبد الكريم عام 453هـ/1061م وكان أبوه قاضي طرابلس 1061م، وأخوه محمد وأبو علي أحمد في 455هـ/ و461هـ/1063 - 1069م.

- أبو حسن طاهر بن زير من أهل طرابلس الشام عام 458هـ/ 1066م أو 459، الذي تسلّم الوزارة لأيام معدودة بعد صرف الوزير البغدادي.

- بدر الجمالي الذي كان في الأساس مملوكاً لجمال الملك ابن عمّار.

وتبوأ منصب قاضي القضاة بعض المشرقيّين ومنهم:

- مالك بن سعيد الفارقي الذي قتل سنة 405هـ/ 1014م، ثمّ أخوه عبد الحاكم، وأحمد بن عبد الحاكم المذكور أعلاه.

- أحمد بن عبد الرحمن بن أبي عقيل الصوريّ. وهو من السنّة وشافعيّ، تسلّم المنصب شرط أن يحتكم إلى القضاء الإسماعيليّ.

لا يبدو أنّه كان للمشرقيّين دور يُذكَر على صعيد الولايات المحليّة. وقد اعتمد الفاطميّون نهجًا جديدًا في توزيع هذه الولايات. فكان على كلّ ثغر والٍ من مصر، في الغالب من قبيلة كتامة البربريّة، ورتبّوا معه جندًا لحفظه من الأعداء. وتبعت بعلبك هذا الإجراء.

انقسم المشرق إلى ولايات عدّة وكان القاضي هو المسؤول الأول في الولاية، بحيث كان أيضاً بمثابة الوالي والقائد العسكريّ.

كان قضاة المحاكم من العرب، أما الولاة والقادة فمن غير العرب: من المغاربة، عمومًا، ومن الصقالبة والأتراك والأكراد وغيرهم. عندما كان القضاة يتسلّمون السلطة، كانوا يتخلّون عن ممارسة الحكم الشرعيّ لمن ينوب عنهم، ولم يكن القضاة في الولايات إسماعيليّين، بالضرورة. فقضاة صور كانوا من السنّة.

ولمساندة الولاة الذين كانوا من القضاة، كان للأسطول الفاطميّ موقع مميّز في المدن الساحليّة اللبنانيّة.

كانت بعض مدن الساحل مركزاً للأسطول الفاطميّ، وخصوصًا في طرابلس وصيدا.

اهتمّ الفاطميّون بالاحتفال بالأساطيل وبإنشاء المراكب في مصر والإسكندريّة ودمياط من الشواني (سفن كبيرة تجذّف بـ 140 مجذافاً)، والشلنديات (مراكب مسقوفة)، والمسطّحات (شبيهة بالشلنديات وتتسع لـ 500 راكب) التي كانوا يرسلونها إلى صور وعكا وعسقلان. وكانت القيادة على الأسطول لأمير كبير من الأعيان بين الأمراء، وأقواهم نفسًا.

منذ 361هـ/972، كانت السفن الحربيّة الفاطميّة لا تتوقف عن الإبحار من مرافئ مصر إلى صور وطرابلس في شهر نيسان من كلّ سنة. ويستمر النشاط حتى حلول فصل الشتاء، فتأوي السفن إلى قواعدها. وبفضل هذا الأسطول، استطاع الفاطميّون الاحتفاظ بسيطرتهم على السواحل من مصر إلى طرابلس، وصدّ القوات البحريّة البيزنطيّة.

كان أكثر قادة الجيش من المغاربة، وخصوصًا من قبيلة كتامة.

ثانياً - الأوضاع الاجتماعيّة - الدينيّة : الموحّدون - الدروز

الدرزيّة، أو عقيدة الموحدين، دعوة تغلّفها الأسرار، ولا يعرف مضمونها إلّا الراسخون في العلم من أهلها. وما سنسطّره عنها، هو ما يُتداول بين مصادر ومراجع متناقضة، قد يصحّ الكلام فيها أو لا يصحّ.

يُنسب ظهور هذه الدعوة لداعٍ فارسيّ الأصل يُسمّى محمد بن إسماعيل، الملقب بالدرزيّ (وتعني بالفارسيّة خيّاط) أو أنوشتكين الدرزيّ البخاريّ الذي كان أحد أعوان الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطميّ. وهذه التسمية لا يرضى بها الدروز، بل يفضّلون عليها تسمية الموحّدين.

جاء الدرزيّ إلى مصر عام 408 هـ/1017 - 1018م، ونادى بأُلوهيّة الحاكم صانع العوالم ومبدع الخلائق، فحدثت فتنة في القاهرة أدّت إلى قتله هو وأتباعه. ثمّ جاء بعده داع أعجميّ آخر يُدعى حمزة بن أحمد، الذي لقّب بالهادي، وعمل على إحياء الدعوة ونشر الدعاة في مصر وبلاد الشام، فتبنّى دعوته قوم، لا سيّما في وادي التيم وبلاد صيدا وبيروت وساحل الشام بتشجيع من حاكم دمشق عبد الرحمن بن الياس. وبعد اختفاء الحاكم هرب حمزة وقُتل بعد ذلك.

وفي رواية أخرى، أن الدرزيّ كان من الباطنية القائلين بالتناسخ، ادّعى ربوبيّة الحاكم، وصنّف له كتاباً في ذلك، فأخرجه الحاكم إلى بلاد الشام، لأن أهلها سريعو الانقياد فنزل في وادي التيم مستميلًا أهالي تلك المنطقة إليه.

وفي رأي آخر، أنّ أنوشتكين الدرزيّ هو محمد بن إسماعيل. كان داعياً للحاكم، غضب من تعيين حمزة إماماً للموحدين - الدروز، فخرج على سلطته، وحرّف مضمون الدعوة. فأطلق أعداء الدعوة اسمه عليها. وتجعل المصادر التاريخيّة مقتل الدرزيّ في عام 408هـ.

ليلة الجمعة أوّل شهر محرّم عام 408هـ/30 أيار 1017م أصدر الحاكم سجلاً يعلن فيه مبادئ دعوته ويعلن حمزة إماماً لها، وكان عمره آنذاك ثلاثًا وثلاثين سنة.

تابع شؤون الدعوة المقتنى بهاء الدين علي، الذي أوكل الأمير أبا الفوارس معضاد، وهو من إحدى عشائر التنوخيّين، شؤون الدروز في جبال بيروت. وكان التنوخيّون في وادي التيم، وجبل لبنان، قد تسلّموا في السنة العاشرة من سنوات حمزة رسالة تُدعى بالرسالة الجميهرية (نسبة لجمهور

فخذ من تنوخ). وبحسب المراجع الدرزيّة، تمكّن المقتنى بهاء الدين من التخلّص من أنوشتكين أو سُكَيْن الدرزيّ.

أعلن الدرزيّ أُلوهيّة الحاكم، ووضع حمزة فلسفة العقيدة، التي تميّز بين النصّ الظاهر والمعنى الباطن. والحقيقة هي المعنى الخفيّ الباطنيّ. أما بهاء الدين فبعث بالرسائل التي تدعو إلى قبول الدعوة في أماكن مختلفة متباعدة، مثل بيزنطية (الإمبراطور قسطنطين الثامن 1025 - 1028) والهند. وتُعزى إليه كتابة أربعة كتب من كتب الدروز الدينيّة. وآخر من شرح رسائله الإمام عبدالله البحتريّ التنوخيّ في أواخر القرون الوسطى. وقبيل وفاته أعلن بهاء الدين المقتنى إقفال باب الدعوة، وفرض الستر على أسرارها.

وصلت الدعوة إلى جبل السمّاق (من أعمال حلب) من بلاد الروم، فجاهر فيه الدروز بمذهبهم، وتحصنّوا في المغاور الشاهقة، وانضوى إليهم خلق من أهل نحلتهم واستضاموا المسلمين المجاورين، فقصدهم قبطان أنطاكية من الروم وقضى على تحرّكهم وأبعدهم عن البلاد.

وبشكل عام، نظن أنّ الموحدين - الدروز هم دعوة إلى توحيد الديانات السماويّة الثلاث، ومحاولة لمصالحتها مع الحكمة القديمة. ومع حمزة الدرزيّة، كما الإسماعيليّة، هي عقيدة الفيض الكوني لله الأحد والعودة إليه. فالحاكم هو تجسّد الله الأحد الذي خلق العقل الكلي أي حمزة. والحاكم هو المقام، وحمزة هو الإمام. والقادة الأوائل للدعوة يمثلون المبادئ الكونيّة، أو الحدود الخمسة، وتحت هؤلاء نجد الدعاة فالمأذونين فالمكاسرين فعامة المؤمنين.

ومن أبرز العقائد عند الدروز، القول بالتقمّص، الذي يمرّ به البشر إلى أن يتطهّروا من أدران الجسد. ومن أبرز مظاهر مجتمعهم التمسك والتسليم المطلق بالتسيير الإلهيّ.

هذه الدعوة وجدت في الأوساط الفلاحيّة بذوراً صالحة، وأوجدت لهم راحة نفسية مع دعوتها إلى المساواة في العالمين الدنيويّ والإلهيّ، وفي عمر الإنسان، وفي تناوب التقمّص بين فقر وغنى، وبين عمر قصير وعمر مديد، وفي تحقيق مبدأ العدل في الزواج برفض تعدّد الزوجات.

وكان من أسباب الاستقرار السهل، للدرزيّة انتشار أفكار غلاة الشّيعة منذ العهد العبّاسيّ.

ثالثاً - الأوضاع الاقتصاديّة

أ - الكوارث الطبيعيّة

أبرز الكوارث الطبيعيّة التي ضربت لبنان كانت:

1- سنة 373هـ/ 983م زلزال قويّ في طرابلس. وضرب عرقا وقضى على أهلها.

2- سنة 381هـ/991م خسفت قرية من قرى بعلبك، وكانت الزلازل بدمشق وأعمالها وبعلبك.

3 - 434هـ/1043م زلزلة في بعلبك.

4 - سنة 452 هـ/1060 م زلزلة في طرابلس.

5 - سنة 455هـ/1063م زلزال عظيم في صور وعكا هدم سور طرابلس.

6 - سنة 465هـ/1073م زلزلة في بعلبك فسقطت أسوارها وأكثر قلعتها.

7 - سنة497هـ/1104م زلزلة عظيمة من مصر إلى الشام وبلاد الروم فسقط غالب قلعة بعلبك وهرب قوم من بعلبك فقضوا بين جبلين من جبل لبنان.

هذه الزلازل التي شهدها لبنان في النصف الثاني من القرن الخامس /الحادي عشر، وما رافقها من نتائج تدميرية كما رأينا أعلاه، أسهمت في زيادة بؤس السكان الذين كانوا يعيشون من الزراعة بالدرجة الأولى.

ب - الزراعة

بما أن المصادر تتداخل فيها المعلومات وتتوزّع بين العبّاسيّين والفاطميّين، وهي من هذا العهد الأخير، فما ذكرناه عن الزراعة في العهد العبّاسيّ ينطبق على العهد الفاطميّ. وتُكمل مصادر أخرى معلوماتنا عن العهد الفاطميّ بقولها إن منطقة الكورة كانت مشهورة بالزيتون، والخروب في إقليم الخروّب، وبقي التفاح محافظاً على صيته، واشتهرت طرابلس بالمشمش وبماء الورد.

ج - الإقطاع

في عام 405 هـ/1014م أقطع الحاكم بأمر الله، خليفة مصر، صور وصيدا وبيروت للفتح القلعي، الذي كان قد نادى بشعار الحاكم، عوضًا عن حلب، ولقّبه مبارك الدولة وسعدها؛ وكان ارتفاع (أي جباية) الأماكن الثلاثة المذكورة ثلاث ماية ألف دينار. وفي سنة 434 هـ/1042م أقطع المستنصر بالله، خليفة مصر، عكا وبيروت وجبيل لمعزّ الدولة محمود، صاحب حلب، عوضًا عن حلب؛ وأخذ منه حلب، فاسترجع أقارب محمود في حلب من عمّال المستنصر الأماكن الثلاثة من محمود.

د - التجارة

الهدنة بين الإمبراطور البيزنطيّ ميخائيل الرابع والخليفة الفاطميّ المستنصر أثمرت انتعاشاً اقتصادياً. فأمّت قوافل التّجار المسلمين وتجّار بيزنطية وصقلية وأوروبا موانئ لبنان، في الوقت الذي كانت فيه سفن الفاطميّين تصل إلى القسطنطينيّة وصقلية وشمال أفريقيا.

ففي أواخر القرن العاشر، وفي أوائل القرن التالي، أصبح للدولة الفاطميّة تجارة مع مدن البندقيّة وجنوى وبيزا واملف، بالإضافة إلى تجارتها مع الروم، وهذا ما ساعد على نموّ طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور.

وقد وصف ناصر خسرو في 483هـ/ 1090م مدن الساحل كما ذكرنا سابقاً. ويذكر المقدسي، كما أسلفنا، أن في صور السكّر والخرز والمعمولات والزجاج المخروط.

وشهدت بعلبك أيضاً حركة عمرانيّة في هذه الآونة وكانت مشتهرة بالملابن. ولربما استمرارية صناعة الحلوى التقليديّة في بعلبك قد دفعت إلى تلك الجملة الشهيرة: «شو ما في حلاوة إلا ببعلبك».

رابعاً - الحياة الثقافيّة

لم يتفق المؤرخون في تحديد عدد المؤلفات التي كانت موجودة في مكتبة دار العلم في طرابلس، فقيل 10000 وقيل ما يزيد على 100000 كتاب، وقيل مليون كتاب. وأسهم في ذلك وجود معامل الورق فيها.

واشتهرت طرابلس بدار العلم التي وقف لها جلال الملك منحًا ماليّة لطلبة العلم.

ومن المعروف أنّ جلال الملك جدّد دار العلم بطرابلس، مما يعني أنها كانت موجودة سابقًا. ولعلّها تعود إلى عهد أمين الدولة بن عمّار. كان لهذه الدار نظّارها، وخرّجت طلابًا متنوّعي الاختصاص، فكان منهم الشاعر والأديب والمهندس والفلكيّ. وهذا ما يمكن استنتاجه من تراجم بعض طلاّب العلم فيها. واشتهر من طلابها الشاعر ابن الخياط الدمشقيّ، وهو أحمد بن محمد بن علي (450 - 517هـ/1058 - 1123م). ومرّ بها أبو العلاء المعريّ.

في ظلّ الدولة الفاطميّة كان في القاهرة دار للعلم يجتمع فيها الفقهاء برئاسة داعي الدعاة، وتُعرف بدار الحكمة، تُضاف إليها خزانة الكتب التي فيها ما يقارب 200 ألف كتاب. وفي معلومات أخرى ألف وستمائة ألف كتاب. وهي من عجائب الدنيا، بحيث لم يكن في بلاد الإسلام جميعها دار كتب أعظم منها.

خامساً - العمران:
وضعيّة مدن وقرى المشرق في الربع الثاني من القرن الحادي عشر الميلاديّ في تقرير الرحالة ناصر خسرو

زار ناصر خسرو سواحل المشرق، وبعض أمكنة من داخله، فقدّم تقريرًا دقيقًا مهمًّا جدًا يصف فيه واقع ووضعيّة بعض المدن والقرى والشعوب والشيع في البلدان المعروفة حاليًا باسم إيران وسورية ولبنان ومصر ونجد والحجاز واليمن وأجزاء من العراق، ونتوقف عند ما قدّمه من وصف لبلدان المشرق من الحدود مع بلاد الروم إلى حلب وبعض مدن سورية الحاليّة فمدن لبنان الحاليّ فبعض مدن فلسطين، خصوصًا بيت المقدس وصولاً إلى عسقلان:

مدينة أخلاط هي على الحدود بين بلاد المسلمين والأرمن وبينها وبين بركري تسعة عشر فرسخاً.

ونزل في رباط كروانسراي ثم بلغ مدينة بطليس وخرج منها فرأى قلعة تسمّى قف انظر وتركها إلى مكان به جامع يقال بناه أويس القرني ورأى الناس عند حدوده يطوفون بالجبل ويقطعون أشجاراً تشبه السرو. فسأل ماذا يعملون بها فقالوا نضع طرفاً من الشجرة في النار فيخرج هذا القطران من طرفها الآخر فنجمعه في البئر ثم نضعه في أوعية ونحمله إلى الأطراف. وهذه الولايات التي ذكرت بعد أخلاط وقد اختصرنا ذكرها هنا تابعة لميافارقين.

ثم سار إلى مدينة أرزن وهي مدينة عامرة وجميلة فيها أسواق جميلة.

وانتقل إلى مدينة ميافارقين وهي محاطة بسور عظيم من الحجر الأبيض وعلى بعد كل خمسين ذراعاً من هذا السور برج عظيم من الحجر نفسه وفي أعلاه شرفات وللميضأة التي عملت بهذا المسجد أربعون مرحاضاً تمر أمامها قناتان كبيرتان الأولى ظاهرة ليستعمل ماؤها والثانية وهي تحت الأرض لحمل الثفل وللصرف. وخارج هذه المدينة في الربض أربطة كروانسراي وأسواق وحمامات ومسجد وجامع آخر يصلون فيه الجمعة أيضاً.

وبلغ آمد التي شيّدت على صخرة واحدة طولها ألفا قدم وعرضها كذلك وهي محاطة بسور من الحجر الأسود وبالقرب من المسجد كنيسة عظيمة غنية بالزخارف مبنيّة كلها من الحجر وقد

فرشت ارضها بالرخام المنقوش. وقد رأيت فيها على الطارم وهو مكان العبادة عند النصارى بابٌ من الحديد المشبك لم يرَ مثله في أي مكإن.

ومن آمد إلى حران طريقان أحدهما لا عمران فيه والثاني فيه أماكن معمورة وقرى كثيرة معظم أهلها من النصارى. وقد سار مع القافلة في هذا الطريق وكانت الصحراء غاية في الاستواء إلا أن بها أحجارًا كثيرة بحيث لا تستطيع الدواب أن تخطو خطوة واحدة من غير أن تعثر بحجر.

وبلغ مدينة تُسمّى قرول. وبلغ مدينة سروج واجتاز الفرات في اليوم التالي ونزل في منبج وهي أول مدن الشام وسار منها إلى حلب. ورأى مدينة حلب فإذا هي جميلة بها سور عظيم كان ارتفاعه خمسة وعشرين ذراعاً وبها قلعة عظيمة مشيدة كلها من الصخر ويمكن مقارنة حلب ببلخ وهي مدينة عامرة أبنيتها متلاصقة وفيها تحصل المكوس عما يمرّ بها من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق.

ويذهب إليها التجار من جميع هذه البلاد ولها أربعة أبواب: باب اليهود وباب الله وباب الجنان وباب أنطاكية وتقع حماه جنوبيّ حلب ومن بعدها حمص.

وخرج من حلب وعلى مسافة ثلاثة فراسخ منها قرية تسمّى جند قنسرين وفي اليوم التالي سار وبلغ مدينة سرمين التي لا سور لها وبلغ معرة النعمان وهي مدينة عامرة ولها سور مبني وقد رأى على بابها عمودًا من الحجر عليه كتابة غير عربيّة فسأل ما هذا فقيل إنه طلسم العقرب حتى لا يكون في هذه المدينة عقرب أبداً ورأى أسواق معرة النعمان وافرة العمران وقد بني مسجد الجمعة على مرتفع وسط المدينة بحيث يصعدون إليه من أي جانب يريدون وذلك على ثلاث عشرة درجة وزراعة السكان كلها قمح وهو كثير وفيها شجر وفير من التين والزيتون والفستق والعنب ومياه المدينة من المطر والآبار.

وكان في هذه المدينة رجل أعمى اسمه أبو العلاء المعريّ وهو حاكمها. كان واسع الثراء عنده كثير من العبيد كان أهل البلد خدمًا له.

أما هو فقد تزهّد فلبس الكلتم واعتكف في البيت كان قوته نصفًا من خبز الشعير لا يأكل سواه. وقد سمعت أن باب سرايه مفتوح دائماً وأن نوابه وملازميه يدبّرون أمر المدينة ولا يرجعون إليه إلا في الأمور الهامة وهو لا يمنع نعمته أحداً بصوم الدهر ويقوم الليل ولا يشغل نفسه مطلقاً بأمر

دنيويّ. وقد سما المعريّ في الشعر والأدب إلى حد أنّ أفاضل الشام والمغرب والعراق يقرّون بأنه لم يكن مَن يدانيه في هذا العصر ولا يكون. وقد وضع كتاباً سماه الفضول والغايات ذكر به كلمات مرموزة وأمثالاً في لفظ فصيح عجيب، بحيث لا يقف الناس إلا على قليل منه ولا يفهمه إلا مَن يقرأه عليه وقد اتهموه بأنك وضعت هذا الكتاب معارضة للقرآن يجلس حوله دائماً أكثر من مائتي رجل يحضرون من الأطراف يقرءون عليه الأدب والشعر وسمعت أن له أكثر من مائة ألف بيت شعر. سأله رجل لم تعط الناس ما أفاء الله تبارك وتعالى عليك من وافر النعم ولا تقوّت نفسك. فأجاب إني لا أملك أكثر مما يقيم أودي كان هذا الرجل حيًّا وأنا هناك.

وسار الى كويمات ومنها إلى حماه وهذه المدينة جميلة عامرة على شاطئ نهر العاصي. ومن حماه طريقان أحدهما بجانب الساحل غرب الشام والآخر في الجنوب وهو ينتهي إلى دمشق فسار عن طريق الساحل.

وذهب بعد ذلك إلى مدينة تسمّى عرقة فإلى شاطئ البحر وبلغ مدينة طرابلس.

وحول المدينة المزارع والبساتين وكثير من قصب السكر وأشجار النارنج والترنج والموز والليمون والتمر. كان عسل السكر يجمع حينذاك ومدينة طرابلس مشيّدة بحيث إن ثلاثة من جوانبها مطلة على البحر فإذا ماج علت أمواجه السور أما الجانب المطلّ على اليابس فبه خندق عظيم عليه باب حديدي محكم وفي الجانب الشرقيّ من المدينة قلعة من الحجر المصقول عليها شرفات ومقاتلات من الحجر نفسه وعلى قمتها عرادات لوقايتها من الروم. فهم يخافون أن يغير هؤلاء عليها بالسفن ومساحة المدينة ألف ذراع مربع وأربطتها أربع أو خمس طبقات، ومنها ما هو ست طبقات أيضاً وشوارعها وأسواقها جميلة ونظيفة حتى لتظنّ أن كل سوق قصر مزين. وقد رأى بطرابلس ما رأى ببلاد العجم من الأطعمة والفواكه بل أحسن منه مائة مرة. وفي وسط المدينة جامع عظيم نظيف جميل النقش حصين وفي ساحته قبة كبيرة تحتها حوض من الرخام في وسطه فواره من النحاس الأصفر وفي السوق مشرعة ذات خمسة صنابير يخرج منها ماء كثير يأخذ منه الناس حاجتهم ويفيض باقيه على الأرض ويصرف في البحر ويُقال إن بها عشرين ألف رجل ويتبعها كثير من السواد والقرى ويصنعون بها الورق الجميل مثل الورق السمرقندي بل أحسن منه وتحصل المكوس بهذه المدينة فتدفع السفن الآتية من بلاد الروم والفرنج والأندلس والمغرب العشر للسلطان فيدفع منه أرزاق الجند وللسلطان بها سفن تسافر إلى بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة. وسكان طرابلس

كلهم شيعة وقد شيد الشّيعة مساجد جميلة في كل البلاد. وهناك بيوت على مثال الأربطة ولكن لا يسكنها أحد وتسمى مشاهد ولا يوجد خارج طرابلس بيوت أبداً عدا مشهدين أو ثلاثة من التي مرّ ذكرها.

وغادر طرابلس وسار على شاطئ البحر ناحية الجنوب فرأى على مسافة فرسخ واحد قلعة تسمّى قلمون في داخلها عين ماء وسار من هناك إلى طرابزون ومنها بلغ مدينة جبيل وهي مثلثة تطلّ زاوية منها على البحر ويحيطها سور حصين شاهق الارتفاع وحولها النخيل وغيره من أشجار المناطق الحارة.

ومن هناك بلغ بيروت فرأى فيها طاقًا حجريًا شقّ الطريق في وسطه وقد قدر ارتفاعه بخمسين ذراعًا وجانباه من الحجر الأبيض تزن كل قطعة منه أكثر من ألف من وعلى جانبيه بناء من الطوب النيئ ارتفاعه عشرون ذراعًا وقد نصبت على قمته أعمدة من الرخام طول كل منها ثمانية أذرع وهي سميكة بحيث لا يستطيع رجلان أن يحيطاها بأذرعهما إلّا بصعوبة وعلى رأس هذه العمد عقود على الجانبين كلها من الحجر المنحوت الذي لا يفصله عن بعضه حص أو طين وفي الوسط تمامًا الطاق الكبير يعلوها بخمسين ذراعاً وقد قستُ كل حجر منه فإذا به ثمانية أذرع طولا وأربعة عرضًا وأظنّ الحجر الواحد يزن سبعة آلاف من. وقد نقشت هذه الحجارة بدقة ومهارة، بحيث يقل ما يشابهها مما ينقش على الخشب ولم يبق هناك أبنية غير هذا الطاق وقد سألت أي مكان هذا فقيل لي سمعنا أنه باب حديقة فرعون وهو بالغ في القدم والوادي المجاور لهذه الناحية مملوء بأعمدة الرخام تيجانها وجذوعها وهي من الرخام المدوّر والمربّع والمسدّس والمثمّن وهي من الصلابة بحيث لا يؤثر فيها الحديد وليس في هذه الجهة جبل حتى يُقال إنهم جلبوها منه وهناك حجارة تبدو كأنها معجونة جرانيت وهي تفلّ الحديد وفي نواحي الشام أكثر من خمسمائة ألف من أعمدة وتيجان وجذوع ولا يُعرف أحد ماذا كانت ولا من أين نُقلت.

ثم بلغ مدينة صيدا أيضاً يُزرع فيها قصب السكر بوفرة وفيها قلعة حجرية محكمة ولها ثلاث بوابات وفيها مسجد جمعة جميل يبعث في النفس هيبة تامة وقد فرش كله بالحصير المنقوش وفي صيدا سوق جميل نظيف وفيها حدائق وأشجار منسّقة حتى لتقول إن سلطاناً هاوياً غرسها وفي كل من هذه الحدائق كشك وأغلب شجرها مثمر.

وبلغ مدينة صور وهي ساحليّة أيضاً وقد بُنيت على صخرة امتدت في الماء بحيث إن الجزء الواقع على اليابس من قلعتها لا يزيد على مائة ذراع والباقي في ماء البحر. والقلعة مبنيّة بالحجر المنحوت الذي سدّت فجواته بالقار حتى لا يدخل الماء من خلاله وقد قدّرت المدينة بألف ذراع مربع وأربطتها من خمس أو ست طبقات وكلها متلاصقة وفي كثير منها نافورات وأسواقها جميلة كثيرة الخيرات وتُعرف مدينة صور بين مدن ساحل الشام بالثراء ومعظم سكانها شيعة والقاضي هناك رجل سني اسمه ابن أبي عقيل وهو رجل طيّب ثري وقد بُني على باب المدينة مشهد به كثير من السجاجيد والحصير والقناديل والثريّات المذهبة والمفضّضة وصور مشيّدة على مرتفع وتأتيها المياه من الجبل وقد شيّد على بابها عقود حجرية يمر من فوقها إلى المدينة وفي الجبل وادٍ مقابل لها إذا سار السائر فيه ثمانية عشر فرسخاً ناحية المشرق بلغ دمشق.

وبلغ عكة وتكتب هناك مدينة عكة وهي مشيّدة على مرتفع بعضه من أرض وعرة وبعضه سهل ولم تشيّد المدينة في الوادي المنخفض مخافة غلبة ماء البحر عليها وخشية أمواجه التي تعجّ على الساحل. ومسجد الجمعة في وسط المدينة وهو أعلى مبانيها وأعمدتها كلها من الرخام. ومسحت المدينة فكان طولها ألفي ذراع وعرضها خمسمائة ولها قلعة غاية في الإحكام يطلّ جانباها الغربيّ والجنوبيّ على البحر وعلى الأخير ميناء ومعظم مدن الساحل كذلك.

وحين يذهب المسافر من عكة ناحية المشرق يجد جبلًا فيه مشاهد الأنبياء عليهم السلام. وهذا الجبل واقع على جانب الطريق المؤدي إلى الرملة وقد قال سكان عكة إن في الطريق أشراراً يتعرّضون لم يروا من الغرباء وينهبون ما معهم فأودع نفقته بمسجد عكة وخرج من بابها الشرقيّ يوم السبت الثالث والعشرين من شعبان سنة 338 هـ (5مارس1037) ثم بلغ قرية تسمّى بروة وزار قبر عيش وشمعون ومن هناك بلغ مغارك التي تسمّى دامون فزار المشهد المعروف بقبر ذي الكفل ثم واصل السير إلى قرية أخرى تسمّى أعبلين وفيها قبر هود فزاره وكان بحظيرته شجرة الخرتوت. وكذلك زار هناك قبر النبي عزير ثم يمّم وجهه شطر الجنوب فبلغ قرية تسمّى حظيرة وفي الجانب الغربيّ منها واد فيه عين ماء عذب تخرج من الصخر وقد بني أمامها مسجد على الصخر به بيتان صخريّان فوقهما سقف من الحجر أيضاً وعليهما باب صغير يستطيع الزائر دخوله بصعوبة وهناك قبران متجاوران أحدهما قبر شعيب والثاني قبر إبنته التي كانت زوج موسى ويُعنَى أهل هذه القرية بهذا المسجد عناية فائقة من تنظيف وإنارة وغير ذلك. ومن هناك بلغ قرية تسمّى إربل

وفي ناحية القبلة منها جبل في وسطه حظيرة فيها أربعة قبور لأربعة من أبناء يعقوب إخوة يوسف. وذهب من هناك فرأى تلاً من تحته غار فيه قبر أم موسى فزاره ثم خرج فبدا له وادٍ في آخره بحر صغير تقع عليه طبريّة طوله ستة فراسخ وعرضه ثلاثة وماؤه عذب لذيذ وتقع غربي المدينة وتُصرف في هذا البحر كل مياه الحمامات وفضلات المدينة وكذلك يشرب منه سكانها وسكان الولاية التي على شاطئه ولطبريّة سور حصين يبدأ من شاطئ البحر ويمتدّ حول المدينة والطرف المحدود بالبحر لا حائط له وفيها مبانٍ كثيرة في وسط البحر فإن قاعه صخريّ وقد شيدت هناك مناظر على رؤوس أعمدة رخاميّة أساسها في الماء. وفي بحر طبريّة سمك كثير ومسجد الجمعة في وسط المدينة وعند بابه عين ماء بني عند رأسها حمام ماؤه ساخن فلا يستطيع مستحم أن يصبّه على جسده من غير أن يمزجه بماء بارد ويقال إن الذي بناه هو سليمان بن داود عليه السلام وقد دخله وفي الجانب الغربيّ من مدينة طبريّة مسجد إسمه مسجد الياسمين وهو مسجد جميل في وسطه ساحة كبيرة بها محاريب وحولها الياسمين الذي سُمّي به المسجد وفي رواق بالجانب الشرقيّ قبر يوشع بن نون وتحت هذه الساحة قبور سبعين نبياً عليهم السلام قتلهم بنو إسرائيل.

وجنوب طبريّة بحر لوط وهو مالح المياه ويصبّ به ماء بحر طبريّة. وكانت مدينة لوط تقع على شاطئه ولم يبقَ منها أثر قط وسمعت من إنسان أن في مياه بحر لوط المالحة شيئاً كالحجارة السوداء غير صلب يشبه البقر يخرج من قاعه فيأخذه السكان ويقطعونه ويحملونه إلى المدن والولايات ويقال إنه إذا وضعت قطعة منه تحت شجرة يمتنع الدود عنها من غير إن يمسّ جذرها أذى منه فلا يتلف البستان مما تحت الأرض من دود وحشرات. والعهدة على الراوي وقيل كذلك إن العطارين يستخدمونه لأنه يبعد دودة تصيب البذور اسمها النقرة. وفي طبريّة يصنعون الحصير ومنه حصير الصلاة وتشتري الواحدة منها بخمسة جنيهات مغربيّة وفي الجانب الغربيّ من المدينة جبل فيه قطعة من حجر المرمر مكتوب عليها بخط عبري إن الثريا كانت على رأس الحمل ساعة الكتابة ويقع قبر أبي هريرة خارج المدينة ناحية القبلة، ولكن لا يستطيع أحد زيارته لأن السكان هناك شيعة فإذا ذهب أحد للزيارة تجمع عليه الأطفال وتحرّشوا به وحملوا عليه وقذفوه بالحجارة وسار بعد ذلك إلى قرية تسمّى كفركنه بجانبها تل بُنيت على قمته صومعة جميلة بها قبر النبي يونس وعليها باب متين بقربه بئر ماؤها عذب.

وقد عاد إلى عكا بعد زيارة هذا المشهد فمكث بها يوماً واحداً ثم غادرها إلى قرية تسمّى حيفا وفي طريق به كثير من هذا الرمل الذي يستخدمه صياغ العجم والمسمّى بالرمل المكي وحيفا مشيدة على البحر وبها نخل وأشجار كثيرة وهناك عمال يصنعون السفن البحريّة المسماة بالجودي.

وسار بعد ذلك فبلغ قرية أخرى تسمّى كنيسة وعندها ينحرف الطريق عن البحر ويدخل الجبل ناحية المشرق حيث الصحروات والمحاجر التي تسمّى وادي التماسيح ويعود لمحاذاة الشاطئ بعد مسيرة فرسخين. وهناك رأى عظام حيوانات بحريّة كثيرة مختلطة بالتراب والطين وقد تحجّرت من كثرة ما ثار عليها من الموج.

وقام من هناك وسار حتى بلغ مدينة تسمّى قيسارية وهي مدينة جميلة بها ماء جارٍ ونخيل وأشجار النارنج والترنج ولها سور حصين له باب حديديّ وبها عيون ماء جارية ومسجد الجامع جميل ويرى المصلّون البحر ويتمتعون به وهم جلوس في ساحته وهناك زير من الرخام يشبه الخزف الصينيّ وهو عميق بحيث يسع مائة من ماء.

في يوم السبت آخر شعبان 10 مارس قام من هناك وسار مقدار فرسخ عن طريق الرمل المكي وقد رأى في الطريق كله سهله وجبله كثيراً من شجر التين والزيتون وبلغ مدينة تسمى كفرسابا أو كفر سلام ومنها حتى الرملة ثلاثة فراسخ في طريق كله شجر.

وفي يوم الأحد غرّة رمضان 11 مارس بلغ الرملة. وهي مدينة كبيرة بها سور حصين من الحجر والجص مرتفع ومتين وعليه أبواب من حديد ومن المدينة إلى شاطئ البحر ثلاثة فراسخ والماء هناك من المطر، ولذا فقد بني في كل منزل حوض لجمع مياه المطر فيبقى ذخيرة دائمة وفي وسط مسجد الجمعة أحواض تمتلئ بالماء فيأخذ منه مّن يشاء ومساحة الجامع ثلاثمائة قدم في مائتين وقد كتب أمام الضفة إنه في الخامس عشر من شهر محرّم سنة 425 (11 ديسمبر) 1033 زلزلت الأرض بشدة هنا فخربت عمارات كثيرة ولم يُصَب أحد من السكان بسوء وفي هذه المدينة رخام كثير وقد زينت معظم السرايات والبيوت بالرخام المنقوش الكثير الزينة ويقطع الرخام بمنشار لا أسنإن له وبالرمل المكي ويعملون المنشار على أعمدة الرخام بالطول لا بالعرض فيخرجون منه ألواحاً كألواح الخشب ورأيت هناك أنواعاً وألواناً من الرخام من الملمّع والأخضر والأحمر والأسود والأبيض ومن كل لون وفي الرملة صنف من التين ليس أحسن منه في أي مكان يصدّر منها إلى جميع البلاد وتسمى مدينة الرملة في الشام والمغرب فلسطين.

وفي الثالث من رمضان غادر الرملة فبلغ قرية تسمّى خاتون وقد سار منها إلى قرية أخرى تسمّى قرية العنب وقد رأى في الطريق كثيراً من نبات السذاب الذي ينبت برياً على الجبال وفي الصحراء. وقد رأيت في هذه القرية عين ماء عذب تخرج من الصخر وقد بنيت هناك أحواض وعمارات وقد ذهبنا صاعدين. وكنا نحسب أنّنا بعد صعود الجبل سنهبط إلى المدينة في الطرف الآخر، ولكنا وجدنا أمامنا بعد أن صعدنا قليلاً سهلاً واسعاً بعضه صخريّ وبعضه كثير التراب وعلى رأس جبل فيه تقع مدينة بيت المقدس.

وفي الخامس من رمضان سنة 438 /16مارس 1047 بلغنا بيت المقدس. كان قد مضى على خروجه من بلده سنة شمسيّة وأهل الشام وأطرافها يسمّون بيت المقدس القدس ويذهب إلى القدس في موسم الحج من لا يستطيع الذهاب إلى مكة من أهل هذه الولايات فيتوجّه إلى الموقف ويضحّي ضحية العيد كما هي العادة ويحضر هناك لتأدية السنة وفي بعض السنين أكثر من عشرين ألف شخص في أوائل ذي الحجة ومعهم إبناؤهم كذلك يأتي لزيارة بيت المقدس من ديار الروم كثير من النصارى واليهود وذلك لزيارة الكنيسة والكنيش هناك. وهناك كنيسة عظيمة سيأتي وصفها في مكانه وسواد ورساتيق بيت المقدس جبليّة كلها والزراعة وأشجار الزيتون والتين وغيرها تنبت كلها بغير ماء والخيرات بها كثيرة ورخيصة وفيها أرباب عائلات يملك الواحد منهم خمسين ألف من زيت الزيتون يحفظونها في الآبار والأحواض ويصدّرونها إلى أطراف العالم ويُقال إنه لا يحدث قحط في بلاد الشام.

وصف بيت المقدس

هي مدينة مشيّدة على قمة الجبل ليس بها ماء غير الأمطار ورساتيقها ذات عيون والمدينة محاطة بسور حصين من الحجر والجصّ وعليها بوابات حديديّة وليس بقربها أشجار قط، فإنها على رأس صخر. وهي مدينة كبيرة كان بها في ذلك الوقت عشرون ألف رجل وبها أسواق جميلة وأبنية عالية وكل أرضها مبلّطة بالحجارة وقد سوّوا الجهات الجبليّة والمرتفعات وجعلوها مسطّحة بحيث تغسل الأرض كلها وتنظف حين تنزل الأمطار وفي المدينة صنّاع كثيرون لكل جماعة منهم سوق خاصة والجامع شرقيّ المدينة وسوره هو سورها الشرقيّ وبعد الجامع سهلٌ كبيرٌ مستوٍ يُسمّى الساهرة يقال إنه سيكون ساحة القيامة والحشر، ولهذا يحضر إليه خلق كثيرون من أطراف العالم ويقيمون به حتى يموتوا فإذا جاء وعد الله كانوا بأرض الميعاد وعلى حافة هذا السهل قرافة عظيمة

ومقابر كثير من الصالحين يُصلّي بها الناس ويرفعون بالدعاء أيديهم فيقضي الله حاجاتهم وبين الجامع وسهل الساهرة وادٍ عظيم الانخفاض كأنه خندق وبه أبنية كثيرة على نسق أبنية الأقدمين ورأيت قبة من الحجر المنحوت مقامة على بيت لم أرَ أعجب منها حتى إن الناظر إليها ليسأل نفسه كيف رفعت في مكانها ويقول العامة إنها بيت فرعون واسم هذا الوادي وادي جهنم ويقول العوام إن مَن يذهب إلى نهايته يسمع صياح أهل جهنم فإن الصدى يرتفع من هناك وقد ذهب فلم يسمع شيئاً وحين يسير السائر من المدينة جنوبًا مسافة نصف فرسخ وينزل المنحدر يجد عين ماء تنبع من الصخر تسمّى عين سلوان وقد أقيمت عندها عمارات كثيرة ويمرّ ماء هذا العين بقرية شيّدوا فيها عمارات كثيرة وغرسوا بها البساتين ويُقال إن من يستحمّ من ماء هذه العين يشفى مما ألمّ به من الأوصاب والأمراض المزمنة وقد وقفوا عليها مالاً كثيراً. وفي بيت المقدس مستشفى عظيم عليه أوقاف طائلة ويصرف لمرضاه العديدين العلاج والدواء وبه أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف المقرّر لهذه المستشفى ومسجد الجمعة على حافة المدينة من الناحية الشرقيّة وأحد حوائط المسجد على حافة وادي جهنم وحين ينظر السائر من خارج المسجد يرى الحائط المطل على هذا الوادي يرتفع مائة ذراع من الحجر الكبير الذي لا يفصله عن بعضه ملاط أو جص والحوائط داخل المسجد ذات ارتفاع مستوٍ وقد بُني المسجد في هذا المكان لوجود الصخرة به وهي الصخرة التي أمر الله عز وجل موسى عليه السلام أن يتخذها قبلة فلما قضي هذا الأمر واتخذها موسى قبلة له لم يعمر كثيراً بل عجّلت به المنية حتى إذا كانت أيام سليمان عليه السلام وكانت الصخرة قبلة بنى مسجدًا حولها بحيث أصبحت في وسطه وظلت الصخرة قبلة حتى عهد نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام، فكان المصلون يولون وجوههم شطرها إلى أن أمرهم الله تعالى أن يولّوا وجوههم شطر الكعبة وسيأتي وصف ذلك في مكانه. وقد حفرت في أرض المسجد أحواض وصهاريج كثيرة فإن المسجد مشيّد كله على صخرة فمهما يهطل من المطر لا يذهب خارج الأحواض ولا يضيع سدى بل ينصرف إلى الأحواض وينتفع به الناس وهناك ميازيب من الرصاص ينزل منها الماء إلى أحواض حجرية تحتها وقد ثقبت هذه الأحواض ليخرج منها الماء ويصب في الصهاريج بواسطة قنوات بينها غير ملوّث أو عفن وقد رأيت على ثلاثة فراسخ من المدينة صهريجًا كبيراً تنحدر إليه المياه من الجبل وتتجمع فيه وقد أوصلوه بقناة إلى مسجد المدينة حيث يوجد أكبر مقدار من مياه المدينة وفي المنازل كلها أحواض لجمع ماء المطر إذ لا يوجد غيره هناك ويجمع كل إنسان ما على سطح بيته من مياه فإن ماء المطر هو الذي يستعمل في الحمامات وغيرها.

والأحواض التي بالمسجد لا تحتاج إلى عمارة أبداً لأنها من الحجر الصلب فإذا حدث بها شقّ أو ثقب أحكم إصلاحه حتى لا تتخرّب وماء هذه المدينة أعذب وأنقى من أي ماء آخر وتستمر الميازيب في قطر المياه يومين أو ثلاثة ولو كان المطر قليلاً إلى أن يصفو الجو وتزول آثاره السيئة وحينئذ يبدأ المطر.

مدينة بيت المقدس تقع على قمة جبل وإن أرضها غير مستوية أما المسجد فأرضه مستوية فخارج المسجد حيثما تكون الأرض منخفضة يرتفع حائطه إذ يكون أساسه في أرض واطئة، وحيثما تكون الأرض مرتفعة يقصر الجدار. وفي الجهات الواطئة من أحياء المدينة فتحوا في المسجد أبواباً كأنها نقب تؤدي لساحته. ومن هذه الأبواب باب يُسمّى باب النبي وهو بجانب القبلة أي في الجنوب وقد عمل بحيث يكون عرضه عشرة أذرع وأما ارتفاعه فيتفاوت حسب المكان فهو في مكان خمس أذرع أي علو سقف هذا الممر وفي مكان آخر عشرون والجزء المسقوف من المسجد الأقصى مشيّد فوق هذا الممر، وهو محكم بحيث يحتمل أن يُقام فوقه بناء بهذه العظمة من غير أن يؤثر فيه قط وقد استخدمت في بنائه حجارة لا يصدّق العقل كيف استطاعت قوة البشر نقلها واستخدامها ويُقال إن سليمان بن داود عليه السلام هو الذي بناه وقد دخل فيه نبيّنا عليه الصلوات والسلام إلى المسجد ليلة المعراج وهذا الباب على جانب طريق مكة.

وعلى الحائط بقرب هذا الباب نقش دقيق لمجن كبير.

وعند بوابة المسجد حديث هذا الممر الذي عليه باب ذو مصراعين يبلغ ارتفاع الجدار من الخارج ما يقرب من خمسين ذراعاً وقد قصد بهذا الباب أن يدخل منه سكان المحلة المجاورة لهذا الضلع من المسجد فلا يلجأون إلى الذهاب لمحلة أخرى حين يريدون دخوله وعلى الحائط الذي يقع يمين الباب حجر ارتفاعه خمس عشرة ذراعاً وعرضه أربع أذرع فليس في المسجد حجر أكبر منه وفي الحائط على ارتفاع ثلاثين أو أربعين ذراعاً من الأرض كثير من الحجارة التي تبلغ حجمها أربع أذرع أو خمس.

وفي عرض المسجد باب شرقيّ يُسمّى باب العين إذا خرجوا منه نزلوا منحدراً فيه عين سلوان وهناك أيضاً باب تحت الأرض يُسمّى الحطة وهناك باب آخر يسمونه باب السكينة في دهليزه مسجد به محاريب كثيرة باب أولها مغلق حتى لا يلجه أحد ويقال إن هناك تابوت السكينة وأبواب بيت المقدس ما تحت الأرض وما فوقها تسعة أبواب كما ذكرت.

وصف الدكة التي بوسط ساحة المسجد والصخرة التي كانت قبلة الإسلام

وقد قلت إنّ أسقف وظهور القباب ملبسة بالرصاص وعلى جوانب البيت الأربعة أبواب كبيرة مصاريعها من خشب الساج وهي مقفلة دائماً وبعد قبة الصخرة قبة تسمى قبة السلسلة وهذه القبة محمولة على رأس ثمانية أعمدة من الرخام وست دعائم من الحجر وهي مفتوحة من جميع الجوانب عدا جانب القبلة فهو مسدود حتى نهايته وقد نصب عليه محراب جميل.

وعلى هذه الدكة أيضاً قبة أخرى مقامة على أربعة أعمدة من الرخام وهي مغلقة من ناحية القبلة أيضاً حيث بني محراب جميل وتسمى هذه القبة قبة جبريل وليس فيها فرش بل إن ارضها من حجر سوّوه. ويقال إن هناك أُعدّ البراق وبعد قبة جبريل قبة أخرى يقال لها قبة الرسول وبينهما عشرون ذراعاً وهي مقامة على أربع دعائم من الرخام أيضاً

وتحت الصخرة غار كبير يضاء دائماً بالشمع ويقال إنه حين قامت الصخرة خلا ما تحتها فلما استقرت بقي هذا الجزء كما كان.

وصف المراقي المؤدية إلى الدكة التي بساحة الجامع

يسار إلى هذه الدكة من ستة مواضع لكل منها اسم فبجانب القبلة طريقان يصعد فيهما على درجات، فإذا وقفت في وسط ضلع الدكة وجدت أحدهما على اليمين والثاني على اليسار والذي على اليمين يُسمّى مقام النبي عليه السلام والذي على اليسار يُسمّى مقام الغوريّ ويقع طريق الحجاز على هذا الجانب وعرض درجاته اليوم عشرون ذراعاً وهي من الحجر المنحوت المنتظم وكل درجة قطعة أو قطعتان من الحجر المربع وهي معدّة بحيث يستطيع الزائر الصعود عليها راكباً وعلى قمة هذه الدرجات أربعة أعمدة من الرخام الأخضر الذي يشبه الزمرد لولا أن به نقطاً كثيرة من كل لون ويبلغ ارتفاع كل عمود منها عشرة أذرع وقطره بقدر ما يحتضن رجلان وعلى رأس هذه الأعمدة الأربعة ثلاثة طيقان أحدها مقابل للباب والآخران على جانبيه وسطح الطيقان أفقي من فوقه شرفات بحيث يبدو مربعاً. وهذه العمد والطيقان منقوشة كلها بالذهب وبالمينا ليس أجمل منها ودرابزين الدكة كله من الرخام الأخضر المنقط حتى لتقول إن عليه روضة ورد ناضر.

وقد أعدّ مقام الغوريّ بحيث تكون ثلاثة سلالم على موضع واحد أحدها محاذ للدكة والآخران على جانبيها حتى يستطاع الصعود من ثلاثة أماكن ومن فوق هذه السلالم الثلاثة أعمدة عليها طريقان وشرفة والدرجات بالوصف الذي ذكرت من الحجر المنحوت كل درجة قطعتان أو ثلاث من الحجر المستطيل وكتب بخط جميل بالذهب على ظاهر الإيوان أمر به الأمير ليث الدولة نوشتكين الغوريّ ويقال إنه كان تابعاً لسلطان مصر وهو الذي أنشأ هذه الطرق والمراقي.

وعلى الجانب الغربيّ للدكة سلمان في ناحيتين منها وهناك طريق عظيم مشابه لما ذكرت وكذلك في الجانب الشرقيّ طريق عظيم مماثل عليه أعمدة فوقها طيقان وشرفة يُسمّى المقام الشرقيّ وعلى الجانب الشماليّ طريق أكثر علواً وأكبر منها كلها به أعمدة فوقها طيقان يُسمّى المقام الشاميّ وأظن أنهم صرفوا على هذه الطرق الستة مائة ألف دينار.

وفي الجانب الشماليّ لساحة المسجد لا على الدكة بناء به كأنه مسجد صغير يشبه الحظيرة وهو من الحجر المنحوت يزيد ارتفاع حوائطه على قامة رجل ويُسمّى محراب داود. وبالقرب منه حجر غير مستوٍ يبلغ قامة رجل وقمته تتيح وضع حصيرة صلاة صغيرة عليها ويُقال إنه كرسي سليمان الذي كان يجلس عليه أثناء بناء المسجد.

بعد الفراغ من زيارة بيت المقدس عزمت على زيارة مشهد إبراهيم خليل في يوم الأربعاء غرّة ذي القعدة / إبريل سنة 1047 والمسافة بينهما ستة فراسخ عن طريق جنوبيّ به قرى كثيرة وزرع وحدائق وشجر بريّ لا يُحصى من عنب وتين وزيتون وسماق وعلى فرسخين من بيت المقدس أربع قرى بها عين وحدائق وبساتين كثيرة تسمّى الفراديس لجمال موقعها وعلى فرسخ واحد من بيت المقدس مكان للنصارى يعظّمونه كثيراً يقيم بجانبه مجاورون دائماً ويحج إليه كثيرون إسمه بيت اللحم وهناك يقدم النصارى القرابين ويقصده الحجاج من بلاد الروم وقد بلغه مساء اليوم الذي قام فيه من بيت المقدس.

وصف قبر الخليل

يسمّي أهل الشام وبيت المقدس هذا المشهد الخليل ولا يذكرون اسم القرية التي هو فيها قرية مطلون وهي موقوفة عليه مع قرى كثيرة وفي هذه القرية عين ماء تخرج من الصخر يتفجر ماؤها

رويداً رويداً وهو ينقل من مسافة بعيدة بواسطة قناة إلى خارج القرية حيث بني حوض مغطى يصب فيه الماء فلا يذهب هباء حتى يفي بحاجة أهل القرية وغيرهم من الزائرين.

والمشهد على حافة القرية من ناحية الجنوب وهي في الجنوب الشرقيّ والمشهد يتكوّن من بناء ذي أربعة حوائط من الحجر المصقول طوله ثمانون ذراعاً وعرضه أربعون وارتفاعه عشرون وثخانة حوائطه ذراعان وبه مقصورة ومحراب في عرض البناء وبالمقصورة محاريب جميلة بها قبران رأسهما للقبلة وكلاهما من الحجر المصقول بارتفاع قامة الرجل، الأيمن قبر اسحق بن إبراهيم والآخر قبر زوجه عليها السلام وبينهما عشرة أذرع وأرض هذا المشهد وجدرانه مزيّنة بالسجاجيد القيّمة والحصر المغربيّة التي تفوق الديباج حسناً وقد رأى هناك حصير صلاة قيل أرسلها أمير الجيوش وهو تابع لسلطان مصر وقد اشترى من مصر بثلاثين ديناراً من الذهب المغربيّ ولو كانت من الديباج الرومي لما بلغت هذا الثمن.

حين يخرج السائر من المقصورة إلى وسط ساحة المشهد يجد مشهدين أمام القبلة الأيمن به قبر إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وهو مشهد كبير ومن داخله مشهد آخر لا يستطاع الطواف حوله ولكن له أربع نوافذ يرى منها فيراه الزائرون وهم يطوفون حول المشهد الكبير وقد كُسيت أرضه وجدرانه ببسط من الديباج والقبر من الحجر ارتفاعه ثلاث أذرع وعلق به كثير من القناديل والمصابيح الفضية.

والمشهد الثاني الذي على يسار القبلة به قبر سارة زوج إبراهيم عليه السلام وبين القبرين ممر عليه باباهما وهو كالدهليز وبه كثير من القناديل والمسارج.

وبعد هذين المشهدين قبران متجاوران الأيمن قبر النبي يعقوب عليه السلام والأيسر قبر زوجه وبعدهما المنازل التي اتخذها إبراهيم للضيافة وبها ستة قبور.

وخارج الجدران الأربعة منحدر به قبر يوسف بن يعقوب عليه السلام وهو من حجر وعليه قبة جميلة وعلى جانب الصحراء بين قبر يوسف ومشهد الخليل عليهما السلام قرافة كبيرة يدفن بها الموتى من جهات عديدة وعلى سطح المقصورة التي في المشهد حجرات للضيوف الوافدين وقد وقف عليها أوقاف كثيرة من القرى ومستغلات بيت المقدس.

وأغلب الزراعة هناك الشعير والقمح قليل والزيتون كثير ويعطون الضيوف والمسافرين والزائرين الخبز والزيتون وهناك طواحين كثيرة تديرها البغال والثيران لطحن الدقيق وبالمضيفة خادمات يخبزن طول اليوم ويزن رغيفهم منًا واحداً ويعطى مَن يصل هناك رغيفاً مستديراً وطبقاً من العدس المطبوخ بالزيت وزبيباً كل يوم وهذه عادة بقيت من أيام خليل الرحمن حتى الساعة وفي بعض الأيام يبلغ عدد المسافرين خمسمائة فتُهيّأ الضيافة لهم جميعاً.

ويقال إنه لم يكن لهذا المشهد باب كان دخوله مستحيلاً بل كان الناس يزورونه من الإيوان في الخارج فلما جلس المهديّ على عرش مصر أمر بفتح باب فيه وزيّنه وفرشه بالسجاجيد وأدخل على عمارته إصلاحًا كثيرًا وباب المشهد وسط الحائط الشماليّ على ارتفاع أربع أذرع فوق الأرض وعلى جانبيه درجات من الحجر فيصعد إليه من جانب ويكون النزول من الجانب الثاني ووضع هناك باب صغير من الحديد.

ثم رجع إلى بيت المقدس ومن هناك سار ماشيًا مع جماعة تقصد الحجاز ثم رجع إلى بيت المقدس عن طريق الشام.

وبلغ المقدس في الخامس من المحرّم سنة 339 /يوليو1037.

كنيسة بيعة القيامة

وللنصارى في بيت المقدس كنيسة يسمّونها بيعة القيامة لها عندهم مكانة عظيمة ويحجّ إليها كل سنة كثير من بلاد الروم. وقد أمر الحاكم هذا بالإغارة على الكنيسة فهدمها وخربها وظلت خربة مدة من الزمان وبعد ذلك بعث القيصر إليه رسلاً وقدّم كثيراً من الهدايا والخدمات وطلب الصلح والشفاعة ليؤذن له بإصلاح الكنيسة فقبل الحاكم وأُعيد تعميرها.

وهذه الكنيسة فسيحة تسع ثمانية آلاف رجل وهي عظيمة الزخرف من الرخام الملوّن والنقوش والصور وهي مزدانة من الداخل بالديباج الرومي والصور وزيّنت بطلاء من الذهب وفي أماكن كثيرة منها صورة عيسى عليه السلام راكباً حماراً وصور الأنبياء الآخرين مثل إبراهيم وإسحق ويعقوب وأبنائهم عليهم السلام وهذه الصور مطليّة بزيت السندروس وقد غطي سطح كل صورة بلوح من الزجاج الشفاف على قدها بحيث لا يحجب منها شيء وذلك حتى لا يصل الغبار إليها وينظف الخدم هذا الزجاج كل يوم وهناك عدا ذلك عدّة مواضع أخرى كلها مزيّنة ولو وصفتها لطالت

كتابتي. وفي هذه الكنيسة لوحة مقسّمة إلى قسمين وعمل لوصف الجنة والنار فنصف يصف الجنة وأهلها ونصف يصف النار وأهلها ومَن يبقى فيها. وليس لهذه الكنيسة نظير في أي جهة من العالم ويقيم بها كثير من القس والرهبان يقرأون الإنجيل ويصلّون ويشتغلون بالعبادة ليل نهار.

ثم عزم على أن يغادر بيت المقدس إلى مصر بطريق البحر ثم غادرها عن طريق البر ومرّ بالرملة ثم بلغ مدينة عسقلان بها سوق وجامع جميل رأى بها طاقاً قديماً قيل إنه كان مسجداً وهو طاق من الحجر الكبير ولو أرادوا هدمه للزمهم إنفاق مال كثير وخرج من هناك فوجد في الطريق قرى كثيرة ومدنًا يطول وصفها فحذفه اختصارًا وبلغ بعدها مصر بالبحر.

لمزيد من المعلومات حول الباب الثاني، العهدين العبّاسيّ والفاطميّ تراجع:

بالنسبة للمصادر: المصادر الإسلاميّة المذكورة في الباب الأول، أضف إليها أبو يوسف، ابن سلّام، كتاب الأغاني للأصفهانيّ، العيون والحدائق، الذهبيّ، المقريزيّ، الهمذانيّ، ابن العديم، الشهرستانيّ، الانطاكيّ، ابن القلانسيّ، ابن كثير، ابن الأثير، النويريّ، ابن ميسر، ابن شدّاد، دواوين الشعراء، والجغرافيّين (إبن خرداذبه، المقدسيّ، قدامة بن جعفر، الإدريسيّ، الاصطخريّ، ابن حوقل) وناصري خسرو.

وبالنسبة للمراجع: كتبي المذكورة في الباب الأول والمراجع الأخرى المذكورة، أضف إليها موريس فييّه، المحمصانيّ عن الإمام الأوزاعيّ، أيمن فؤاد السيد، هايد، نقولا زيادة، كلود كاهن، دومنيك وجانين سورديل، اليساياف، ماسينيون، البرت حوراني في كتابه عن العرب، وكتاب العراق في التاريخ لمجموعة مؤلفين، والموسوعة الإسلاميّة بالفرنسيّة الطبعة الثانية.

الباب الثالث:
المشرق في عهد الفرنج - الصليبيّين

مقدّمة

تعرّض المشرق في أواسط القرون الوسطى لغزو دامٍ، أُطلقت عليه تسمية حروب الفرنج، المعروفة باسم الحروب الصليبيّة التي أثارت غرائز ومنحىً عاطفيًا في الشرق الإسلاميّ، فانهالت عليها تكفيراً، برغم مرور قرابة سبعة قرون ونيّف عليها، بينما ذهب الغرب الأوروبيّ إلى إدانة ما جرى، وطلب المغفرة والصفح من الكرسيّ البابويّ في روما، محاولاً قدر الإمكان، منذ منتصف القرن العشرين، وحتى قبل ذلك، مقاربتها بطريقة عقلانيّة.

الفصل الأول: الأوضاع السياسيّة - العسكريّة

أولًا - في أسباب حروب الفرنج - «الصليبيّة» وظروفها

أضحى الفرنج في أواسط القرون الوسطى قوة عسكريّة فاعلة في الحوض الغربيّ للمتوسط، فزحفوا إلى المشرق، في أواخر القرن الحادي عشر، بحجة ظاهريّة قوامها الجهاد الدينيّ لانتزاع الأراضي المسيحيّة المقدّسة من أيدي المسلمين. كان المسيحيّون متأثرين بالفكر الدينيّ الإسلاميّ وخصوصًا ركني الجهاد والحج، فاعتبروا، وذلك مخالف كليّاً للدين المسيحيّ، بأن الحج إلى بيت المقدس واجب دينيّ، يكفّر عن الخطايا ويغسلها، وبأن الجهاد باب من أبواب السماء.

ولّد هذا الجوّ الإيمانيّ في وقت كانت فيه الكنيسة اللاتينيّة تعيد تنظيم نفسها وتفرض نفسها، بقيادة البابا في روما، قوة دينيّة لا منازع لها.

ومقابل هذه التحوّلات، كان المشرق يعاني من كثرة المِلَل والنحَل الإسلاميّة والمسيحيّة المتناحرة؛ فيفقد نتيجة ذلك المناعة في مواجهة أي اجتياح بيزنطيّ أو إفرنجيّ ولاحقاً مغوليّ، أو غيره.

وسهّل فقدان مناعة الشرق، اندحار السكان الأصليّين عن مسرح القيادة التي أصبحت بيد مسلمين، ولكن غرباء، كالأتراك أو محليّين من الأكراد وغيرهم. فهنا مقاطعات عليها زعماء يتمتعون باستقلال محلّي، وهناك إمارات أتراك سلاجقة وتركمان (عشائر الترك) من السنّة منقسمة ومتنافسة

فيما بينها تسيطر في الشمال، وهنالك فاطميّون شيعة في مصر وجنوب المشرق في مجابهة مع السلاجقة حماة السنّة، كما كان يُشاع.

نجاح تجربة حروب «الاسترداد» في أسبانيا Reconquista فتحت الأفق أمام الأحلام التوسّعيّة الكبيرة.

المدن التجاريّة والممالك الناشئة في أوروبا، كانت تسعى لإيجاد مجال حيويّ لها، في أي مكان في البحار المحيطة بها، ومن ضمنها حوض المتوسط الشرقيّ.

فالدوافع الاقتصاديّة للحروب الفرنجيّة كانت المحرّك الأساس للطبقة الحاكمة في أوروبا، والدوافع الدينيّة عند العامة. ومشاركة الدويلات الإيطاليّة، مثلاً، كانت وراءها الرغبة في البحث عن أسواق جديدة. فمدينة جنوى الإيطاليّة التي كانت السبّاقة لتقديم الدعم العسكريّ، شاركت في احتلال الشرق لقاء منافع اقتصادية، كما شاركت البندقيّة وبيزا وغيرها لاحقاً للحصول على المنافع نفسها، في أرجاء البحر المتوسط، وكذلك في البحر الأسود والأطلنتيك وشواطئ الإمبراطوريّة البيزنطيّة. فمثلاً، بالنسبة إلى الجنويّين كانت أنطاكية تعنيهم أكثر مما تعنيهم أورشليم. وفي مطلع حروب الفرنج - الصليبيّين كانت مدينة البندقيّة غائبة عن مسرح الأحداث، لأنّ طموحاتها كانت في مكان آخر في بيزنطية، وفي صراعها مع النورمانديّين في إيطاليا. كانت المشاركة في الحملات مشاريع خاصة لرجال أعمال يتصيّدون فرص الربح في كلّ أرجاء المتوسط؛ مثلا «غليوم الأمبرياتشي» Guillaume Embriaco، زعيم عائلة مهمّة في جنوى، شارك كمحارب في احتلال القدس، وكرجل أعمال في المتوسط، كانت مدينة جبيل اللبنانيّة محطة تجاريّة له ولمدينة جنوى، مكافأة على خدماته. ولم تنحصر المكافأة في جبيل بل كان له مثيل لها على شواطئ «البروفنس» الفرنسيّة. وما حصل عليه الجنويّون في أنطاكية لم يكن مكافأة على خدمة بل عقد تجاريّ بكلّ معنى الكلمة. «المستعمرات» الإيطاليّة على شواطئ المتوسط الشرقيّ كانت «مناسبة» لا ينبغي تفويتها، ولكن لم تكن المجال الوحيد للنشاط التجاريّ لهذه الدويلات.

الأسباب الظاهرة لهذه الحملات الفرنجيّة - الصليبيّة كانت: هدم كنيسة القيامة بأمر الحاكم بأمره (أمر الله) سنة 1009م، والإهانات التي كانت تلحق بالمسيحيّين الوافدين للحجّ إلى القدس، والضرائب الباهظة التي كانت السلطات الحاكمة تتقاضاها، في أكثر من محلّ في المدينة المذكورة.

كما كانت هذه الحروب متنفّساً للفلاحين الذين كانوا من دون أرض يعملون على إحيائها، بسبب ضعف المساحات القابلة للزراعة في أوروبا، مع اتساع المساحات التي كرّسها الأسياد للرعي وللصيد.

يروى أنّ الحدث الذي أيقظ أوروبا على الخطر المحدق بها كان في انتصار السلطان «ألب ارسلان» السلجوقيّ في معركة منزكرت (ملازكرت) Mantzikert في سنة 1071م، على البيزنطيّين، وأسر إمبراطورهم «ديوجين» الرابع Diogène. ولا يبدو هذا الخطر حقيقيًّا، لأن القسطنطينيّة كانت أمامه ولم تثر اهتمامه بعد هذا الاختراق الخطير للحاجز التاريخيّ الذي يفصل بلاد الإسلام عن بيزنطية، المتمثل بحاجز الأناضول، لأن طموحه كان منصبًّا على مكان آخر: القاهرة حيث الخلافة الفاطميّة.

قيل إنّ الإمبراطور البيزنطيّ، «الكسيوس كومنينوس» Alexis، أرسل نداءات استغاثة عدّة إلى البابا، طالباً العون لمجابهة الخطر المستجدّ نتيجة خسارة المعركة المذكورة أعلاه. ولكن يبدو أنّ الوفد البيزنطيّ أتى بعد مضي ربع قرن على معركة منزكرت إلى «مجمع بليزانس» Plaisance في سهل البو في إيطاليا، في آذار 1095م، الذي انعقد قبل ستة أشهر من مجمع «كليرمونت» Clermont جنوب شرقيّ فرنسا.

وخلال ستة أشهر، بين المجمعين، من آذار إلى تشرين الأول 1095م، كان البابا «أوروبانوس الثاني» Urbain II (1088 - 1099م) يجول في أنحاء أوروبا للحصول على تأييد أعيانها لخطته الرامية لاسترجاع الأراضي المسيحيّة المقدسة وعلى رأسها مدينة القدس. وعند انعقاد المجمع في 26 تشرين الثاني سنة 1095م في مدينة «كليرمونت»، ألقى خطبةً مطوّلة ومشهورة تستحثّ المؤمنين على سلوك الطريق المؤدّية إلى كنيسة القيامة لانتزاعها، من أيدي مَن سمّاهم بـ «القوم الأشرار»، فتنادى الفرنج للحرب.

استجاب لدعوة البابا في البداية عشرات الآلاف من المتحمّسين غير النظاميّين، خصوصًا من سائر أنحاء فرنسا وألمانيا: محاربون محترفون وصعاليك من الناس وشذّاذ آفاق؛ وفقراء وجدوا في ذلك فرصة للتخلّص من نير واقعهم «الفيوداليّ»، فزحفوا عبر أوروبا الشرقيّة، في حملات شعبيّة من أبرز قادتها بطرس الناسك Pierre l'érmite بشكل خاص، تسير من دون مخطّط واضح. وكان مصير غالبيّة هذه الجماعات تصفية، شبه كاملة، من قبل المسلمين السلاجقة.

وترافق هذا الهوس الدينيّ مع عمليات قتل لليهود في المدن التي مرّوا بها نتيجة خرافات دينيّة لا تمتّ للعقيدة المسيحيّة بصلة.

تُقسم هذه الحروب إلى مراحل، أولها مرحلة الظفر وفتح المدن، وتمتدّ من سنة 1097م إلى سنة 1124م، ثم مرحلة ردّة الفعل الإسلاميّة ومحاولات الاسترداد التي تصدّرها آل زنكّي، فمرحلة التوازن التي أملتها انتصارات صلاح الدين الباهرة، فمرحلة تفكّك سلطنة صلاح الدين وإمارات الفرنج وما رافقها من الحروب الأهلية والمعارك الصغيرة، ثم أخيراً مرحلة حسم وجود الفرنج وإنهائه مع سلاطين المماليك سنة 1291م، وعندها فقد الفرنج - الصليبيّون آخر موطأ قدم لهم في المشرق.

حملت القوات الأوروبيّة التي اجتاحت المشرق تسمية الفرنج في المصادر العربيّة والغربيّة، وما تسمية الصليبيّين إلا تسمية أوروبيّة متأخّرة.

ثانياً - فتح الفرنج - الصليبيّين للمدن الساحليّة 1097 - 1124 وصولاً للقدس

أ - الحملة الشعبيّة وانطلاق قوات الحملة الأولى

بدأ التحرك إلى الشرق بصورة عفويّة في حملات شعبيّة كان مصيرها إبادة عشرات الآلاف من الشبان على يد القوى الإسلاميّة خصوصًا السلجوقيّة.

ثم تلا ذلك في آب، بعد انتهاء حصاد المواسم، سير القوى العسكريّة النظاميّة، بطريق البرّ، باتجاه القدس.

كانت هذه القوّات بقيادة «غودفروا» " Godefroy de Bouillon، دوق منطقة «اللورين»، وأخيه «بودوان» Baudouin و«غارنيه دو غراي» Garnier de Gray نسيب الدوق و«بودوان دو بورغ» Baudouin du Bourg و«رينو» Renaud كونت «تول» وأخيه «بيار»، و«ديدون دو كونتي» Dudon de Conti و«هنري دو هاش» Henri de Hache وأخيه «غودفروا».

اجتازوا مجرى نهر «الراين» و«الدانوب». وسهول أوروبا الشرقيّة ووصلوا إلى أسوار القسطنطينيّة، فعقدوا اتفاقيّة مرور آمن ومسالم مع عاهلها الإمبراطور «الكسيس»، وكذلك فعلت القوات اللاحقة. واعتمد الفرنسيّون الآتون من وسط فرنسا و«اللانغدوك» المرور بجبال الألب وإيطاليا و«ألبانيا» الحاليّة إلى القسطنطينيّة.

وتوالى وصول القوّات النظاميّة الأخرى، من أمثال «بوهمن» Bohémond، أمير صقلية و«كالابريا»، ثمّ «تنكرد» Tancrède ابن أخت «بوهمن»، فـ «روبير دو فلاندر» Robert de Flandre، و«هوغ» Hugues comte de Vermandois أخي «فيليب» الأول ملك فرنسا، وغيرهم من القادة.

والتحق بهم «ريمون»، كونت (باللاتينيّة Comes) «دو سان - جيل» - Raymond de Saint Gilles، المعروفة أيضاً بـ «البروفنس» Provence، ومعه أسقف «بوي» Puy «آديمار» Adhémar،

وبطرس الناسك مع بقايا حملته الشعبيّة، و»روبـير»، كونت «النورماندي»، و»إتيان دو بلوا «Etienne de Blois» و»أوستاش» Eustache أخو الدوق «غودفروا» وغيرهم.

كان أول انتصاراتهم على السلاجقة في حزيران سنة 1097م، في نيقية، في آسية الصغرى، في رجب سنة 490هـ/1097م، ثمّ «إسكي شهير» (دوريلايوم Dorylée) في أول تموز 1097م. ثمّ تابع الفرنج سيرهم في قونية، و»إيرغلي» Héraclée هرقلية، وبعدها توجّهوا شمالاً – شرقاً إلى «قيصرية كبادوكيا» Césarée de Cappadoce، ومنها قطعوا جبال طوروس وتوجّهوا جنوباً - شرقاً وصولاً إلى «مراسيم» Marash مرعش، فإلى أمام أسوار أنطاكية التي وصلوا إليها في 21 تشرين الأول.

عند مدينة Héraclée تحوّلت فصيلتان صغيرتان إلى «كيليكيا» Cilicie بقيادة «تنكرد» و»بودوان»، فوصل بودوان (بلدوين) اللوريني، أو «بردويل» Bardawil إلى مدينة الرها Edesse (اليوم أورفه)، التي سقطت بيده سنة 1098م، وقامت فيها أوّل دولة لاتينيّة، كان معظم سكانها من الأرمن المسيحيّين. وكان قد اتجه فصيل من الحملة بقيادة «تنكرد» النورماني إلى «كيليكية». فاحتلّ طرسوس وما يجاورها .

ب - احتلال أنطاكية والسير باتجاه بيت المقدس مرورًا بالمدن اللبنانيّة

تابعت أكثريّة أفراد الحملة سيرها باتجاه أورشليم، فحاصروا في تشرين الأول 1097 مدينة أنطاكية بقيادة «بوهمن»، دوق «النورماندي»، و»بودوان»، دوق «اللورين»، و»ريمون سان جيل»، كونت «البروفنس»، وغيرهم من قادة الفرنج. فسقطت في سنة491هـ/ 3 حزيران 1098م. وساهمت في سقوط أنطاكية، مساندة أسطول إيطالي، خاصة من جنوى.

بعد أنطاكية سلك بعضهم طريق وادي العاصي، فانتزعوا تلّ مناس في 17 تموز 1098م. وفي أواخر أيلول احتلوا مدينة ألباره Albara، بين جسر الشغور ومعرّة النعمان، واحتلوا معرّة النعمان Marra في 14 محرّم 492هـ/11 كانون الأول 1098م.

وبعد استراحة في المعرّة، مرّوا قرب شيزر Césare، ومصياف حوالى 22 كانون الثاني 1099م، ثم بارين (بعرين) Barin ورفنية Raphaniya ou Raphanée في 25 كانون الثاني. ومنها، بعد استراحة ثلاثة أيام، هبطوا في وادي في سهل البقيعة، فاستراحوا خمسة عشر يوماً قرب قلعة الحصن، أو حصن الأكراد، ثم احتلّوه في 29 كانون الثاني. ثمّ مرّوا بجبال النصيريّة ووصلوا، عبر وادي النهر

الكبير، إلى عرقا Archas. فحاصروها من يوم الإثنين في أواسط شباط إلى 13 أيار 1099م من دون جدوى. وفي أثناء الحصار انفصلت فرقة واحتلّت طرطوس Antarados، Tortose الواقعة بمواجهة جزيرة أرواد Arados من دون مقاومة تُذكر، فحوّلها الفرنج، في شباط 1099م، إلى مرفأ آخر، بعد أنطاكية، كما استسلمت مرقية Maraclée.

وانطلاقاً من أنطاكية، تزعّم «غودوفروا دو بويون» قيادة الجيش الزاحف. وتجمّع الفرنج في اللاذقيّة La liche (Laodicée) التي ستتحوّل لاحقاً لصالح «سان - جيل» الذي قدّمها للإمبراطور البيزنطيّ بموجب الاتفاق المعقود معه، وصالح قاضي جبلة Gabul Giblet، Gibel، الفرنج.

وعيّد المحاصرون عيد الفصح في 9 أو 10 نيسان، وهم في حصار عرقا. وبعد أربعة أشهر، من فشل الحصار، سارت القوّات إلى طرابلس التي كان غالبيّة سكانها من الشيعة، وحاكمها شيعيّاً إسماعيليّاً يوم الجمعة 13 أيار 1099م.

انضم «بودوان» شقيق «غودفروا» و«سان - جيل»، إلى القوّات المتوجّهة إلى طرابلس، وعند وصول الفرنج أمامها، أمدّهم ابن عمّار بالهدايا والمؤن وبأحد الأدلاَّء بعمر الكهولة رافقهم حتى القدس. وكذلك فعل موارنة لبنان، في الجبال التي تعلو طرابلس، الذين رحّبوا بجيش الفرنج بحرارة، وأمدّوه بعدد من الأدلاَّء، فتابع زحفه مع بقية الجيوش باتجاه القدس.

وقدّم ابن عمار للجيش عدداً كبيراً من الجياد والحمير والمحاصيل، مع وعد بإطلاق الأسرى المسيحيّين. وبعث معهم ناساً تكفيهم من الميرة وترافقهم في طريق البر، من غير أن يعارضهم أحد، حتى وصلوا بأمان إلى «قيسارية ستراطون»، و«هناك عيّدوا عيد العنصرة، وقصدوا اللدّ».

لم يكن موقف المسيحيّين، في جبل لبنان، إذاً، مغايراً لموقف السلطة الشيعيّة في طرابلس، القائمة عند أقدام جبالهم، من حيث تقديم المؤونة وأدلّاء لإرشاد الفرنج إلى طرق الساحل، فصاحب طرابلس أرسل مع الفرنج أدلّاء كما الموارنة أو السريان، إذ لم يكن أكيداً أنّ هؤلاء كانوا من الموارنة. وقدّم ابن عمّار الشيعيّ مؤونة دسمة للغزاة الفرنج، بينما قدّم المسيحيّون أبناء الجبل المحيط بطرابلس الجوز واللوز، وهذه ليست مؤونة حقيقية لجيش لجب.

وفي أثناء السير كانت سفن إنكليزيّة وبولونيّة وجنويّة وبندقيّة وقبرصيّة ورودوسيّة ومن الفلاندر والنورمانديّ، ومن جزر أخرى، تسير بمحاذاة الفرنج، وتقدّم لهم اللحوم والمؤن الأخرى.

قدم الفرنج صور في 23 أيار، ومنها ساروا إلى عكّا عن طريق الناقورة (النواقير)، يرافقهم الدليل الذي وضعه بتصّرفهم ابن عمّار. وبعد استراحة يوم واحد، وصلوا إلى يافا ثمّ أرسوف فقيسارية، حيث بقوا أربعة أيّام، وعيّدوا عيد العنصرة في 29 أيار، ثمّ انعطفوا إلى الرملة التي هرب أهلها منها، وبقوا فيها ثلاثة أيام حيث انتخبوا أسقفاً المدعو «روبير»، وتركوا حامية صغيرة لتأمين الطريق بين القدس والبحر، ووصلوا، برفقة دليل ابن عمّار، إلى القدس في يوم الثلاثاء السادس من شهر حزيران 1099م.

لم يواجه الفرنج متاعب أثناء زحفهم على طول الطريق الساحليّ، باستثناء ما حصل في صيدا. ولعلّ سياسة الانكفاء هذه مردّها إلى حرص الولاة الفاطميّين على الاحتفاظ بولايتهم على المدن من جهة، ولعدم تقديرهم، أسوة بأسيادهم في بغداد والقاهرة، لخطورة الحركة الفرنجيّة - الصليبيّة من جهة أخرى.

ج - احتلال القدس وتأسيس مملكة القدس اللاتينيّة وانتخاب «غودفروا» على رأسها

حاصر الصليبيّون، بقيادة «غودفروا» و«ريمون» و«تنكرد»، بيت المقدس قرابة الشهر. بعد ذلك، سقطت في 22 شعبان 492هـ/ الخميس 14 تموز 1099م، فأعقبت ذلك مجزرة رهيبة بحق السكان من مسلمين ويهود ذهب ضحيتها، على ما روي، قرابة 70000. وهو رقم مبالَغٌ فيه، كما في كلّ الأرقام العائدة للقتلى من الجانبين في معارك أخرى، بالقياس إلى حجم المدينة وقتذاك وإمكانية إيوائها هذا العدد.

أصبحت القدس عاصمة مملكة لاتينيّة، وأعظم الإمارات مرتبةً. وعهد بالملك بعد ثمانية أيّام من فتحها، إلى القائد اللاتينيّ «غودفروا» الذي لقّب «بارون القبر المقدس وحاميه» Avoué du St. Sépulcre. ولم يضع على رأسه تاجاً إكراماً للسيد المسيح الذي تكلل بالشوك.

وتمّ أيضاً انتخاب «أرنول» Arnoul Malecorne أوّل بطريرك لاتينيّ على القدس. ولكن سرعان ما سيخلع ويحلّ مكانه «دامبير» أسقف مدينة «بيزا» الإيطاليّة.

تلت احتلال القدس محاولات توسّع في فلسطين، لجهة نابلس، التي سقطت في 25 تمّوز، ومعركة مع القوى الفاطميّة في عسقلان في 12 آب 1099م حيث انتصروا، وحالت خلافاتهم على الزعامة

دون أخذ المدينة، مما سيؤخّر ذلك حتى سنة 1153م. كما جرت محاولة لأخذ ارسوف أجهضتها أيضاً النزاعات بين الفرنج، وتمكّنوا من احتلال طبريّة، التي أصبحت عاصمة «إمارة الجليل» الجديدة، على يد «تنكرد» الإيطالّي - النورمانّي الذي احتلّ بيسان. وبذلك، يكون الوجود الفرنجيّ الفعليّ قد شمل المدن المذكورة، إضافة إلى بيت لحم والرملة واللد ويافا. أمّا حيفا، التي كانت بيد يهود موالين لمصر، فقد سقطت في 20 آب 1100م عشية وفاة «غودفروا». وستسقط، نهائيّاً، هذه المدن، تباعاً، في عهد «بودوان».

بعد تولّيه سنة واحدة مقاليد السلطة، توفّي «غودفروا»، فتعيّن أخوه بلدوين (بودوان)، أمير الرها، خلفاً له. فسار على جناح السرعة من الرها إلى بيت المقدس لتسلّم العرش.

بعد وصوله إلى القدس، عمد «بودوان» إلى عملية تنظيف عسكريّة لجيوب العربان الذين كانوا يقطعون الطرق التي تصل المناطق المحتلّة بعضها ببعض، وتمّ تنصيبه في كنيسة السيدة العذراء في بيت لحم، من قبل «دامبير» بطريرك القدس، ملكاً على مملكة القدس اللاتينيّة في يوم عيد الميلاد سنة 1100م.

اتسعت المملكة في عهد «بودوان»، وامتدت من العقبة على رأس البحر الأحمر إلى بيروت. بعدما تمّت السيطرة على حيفا، عمد «بودوان» إلى السيطرة على أرسوف Arsur بالأمان، في أواخر نيسان 1101م، وتمّ ذلك بمساعدة الجنويّين الذين وعدهم بالحصول، طالما أهل الأسطول رغبوا في البقاء في المملكة، في كلّ مدينة وكلّ مكان يؤخذ من الأعداء بمساعدتهم، على 1/3 الموجودات وكلّ المال الذي يُنتزع، ويوزّع في ما بينهم من دون معارضة، فيكون للملك 2/3؛ واتفق أيضاً أن يمتلك الجنويّون في كلّ المدن التي تؤخذ بهذه الطريقة، شارعاً محدّداً خاصاً بهم. وستعتمد هذه المنهجيّة في احتلال المدن الساحليّة بمساعدة القوى البحريّة الأوروبيّة.

احتلت قيصريّة، عنوة، في آخر رجب/17 أيار 1101م لقاء تطبيق ما جرى الاتفاق عليه في أرسوف. وألحق «بودوان»، في 7 أيلول 1101م، هزيمة نكراء في سهل الرملة بالجيش الفاطميّ الذي تجمّع في عسقلان، التي ستصبح نقطة انطلاق دائمة لمحاولات الفاطميّين استرجاع فلسطين. وتلا هذا النجاح نصر ساحق آخر سنة 1102م في معركة الرملة الثانية. ونصر ثالث في المكان نفسه على القوات الفاطميّة في 27 آب 1105م.

ولتأمين الواجهة البحريّة لمملكة القدس، في أجزائها الفلسطينيّة، كان على الملك «بودوان» أخذ عكا Ptolémais، أهم مرافئ البلاد في ذلك الزمان، فجرت محاولة أولى في 1103م في السنة الثالثة لحكمه، أفشلها وصول قطع من أسطول الفاطميّين في صيدا وصور في 1104م، إثر سقوط مدينة جبيل اللبنانيّة، بعد وصول الأسطول الجنويّ إلى اللاذقيّة في شباط - آذار من هذه السنة، ومساعدته «سان - جيل»، كونت طرابلس في السيطرة على المدينة المذكورة. وبناء على عروض الملك، كما جرى سابقًا، بالنسبة إلى فتح قيصريّة، فقد أغرى الجنويّين بإعطائهم ثلث عائدات المرفأ وما يبيعونه في البحر في المدينة، وشارعاً تجارياً حيث يمارسون قضاءهم ويكون لهم فيه كنيسة، وكتبت بذلك المواثيق. وهكذا أطبق الجنويّون بحرًا، ومعهم 70 سفينة كبيرة، مع سفن «البيزانيّين»، على المدينة و«بودوان» برّاً، فسقطت بالأمان في 26 أيار 1104م. وبسقوط عكا أعطيت للفرنج إمبراطوريّة البحار، وحصل الجنويّون، نتيجة مساهمتهم في افتتاح المدن، على ثلث عكّا Ptolémais وثلث قيصريّة وأرسوف.

وفي سنة 1115 سقطت قلعة الشوبك Crac de Montréal، التي اتخذت اسمها الأجنبيّ نسبة إلى الملك «بودوان» الأول الذي بناها (حصن التلّة الملكيّة)، في المنطقة الواقعة إلى الجنوب من البحر الميت، فسيطر الفرنج على طريق الصحراء الذي يربط دمشق بالحجاز ومصر.

د - فتح المدن الساحليّة اللبنانيّة

كان سقوط المدن اللبنانيّة بيد الفرنج وفق التوقيت الآتي: مدينة جبيل سنة 1103م، عرقا في رمضان 502هـ/ نيسان 1109م أو رجب502هـ/1109م، طرابلس في ذي الحجة 502هـ/1109م، وتلا ذلك مباشرة سقوط المدن التي ستشكّل مع المدن السابقة كونتيّة طرابلس، أي حلبا وأنفه والبترون. أمّا المدن اللبنانيّة الأخرى التي ستكون «بارونيّات» تابعة لمملكة القدس اللاتينيّة فقد سقطت وفق التوقيت الآتي: بيروت في 503هـ/1110م، صيدا في جمادى الأولى 504هـ/كانون الاول1110م، تبنين في 511هـ/1117م، وصور في جمادى الأولى 518هـ/م1124. وبقيت بعلبك والبقاع خارج نطاق الاحتلال الفرنجيّ، مع أنّها كانت تدفع له أحياناً كثيرة الإتاوات، وبقي تاريخها جزءاً من تاريخ حكم دمشق.

لم يحالف الحظّ ريمون «دو سان - جيل» في انتزاع أحد الكيانات التي توالى على إنشائها الفرنج.

في سنة 1099م عاد «ريمون دو سان - جيل» من القدس إلى اللاذقيّة فحكمها. واحتفظ لنفسه بتابعين له في وادي العاصي حول الباره. ثم شارك بقيادة عشرات آلاف «اللمبار» ثمّ الفرنسيّين من

غير المحاربين والنساء والأولاد وبعض الفرسان في الهجوم على براري آسيا الصغرى، في ربيع 1100م، لتخليص «بوهمن» من الأسر. فكان مصير هذه الجماعات الموت. بحيث قتل قرابة 300 ألف، ولم يفلت منهم غير ثلاثة آلاف هربوا، ونجا ريمون بنفسه.

عاد سان - جيل، إلى أحلام السيطرة على إمارة طرابلس، المتبقيّة خارج السيطرة الفرنجيّة، فحاصر أولاً طرطوس Tortose. فسقطت المدينة في شباط أو آذار أو نيسان، والأرجح 18 آذار سنة 1102م.

وانتقل «ريمون» في هذا العام 1102 من مرفأ طرطوس لأخذ حصن الأكراد وحصار طرابلس.

وصادف في العام التالي، 497هـ/1103م، وصول مراكب للفرنج الجنويّة إلى اللاذقيّة بقيادة «أنسلد» و»هوغ السكران» من عائلة «الأمبرياتشي» جدّ الذين سيحملون اسمه في سنيوريّة جبيل. فاستعان بهم «ريمون» لمحاصرة طرابلس. وأمام صعوبة الوصول إلى نتيجة حاسمة، حاصروا جبيل. فاستسلمت في 28 نيسان 1104م. وبعد سقوط المدينة، أعطي الجنويّون ثلث المدينة، وأوكل إلى القنصل الجنويّ «أنسالدو كورسو» Ansaldo Corso أمر حماية الحصّة الجنويّة. وفي 26 حزيران 1109م أعطى «برتران»، ابن «ريمون دو سان - جيل»، إلى كنيسة «سان لوران» في جنوى، كامل مدينة جبيل وملحقاتها ورأس الشقعة (أو الهري) Puy du Connétable و1\3 طرابلس إلى أسرة «الأمبرياتشي» Ambriacci، Ambriaco بواسطة «غليوم أمبرياتشي» Guillaume Embriac الذي شارك في الحملة الصليبيّة الأولى وفي احتلال القدس.

عمد سان - جيل إلى بناء حصن فوق التلّة التي تشرف على طرابلس من جهة النهر، والتي ستُعرف باسم تلّة الحجّاج Château pélerin على مسافة ميلين تقريباً من المدينة، ولكن وفاة الكونت في 4 جمادى الأولى 498هـ/ الأحد 22 كانون الثاني 1105م أخّر سقوط المدينة بيد الفرنج.

تسلمّ قيادة العائلة التولوزية «غليوم جوردان» (1105 - 1109م)، Comte de Cerdagne. المعروف في النصوص العربيّة بـ «السرداني»، وهو ابن أخت أو ابن شقيق أو ابن عمّ «ريمون دو سان - جيل "وهو الأصحّ، فأتمّ «جوردان» بناء الحصن.

بعدما طال حصار طرابلس، أَبعَد فخر الملك ابن عمّار، حاكمها عائلته إلى مصر، ثم غادر المدينة، إلى دمشق فإلى بغداد، لطلب النجدة من الخليفة المستظهر، ومن السلطان السلجوقيّ محمد بن ملكشاه. وبعد أربعة أو خمسة أشهر من التكريم الزائد عاد فخر الملك إلى طرابلس بخفّي حُنين، ليجد أنّ المدينة خرجت من بين يديه إلى الفاطميّين، بطلب من أهلها ومن أبي المناقب بن عمّار

ابن عمّه، وقد عيّنوا عليها شرف الدولة ابن أبي الطيّب واليًا، ومعه الغلّة وما تحتاج إليه البلاد في الحصار.

في هذه الأثناء وصل في خريف 1108م من مدينة «سان - جيل» «برتران» (بلترام) Bertrand (1109 - 1112 أو 1113م)، الإبن الأكبر لـ«ريمون دو سان - جيل» من زوجته الأولى، ومعه مراكب مشحونة بالرجال والسلاح والميرة، فساهم مقتل نسيبه السرداني بحلّ مشكلته معه فعادت ممتلكات والده إليه.

أطبق «برتران» ومعه الأسطولان الجنويّ و«البروفانسّي» على طرابلس. ومع نفاد القوت، طلب القائد الفاطميّ، شرف الدين بن أبي الطيّب الاستسلام، فسقطت المدينة في يوم الإثنين 11 ذي الحجة 502هـ/الأحد 12 تموز 1109م.

وتقرّر بين الإفرنج والجنويّين على أن يكون للجنويّين الثلث من البلد، وما نهب منه، والثلثان لصنجيل، وأفردوا للملك بغدوين من الوسط ما رضي به. وأعطي الجنويّون كامل مدينة جبيل، بعدما كان لهم الثلث فقط. وأضحت طرابلس في موقع التبعيّة للملك، ويتعامل معها ومع الرها كأنهما «فياف» وفي سلطة واحدة. ونجم عن سقوط المدينة، على حدّ رواية المصادر العربيّة، نهب دار العلم فيها.

بعد طرابلس كان سقوط بلدة حلبا. ثمّ سقطت في شوال/ نيسان - أيار بانياس Valenie. وفي 22 ذي الحجة 503هـ/الثلاثاء 12 تموز 1110م مدينة جبلة.

وتبعت حصون عكّار والمنيطرة، سلطة الفرنج، وكذلك ثلث استغلال البقاع. ودخلت حصون (مصياف والطوفان والأكراد) في الموادعة لقاء دفع مال معيّن عنها سنويّاً. وفي هذه السنة 1110م، حوالى شهر حزيران، انتزع «تنكرد»، أمير أنطاكية، حصن الأكراد، الذي سيُعرف باسم «حصن الخيّالة» Crac des Chevaliers. وسيقدم «تنكرد» على إعطاء «بونص» Pons ابن «برتران» حصني الأكراد وصافيتا. وسيبقى هذا الحصن بيد الفرنج حتى سقوطه بيد المماليك، وسيحوّلونه إلى أهم حصونهم وأخطرها، بعدما أُلحق بكونتيّة طرابلس التي كان يتحكّم في ممرّاتها باتجاه حمص والداخل السوريّ، ويقف حاجزاً أمام الغزوات التي تمرّ في سهل البقيعة.

واستمرّت هذه الكونتيّة (القومسية) في عهدة الأسرة التولوزية من آل «سان - جيل» حتى انقطعت سلالتهم سنة 1187م، فتسلّم الكونتيّة من بعدهم أصحاب إمارة أنطاكية.

سلسلة كونت طرابلس من عائلة سان جيل

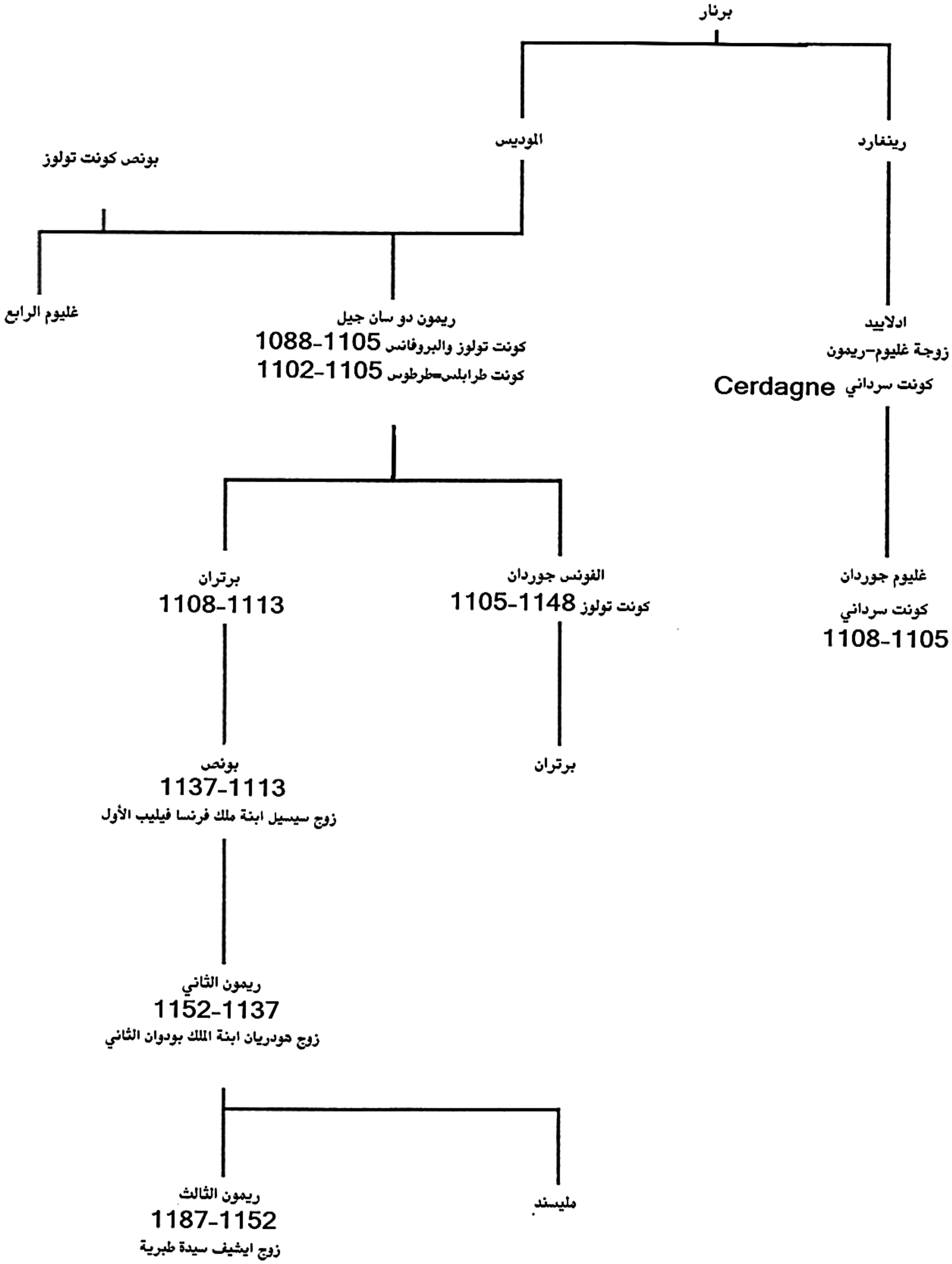

شجرة عائلة كونت طرابلس من سلالة سان - جيل

تأخّر الحصار الجديّ لبيروت إلى سنة 503هـ/ 1110م، من قبل الملك «بودوان» ومن ابن صنجيل وغيرهما، إلى ما بعد سقوط طرابلس. نشأت نتيجة ذلك سنيوريّة بيروت Seigneurie de Barut التي كانت تضمّ بيروت وقرى الساحل القريبة منها، دون جبل الغرب. وأُوكل أمرها إلى أسرة «بريزبار» Brisbare. ثم تسلّمت الحكم فيها عائلة «دايبلن» D'Ibelin.

في أول سنة 504هـ/ الخميس 21 تموز 1110م. وصلت إلى عكا مراكب كثيرة لـ«النروجيّين» بقيادة «مانوس» Magnus أخ «سيكورد» Sigurd ملك النروج، وطلب منه مشاركته في حصار صيدا، بعدما طُلب من الكونت «برتران» مساندته بقوّات طرابلس. وهكذا، في 23 جمادى الأولى 504هـ/ 7 كانون الأول من السنة عينها 1110م، تمكّن الفرنج من الاستيلاء على صيدا Sagète، بعد حصار دام 47 يوماً.

مع سقوط صيدا نشأت البارونيّة أو السنيوريّة Seigneurie de Sagette التي تحمل اسمها (ولعلّ Sagette هو تحريف لاسم المدينة بالإيطاليّة Sajetta)، وكانت تمتدّ من نهر الليطاني إلى نهر الدامور إلى جبل الشوف، وتبعت لمملكة بيت المقدس. وعَيّن عليها الملك «بودوان» حاكماً «أوستاش غارنيه» Garnier أو Grenier صاحب قيصرية.

قاد الملك «بودوان» حملة إلى سهل البقاع، أسفرت عن قبوله تسليم ثلث غلال البقاع وبعلبك إلى الفرنج والثلثين للمسلمين والفلاحين في صفر 504هـ/1110م.

وبما أنّ البقاع كان مطمعاً للفرنج، هاجمه «بونس» بن «برتران» (ويرد اسمه أيضاً بدران بن صنجيل في بعض المصادر)، كونت طرابلس، سنة 510هــ/1116م ومعه جيش من الفرنج ومن النصارى المحليّين. فتصدّى له عسكر دمشق وعسكر الموصل بقيادة «سيف الدين البرسقيّ»، وألحق به هزيمة نكراء في عنجر.

أوّل عمل، على طريق فتح صور، كان بناء حصن سنة 500هـ/ 1106م مقابل حصن صور، في تبنين، المعروف بـ «تورون» Toron الذي يشرف على طريق صور – بيت جنين - بانياس - دمشق، كما ابتُني حصن هونين Château neuf. وابتني، أيضاً، حصن علعال على تلّة تشرف على طبريّة سنة 499هـ/1105م. وقد أُتبع هذا الحصن وجبل عامل إداريّاً لإمارة الجليل.

حاول الملك « بودوان» حصار صور سنة 1111م ففشل.

ولقطع اتصال صور، برّاً، بعسقلان، بنى بودوان سنة 510هـ/1116م حصناً قرب رأس الناقورة، هو حصن اسكندرونا (اسكنداليون Scandaléon). للإحاطة بها، محقّقاً بذلك تطويق صور، بصيدا شمالاً، وتبنين شرقاً، والحصن المذكور جنوباً.

وأخيراً، وصل أسطول من مئة سفينة حربيّة، أو ثلاثماية كما في مراجع أخرى، إلى عكّا في شهر أيار 1123م بقيادة الدوج «دومنيكو ميشيل» Domenico Michiel، Michaelis.

في هذا الوقت، كان الفرنج يضعون اللمسات الأخيرة لإسقاط صور، ويوقّعون معاهدة في عكا، بين البنادقة وممثلي الملك «بودوان الثاني»، وعلى رأسهم نائبه «غليوم دو بوير» Guillaume de Bures، لأنّ المذكور كان وقتذاك في الأسر، وبطريرك القدس اللاتينيّ Gormond أُعطي بموجبها البنادقة ثلث صور وعسقلان. كما تقرّر أن يمتلك البنادقة في كلّ مدينة بالمملكة اللاتينيّة شارعاً كاملاً وكنيسة وفرناً وحمّاماً وطاحونة مع إعفاء هذه المناطق من الالتزامات العاديّة. وتكون لهم الحريّة باستخدام موازينهم ومكاييلهم في أعمالهم التجاريّة مع سائر الذين يتعاملون معهم. وتقرّر أيضاً إعفاؤهم من كلّ الرسوم والضرائب الجمركيّة في سائر أنحاء المملكة الفرنجيّة، وأن يحصلوا على دور إضافية في مدينة عكّا وعلى ثلث كلّ من مدينتي صور وعسقلان. وكان لهم الحق بإنشاء المعامل والمصانع في المدن الساحليّة التي يشاركون في فتحها، وذلك مقابل مساعدتهم للصليبيّين في الاستيلاء على صور وعسقلان. وعلاوة على ذلك تقرّر أن تحصل البندقيّة سنويّاً على مبلغ من المال يقدّر بثلاثمائة دينار إسلاميّ يؤدّى مما يتحصّل للملك الصليبيّ من موارد مدينة عكّا. ووافق «البنادقة» مقابل ذلك على أن يؤدّوا للخزانة الملكيّة اللاتينيّة ما درجوا على دفعه، وهو ثلث ما يتقاضونه من الحجّاج من الأجور. كما تقدّمت البندقيّة بطلب آخر إلى المملكة اللاتينيّة يدل على رغبتها في السيطرة على تجارة المملكة اللاتينيّة ومنافسة القوى البحريّة الأخرى، مؤدّاه إلا تخفّض المملكة ما تتقاضاه من رسوم جمركيّة من الطوائف الأخرى إلا بموافقة البندقيّة.

في شهر ربيع الأول سنة 518هـ/نيسان 1124م، حسب المصادر الغربيّة، وبعد شهرين من هذا التاريخ حسب المصادر العربيّة، بدأ حصار صور برّاً وبحراً. وفي يوم الإثنين 23 جمادى الأولى 518هـ/8 تموز 1124م أو 29 حزيران في رواية «غليوم الصوريّ»، تسلمّ الفرنج صور، وخرج من يرغب من المسلمين منها، وخصوصاً أهل اليسر والمسؤولين، ولم يبق منهم إلا ضعيف لا يطيق الخروج، واستقبل سقوط صور في القدس باحتفالات الفرح.

أُتبعت صور بعد سقوطها بيد الفرنج لحكم ملوك القدس المباشر. أمّا جبل عاملة (عامل) فأتبع الجزء الشماليّ منه لـ «سنيوريّة صيدا»، والجزء الجنوبيّ لـ» إمارة الجليل» التابعة لمملكة القدس.

احتلال الفرنج لأبرز مدن مملكة القدس:

السنوات تبرز تاريخ الاحتلال والسيوف المعارك الفاصلة

هـ - الأوضاع السياسيّة من فتح المدن الساحليّة إلى محاولات الاسترداد الزنكيّة

لم يُنهِ فتح المدن الساحليّة للمشرق، تباعاً، حركة الصراع بين القوى الإسلاميّة وقوى الفرنج.

فقد سعى «طغتكين»، حاكم دمشق البوري، لدفع السلطان «محمد بن ملكشاه» السلجوقيّ في بغداد، لمهاجمة الفرنج في كونتيّة الرها سنة 503هـ/1110م، ولكن المحاولة باءت بالفشل.

فاستغلّ الملك «بودوان» الهجوم الخاسر وهجم على بعلبك، فاستفكّ «طغتكين»، الهجوم بدفع ثلث غلال البقاع للفرنج والتنازل عن حصن المنيطرة وحصن عكّار وتحييد حصن مصياف وحصن الأكراد عن الصراع.

وإثر وفاة «برتران»، كونت طرابلس سنة 1112م، خلفه ابنه «بونص» الصغير السنّ. وفي عهده توسّعت كونتيّة طرابلس إلى طرطوس وصافيتا ومرقية وحصن الأكراد.

في سنة 507هـ/1113م، هاجم «مودود»، صاحب الموصل، و»طغتكين» الفرنج، فجرت معركة في طبريّة، في الأقحوانة. واغتيل إثر المعركة مودود على يد أحد الباطنية الإسماعيليّة في دمشق، في 26 أيلول أو 2 تشرين الأول 1113م، فاضطر طغتكين لعقد هدنة مع الملك «بودوان». للتصدّي لهجمة آتية ضدّه سنة 509هـ/1115م من قبل سلطان بغداد، «محمد بن ملكشاه»، بعد اتّهامه بتدبير مقتل «مودود».

بعد ردّ الهجوم السلجوقيّ استولى «بونص»، في جمادى الآخرة 509هـ/ 1115م، على قلعة رفنيّة التي تسيطر على مدخل البقيعة من جهة وادي نهر العاصي، وأغار في العام التالي على سهل البقاع، وبنى قلعة بعرين القائمة على السفوح الشرقيّة لجبال النصيريّة لحماية مدخل البقيعة. ثم كان عليه ردع الجيش الفاطميّ عن أخذ صيدا سنة 512هـ/1118م، وإبعاد قوات «طغتكين» و»نجم الدين إيلغازي»، أمير ماردين، عن أنطاكية، سنة 513هـ/1119م، ولم يتمكّن الفرنج عن الحيلولة ضد أخذ «طغتكين» سنة 513هـ لقلعة الشقيف في جنوب لبنان إضافة إلى تدمر.

توفي «بودوان» الأول سنة 1117م، أثناء غزوة مصر، من دون أن يترك عقباً. فخلفه نسيبه «بودوان دو بورغ» (بغدوين الرويس) الذي كان قد خلفه أيضاً على كونتيّة الرها بعد انتخاب «بودوان» الأول على عرش القدس خلفاً لأخيه «غودفروا». وجرى تتويجه في 2 نيسان 1118م.

في عهده نشأت مؤسسات الفرسان. وكانت طليعتها في سنة 1118م قرب هيكل الرّب، وطلب منهم البطريرك والأساقفة أن يعملوا على تأمين الطرقات وحماية الحجّاج من اللصوص وقطّاع الطرق. في البدايات لبسوا ثوباً أبيض، ثم أضيف الصليب الأحمر إلى لباسهم الأبيض. ولأنّ مركزهم الرئيس قرب الهيكل، في القصر الملكيّ، فقد حملوا اسم الهيكليّين Templiers.

قام الملك «بودوان» الثاني بحملات عدة على شماليّ سورية فانتصر على قوات «ايلغازي»، و»طغتكين» في معركة «دانيت» في 14 آب 1119م. فاسترجع العديد من المواقع من إمارة أنطاكية التي كانت قد سقطت بيد ايلغازي ثم أكمل استرجاع ما تبقى في سنة 1120م، وسنة 1121م. واحتلّ سنة 1122م «زردانا» Sardanium.

بعدها سار الملك إلى الرها لاستفكاك أميرها «جوسلين» من الأسر، فوقع هو بأيدي الأتراك في 18 نيسان 1123م، بينما تمكّن «جوسلين» من الفرار. وتمّ إطلاق سراحه بعد سنة في 29 - 30 آب 1124م .

في أيار سنة 1125م حقق الملك بمشاركة صاحب طرابلس وأمير الرها نصًرا كبيًرا في أعزاز في أيار سنة 1125م على جيش طغتكين و»إيلغازي». فاستغلّ الفرنج هذا النجاح وقاموا بقيادة «بودوان» الثاني، ومشاركة قادة طرابلس وأنطاكية والرها، وتوجّهوا، ومعهم «جيرار»، صاحب صيدا، إلى دمشق سنة 520هـ/1126م، فمُنُوا بالفشل. وبرغم ذلك تمكّن «بونص»، كونت طرابلس من احتلال حصن رفنية Rafanyia، بمساندة من الملك، في أواخر شهر آذار سنة 1126م، لتأمين الطريق بين القدس وأنطاكية.

في خضم هذه الأحداث برز أحد المناوئين الإسماعيليّين للخلافة الفاطميّة في القاهرة ويُدعى «بهرام»، في دمشق، فعمد حكّامها إلى إعطائه ثغر بانياس Paneas (Baniyas) في سفوح جبل الشيخ، في ذي القعدة سنة 520هـ/ 1127م. وملك حصوناً عدّة منها القدموس. فقاد ذلك إلى صراع سنة 1128م، بينه وبين آل جندل مقدّمي وادي التيم. وشهدت دمشق نتيجة الصراع بين «الآتابك بوري» ووزيره «المزدقاني»، المؤيّد للإسماعيليّة، أعمالًا انتقاميّة دامية جدًّا، بحق هؤلاء.

مجددًا هاجم الفرنج دمشق في ذي القعدة سنة 523هـ/1 تشرين الأول 1129م. فحشدوا لذلك جيشاً من دولهم كلّها بقيادة الملك «فولك»، إضافة إلى القادمين الجدد من الفرنج. ولكنّ المحاولة باءت بالفشل.

وعرفت دولة الاتابكة في دمشق نزاعاً بين الاخوة أولاد «بوري» في سنة 526هـ/ 1131م في اللبوة ورأس بعلبك، كما عرف الفرنج صراعاً في شمال «سورية» بين أنطاكية وطرابلس سنة 526هـ/ 1131 - 1132م. ولم يحُل ذلك دون فتح كونت طرابلس لحصن سلميّة وضمّه إليه.

نتيجة تقرّب الإسماعيليّة من الفرنج سمحوا لهم بالاستقرار حوالي سنة 1132م بحصن «القدموس» شمال سورية، في وسط جبال النصيريّة، بعدما اشتروه سنة 527هـ/ 1132 - 1133م. ثم بنوا قلاع «عشّ النسر» في مصياف التي تملّكوها سنة 535هـ/1140 - 1141م، وأخذوا الخوابي والعليقة والمينقة والكهف ورصافة على حدود الوجود الإسلاميّ والفرنجيّ، ودفع هؤلاء الأتاوة لفرسان الإسبتار.

ثالثاً - مقاومة الاحتلال وبداية عمليات الاسترداد: من عماد الدين زنكيّ إلى ابنه نور الدين

أ - مع عماد الدين زنكيّ

تحقق أول الانتصارات الفعليّة على الفرنج مع عماد الدين زنكيّ الذي تدعوه بعض المصادر الفرنجيّة Sanguin، أتابك الموصل.

فقد استقدم المذكور التركمان، من داخل بلاد الإسلام وأرسلهم لشنّ الغارة على كونتيّة طرابلس، سنة 527هـ/1133م، فاضطرّ «بونص» لمطاردتهم، وخسر أمامهم في جبال النصيريّة، فلجأ إلى بعرين Barin ou Montferrand حيث حاصروه. فأنجده «فولك»، ملك القدس.

عمد عماد الدين زنكيّ، إلى حصار دمشق في أول جمادى الأولى 529هـ/ 17 شباط 1135م، فجابهته المدينة بقيادة «معين أنر». مملوك «طغتكين». وفي ربيع سنة 1135م، تمكّن من احتلال مناطق الفرنج، في الأتارب Cerep في 17 نيسان 1135م، وزردانا Zerdana. وتلّ آغدي، ومعرّة النعمان، وكفرطاب، وأجبر أمراء شيزر على الاعتراف بسلطته. ثم هاجمت قواته في شعبان 530هـ/ أيار - حزيران 1136م، اللاذقيّة غفلة.

وتمكّن أتابك دمشق «شجاع بن بزواج» في رجب من السنة 531هـ/ آذار- نيسان 1137م، من تحقيق هجوم مفاجئ على طرابلس فقتل صاحبها، الكونت «بونص»، وامتلك حصن ابن الأحمر (شاستيل روج).

وعندما تسلّم «ريمون» الثاني حكم كونتيّة طرابلس مكان أبيه، اقتصّ من سكان الجبال المحيطة بطرابلس، ملقياً القبض على الكثيرين ممن أودعوا السجن في طرابلس، رجالاً ونساء وأطفالاً. ويبدو أنّ هذه الإجراءات قد طالت الموارنة، بدليل أنّ بطريركهم، المقيم في يانوح، قرب بلدة العاقورة، في المعبد الأزرق، قد هجر مكان إقامته في تلك الأنحاء.

استولى عماد الدين على الموصل، ومنها تقدّم إلى حلب، فاستولى عليها سنة 1128م. وبعد عشر سنوات، تقريباً، هاجم حمص في حزيران 1137م، وسعى لاحتلال حماه وبعلبك أيضاً، ثم تراجع عنهما وتوجّه سنة 531هـ/1137م إلى قلعة بعرين، بارين Montferrand. فقدم الملك «فولك»

لمساندة كونت طرابلس الشاب، «ريمون» الثاني. فألحق بهم عماد الدين الخسارة. فلجأ الملك ومَن معه إلى قلعة بارين حيث حاصرهم زنكيّ، ووقع «ريمون» الثاني، كونت طرابلس، في الأسر. ومع تزايد قدوم قوات الفرنج اكتفى عماد الدين بالسيطرة على بارين، وفتح المجال للملك بالخروج من الحصن لقاء تسلّمه له مع رفنية سنة 1137م، وبقي «ريمون» الثاني في الأسر.

في سنة 1137م قام الإمبراطور البيزنطيّ «يوحنا كومنين بالهجوم على «كيليكيا» وأنطاكية ثم اتفق مع الفرنج بالسيطرة على مناطق في شمال سورية. ولكن المحاولة فشلت فعاد بعدها الإمبراطور إلى القسطنطينيّة.

مرّة ثانية قام الإمبراطور «يوحنا كومنين» الثاني، سنة 537هـ/1143م أو 1142م، بالهجوم على أراضي كونتيّة طرابلس وإمارة أنطاكية، وكان الفشل نصيبه.

انتقل عماد الدين، في سنة 532هـ/1137م، إلى بعلبك، فاستولى على حصن مجدل عنجر في أوّل أيلول، وفرض الضريبة على بعلبك وفتح حصن عرقا، وأسر مَنْ فيه من الفرنج وخرّبه.

سعى عماد الدين لأخذ دمشق بالزواج من «زمرد خاتون»، التي كانت متحكّمة فيها، لكونها والدة حاكمها، شهاب الدين محمود بن بوري، ولكن اغتيال محمود في شهر شوّال/ 22 أو 23 حزيران 1139م، أفشل المحاولة. فقد نجح عماد الدين بأخذ بعلبك.

من بعلبك، سيسعى عماد الدين، سنة 534هـ/1139م، لبدء السيطرة على دمشق فعصت عليه وطلبت مساندة الفرنج، لقاء إعطائهم بانياس. ولقد شارك بالمفاوضات مع الفرنج في عكّا الأمير المؤرخ أسامة بن منقذ.

هاجس تمدّد سيطرة عماد الدين، دفع «ريمون» الثاني، سنة 1142م و1144م إلى التنازل للفرسان «الإسبتار» عن القلاع التي تحمي ممّر حمص ووادي النهر الكبير. وبناء شقيف أرنون (بوفور) سنة 1139م وقلعة موآب (الكرك) شرقيّ البحر الميت سنة 1142م.

بعد وفاة الملك فولك في 29 ربيع الآخر سنة 538هـ/ 10 تشرين الثاني 1143م، خلفه ابنه «بودوان» الثالث مع أمّه «مليسند». وفي عهده مُني الفرنج بأول كارثة جسيمة سنة 539هـ/ 3 كانون الأول 1144م،على يد عماد الدين زنكيّ مع سقوط الرها أول كونتيّة أنشأوها في الشرق.

قبيل هذا الحدث الخطير كان الوجود الفرنجيّ يضمّ أربع دول: في الشرق كونتيّة الرها المنتشرة على ضفّتي الفرات والتي سقطت مع عماد الدين كما ذكرنا. في الشمال، إمارة أنطاكية التي تغطي أرمينيا الصغرى أو «كيليكيا». وفي الوسط كونتيّة طرابلس من حصن المرقب إلى جنوب جبيل عند جسر المعاملتين الذي يشكّل الحدود الشماليّة لمملكة القدس.

أمّا المملكة فكانت تشمل ما وراء الأردن: مناطق موآب Moab. آدوم Edom.Nabatée. مع قلعتي الكرك Karak ومنتريال Montréal الرهيبتين، ومرفأ العقبة – آيلة Aila على البحر الأحمر، وكانت تحمي أديرة شبه جزيرة سيناء، وستسقط بيدها عسقلان Ascalon. وإضافة إلى مدن القدس ونابلس Naplouse وعكّا Acre وصور Tyr والأمكنة الأخرى الخاضعة للملك مباشرة، وكانت المملكة مقسّمة، أيضاً، إلى أربع بارونيّات كبيرة: كونتيّة يافا Jaffa وعسقلان، إمارة الجليل Galilée أو طبريّة Tibériade. بارونيّة صيداBaronnie de Sagète ou Saiète ou Sidon. سنيوريّة الحصن ومنتريال Seigneurie du Crac et de Montréal في أرض ما وراء الأردن – Terre d’Oultre Jourdain. أضف إلى ذلك عشرات «الفيافFief ” الثانويّة: بارونيّة كيفا Caiphas. طورون (تبنين) Toron، بانياس Bélinas. بيروت Baruth. سكنداليون Scandaléon. قيصرية Césarée. نابلس، إبراهيم الخليل Hébron. بيسان Bessan.

ب - مع نور الدين زنكيّ

توفي عماد الدين زنكيّ، في 14 - 15 ايلول سنة 1145م مقتولاً على أيدي خدمه. فعمد «معين الدين أنر»، إلى استرجاع بعلبك من حاكمها الزنكيّ، نجم الدين أيوب سنة 541هـ/1146م. ثم ارتأى تبريد العلاقات مع نور الدين زنكيّ بتزويجه إبنته.

في هذا الزمن، برزت في الجبل اللبنانيّ الإمارة البحتريّة - التنوخيّة أولى الإمارات الإقطاعيّة التي ستحكم وسطه وبيروت في النصف الثاني من القرون الوسطى.

لم يتأخر الردّ على سقوط الرها في أوروبا فكانت الحملة الصليبيّة الثانية التي سارت سنة 1147م إلى الشرق، وعلى رأسها، «كونراد» الثالث Conrad III إمبراطور ألمانيا، و«لويس» السابع، ملك فرنسا.. فتجمّعت قوات الفرنج في طبريّة، وسارت إلى دمشق فوصلتها في 6 ربيع الأول 543هـ/ السبت 25 تموز1148م، لتحصد فشلاً ذريعًا أمام دمشق.

استغلّ نور الدين هذا الفشل الفادح فتوجّه سنة 543هـ/1148م وسنة 544هـ/1148م إلى إمارة أنطاكية، فقتل أميرها، «ريمون دو بواتييه»، واحتلّ حارم Harenc وإيناب (إنّب) Anab وأفاميا وأعزاز، وتمكّن من أسر «جوسلين الثاني» أمير الرها السابق في 4 أيار 1150م. وبذلك يكون نور الدين قد جعل الوجود الفرنجيّ ينكفئ من الفرات إلى العاصي.

ونجح في تقريب حسم أمر دمشق لصالحه بعد أن أضحت الخطبة له على منابر المدينة بعد الخليفة والسلطان وعلى السكّة.

وفي صيف 1152م قتلت جماعة من الحشيشية ريمون كونت طرابلس فتسلّم السلطة ابنه «ريمون» الثالث، البالغ من العمر إثنتي عشرة سنة، بوصاية الملك.

في ظلّ هذه النكسات المتتالية تمكّن الفرنج، بعد نصف قرن، من احتلال عسقلان في 22 آب 1154م.

قبيل ذلك، كان نور الدين قد انتزع دمشق نهائيّاً، في سنة 549هـ/ نيسان 1154م، من أيدي أولاد «طغتكين».

ولكن الزلازل المدمّرة كانت بالمرصاد للطرفين المتحاربين في سنة 551 هـ/1156م. فتقرّرت المهادنة بين نور الدين والفرنج مدة سنة، أوّلها شعبان 551هـ. ثمّ تكرّرت الزلازل في محرّم 552هـ /شباط 1157م وفي جمادى الأولى وفي رجب وفي رمضان.

كما ساهم مرض نور الدين بتخفيف الضغط عن الفرنج، من سنة 553هـ/1158م إلى 555هـ/1160م. ولكنه عاد إلى نشاطه المحموم بعد إبلاله من مرضه، فهاجم كونتيّة طرابلس سنة 557هـ أو 558هـ/م1163. في العام التالي، وقع ريمون الثالث أسيراً، بيد نور الدين وظلّ حتى العام 1172م في الأسر ما يقارب عشر سنوات، إضافة إلى «بوهمن الثالث»، أمير أنطاكية، ودوق «كيليكية» البيزنطيّ، وغيرهما، وأدّت المعركة في حارم إلى أخذها ثم نجح باحتلال بانياس في 17 تشرين الأول 1166م وهونين (Château Neuf) سنة 1167م.

استغلّ نور الدين أسر كونت طرابلس «ريمون» الثالث، فقام سنة 561هـ/1165م، أو 562هـ بالهجوم على حصن المنيطرة ببلاد الجرد، قريباً من كسروان، وتابع هجوماته على معاقل أخرى،

كحصن الأكراد وحصن عكّار سنة 1165م، وسهل البقيعة، وعرقا، وحلبا والعريمة وصافيتا، ولكنّه فشل بالدخول إلى بيروت.

هذه النجاحات في المشرق دفعته لمحاولة حسم الحكم الفاطميّ في مصر، تخوّفًا من احتلال الفرنج لها.

فمصر كانت تعاني ضعفًا على كل المستويات في القرن الثاني عشر. فمقتل الخليفة الفاطميّ «الظافر» عام 549هـ/1154م قاد إلى استبداد «طلائع بن رزيك» الوزير الأرمنيّ الأصل بالسلطة، وإسناده الخلافة إلى «الفائز» ابن الظافر البالغ من العمر الحادية عشرة الذي ما لبث أن توفى سنة 555هــ/1160م. وعندما تسلّم «العاضد» الخلافة الفاطميّة عمل على إهلاك ابن رزيك، فخلفه بالوزارة ابنه العادل. ولكنه لم يهنأ بالسلطة إذ قتله شاور حاكم الصعيد، وتسلّم الوزارة عام 558هـ/1163م التي نازعه عليها «ضرغام» أحد قادة الجيش. في ظل هذه الأجواء، غزا عموري ملك القدس مصر، فتصدّى له «ضرغام» وأجبره على التراجع، في وقت كان فيه «شاور» يفاوض نور الدين محمود الزنكيّ كي يسهّل له أمر الاستيلاء على مصر. فأرسل نور الدين قائده «شيركوه»، مرّات عدّة إلى مصر، لمساندة السلطة فيها، منذ سنة 559هـ/1164م، ضدّ تطلّعات الفرنج إليها. وفي المحاولة الثالثة، تمكّن «شيركوه» في سنة 564هـ/1169م. يساعده صلاح الدين يوسف بن أيوب، ابن أخيه، من أن يصبح وزير الخليفة الفاطميّ، العاضد.

ورداً على هذه المتغيّرات، كان الملك «عموري» قد تقرّب من الإمبراطور البيزنطيّ، وتزوج إبنة أخيه ماري كومنين. فنتج من هذه المصاهرة، إرسال الإمبراطور مانويل قوة بحريّة، سنة 563هـ/1167م. توجّهت إلى مصر.

في سنة 564هـ/1168م، تمكّن الفرنج، في طرابلس، من استرداد قلعة عكّار، التي كان نور الدين قد أخذها منهم قبل سنتين. فتسلّمها «الإسبتاريّة» من الملك «عموري» كما حصلوا على عرقا.

وعادت الزلازل المدمّرة إلى مسرح الأحداث. في 12 شوّال سنة 565هـ/ 29 حزيران 1170م، ضربت حصون الفرنج والمسلمين، وطرابلس وقلعة بعلبك وأسوارها، وانشقّ جبل لبنان المطلّ على بعلبك شقّاً لا يُعرف له منتهى، وطالت الزلازل حصن الأكراد والعريمة وعرقا وصور.

في 565هـ يوم الجمعة 10 ذي الحجة/25 آب 1170م، في أواخر أيّام نور الدين جرى حدث أنهى تاريخًا مجيدًا للخلافة الفاطميّة الإسماعيليّة، عندما أقدم صلاح الدين، الذي خلف عمّه شيركوه في وزارة الفاطميّين، على إلغاء الأذان الفاطميّ «حيّ على خير العمل» وخطب للخليفة المستضيء العبّاسيّ.

جرت هذه المتغيّرات قبل أن يتمكن نور الدين من ردع طموحات صلاح الدين وخروجه على سلطته، إذ عاجله الموت يوم الأربعاء في 11 شوال 569هـ/15 أيار 1174م، كما توفّي ملك الفرنج في 11 تموز 1174م.

وكادت العلاقات تتأزم بين الفرنج والإسماعيليّين، المهادنين لهم، عندما قتل، في أرض كونتيّة طرابلس، رسل الباطنيّة الذين كان شيخ الجبل، رشيد الدين سنان، زعيمهم. فأقدم الملك على اعتقال الجاني، وسجنه، ثمّ عمد إلى تقديم الاعتذار إلى شيخ الجبل.

رابعاً - صلاح الدين الأيوبيّ يتابع استرداد الأرض ويحقق أول نصر مبين

خلف شيركوه ابن أخيه أيّوب، صلاح الدين، في تقلّد الوزارة في البلاط الفاطميّ.

وكان الملك الناصر السلطان صلاح الدين يوسف، قد ولد في تكريت سنة 1138م، من أبوين كرديّين. وفي السنة التي تلتها عُين الأتابك أبوه، أيّوب، مسؤولاً على بعلبك، فانتقل إليها. وفي سنة 1164م سار في صحبة عمه «شيركوه»، إلى مصر، في حملة عسكريّة ضدّ الفاطميّين، وإذ ذاك، أخذ نجمه في الصعود.. وفي سنة 1169م، أسندت إليه الوزارة بمصر. وعند موت الخليفة الفاطميّ العاضد بعد سنتين في 1171م أصبح سيّد مصر، فاستطاع أن يقوّض خلافة الفاطميّين ويُلغيها.

ساءت الحال بينه وبين سيدّه نور الدين إلى حدّ الوقيعة التي أنقذته منها وفاة نور الدين في 15 أيار سنة 1174م، فأعلن صلاح الدين استقلاله بمصر.

انتزع صلاح الدين السلطة من ورثة نور الدين، وعلى رأسهم ابنه الملك الصالح إسماعيل. ثم حسم الأمور كليّاً لصالحه، في 19 رمضان 570هـ/13 نيسان 1175م، فصدرت إرادة من الخليفة العبّاسيّ، بإسناد السلطة إليه على مصر والمغرب والنوبة وغربي الجزيرة العربيّة وفلسطين وسورية الوسطى.

هذا على صعيد المسلمين، أمّا على صعيد الفرنج فقد تسلّم السلطة «بودوان» الرابع (1174 - 1185م)، ابن «آموري» من زوجته الأولى، «أنياس»، وكان مريضاً بالبرص، ومن هنا تسميته Baudouin le Mesel. ولصغر سنّه أعطيت كفالة المملكة إلى رجل يُدعى «ميلون» Milon de Plancy الذي كان يشغل وظيفة «سانشال» Sénéchal المملكة. ثم انتقل ت الكفالة سنة 1174م، إلى «كونت» طرابلس بعد انتخاب «برلمان» أورشليم له وانتهت سنة 1176م، مع زواج «سيبيل» أخت الملك المجذوم بأمير عادي، من دون صفات قياديّة، هو «غي دو لوزينيان» Guy de Lusignan، «البارون» الصغير، الحديث العهد بالشرق، مما سيُسهم في زيادة انقسام الفرنج.

أبقى صلاح الدين حكم مصر بيد أخيه سيف الدين العادل، وسار إلى دمشق، فدخلها في 29 ربيع الأول 570هـ/28 تشرين الأول 1174م، مدّعياً أنّه جاء اليها لخدمة مصالح إسماعيل بن نور

الدين، معيّناً أخاه حاكماً عليها. ولتوحيد مملكة نور الدين تحت رايته، كان عليه أن يبدأ بحلب التي سار إليها، فأخذ حمص في طريقه، ووصل إليها ليجد أنّ سيف الدين صاحب الموصل، ومعه أخوه عز الدين مسعود، قد بدآ استعداداتهما لردّ صلاح الدين عن البلاد.

حاول مَن بحلب، التخلّص من صلاح الدين بإرسال «حشاشين» لاغتياله، فرحل صلاح الدين عن حلب عائداً إلى حماه فإلى حمص مشتغلاً على أخذ قلعتها، فاستولى عليها وسار بعدها إلى بعلبك، فتسلّم القلعة في 4 رمضان 570هـ/29 آذار1175م.

وآلت الأمور إلى صالحه نهائيّاً في وراثة زعامة الزنكيّين بعدما حسم المعركة مع مؤيّدي أولاد نور الدين، في قرون حماه، في 19 رمضان 570هـ/13 نيسان 1175م.

بادر ملك القدس، «بودوان» الرابع، في تشرين الأول - تشرين الثاني 1178م، إلى تشييد حصن عند جسر يعقوب، عند النقطة التي يخرج فيها نهر الأردن من بركة الحولة ليتّجه إلى بحيرة طبريّة، أعطاه اسم بيت أو مخاضة الأحزان، وذلك للتحكّم في الطريق التي تربط القنيطرة بطبريّة، وحماية الجليل من الهجمات الآتية من دمشق. وعمد «همفري دو تورون» Onfroi de Toron إلى بناء قلعة على تلّة هونين، على علو 900 م أسماها Chastel - Neuf تتحكم في منابع الأردن على الحاصبانيّ بموازاة بانياس. فعمد صلاح الدين إلى إرسال ابن أخيه، عز الدين فرخشاه، للحؤول دون ذلك.

ثم سار صلاح الدين بنفسه إلى بيت الأحزان في 27 أيار 1179م، ولكنه ارتدّ عنه، واعتمد سياسة الضربات المفاجئة للفرنج، فانقضّ عليهم في مرجعيون، فخسروا المعركة في 10 حزيران 1179م، بعدها ضرب الحصار على قلعة الأحزان في 25 آب وهُدمت إلى الأرض في آب 1179م.

بعدها عقد الملك «بودوان» عقد هدنة مع صلاح الدين لسنتين، بسبب القحط وانحباس الأمطار منذ سنوات.

اتخذ الصراع بين الفرنج والمسلمين في ما وراء الأردن منحىً جديداً، بسبب مغامرات «أرناط» Renaud de Châtillon صاحب الكرك. واتخذ طيش «أرناط» توجّهاً خطيراً مع محاولته مهاجمة شبه الجزيرة العربيّة. وكان المذكور في ما سبق، سنة 1153م، قد تولّى حكم أنطاكية بزواجه الأول من أميرة أنطاكية «كونستنس» Constance أرملة حاكمها «ريمون دو بواتيه» Raymond de

Poitiers. ثم سمح له زواجه الثاني بأن يصبح سيّد ما وراء الأردن ووادي موسى، متحكّماً عبر شرق الأردن في الطريق الذي يربط الحجاز بمصر. وإدراكاً منه لقيمة مرفأ العقبة عمد إلى احتلاله.

وكان «دو شاتيون» يخطّط لغزو شواطئ البحر الأحمر، وقد عزم على المسير في البرّ إلى «تيماء» ومنها إلى مكة للاستيلاء على تلك الأنحاء، فسار عسكر صلاح الدين بقيادة «فرخشاه» إلى أعمال الكرك سنة 577هـ/1182م ونهبها وخرّبها، لردع «البرنس أرناط».

هذه الأمور حتمّت عودة صلاح الدين سنة 578هـ/1182م، إلى المنطقة، بعدما كان قد رحل إلى مصر. وقدّر لصلاح الدين أن يأخذ حلب، وجوارها في 12 حزيران 1183م، وحارم، ولاحقاً الموصل والرها وغيرها، فازداد قوة عسكريّة، وعيّن بهرام شاه، ابن فرخشاه، على بعلبك، ومحمد ابن المقدّم على دمشق.

توجّه صلاح الدين في السنة التالية 580هـ/1184م، وبالأحرى 1183م، مع ما تجمّع لديه من جيش، إلى فلسطين وشرق الأردن، وخصوصاً الكرك التي حاول اقتحامها على دفعتين. وكان في مقدّمة المتصدّين له، إضافة إلى قوّات الملك، «ريمون»، «كونت» طرابلس، الذي عمد الملك المجذوم إلى توكيله، القيادة العامة Bailli لعشر سنوات حسب قوانين المملكة، هي فترة عدم رشد الملك، من دون أن يكون وصيّاً Tuteur.

أحسن ريمون القيادة، وتمكّن من عقد هدنة مع صلاح الدين، لأربع سنوات. وخلال الهدنة توفّي «بودوان» في آذار 1185م، فآلت المملكة بعده في سنة 581هـ/1185م إلى الصغير «بودوان» الخامس.

توفي الملك الصغير سنة 1186م، فخلفه «غي دو لوزينيان»، زوج الملكة «سيبيل».

جاءت مغامرات «دو شاتيون»، في هذا الوضع الحرج في المملكة لتزعزع كيانها عندما أقدم حاكم الكرك المذكور على نقل قطع مراكب فرنجيّة على ظهر الجمال حيث جرى جمعها في العقبة، لتبدأ سلسلة أعمال إجرامية وقرصنة حتى عدن، وضدّ شواطئ الحجاز والحجاج المسلمين.

وقاد الطيش والرعونة «دو شاتيون» إلى الضرب بعرض الحائط بالهدنة المعقودة مع صلاح الدين، مستولياً على قافلة آتية، في نهاية سنة 1186م، أو مطلع 1187م، من مصر إلى دمشق. وإذ

تلكّأ «دو لوزينيان» في معاقبة «أرناط»، اعتبر صلاح الدين نفسه في حلّ من الهدنة، وخصوصاً أنّ موقّعها، الـ«كونت ريمون»، لم يعد مسؤولاً.

نتيجة هذه الأجواء، بدأ صلاح الدين سلسلة هجمات على طبريّة التي كانت لـ«كونت» طرابلس، ثمّ الكرك سنة 582هـ و583هـ/1186م و1187م. ثمّ وسّع دائرة حشد القوّات من كلّ أقطار سلطنته، فخاف الفرنج وتنادوا لجمع جيشهم، ولم يبقَ خارج الحظيرة سوى «ريمون»، «كونت» طرابلس، الذي رفض الانضمام إلى حشودهم. ولكن بعد مداخلات، من كلّ المستويات، وتهديد أصحابه، وتهديد البطريرك له بحرمه وفسخ زواجه، واتهامه بالخيانة، قبل مجاراتهم، وعبثاً حاول إقناع الملك «غي» بالعزوف عن المعركة، لأن أرضيّتها ليست لصالح الفرنج، والقبول بسقوط قلعة طبريّة، خاصته، حيث كانت توجد زوجته وعائلته بيد صلاح الدين، على أن ينفس ذلك الاحتقان السياسيّ القائم.

في سنة 583هـ/ 1187م، حاصر صلاح الدين طبريّة، ثمّ تلت ذلك معركة حطّين، بالقرب من مقام النبي شعيب بين الناصرة وطبريّة، في 3 - 4 تموز 1187م، فكان النصر حليفه. ولم ينجُ من جيش الفرنج البالغ 20 ألفاً من المشاة و1200 من الفرسان، سوى عدد قليل. وأُخذ عود الصليب، ووقع في الأسر ملك بيت المقدس، «غي دو لوزينيان»، الذي عومل باحترام من قبل صلاح الدين، و«أرناط»، حاكم الكرك، الذي تحدّى شعور المسلمين. وقد عمد صلاح الدين إلى قتله بيده، كما كان قد أقسم على ذلك. كما قتل كلّ «التركوبول» Turcopoles وفرسان الهيكل و«الإسبتار» كعادته في المعارك السابقة. ومن بين الأسرى، بالإضافة إلى الملك، زعماء المناطق اللبنانيّة ومنهم (هنري) «همفري» سيّد تبنين، و«هيو» (اوك) «هوغ» الثالث صاحب جبيل، و«فروخ» صاحب بيروت، وإبن صاحب اسكندرونا، ورئيس فرسان الهيكل ورئيس «الإسبتار»، و«غليوم دو مونتفرا» الذي كان قد حطّ رحاله في مملكة القدس قبل سنتين، وهو والد «كونراد» الذي سيأتي الكلام عليه، وسيّد البترون. أمّا ريمون فقد تمكّن من الفرار هو وصاحب أنطاكية و«جوسلين» الثالث، وتجاوزوا البحيرة، بواسطة تقي الدين، صاحب حماه، فمضى «ريمون» إلى صور، أوّلاً، ثم هرب إلى طرابلس ومات فيها بداء ذات الجنب، وكذلك هرب من المعركة صاحب صيدا «رينو غارنيه» Renaud de Saete و«باليان بن بارزان» Balian d’Ibelin.

وقبل موته كان «ريمون» قد اتفق على أن يتولّى أمر «كونتيّة» طرابلس الإبن الأكبر لـ «بوهمن» الثالث صاحب أنطاكية، على أن تردّ الـ«كونتيّة» إلى أيّ كان من سلالة «سان جيل» يطالب بها مستقبلاً. ولكن «بوهمن» الثالث أبدل ابنه الأكبر «ريمون» بابنه الأصغر «بوهمن» الرابع.

النصر الكاسح، في حطّين، قرّر مصير المملكة اللاتينيّة، وقضى تقريباً، عليها، بعدما استعجل صلاح الدين حصد نتائج المعركة وفقدان أغلبية الفرسان الفرنج للدفاع عن الأراضي المحتلة. فبعد حصار، دام أسبوعين، سقطت عكّا، ثمّ تابع جيش صلاح الدين زحفه نحو المدن اللبنانيّة، فسقطت الإسكندرونا (سكنداليون) على ساحل البحر، بين صور ورأس الناقورة، ثمّ سقطت تبنين في يوم الأحد 18 جمادى الأوّلى 583هـ/26 تموز 1187م، وفتح هونين بعدها بقليل، وسقطت الصرفند في 21 جمادى الأوّلى/29 تموز 1187م. وفي اليوم عينه، سقطت صيدا، ووصل السلطان إلى بيروت نهار الأربعاء 11 جمادى الأولى سنة 583هـ/19 تموز 1187م فاستسلمت.

ولمّا كان حاكم جبيل «الأمبرياتشي» قد وقع في الأسر، أيضاً، إثر معركة حطّين، اشترط لتسليم جبيل فكّ أسره، فاستجيب طلبه. وأخذ صلاح الدين جزين والمنيطرة وعدلون والبترون وحصن أبو الحسن (في بلدة صفاريه الحاليّة في قضاء جزين على مجرى نهر الأولي). ولم يبق على الساحل اللبنانيّ، بأيدي الفرنج، سوى طرابلس و«كونتيّتها».

وكان ما تبقى من جيش الإفرنج قد ارتدّ إلى صور، حيث اختبأ داخل أسوارها. وساهم في إعطائها أملاً جديداً وصول «كونراد دو مونتفرا» Conrad de Montferrat (المركيس) من القسطنطينيّة إليها، ومعه جماعته من الفرسان في جمادى الأولى 583هـ/14 تموز 1187م، فتسلّم زمام الحكم فيها. وقويت سلطته فيها بعدما حاصرها صلاح الدين ثمّ فكّ الحصار عنها.

تابع صلاح الدين توسّعه فأخذ عسقلان في جمادى الآخرة 583هـ/5 أيلول 1187م. وحاصر عاصمة مملكة بيت المقدس مدّة أسبوع، وتقبّل استسلامها في 2 تشرين الأول 1187م. وتابع عمليات الفتح شمالاً حتى اللاذقيّة وجبلة وصهيون، وجنوباً حتى الكرك والشوبك.

بموت «ريمون» الثالث، من دون عقب، انتقل ت «كونتيّة» طرابلس لإبن أمير أنطاكية، نسيب ريمون، المدعو «ريمون ابن بوهمن». فانتقل ت من بيت «سان جيل» إلى بيت «النورمانديّين».

ومن طرابلس انعطف صلاح الدين إلى طرطوس، فأخذها، وامتنعت عليه المرقب، وتسلّم جبلة وكذلك حصن بكسرائيل. وتابع استيلاءه على حصون اللاذقيّة وما يليها باتجاه أنطاكية.

وتمكّن من فتح الكرك على يد أخيه الملك العادل، ثمّ صفد في 14 شوال 584هـ/6 كانون الأول 1188م، ثمّ سقطت كوكب في منتصف ذي القعدة من السنة نفسها. وعيّن صلاح الدين حسام الدين بشاره والياً على عكّا، ولعلّ عائلته هي مَن أعطت اسمها، لاحقاً، لجبل عاملة تحت اسم بلاد بشاره.

وبهذه السيطرة، على هذه القلاع، أضحى صلاح الدين سيّد البلاد الممتدّة من خليج إيلات إلى بيروت.

في ربيع الأول سنة 585هـ/ايار1189م، أخذ عسكر صلاح الدين قلعة شقيف أرنون.

أطلق صلاح الدين سراح الملك «غي» فسار برفقة زوجته «سيبيل» وأخويه «غودفروا» و»آموري» ومعه 600 فارس إلى صور. ولكنّ «كونراد» رفض دخوله. وعندما انضمّ اليه شتيت من أمم فرنجيّة قرّر أن يأخذ صيدا، فارتد عنها خائباً فسار إلى عكّا، في19 رجب 586هـ/22 آب 1190م برًّا وبحرًا. فما كان من صلاح الدين إلّا أن أسرع لمنع سقوطها بيد الفرنج فبدأ حصاراً لها، تبعه حصار مضاد دام ثلاث سنوات.

في تلك الأثناء سارت إلى المشرق الحملة الثالثة. بقيادة كلّ من الإمبراطور «فردريك بربروسا»، Frédéric I Barberousse الألمانيّ وملك فرنسا «فيليب أوغست»، الذي وصل في 20 نيسان 1191م. ووصل أيضاً من دون جيش كثير، ملك بريطانيا «ريكاردوس قلب الأسد»، Richard Coeur de Lion. وكان أوّل القادمين ملك ألمانيا، الذي سلك طريق البرّ، وغرق خلال عبوره نهراً في «كيليكية» يدعى «سليف» Sélef، وعاد معظم رجاله إلى أوطانهم، ولم يصل منها سوى ابنه مع ألف رجل.

طوّق الإفرنج عكّا، وقطعوا عنها طريق البحر، حتى استسلمت وطلبت الصلح في 17 جمادى الآخرة 587هـ/12 تموز 1191م.

بعد سقوط عكّا، رحل «فيليب أوغست» إلى فرنسا. وبعد عكّا وفّق الفرنج بإعادة احتلال قيسارية وعسقلان التي دمرّها صلاح الدين خوفاً من وقوعها بيد «ريكاردوس». أمّا رحيل «قلب الأسد» أيضاً، فسيتمّ بعد عقده للصلح مع صلاح الدين.

انتقل ت زعامة مملكة القدس من أورشليم إلى عكا، وسط تنافس على قيادتها بين الملك «غي» الذي يؤيده «ريكاردوس قلب الأسد»، و«المركيز كونراد» الذي يؤيده «فيليب أوغست»، وتمّ التوافق بين الفرنج على حلّ وسط بأن يكون «غي» ملكاً مدى الحياة، على أن ينتقل الملك بعده إلى «كونراد» وذرّيته، وكان الحظ لصالح «غي» نتيجة اغتيال «كونراد» على يد «الحشاشين». وتعثّر الحظ مع «غي» في استعادة سلطته، إذ إنّ «هنري» (كندهري) «كونت» «شامبانيا»، تزوّج «ايزابيل» زوجة كونراد، وحاملة الحق بالوراثة، وكانت حاملاً من «كونراد» وسيعوّض عليه الملك «ريكاردوس» الخسارة بالتنازل له عن قبرص.

استمر «ريـكـاردوس» بالاتصالات بينه وبين السلطان، وأثمـرت صلحًا في عسقلان سنة 588هـ/1192م، لثلاث سنوات وثمانية أشهر، بدءاً من 21 شعبان/ أول أيلول 1192م. على أن يكون الساحل للإفرنج وداخليّة البلاد للمسلمين، وعلى إلا يتعرّض أحد بأذى للحجّاج الوافدين إلى بيت المقدس، وأن يُرجع المسلمون عود الصليب الذي سقط بأيديهم في حطّين، ويطلقوا سراح المسجونين من المسيحيّين، ويدفعوا جزاء من 200000 «بيزان» ذهباً.

ولم يهنأ صلاح الدين بالصلح إذ توفّي في سن الخامسة والخمسين، يوم الأربعاء 27 صفر 589هـ/4 آذار 1193م.

خامساً - تفكّك سلطنة صلاح الدين وإمارات الفرنج

توزّعت سلطنة صلاح الدين بعد وفاته بين أولاده وأخوته فساهم ذلك في تفكيكها إلى وحدات صغيرة ومتناحرة فعادت المدن تباعًا إلى أيدي الإفرنج.

في سنة 590هـ/1194م أو في 1197م. استولى الفرنج، من عائلة «الأمبرياتشي»، على جبيل. بعد جبيل، جاء دور بيروت في 24 تشرين الأول 1197م. وأعطيت «سنيوريّة» المدينة من قبل الملك «إيمري» إلى «جان ديبلين» الأوّل Jean d'Ibelin.

بموت الملك «هنري» في 10 أيلول 1197م، تزوّجت ايزابيل حاملة وراثة العرش، من «إيمري»، ملك قبرص، شقيق «غي». فتوحّد التاجان: تاج مملكة قبرص وبقايا تاج مملكة القدس، ولكنّ «إيمري» رفض أن يدمج المملكتين، لأنه كان ملكاً فعليّاً على قبرص، وبالوكالة عن القدس، بزواجه ملكتها «إيزابيل».

في هذا الزمن نشأ تنظيم ثالث جديد للفرسان هو «التيتون» St. Marie des Teutoniques، الألمانيّ الهويّة، المرتبط بالعائلة الإمبراطوريّة، «الهوهنشتوفن».

في سنة 597هـ/1200 - 1201م دبّ الصراع بين القادة الأيوبيّين. فحوصرت دمشق، وجاء الأفضل والظاهر، وكان العادل في مصر، وحسام الدين بشارة في بانياس. وجاء العادل فدخل دمشق، ومضى المعظم عيسى وشركس و»قراجا» فحاصروا بانياس.

في سنة 597 هـ/1201م، ضربت الزلازل قلاع الساحل، وتهدّمت هونين وتبنين وبعلبك. وسقط جبلان على قوم من أهل بعلبك، كما طالت أيضاً طرابلس ودورها وسورها. وسيلي هذا زلزال آخر في 1202م.

إثر وفاة «بوهمن» الثالث، أمير أنطاكية، في مطلع سنة 1201م، عمد ابنه «بوهمن» الرابع صاحب طرابلس (1201 - 1233م) الذي آلت إليه «الكونتيّة» سنة 1187م، يؤيّده فرنج أنطاكية، وتخوّفاً من سيطرة العنصر الأرمنيّ الذي يؤيد شقيقه «ريمون - روبين» من أبيه، إلى احتلال أنطاكية. فتدخّل «ليون» ملك أرمينية الصغرى لصالح «روبين».

توفّي الملك «ايمري دو لوزينيان» في أول شهر نيسان 1205م فانقسمت مملكة القدس - قبرص، بين ابنه «هيو» Hugues الأول في قبرص. وبين «ماري»، فزُوّجت ماري «جان دو بريان» في 14 أيلول أو 3 تشرين الأول 1210م في عكّا، واحتفل بتنصيبه ملكاً في صور.

توفيت «ماري» سنة 1212م تاركة العرش لفتاة تدعى «إيزابيل»، لا تزال في المضجع، فأصبح والدها «جان دو بريان» وصيّاً على العرش حتى بلوغها.

عانى الفرنج، في هذه الحقبة، من اغتيالات الحشاشين، عندما اغتالوا، سنة 610هـ/1213م، «ريمون»، أكبر أبناء «بوهمن»، أمير أنطاكية.

منذ سنة 1213م بدأت الدعاية في أوروبا للحملة الصليبيّة الخامسة، فنجم عن ذلك في ربيع الأول من العام نفسه، 615هـ/نيسان 1218م، وصول فرنج جدد إلى المشرق، فقرّروا الهجوم على مصر، لأنّها الجناح الثاني بعد بلاد المشرق الذي يحمي القدس. ولم يكتمل الاجتماع العسكريّ الأيوبيّ، وإبّان الهجوم توفّي الملك العادل في 7 جمادى الآخرة 615هـ/31 آب 1218م، عند تبلّغه خبر سيطرة الفرنج على برج السلسلة في دمياط. وكاد مشروع الهجوم ينجح لولا المناكفات الفرنجيّة فاستردّ الأيوبيّون دمياط سنة 618هـ/1221م، بعد عقد هدنة في 7 أيلول 1221م لثماني سنوات.

سادسًا - المشرق في ظلّ الإمبراطوريّة الألمانيّة: الإمبراطور «فردريك»

مع موت «ماري»، زوجة «جان دوبريان»، فقد المذكور حقّه كملك، وآل ذلك إلى ابنته «إيزابيل» من «ماري دو مونتفرّا». ولمّا كان الإمبراطور «فردريك» الثاني (1212 - 1250م)، وارث عرش الإمبراطوريّة الجرمانية المقدسة وألمانيا وإيطاليا الشماليّة ومملكة «أرل» وصقلية وإيطاليا الوسطى أرملَ بعمر الثمانية والعشرين، قرّر البابا «هونوريوس» الثالث و»جان دوبريان»، وزعيم الفرسان «التوتون»، تزويجه «إيزابيل»، على أمل أن يحثّه ذلك على السير إلى الأراضي المقدّسة. فتمّ الزواج عندما بلغت إيزابيل الرابعة عشرة. وما إن بلغت زوجته السادسة عشرة حتى توفّيت في 4 أيار 1223م، أثناء الوضع، تاركة له «كونراد» الرابع، الوريث الشرعيّ لمملكة القدس. فأصبح «فردريك» نتيجة لذلك وصيًا على عرش المملكة، ما سيدفعه إلى إرسال مندوب له مقيم في عكّا لممارسة أصغر حقوقه كملك للقدس.

في هذا الوقت تحرّك الفرنسيّون والإنكليز إلى صيدا، إثر موت سلطان دمشق، المعظّم، في مطلع تشرين الثاني 1227م، واستولوا على النصف الثاني من مدينة صيدا الذي كان لا يزال بيد الأيوبيّين، وعملوا على تحصينها، وبنوا قلعة البحر على جزيرة تبعد 80 متراً شماليّ المدينة.

وبعد مراجعات متعددة من قبل البابا سار «فردريك» في 28 حزيران 1228م باتجاه الشرق، فنزل في قبرص في 11 تموز 1228م وفي 3 أيلول 1228م توجّه إلى عكّا، مع حفنة صغيرة من الفرسان فوصل إلى يافا في تشرين الثاني 1228م واستولى على صيدا وحصّنها، كما حصّن «مونتفرت» وقيصرية. وساعدت الظروف «فردريك» على تحقيق حلم استعادة القدس سلماً، مستغلاً الخلافات بين الأيوبيّين، فالملك الكامل كان مهتمّاً بانتزاع دمشق من ابن أخيه الناصر داود، أكثر من اهتمامه بالقدس، فعقد معاهدة في يافا في 18 شباط 1229م، مع الإمبراطور تنازل بموجبها عشر سنوات عن القدس وبيت لحم والناصرة للإمبراطور «فردريك»، وأيضاً عن «سنيوريّة» تبنين، وعن الجزء الذي كان لا يزال بيد المسلمين في صيدا وجوارها. وتوافق العاهلان على أن تكون القدس في عهدة الفرنج، وأن تبقى مدينة مقدسة للمسيحيّين وللمسلمين. وتحقيقاً للاتفاق زار «فردريك» نفسه القدس في

17 آذار 1229م حيث أشرف على تطبيق بنوده، وعلى منع أيّ مظهر يسيء إلى تسامحه مع ممارسة المسلمين لشعائرهم، وعلى تتويج نفسه ملكاً.

اضطّر الإمبراطور فردريك إلى ترك المنطقة في أول أيار 1229م. معيّنا نائبين عنه في حكم مملكة القدس وفي قبرص.

بعد رحيل «فردريك» الثاني إلى صقلية، جرت متغيّرات مهمّة في دستور المملكة ونظامها. فتحوّل قادة البلاد من النظام «الفيوداليّ» إلى النظام «الأوليغارشي»، الذي يضع على رأس الدولة مجموعة عائلات أو عائلة واحدة مع زبائنها.

عمل الإمبراطور على تعيين قائد جيشه، الماريشال «ريشار فيلانغياري» Filangieri مندوباً عنه. فهاجم بيروت وحوّل صور قاعدة لسلطته. وفي هذا الوقت بدأت في المدن الفرنجيّة المشرقيّة تنشأ سلطات محليّة «كومونة» تضمّ الأغنياء والفرسان والبورجوازيّة.

نتيجة تنافس الحكّام الأيوبيّين في ما بينهم، انتُزعت بعلبك من الملك «الأمجد بهرام شاه بن فروخشاه»، في ربيع 627هـ/1230م للملك الأشرف موسى، حاكم دمشق، على أن تكون الزبداني وقصير ودمشق للأمجد وللصالح بعلبك. وما إن انتقل الأمجد إلى دمشق، حتى اغتيل في السنة التالية في 628هـ/1231م.

ولم يكن وضع الإمارات الأيوبيّة أفضل، فقبيل وفاة الملك الأشرف، في محرّم 635هـ/آب1237م، كان قد عهد إلى أخيه الصالح عماد الدين إسماعيل، المعروف بأبي الخيش، بخلافته على دمشق وبعلبك. ولكنّ أخاه، الملك الكامل، صاحب مصر، أسرع إليها، وأجبر إسماعيل على التنازل عنها. ومع وفاة الكامل، في رجب 635هـ/شباط 1238م، خلفه ابنه العادل على مصر، فانتهز أخوه الصالح نجم الدين الفرصة، وتسلّم دمشق، وسعى لإقصاء أخيه العادل عن مملكته، بالتوافق مع عمّه حاكم بعلبك، الصالح إسماعيل، على أن يعطيه دمشق عندما يتحقق مشروعه. فما كان من العادل إلا أن عرض على الصالح إسماعيل أخذ دمشق. وفي صفر 637هـ/أيلول 1239م، توجّه الصالح إسماعيل إلى دمشق، متظاهرًا بالخروج إلى نابلس، حيث كان ينتظره نجم الدين، وبسرعة قصوى، استولى على المدينة. وانتهى الأمر بنجم الدين مسجونًا، من قبل الملك الناصر داود، حاكم الكرك، ولكنّ الحظ كان إلى جانبه إذ عاد فاستولى على مصر.

وصول نجم الدين إلى مصر، دفع الصالح إسماعيل إلى التقرّب من الفرنج، سنة 638هـ/1240م، لمناصرته في حكم دمشق. ولقاء ذلك، تنازل لهم، عن الجليل مع بلاد شقيف أرنون وقلعتها وبلادها، وقلعة صفد، وطبريّة وأعمالها، وجميع بلاد الساحل والناصرة، وتنازل أيضاً عن جبل عاملة ومناصفة صيدا لصاحب صيدا، وكانت المناصفة قد عادت إلى المسلمين عند انتهاء المعاهدة في السنة السالفة، أي «ارض سنيوريّتي صيدا وطبريّة». وسلّم الصالح إسماعيل والناصر داود، صاحب الكرك، القدس إلى الفرنج وما فيها من مزارات.

بدأ فرنج صور التملّص من «فيلانغياري»، وحاولوا إيجاد مخرج قانونيّ، مستغلين مناسبة نهاية وصاية «فردريك» مع بلوغ ابنه «كونراد» سنّ الرشد في 25 نيسان 1243م. وبما أنّ عادات المملكة تقتضي أن يكون الملك حينها حاضراً لأخذ التاج، وإذا لم يحضر الوريث، توكل إدارة المملكة إلى النسيب الأقرب الذي يكون حاضرًا.

وبما أنّه يصعب تحقيق ذلك، اعترفوا بـ أليس» وزوجها الثالث «راوول دو سواسون» وصيين على المملكة، وهي ابنة «هنري دو شامبانيا»، زوج الملكة «إيزابيل» ابنة الملك «آموري» الأول، الذي حكم المملكة من 1192م إلى 1197م. وهي الوريثة الأقرب إلى الملكيّة بعد «كونراد».

وبعدما أقسم الفرنج والفرسان يمين الولاء للوصيّة الجديدة، توجّهوا إلى صور سنة 1243م لانتزاعها من «فيلانغياري». فرضخ الأخير، وانتهت بذلك قصة عائلة «فيلانغياري» في صور.

استدعى حاكم مصر الصالح نجم الدين أيوب الخوارزميّة من آسيا الوسطى لمساعدته، ضدّ الصالح إسماعيل حاكم دمشق، فعبر منهم 10000 فارس الفرات، يتزعّمهم ملكهم «بركة خان». فساروا إلى القدس، مرتكبين مذبحة بمن كان فيها من الفرنج والمسيحيّين الشرقيّين، محرقين جماعة كثيرة من النصارى في كنيسة القيامة، وقاتلين بطريرك الروم، مخرجين المسيحيّين على مختلف هوياتهم منها، نهائيّاً، في 11 تموز 1244م. ولم يكن مصير الذين سمح لهم بترك المدينة، بحماية ملك شرق الأردن، بأفضل حال، إذ أبيدوا على الطرقات المؤدية إلى يافا. وقيل إنهم قتلوا قرابة الثلاثين ألفاً في المدينة.

وأخيراً تمكّن الملك المنصور إبراهيم، صاحب حمص، من الانتصار على الخوارزميّة في مطلع 644هـ/1246م، وقتل ملكهم «حسام الدين بركة خان».

سابعًا - الملك لويس التاسع الفرنسيّ يساند فرنج المشرق في منتصف القرن الثالث عشر

قدم «لويس» التاسع (1226 - 1270م)، ملك فرنسا (ريد افرنس)، إلى قبرص من مدينة «ايغ مورت» Aigues - Mortes الفرنسيّة، على شاطئ المتوسط. ثمّ انتقل إلى المشرق في 13 أيار 1249م. وكان هدف حملته مصر التي وصلت قوّاته إليها في دمياط في 4 حزيران 1249م.

في بادئ الأمر احتلّ الفرنسيّون دمياط، ولكنّ «توران شاه» (1249 - 1250م) انتصر عليهم، وقتل منهم قرابة 30 ألفاً، وأسر ملكهم ومعه قرابة 10000.

إثر ذلك قتل المماليك بقيادة عز الدين أيبك، توران شاه سنة 648هـ/ 1250م، فحلّت محله زوجة ابيه «شجر الدّر»، التي تزوجها أيبك فرفض الأمراء الكبار الانصياع لها، كامرأة. ونجم عن ذلك وصول المماليك البحريّة إلى السلطة. ثم مع مقتل أيبك في عام 1257م خلفه المظفر قطز.

بعد افتداء نفسه، جاء الملك «لويس» إلى عكّا، وقرّر البقاء في الشرق.

ومن يافا، بعد أن حصّنها جيداً، انتقل إلى عكّا ثمّ إلى صور حيث انطلقت فرقة من الجيش إلى بانياس، فسيطروا عليها. وبالوصول إلى صيدا، أخذ بتقوية المدينة بالأسوار العالية والأبراج الضخمة. وخلال أربع سنوات، من 1250 إلى 1254م، كان عمل الملك إعادة ترميم عكّا وحيفا وقيصرية ويافا وصيدا وتحصينها، وبانياً قلعة بريّة في صيدا إضافة إلى البحريّة، جاعلاً مقرّه في الأخيرة، التي عرفت بقصر «سان لويس».

وفي سنة 652هـ/1254م رحل الملك « لويس» نهائيّاً إلى فرنسا.

رحيل الملك «لويس» التاسع إلى فرنسا، وضع زعامة الفرنج، بيد «السنشال جوفروي دو سرجين» Geoffroi de Sargines، الضابط الذي تركه وراءه، والوصيّ على المملكة، «جان ديبلين»، محرّر كتب التشريعات الفرنجيّة Assises، كونت يافا، وقد آلت الأمور بقيادتهما إلى توقيع هدنة مع المسلمين لعشر سنوات (1256 - 1266م).

استعرت بعد رحيل الملك لويس «التاسع»، الصراعات بين الجاليات الإيطاليّة التجاريّة، من «بنادقة» و«جنويّين» و«بيزانيّين.

ثامنًا - المغول يفتكون بالمشرق

وصلت قوات «هولاكو» Hoùlàgoù (1217 - 1266م) إلى بغداد فقضت في 5 شباط 1258م على المستعصم بالله، آخر الخلفاء العبّاسيّين السبعة والثلاثين، ثمّ احتلّت حلب، سنة 658هـ/ كانون الثاني 1260م، وفرّ الملك الناصر يوسف من دمشق، وحاصر «كتبغا نوين» Kitbôghà القائد المغوليّ، بعلبك وأخذها بالقوّة.

وكان فريق من الفرنج وعلى رأسهم «بوهمن» السادس، يؤيّدون التحالف مع «كتبغا»، أمّا فرنج عكّا، ففتحوا الطريق أمام «قطز» (657 - 658هـ/1259 - 1260م) و«بيبرس» لضرب المغول، وسمحوا لقوات المماليك بأن تمرّ في أراضيهم وتُعسكر عند أسوار عكّا.

فريق من الأمراء البحتريّين في وسط جبال لبنان كان أيضاً مواليًا للمغول.

وفي العام نفسه لاحتلال المغول للمنطقة، اضطر «هولاكو»، فجأة، إلى الانسحاب مع أكثريّة جيشه، تاركاً «كتبغا» وحده لمتابعة احتلال بلاد الشام، بسبب المتغيّرات على زعامة المغول، فكان على كتبغا مجابهة القوى الإسلاميّة منفرداً بحيث تمكّن «قطز» المملوكيّ، من «كتبغا»، في عين جالوت، والانتصار عليه وقتله في 25 رمضان سنة 658هـ/3 أيلول 1260م، ثم استيلائه بعد ذلك على سورية بأجمعها، وفي حين رجوعه إلى مصر اغتاله «بيبرس» قرب غزة.

تاسعًا - المماليك يفتحون المشرق ويحسمون الوجود الفرنجيّ فيه

قضى بِيبرس على المظفر قطز (657 - 658هـ/1259 - 1260م) الذي كان المؤسس للسلطنة المملوكيّة، وأعلن نفسه في 17 ذي القعدة 658هـ/24 تشرين الأول 1260م سلطاناً، وبقي في السلطنة إلى 27 محرّم 30/676 حزيران 1277م. تزامنا مع إعلان بيبرس نفسه سلطاناً سعى سنجر لإعلان نفسه سلطاناً في دمشق سنة659هـ/1261م، فكان على بِيبرس إقصاؤه عن ذلك. فهرب سنجر إلى قلعة بعلبك، وفيها أُسر، ثم أفرج عنه السلطان.

وفي وسط الجبال اللبنانيّة دفع الأمراء البحتريّون ثمناً باهظاً للمتغيّرات الحاصلة، نتيجة اتصال بعض أمرائهم، وكذلك أمراء مسلمين آخرين، بالمغول قبيل معركة عين جالوت، وتقديم الخضوع لهم، ثمّ محاولتهم لاحقاً التقرّب من السلطان. ولتأكيد سلطته، سار السلطان بِيبرس إلى دمشق، فحضر إليه صاحب حمص وصاحب حماه، فأعطى الأخير بلاد الإسماعيليّة. وجاءت رسل الفرنج، في منتصف 659هـ/1261م إلى السلطان، ببلد الساحل، يسألونه الحضور إلى أبوابه، فرسم بتقرير الهدنة لـ«كند» يافا، ولصاحب بيروت، على القاعدة التي كانت مقرّرة في الأيام الناصريّة (الملك الناصر يوسف بن غازي)، وإطلاق الأسرى.

تسبّبت هذه الفتوحات بعمليات جور بحقّ المسيحيّين، بحيث إنّه في سنة 1262م أو 1264م، بعدما كان الموارنة قد أنشأوا الكنائس في حصرائيل وسواحل البحر، أبطل سكان قرية إدّه، في شمال لبنان في بلاد البترون، التصوير على حيطان كنيسة مار سابا بسبب الخوف من الاضطهاد، وبلّطوا فوق الصور.

في السنة 664هـ/1266م، سيّر بيبرس عسكره ناحية ساحل طرابلس، ففتح حصوناً من عمل حصن الأكراد وفتح قلاع حلبا وعرقا والقليعات.

وفي نهاية السنة ذاتها 664هـ/تشرين الأول 1266م، تمكّن بِيبرس من أخذ تبنين وهونين وهدمهما، بعد سلسلة هجمات في المناطق التابعة لعكّا وصور.

بعدما انتهى السلطان من فتح يافا في آذار 1268م، رحل عنها إلى شقيف أرنون. والحصن المذكور له قلعتان. فتسلّمه المسلمون بعد حصاره في 29 رجب 666هـ/15 نيسان 1268م.

ثم رحل السلطان عن الشقيف إلى طرابلس وأعمالها، حيث وصلها في أوّل أيار 1268م، فقطع عسكره الأشجار، وخرّبوا ما حولها من الكنائس، ونهبوا وسبوا الفلاحين، ولكن الجبل، حيث الموارنة كان مغطّى بالثلج، فأعاق ذلك تحرّكاتهم.

في شعبان 666هـ/نيسان - أيار 1268م، أغارت قوّاته على قرية الحدث في منطقة الجبّة من جبل لبنان الشماليّ، فخرّبتها، ونهبت الجبال المحيطة بها، وغنمت شيئاً كثيراً، وأخذت بالسيف مغاور عدّة كان السكان قد تحصّنوا فيها، وأحضروا المغانم والأسرى إلى السلطان، فضرب أعناق الأسرى، وقطع الأشجار وهدم الكنائس.

ثمّ رحل في 29 شعبان/14 أيار 1268م. وسار إلى حصن الأكراد، ومن هناك إلى أنطاكية التي ملكها في الرابع من شهر رمضان سنة 666 هـ/ 18 أيار 1268م.

وفي العام ذاته 1269م بدأ بِيبرس وضع اليد على معاقل الفداوية الإسماعيليّة وهي الكهف والقدموس والمنيقة والعليقة والخوابي. واستكملها بعد أربع سنوات في 671 هـ.

شنّ السلطان الظاهر بِيبرس غارة على طرابلس من جهة بعلبك، ثمّ نزل على حصن الأكراد في 9 رجب 669هـ/21 شباط 1271م، وتسلّم صافيتا وبلادها، واستسلمت الحصون والأبراج المجاورة لحصن الأكراد، مثل تلّ خليفة وغيره.

وتلا هذه الفتوحات في صافيتا وتلّ خليفة، فتح المجدل وحصن الأكراد وعكّار والعليقة سنة 669هـ/1271م.

عمل بيبرس على تجديد معاهدة صلح، بعد صلح طرابلس، بين بِيبرس و»جان دو مونتفور» سنة 669هـ/ 1271م لعشر سنوات على أن يكون لصاحب صور عشر بلاد خاصًا، ولبِيبرس خمس بلاد يختارها خاصًا، وبقية البلاد مناصفة.

في 21 رمضان 670هـ/21 نيسان 1272م، وقّع بِيبرس هدنة جديدة لعشر سنين، وعشرة شهور، وعشرة أيام، وعشر ساعات مع عكّا.

عانت طرابلس كثيرًا من مسألة الصراعات الداخلية على النفوذ بسبب النساء زوجات أسياد طرابلس. وكان سبب ذلك تأثير الرومانيّين على مجريات الأمور، بعد زواج «بوهمن» الخامس (1233 - 1251) من «لوسي دو سانيي» Lucie de Segni الإيطاليّة الرومانيّة، نسيبة البابا «اينوسنت»

الثالث، التي استدعت أهل بلدها لملء المناصب في الكونتيّة. فأثار هذا الأمر حفيظة السكان الفرنج ضدّ الرومانيّين.

استفحلت الخلافات في كونتيّة طرابلس سنة 1276م عندما اختلف «غي» الثاني (1271 - 1282م)، سيد جبيل، ابن «هنري الأمبرياتشي» مع «بوهمن» السابع، «كونت طرابلس». وكانت سنيوريّة جبيل أهم «فياف» في كونتيّة طرابلس، كما عرفنا سابقاً، وكان أسيادها «الأمبرياتشي» في صراع مع عائلة «بوهمن»، ونتجت من ذلك أحداث أليمة، وقعت بين «برتران» الثاني و»بوهمن» السادس. وفي تلك الأحداث كان «الأمبرياتشي» على رأس الحزب المناوئ للرومانيّين.

دامت هذه الحرب سنوات عدّة، واستمرّت في عهد خلفاء بِيبرس من 1275م إلى 1282م.

بلغ الظاهر بِيبرس سنة 675هـ/1276م أنّ أمراء عبيه كاتبوا «البرنس» صاحب طرابلس، فغضب عليهم، وأخذ الأمراء جمال الدين وزين الدين وسعد الدين، فاعتقلهم في مصر، ونهب أرزاقهم وخُطفت حريمهم وأولادهم وحتى بقرهم. واستمرّ المذكورون في السجن إلى ما بعد وفاة بِيبرس.

بعد وفاة بِيبرس خلفه ابنه «الملك السعيد بركة خان» (676 - 678هـ/1278 - 1279م)، ولكنّه، بعد سنتين ونيّف، أقصي عن السلطة في شهر ربيع الآخر 678هـ/أيلول 1279م، وجيء بأخيه «بدر الدين سلامش». وبعد شهرين خُلع ونَصّب الأمراء المماليك سيف الدين قلاوون سلطاناً.

مع استمرار الخطر المغوليّ على مسرح بلاد الشام، اضطرّ السلطان قلاوون إلى توقيع معاهدات هدنة مع أمراء الفرنج، فكانت معاهدة هدنة مع أهل المرقب. وأخرى بين السلطان وولده ومقدّم «الإسبتار» والأخوة «الإسبتاريّة» بعكّا لمدة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات في يوم السبت 12 محرّم سنة 680هـ/2 أيار 1281م. ثمّ معاهدة مع طرابلس سنة 680هـ/1281م. مع متملّك طرابلس بيمند بن بيمند لمدة عشر سنين كوامل متواليات، أولها السابع والعشرون من شهر ربيع الأول سنة ثمانين، الموافق للخامس عشر من شهر تموز سنة 1592 للإسكندر اليونانيّ.

وفي سنة 681هـ/1282م عقدت هدنة بين المنصور قلاوون وولده وفرسان الهيكل (الديويّة) الممثلين بـ «الفرير المقدّم كليام ديبجوك» بعكّا والساحل والأخوة الديويّة بأنطرطوس، تبدأ في يوم الأربعاء 5 محرّم/15 نيسان 1282م، وهي تشمل بلاد السلطان وبلاد ولده... وفي المعاهدة ذكر لبلدات في شمال لبنان.

وفي يوم الخميس خامس شهر ربيع الأول سنة 682هـ الموافق للثالث من حزيران سنة 1283م عقدت هدنة لمدة عشر سنين كوامل وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات مع الداويّة والإسبتاريّة والفرنج في عكّا.

جُرّدت في عهد السلطان قلاوون حملة على جبة بشراي في سنة 1283م، وخصوصاً على بلدة الحدث فيها، قضي فيها على بطريرك مارونيّ كان متحصّناً فيها.

وتفاصيل هذه الأخبار نجدها في «أزمنة» البطريرك إسطفانوس الدويهي، في معرض كلامه على حملة سنة 1283م على الجبّة من دون أن يشير فيها إلى البطريرك المذكور في الرواية السابقة وإلقاء القبض عليه. وهو يذكر الآتي:

«وقفنا على كتابين للصلاة أحدهما كتب في هذه السنة ألف وخمسماية وأربع وتسعين يونانيّاً في قطين الرواديف الذي بأرض الحدث في القرب من دير ماري يوحنا المعروف بدير آبون وكان ساكن فيه الأسقف إبراهيم الحدثي. والثاني كتب بعد الأول بمايتين وحادية وعشرين سنة أعني سنة ألف وثمانماية وخمس وعشرة يونانيّة؛ فيخبر أن في شهر أيار سارت العساكر الإسلاميّة إلى فتح جبة بشري فصعد شرقيّ طرابلس العسكر في وادي حيرونا وحاصر إهدن حصاراً شديداً وفي نهار الأربعين ملكها بشهر حزيران فنهبوا وقتلوا وسبوا ودكوا للأرض القلعة التي بوسط القرية والحصن الذي على رأس الجبل؛ ثمّ انتقل وا إلى بقوفا وفتحوها في شهر تموز وقبضوا على أكابرها أحرقوهم بالبيوت ونهبوا وسبوا ودكّوها إلى الأرض؛ وبعدما ضربوا بالسيف أهالي حصرون وكفرسارون في الكنيسة توجّهوا في الإثنين وعشرين من شهر آب إلى الحدث؛ فهربوا أهلها إلى العاصي وهي مغارة منيعة فيها صهريج للماء فقتلوا الذين لحقوهم وخربوا الحدث وبنوا برجًا قبال المغارة وأبقوا فيه عسكر يكمن عليهم ثم هدموا جميع الأماكن العاصية؛ وإذ لم يقدروا يفتحوا قلعة حوقا التي قبال الحدث أشار عليهم ابن الصبحا من كفرسغاب بجر النبع الذي فوق بشري وتركيبه عليها فملكوها بقوة الماء لأنّها داخل الشير وأذنوا لابن الصبحا بلبس عمامة بيضه يانس وأن تقيم العبيد بخدمته؛ ولما رجع العسكر وتاب عن سوء فعله عمر دير سيدة حوقا لسكنة الرهبان وهو بالقرب من البرج الذي كان في الشير... «.

وفي رواية أخرى للدويهي يخبر بأنّ الجيش الإسلاميّ توجّه في 22 آب 1283م إلى الحدث التي كان أهلها قد اختبأوا في مغارة عظيمة فيها ويصعب الوصول إليها تدعى العاصي فحاصرها سبع سنوات، ثم بعدما أعطى الأمان لأهلها غدر بهم فقتل عدداً كبيرا من سكانها وأسر النساء والأطفال وأحرق القرية.

وبادرت سيدة بيروت «ايشيف ديبلين»، وسيدة صور «مارغريت الأنطاكية» إلى عقد هدنة مع السلطان قلاوون.

وفي يوم الخميس 14 جمادى الأول 684هـ/18 تموز 1285م وقّع قلاوون هدنة مع «مارغريت» صاحبة صور.

في سنة 684هـ/ربيع 1285م فتح السلطان قلاوون حصن المرقب Margat. وحصن مرقية Maraclée، الواقع بين أنطرطوس والمرقب في وسط البحر، سنة 683هـ/1284م.

في سنة 686هـ مات صاحب طرابلس «بوهمن» السابع من دون عقب، فسار السلطان قلاوون إلى طرابلس وافتتحها.

وفي العام نفسه، تسلّم قلاوون حصن جبيل بالأمان. كما تسلّم أنفة وخرّب حصنها. ونجم عن فتح طرابلس أسر وإبادة أهل المدينة ومن هرب منهم إلى الجزيرة قبالتها وبناء مدينة جديدة على بعد ميل.

في سنة 687 هـ/1288م طلب الملك المنصور قلاوون أمرآ (أمراء) الجبال إلى مصر، وأخذ أملاكهم وإقطاعاتهم، فلم يحضر أولاد أمير الغرب البحتريّين، فأخرج أملاكهم وإقطاعهم.

خلف الأشرف خليل (689 - 693هـ/1290 - 1293م) والده قلاوون. وفي رابع ربيع الآخر سنة 690هـ/7 نيسان1291م، بدأ السلطان الأشرف خليل هجومه على عكّا فتم فتحها في 17 جمادى الآخرة/17 حزيران العام 1291م. وتلا ذلك استسلام صور، وهرب أهلها منها، فأمر السلطان بإخلائها وهدمها. كما تمّ استسلام صيدا التي أخربت هي وجزيرتها التي كان الفرنج قد أحرقوها قبل هربهم إلى جزيرة قبرص، وكانت في المدينة قلعتان في قبليّها وشماليّها فخُرّبتا.

وتمت السيطرة على بيروت في أواخر رجب الأحد 23 رجب/22 تموز العام 1291م. ثمّ عمد إلى هدم أسوارها، ودكّ قلعتها، وجعل الفاتحون كنيسة مار يوحنا فيها جامعًا، واستسلمت عتلية وأنطرطوس وجبيل وخرّبت قلعتها وسورها، فلم يبق بالسواحل معقل للفرنج إلا وبأيدي المسلمين. ولم يلزم البلاد الشاميّة سوى فلاحيها النصارى، وهم داخلون في الذمّة يؤدون الجزية.

وفي سنة 702هـ/1302م فُتحت جزيرة أرواد، فزال وجود الفرنج من الساحل نهائيّاً بالتمام والكمال.

الفصل الثاني:
الإدارة - المجتمع - الاقتصاد - الثقافة – العمران

أولاً - إدارة الفرنج

توزّع المشرق، إدارياً، في ظلّ الاحتلال الفرنجيّ، بين مملكة القدس اللاتينيّة و«كونتيّة» طرابلس وإمارة أنطاكية وكونتيّة الرها. وفي داخل كلّ منها قامت مناطق إداريّة، شكّلت وحدات عرفت باِسم، «سنيوريّة» Seignuerie، كان في داخل كلّ منها هيكليّة إداريّة متشابهة، تقريباً، تستوحي النظم الأوروبيّة الغربيّة، وتأخذ بالواقع، الذي فرضه الاحتلال لبلاد لها نظمها ومؤسساتها، وما يقتضي ذلك من تكيّف معه.

المصادر العربيّة لا تقدّم لنا شيئاً مهمًّا عن الإدارة الفرنجيّة، بينما الوثائق الغربيّة، توضّح الكثير، وخصوصاً ما نجده في كتب التشريع، المعروفة باسم Assises. إضافة إلى ما نشر من الوثائق البندقيّة والجنويّة والبيزيّة وتنظيمات الفرسان.

كان للملك نوع من «سنيوريّة» كبيرة، تضمّ «سنيوريّات» عدّة محورها المدن الرئيسة الثلاث: القدس، عكّا وصور. جوار القدس، فقط، كان تابعاً للملك، بينما كانت الأراضي في جوار صور وعكّا موزّعة «فياف» Fief عدّة بين «فيوداليّين» عديدين. وداخل المدن، المذكورة، كانت تقوم «سنيوريّات»، بعضها شبه مستقل، مثلاً: كان البنادقة أسيادًا في حيّهم على الصعيد الضريبيّ والقضائيّ. وكانت للملك» سنيوريّات» أخرى كبيرة كيافا وأخرى صغيرة.

في سنة 1152م عندما بلغ «بودوان» الثالث سنّ الرشد، وكُرّس ملكاً، حصل على «أرض ملكيّة» Domaine royal تشمل المناطق الساحليّة مع مدينتي صور وعكّا.

السهل الساحليّ وسارون ووادي أسدرلون والجليل وما تبقى من لبنان الحاليّ حتى وادي جسر المعاملتين، كان «سنيوريّات» قائمة بذاتها.

بلغ عدد «السنيوريّات»، (أو البارونيّات) 22 «سنيوريّة» هي التالية: «سنيوريّة» الكرك، كونتيّة يافا - عسقلان، «سنيوريّة» أرسوف وقيصرية وحيفا وطبريّة (إمارة الجليل) وبيسان، «سنيوريّة» بانياس وطورون (تبنين)، «سنيوريّة» إسكندليون، «سنيوريّة» صيدا، بيروت، وصور.

هذه التقسيمات كانت على مراتب، فهناك أربع «بارونيّات» كبيرة في مملكة القدس، واحدة منها صيدا و12 «سنيوريّة» ولكل منها مجلس وعملة ومحكمة.

كان يعاون الملك خمسة موظفين كبار، هم: «السينيشال»، Senescalus Sénéchal الذي كان ينوب مكان الملك، ويحلّ محلّه في مجلس العدل، ويأمر القوّات العسكريّة في غيابه ويهتمّ بعائدات المملكة وبالقصور الملكيّة.

الشخصيّة الثانية كانت «الكونّتابل» Connétable وهو قائد الجيش.

الشخصيّة الثالثة هي «الماريشال» Maréchal، Marescalus الذي يحلّ محلّ «الكونّتابل» في الاهتمام بالمرتزقة.

الشخصيّة الرابعة كانت «الشامبلان» Chambellan الذي يهتمّ بعائدات بيت الملك.

الشخصيّة الخامسة كانت «الشانسوليه» Chancelier، الذي يهتمّ بالدواوين. ويُضاف إلى هؤلاء «الإشونسون» Bouteiller ou Echanson الذي يهتمّ بإدارة بيت الملك.

كانت إدارة «السنيوريّة» شبيهة بإدارة المملكة، وكلّ وظيفة في البلاط الملكيّ نجد مقابلها في «السنيوريّة». لكن وجود هذه الوظائف كلّها كان مرتبطاً بحجم كلّ « سنيوريّة» وإمكاناتها. «المجلس الأعلى»، في البلاط السيّدي، كان شبيهاً بالمجلس الملكيّ، مع فارق عدم تعاطيه في القرارات السياسيّة، لأنّ سلطته كانت محض إداريّة وقضائيّة، ولا سلطة أخرى تعلوها في هذا المجال.

ونتيجة لذلك تحدّدت الواجبات والحقوق المتبادلة بين السيّد و»الفسّال» ونجد تفاصيلها الدقيقة في كتاب قوانين مملكة القدس Assises وهي تميل لصالح السيّد على حساب «الفسّال»، وترتكز بالدرجة الأولى على مفهوم الأمانة المتبادلة وخدمة الفسّال لسيّده لدرجة تعريض نفسه للخطر لتأمين حمايته وبالمقابل السيّد يدافع ويحمي تابعه.

الأسباب التي دفعت إلى الحروب الصليبيّة، والدعم الذي كانت تتلقّاه هذه الحروب من روما، جعل الإكليروس في وضعيّة مميّزة. ولكن، لا نعرف بوضوح ما كان عليه وضع هذه الفئة، ودورها. في ظلّ وجود الطوائف الشرقيّة وتنظيمها.

نجد بطريرك القدس، على رأس الكنيسة الفرنجيّة في الشرق، فهو يكرّس الملك، ويتدخّل في الأمور المهمّة. ويسهم في انتخاب البطريرك كلّ من الملك والإكليروس المحليّ وروما.

في داخل المملكة، لم تكن سلطة الملك مطبّقة مباشرة، إلا على بعض المدن مثل القدس، عكّا، صور، وحتى، في هذه الأخيرة أيضاً، كانت سلطته محدودة بسب الامتيازات المعطاة للبنادقة والجنويّين وغيرهم. وفي نابلس وقيصرية وصيدا وبيروت، كانت سلطة الملك تمرّ بواسطة النبلاء «الفيوداليّين» الذين كانوا يحكمون بموجب القوانين «الفيوداليّة».

كان من حق «البارون»، أو السيّد، أن يوزّع «الفياف» والأرض على الرجال من التابعين له من الفرسان، وإمكانية عزلهم نتيجة لذلك أو تنحّيهم عن تملّك «فياف»، وممارسة السلطة القضائيّة على كلّ سكان «السنيوريّة»؛ وهذا يسري على كلّ «السنيوريّات» التابعة لمملكة القدس اللاتينيّة. وبينما كانت قوانين المملكة تجيز لـ «الفسّال» بيع وشراء بشروط معيّنة ما بيدهم من «الأسياد» من «فياف» أو عودات Alleu فذلك كان محرّماً على «الأسياد» رغبة بالحفاظ على التنظيم «الفيوداليّ» الذي أقرّ بعد سيطرة الفرنج. وكان الشرط الأساسيّ لأن يحصل أحدهم على «فياف» أن يكون من الفرسان. وكان على هؤلاء الفرسان الذين يحصلون على «الفياف» أن يؤمّنوا خدمات لأسيادهم، ومنها، حماية «السنيوريّة»، وحماية «السنيور»، وتقديم الخدمة العسكريّة لبلاطه غبّ الطلب، وتطبيق قرارات البلاط وأوامره، وحراسة الحقول أثناء المبارزة، ومراقبة حُسْن توزيع الماء والأملاك. وكان الفرسان ينعمون بحقوق تحميهم من الاعتداء عليهم، إذ إن ضرب الفارس كان له عقاب وخيم، ولا يمكن توقيفه بسبب الديون. ولكن في حال بقائه أكثر من سنة عند المسلمين يخسر «الفياف».

وفي حال موت الفارس يعود «الفياف» للسيّد، ولا يأخذه وريثه، إلا إذا كان الوريث أو الوصيّ عليه قد حلف اليمين للسيّد.

كان على السيّد تأمين الحماية للفرسان الذين يتمتعون بـ»الفياف». وإذا أخلّ السيّد بواجباته يصبح التابع بحلّ من قَسَمه.

ولا يحق للسيد أن يقاضي تابعه وحدَه، بل أمام «المجلس الأعلى» السيّدي، أو أن يوقفه، عندها يتضامن معه الفرسان، أمثاله، ويطالبون بحريّته، ويتوقّفون عن ممارسة شروط التابعيّة إلى حين تحريره.

كان لكلّ من التابعين الكبار للملك «الفسّال» Vassal، إمارة أو «بارونيّة» Baronie كبيرة، ولكلّ منها بلاطها المؤلّف من «الكونّتابل» Connétable و«المارشال» Maréchal والخازندار Trésorier ou Bailli، و«السناشال» Sénéchal و«المسؤول عن القناني» Bouteillier و«الشانسليه» Chancelier. وكانت للأمراء زيادة على ذلك «الشامبلان» Chambellan. ولكلّ قلعة حاكم هو «الشاتلان» Châtelain.

كانت إدارة «السنيوريّة» شبيهة بإدارة المملكة، وصورة مصغرّة عنها. ومن وظائف «السنيوريّة»:

1 - «السانشال»

وظيفة «السانشال»، بالقياس عليها في البلاط الملكيّ، تقوم على إدارة القصور والقلاع، وماليّة «السنيور» وأملاكه وعلى الاهتمام بالاحتفالات الرسميّة، وعلى مراقبة عقود الإيجار والكتّاب. وفي حال غياب السيّد، يحلّ محلّه لقضاء العدل، إلا إذا كان الشخص homme lige. ويقبل التعهّد «الفيوداليّ».

2 - «الماريشال»

«الماريشال» في البلاط الملكيّ كان مساعد «الكونّتابل» الذي كان بمثابة قائد للجيش. ووظيفة «الماريشال» هي جمع العسكر وتنظيم عديدهم وعدّتهم. ويرد في كتاب قوانين المملكة ذكر لوظيفة المسؤول عن غرفة الملك Chambellain وحياته اليوميّة وهو في درجة أعلى من «الشانسليه».

3 - «الشانسليه»

وهذه الوظيفة، بالاستناد إلى مثيلتها في البلاط الملكيّ، هي للعناية بالشؤون الدبلوماسيّة، وكتابة القوانين.

4 - «الكامرياروس» Cameriarus

5 - «الشاتولان»

وهو الذي يأمر القلعة وحامية «السنيوريّة».

6 - «الفيكونت» Vicomte

نشأ ديوان أو «مجلس البورجوازيّة» «Curia burgensium في أيّام «غودفروا». وكان يرأسه «الفيكونت» المسؤول عن النظام والأمن والخزنة، وهو من طبقة الفرسان، يمثّل الملك ويحافظ على حقوقه ويجبي الضرائب ويحمي الكنائس. وهو المسؤول العسكريّ عن المدينة، يحرص على نظافتها ويوقف المعتدين ويحرسها ليلًا ويقدّم للملك كلّ شهر أسماء الموقوفين ويلعب دور القاضي في أمور عدّة كالتبادل والإرث والإيجار والديون والبيع والقتل. وكان يساعده الكاتب والمحتسب و«السرجنت» الذين ينفّذون واجباته، ويجتمع ثلاث مرّات في الأسبوع للبحث في الشكاوى.

كان الديوان مؤلّفاً من إثني عشر محلّفاً يقدّمون المشورة للـ«فيكونت» ويجتمعون معه ثلاثة أيام في الأسبوع، يعيّنهم سيّد المدينة، الذي يعيّن أيضاً «الفيكونت». ويرد ذكر المحلّفين في «سنيوريّة» صور في وثائق من سنة 1129م.

و«البورجوازيّة» هم الطبقة التي تلي الفرسان. وبينما كانت تعني في أوروبا سكان المدن، دلّت في الشرق اللاتينيّ على الطبقة غير النبيلة، والتي كانت، حكماً، تسكن في المدن، بسبب الأوضاع غير الآمنة التي كان يعيش في أجوائها الفرنج. وكانت الفرنسيّة لغة «البورجوازيّة».

7 - «الفياف» Fief

الطبقة العليا في المجتمع كانت طبقة «السنيور» التي كانت تمتلك «السنيوريّات» و«الفياف». ولم تكن «السنيوريّات» على مستوى واحد. فتراتبية «الفياف» كانت في أساس التنظيم السياسيّ. وقاعدة هذا التنظيم أنّ «الفياف» قد يكون قرية أو جزءاً منها أو قرى عدّة. وأبسط تعريف للـ«فياف» يقدّمه «جوفري لو طور» Geoffry le Tort أحد كتّاب قوانين مملكة القدس و«سنيور» صيدا الذي يؤكد على أنّ الخدمة العسكريّة هي أساس العقد «الفيوداليّ».

الفرسان هم الذين كانوا يمسكون بـ «الفياف»، ويتوجّب عليهم تقديم عدد من الخيّالة يتوازى معه. لذلك، فإنّ كلّ إعطاء لـ «فياف» كان يوجب موافقة «المجلس الأعلى»، خوفاً من أن يكون من نصيب شخص لا يُمكنه تأمين المساعدة العسكريّة، من أمثال رجال الدين والتّجار ورجال البلاد الأصليّين، ورجال «الكومونات». وفي حال موت صاحب «الفياف»، كانت أرملته، أو إبنته البالغة الثانية عشرة من العمر، يُرغم السيّد على الزواج، بزوج يختارونه لها.

في بادئ الأمر، كانت النساء تتزوّجن على هواهنّ، ولكن جرى تعديل ذلك بتوسيع المدّة الزمنيّة لفرض الزوج، بعد مرور سنة على الترمّل، وبتوسيع دائرة الاختيار، بحيث يُعرَض على الأرملة ثلاثة أزواج، تختار واحداً منهم، خلال أربعين يوماً. وفي حال رفضها الزواج تخسر «الفياف».

إذا كانت الوريثة راهبة، كان عليها تكليف أحد أقربائها المقرّبين جدّاً القيام بواجبات «الفياف».

وعلى الفارس أن يُقسم اليمين لسيّده خلال أربعين يوماً من تاريخ تسلّمه «الفياف». ويجري القسم في احتفال رسميّ.

في «الفياف» كان السيّد يتمتّع ببعض الحقوق: فرض الضرائب، ضريبة Cens. ضريبة على العودة Tenure، وضريبة على الرأس. وله الحق بـ Ban وبفرن ومطحنة. وتمتّع السيّد بصلاحيّة العدل بين كلّ سكان «سنيوريّته».

في «البارونيّات» الكبيرة كان «الفسّال» يستحوذون على «فياف» من الأرض، ولكن بعضهم كان له مبلغ من مدخول «السنيوريّة» يتقاضاه نقداً، أو من المحصول، ويُدعى ذلك Fief de soudée.

كان الجيش في كلّ «سنيوريّة» مؤلّفاً من ثلاثة عناصر هي: الخيّالة، الرقباء والمرتزقة.

8 - تنظيمات الفرسان

هي تنظيمات دينيّة - عسكريّة، عُرف منها: فرسان الهيكل، وفرسان «الإسبتاريّة»، ثم «التوتون». وهي حاضرة دائماً للحرب.

9 - الكتبة

وهم من الفرنج، ومن السكان المحليّين. وتذكر بعض النصوص بعضاً من هؤلاء الكتبة، كموظّف الجمارك، ومحصّل الأموال على الأملاك.

10 - المحتسب

هو رئيس الضابطة في بطانة التّجار، يساعد الفيكونت في فرض النظام ومراقبة الأسواق ويكون في تصرّفه بعض البوليس «سرجنت».

11 - الريّاس

هم أسياد القرى من السكان المحليّين ورؤساء العشائر. كانت سلطتهم قريبة من سلطة الأسياد الفرنج الذين كانوا خاضعين لهم. وهؤلاء كانوا موجودين في المملكة أيضاً، وبين أيديهم صلاحيّة العدل والتحكيم وتمثيل البلدة أمام السيّد وجمع الضرائب. وكان بإمكان السيّد تكليف شخص من غير الريّس لتأمين مصالحه.

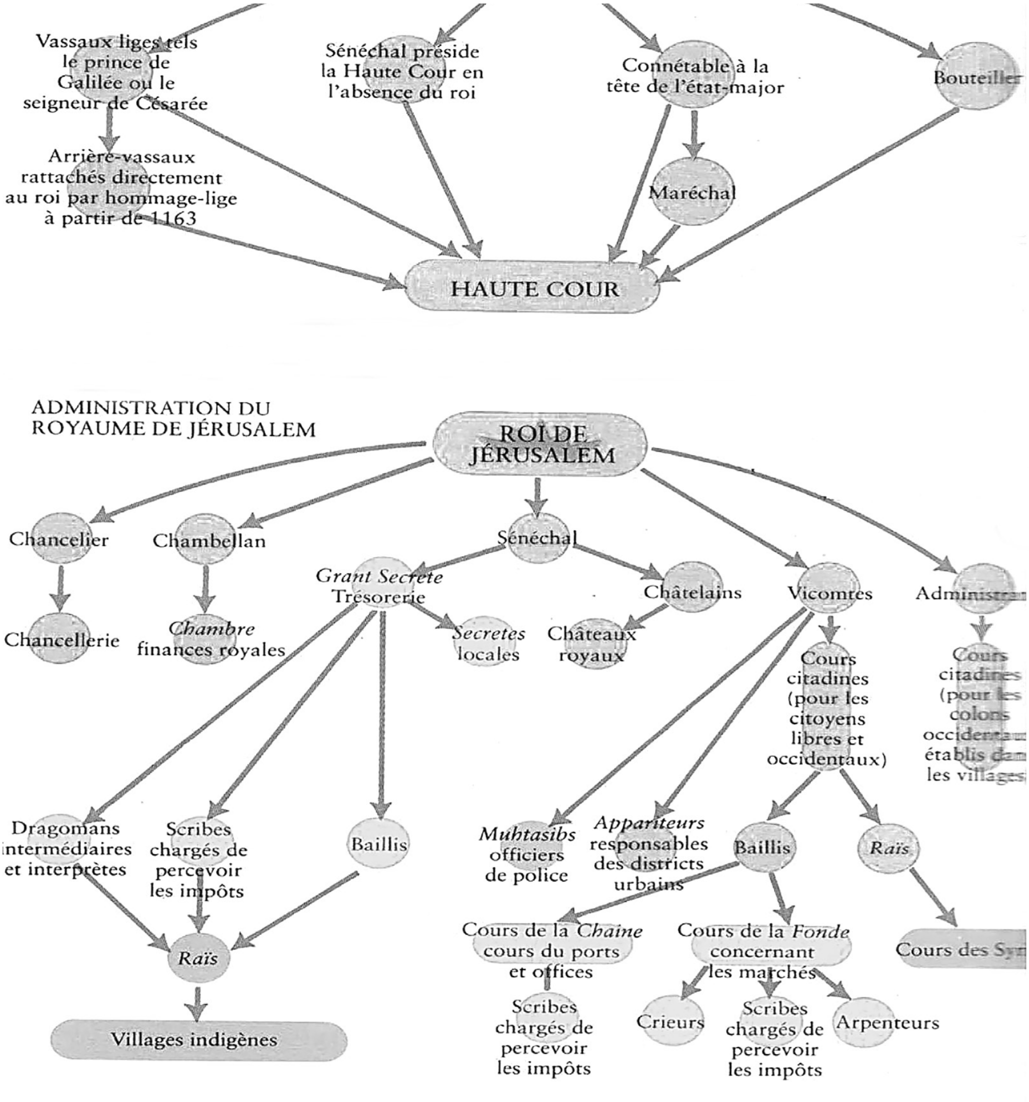

التنظيم الإداريّ و»الفيوداليّ» في مملكة القدس، Atlas de Croisades، p. 36

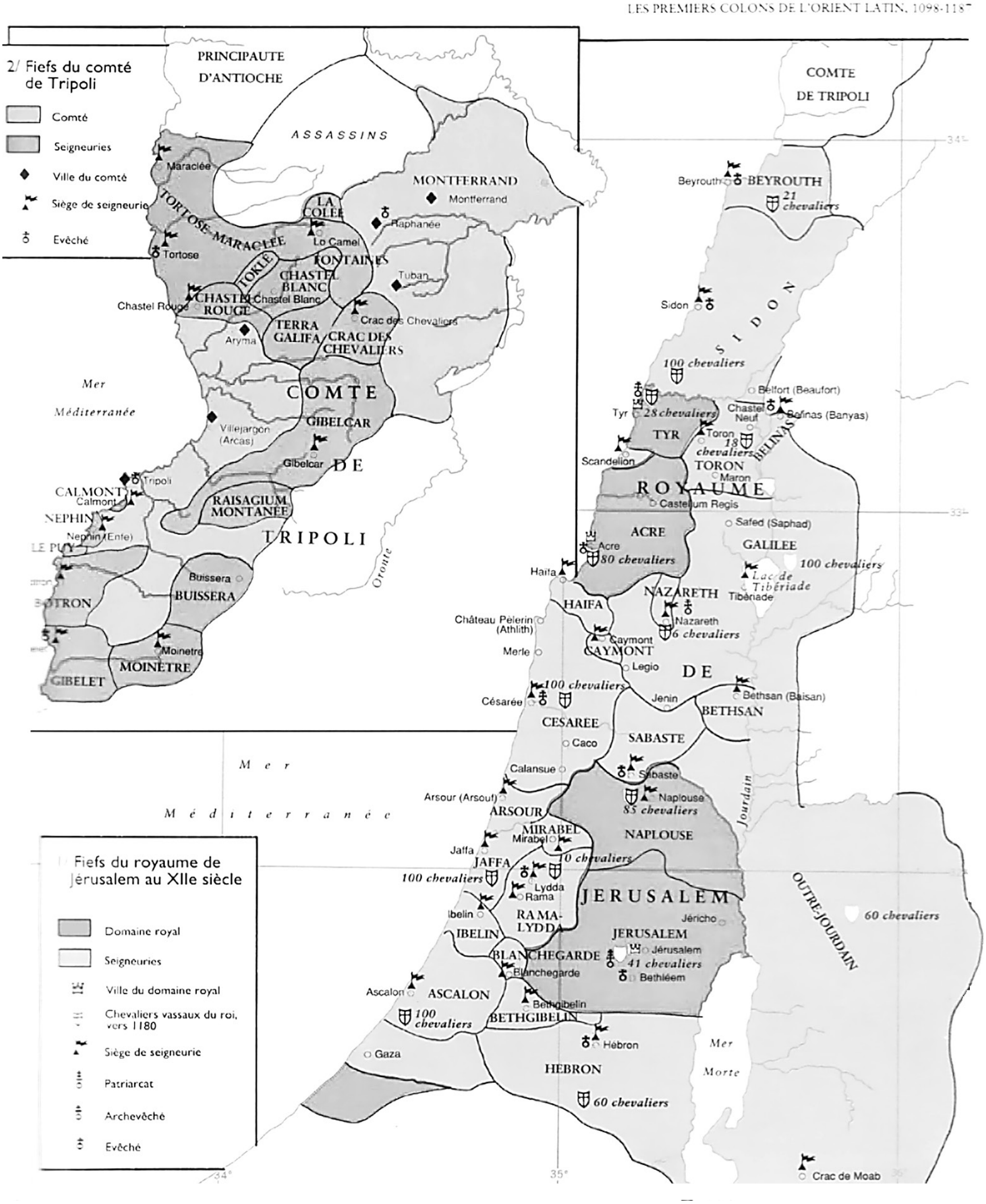

«فياف» مملكة القدس و«كونتيّة» طرابلس، Atlas de Croisades, p. 37

ثانياً - المجتمع في ظل حكم الفرنج

أدىّ احتلال الفرنج للمشرق إلى تغيّرات وتحوّلات أساسيّة في المدن التي دانت لهم، فعرفت محطتين أساسيّتين: الأولى من الفتح إلى معركة حطّين سنة 583 هـ/1186م، والثانية من عهد هذه المعركة إلى نهاية وجودهم في أواخر القرن الثالث عشر.

في المرحلة الأولى، كان مركز ثقل الفرنج في مملكة القدس اللاتينيّة موزّعاً بين أورشليم - القدس، بصفتها العاصمة الإداريّة والدينيّة والعسكريّة، وبين مدن الساحل بصفتها الاقتصاديّة. ولكن بعد سقوط القدس انتقل الزخم البشريّ والإداريّ والدينيّ والاقتصاديّ والعسكريّ والسياسيّ، أولاً إلى صور، ثمّ توزّع بينها وبين عكا التي أصبحت العاصمة الجديدة للمملكة، وبينها وبين المدن الأخرى.

وضمن هذا الوجود كانت تعيش الجماعات المحليّة المتبقيّة في أرضها والمشكّلة من عناصر دينيّة متنوّعة وحذرة بعضها من بعض وغارقة في مشاكلها العقائديّة المزمنة، ومن عناصر عرقيّة كثيرة، ومن شعوب الفرنج المتنوّعة التي كوّنت جاليات وطنيّة لها تنظيمها الاجتماعيّ والاقتصاديّ.

أ - الجاليات الأوروبيّة والتنظيم المدنيّ –الاجتماعيّ

أقدم الجاليات الأوروبيّة في الشرق، هي جالية مدينة «أمالفي» التي تعود إلى القرن السادس الميلاديّ. وكان لها في طرابلس، قبل الفرنج، بعض المنازل، واحد منها للـ«فيكونت» وفندق. وكلّ هذه الأبنية كانت تابعة لأسقف المدينة المذكورة.

داخل المدن الفرنجيّة كانت ثلاث مجموعات اجتماعيّة تعيش فيها معاً، متداخلة ومنعزلة في آن: السلطة الملكيّة، والجاليات الأوروبيّة والسكان المحليّون.

أبرز هذه الجاليات هي: «البنادقة» و«الجنويّون» و«البيازنة» و«الكتالنة» و«البروفنسيّون».

1 - «الكومونة البندقيّة» Commune vénitienne
في صور وغيرها

وهي أقدم الجاليات الأوروبيّة في مدن الفرنج، لأنّه بفضل أسطول «البندقيّة» تمّ فتح المدن. ومكافأة على ذلك حصل هؤلاء على الامتيازات الاقتصاديّة والعمرانيّة التي اشتهرت باسم «الثلث 1/3 البندقيّ» الذي مرّ الكلام عليه.

فبفضل هذه الاتفاقيّة، حصل «البنادقة» في صور كما في كلّ مدن الفرنج على حيّ وكنيسة وسوق وحمّام وفرن، وعلى حق إدارة ذلك بحريّة من دون أيّة فريضة.

وهم يتقاضون أمام محاكمهم، إلا في حال اختلافهم مع «كومونات» أخرى، فترفع القضية إلى الملك. ويستعملون موازينهم ومكاييلهم، ولا يستعملون تلك العائدة للمملكة، إلا في حال شرائهم بضائع من غير «البنادقة». ولا يدفعون أيّة ضريبة على عمليّاتهم التجاريّة، إلا على نقل الحجّاج.

2 - «كومونة الجنويّين» Commune des génois
في صور وجبيل وغيرهما

سبق الجنويّون «البنادقة» إلى احتلال الشواطئ، منذ الحملة الصليبيّة الأولى. وكانت جبيل «فياف» لإحدى عائلاتهم، كما رأينا سابقاً.

ولكن، إثر اندحار الصليبيّين، بعد معركة حطّين، أسهم «الجنويّون» في تحصين صور. لقاء ذلك حصلوا على امتيازات عدّة، كانت بدايتها محكمة خاصة تنظر في أمورهم وسوق ومبانٍ وحرّية الاتجار برّاً وبحراً.

وفي بيروت استقرّ «الجنويّون» حوالي سنة 1223م، بعد خلافهم في عكّا مع « البيزيّين»، وكان لهم «كونتوار» في جبيل، كما هو معروف.

وجودهم في جبيل يعود إلى سقوط المدينة، فإثر إسهامهم في ذلك أعطي الجنويّون ثلث المدينة وأوكل إلى القنصل الجنويّ «أنسالدو كورسو» Ansaldo Corso أمر حماية الحصّة «الجنويّة». وفي 26 حزيران 1109م أعطى «برتران»، ابن «ريمون دو سان جيل»، إلى كنيسة «سان لوران» في «جنوى»، كامل مدينة جبيل وملحقاتها ورأس الشقعة (أو الهري) Puy du Connétable و1\3

طرابلس إلى أسرة الأمبرياتشي Ambriacci، Ambriaco بواسطة «غليوم أمبرياتشي» Guillaume Embriac الذي شارك في الحملة الصليبيّة الأولى وفي احتلال القدس.

كان سبب تقديم جبيل لعائلة «الأمبرياتشي» هو أن إدارة «الجنويّين» لحصتهم فيها كانت مكلفة، لذلك قرّروا سنة 1254م تأجيرها في اللاذقيّة وجبيل وأنطاكية وعكا لعائلة «الأمبرياتشي» لمدّة 29 سنة، ومع الوقت تناسى هؤلاء في جبيل، التي كانوا مستقرّين فيها قبل هذا التاريخ، دفع Cens المتوجّب عليهم لـ«كومونة» المدينة وتصرّفوا كتابعين لـ«كونت» طرابلس.

3 - «كومونة البيزيّين» Commune des pisans في صور وغيرها و«كومونة الكاتلان» Catalans و«كومونات» أخرى في صور وغيرها لـ «مرسيليا» و«مونتبليه» Montepellier و«سان جيل».

ب - السكان المحليّون

هم الفئة التي تلي المحتلّين الفرنج، وتضمّ السكان الأصليّين الذين كانوا يعيشون في البلاد، قبل الفتح الفرنجيّ واستمروا فيها، وكانوا يشكلّون أكثريّة سكان المملكة. هذه الفئة كانت خليطاً من السكان، وفسيفساء من الديانات، وفي داخل كلّ منها طوائف متنوّعة.

عموماً، كانت الأكثريّة من المسلمين في مملكة القدس اللاتينيّة، وتحديدًا في الأرياف، مع وجود تجمّعات مسيحيّة مهمّة في بعض المناطق. وفي المدن كان العنصر الإسلاميّ، برغم الإبقاء عليه فيها. التي حافظ فيها الصليبيّون على تعهّداتهم، ضعيفاً بعد المجازر التي تعرّض لها إبّان الفتح.

كان المسلمون، في مملكة القدس، وطبعاً في «كونتيّة» طرابلس، وإمارة أنطاكية وكونتيّة الرها منقسمين إلى سنّة وشيعة، والى ريفيّين وحضر، والى بدو وتركمان رحّل، وفي بعض المناطق الجبليّة في الأشواف، كان يوجد الدروز، وفي الجبال الشماليّة، بما فيها الجبال الكسروانيّة، كان يوجد النصيريّة والإسماعيليّة، وفي مناطق معيّنة كان يوجد يهود وسامريّون.

المسيحيّون داخل المملكة كانوا منقسمين إلى شيع عدّة. كان هؤلاء المسيحيّون: موارنة وسريان وروم أرثوذكس ونساطرة وغيرهم.

لم يكن باستطاعة الفرنج التخلّص من السكان المحليّين، خصوصاً بعد الفتك بجماعات الفرنج الفلاحيّة التي تلت الحملة الأولى، وقُضي عليها من قبل الأتراك في مجاهل الأناضول. لذلك شجّع

«بودوان» هجرة الفلاحين المسيحيّين المحليّين إلى المملكة، كما أبقى على اليهود والمسلمين المحليّين في الأرياف يعملون من ضمن النظام الفيوداليّ.

لم يؤدِ الاحتلال الفرنجيّ، إلى تغيير وسائل الإنتاج الزراعيّ فقط، بل إلى علاقات جديدة مع الأرض، مع تطبيق النظام «الفيوداليّ»، ومع احتلال الفرنج لأملاك المسلمين، وإبقائهم على ما كان بيد المسيحيّين الشرقيّين من أوقاف دينيّة، باستثناء ما وضعوا أيديهم عليه من كنائس، لتحويلها كنائس لاتينيّة.

هذا الاحتلال للأرض، لم يؤد إلى استبدال الفلاحين المحليّين في مملكة القدس بفلاحين أوروبيّين، فمَن رغب من الفلاحين البقاء، ولم يهجر البلاد، إثر الفتح، استمرّ في وضعيّته الاقتصاديّة والقانونيّة السابقة، مع فقدان الجميع حرّيتهم واستقلالهم الشخصيّ، بحيث أصبحوا في وضعيّة قنّ vilain.

لا توجد مصادر تفصّل أنواع السكان وهويّاتهم الدينيّة والمذهبيّة، هذا مع ترجيح وجود أكثريّة شيعيّة على الصعيد الإسلاميّ، بسبب الوجود الفاطميّ السابق للصليبيّين.

1 - المسلمون

خرجت أكثريّة المسلمين من المدن، باستثناء صور، فقد خيّروا بين أن يبقوا فيها أو يخرجوا منها، ففضّلوا البقاء فيها.

وقد لاحظ ابن جبير وجود المسلمين في صور، في عرس شاهده في المدينة التي كان للمسلمين فيها، مساجد عدّة وخان. وكان لهم «ريّس» منهم في المدينة.

بقي المسلمون في المدن. وبعضهم عاد إليها بعد تجربتهم في البلاد الإسلاميّة. فكانوا منتشرين في أرياف الساحل الفرنجيّ.

- الإسماعيليّة

كان هؤلاء يعيشون في «كونتيّة» طرابلس، وجزء منهم داخل لبنان، في الجبال الكسروانيّة، كما ستظهر ذلك الحملات المملوكيّة التأديبيّة على جبال لبنان.

كما كانوا في جبل عاملة، وفي وادي التيم إلى جانب النصيريّة والمجوس.

حاول هؤلاء التقرّب من الصليبيّين ويشير الرحّالة المسلمون أنّ في سفح لبنان حصون «الملاحدة» الإسماعيليّة.

- النصيريّة

كانوا في القرن الحادي عشر بين عكّار وصافيتا.

- الدروز

كانوا موجودين شرقيّ «سنيوريّات» بيروت وصيدا وموجودين بكثافة في منطقة وادي التيم، قرب قلعتي شقيف أرنون وبانياس. وأوّل وصف لهؤلاء الدروز نجده في رحلة اليهوديّ «بنيامين التودلي» من منطقة «النفار» Navare الذي يجعل المنطقة التي ينتشر فيها الدروز ممتدّة من شرق صيدا إلى جبل حرمون.

- الشّيعة الإماّمية

لا نكاد نعرف شيئاً عن أوضاع الشّيعة الإمامّية في جبل عامل. وأبرز نص يصف واقعهم هو نصّ ابن جبير.

يبدو أنّ الشّيعة في جبل عامل كانوا يدفعون ثمن علاقاتهم الحسنة بالفرنج، ومثال على ذلك ما جرى في 13 ربيع الأول 552هـ/25 نيسان 1157م، عندما هاجمت قوّات لنور الدين الفرنج ولقيت السيوف عامّة رجالاتهم من الإفرنج «ومن مسلمي جبل عامل المضافين إليهم، فمحقت رجالاتهم ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى والعدد إلى دمشق»، وأرسلت جماعة من الأسرى إلى نور الدين في بعلبك فأمر بضرب أعناقهم.

ولم يكن موقف صلاح الدين أفضل تجاه الشيعة. فعند سقوط تبنين وهونين حذّر صلاح الدين عامله من أهل جبل عاملة، الذين كانوا في نظر المؤرّخين السنّة، مجبولين على الشرّ وأعواناً للفرنج.

2 - اليهود

عند وصول الفرنج إلى بيروت كان اليهود موجودين فيها. وكذلك كان اليهود في صور بعد سنة 1070م وهي سنة الفتح السلجوقيّ. وكان هؤلاء موجودين في طرابلس وفي جبيل. وفي كلّ من بيروت وصيدا وفي «سنيوريّة» تبنين.

كان اليهود موجودين بكثرة في صور ولهم مركز مهمّ داخل المدينة. وحسب بنيامين التودلي Benjamin de Tudèle كان يوجد فيها 500 يهوديّ لهم محاكمهم الخاصة، ويتبعون لمحكمة الوكالة Fonde. التي كانت من نوعيّة المحكمة عينها التي تحكم شؤون غير الفرنج. وكان هؤلاء يعملون في التجارة البحريّة وصناعة الزجاج المشهورة في الأرض قاطبة.

وضعيّة اليهود كانت مماثلة لوضعيّة باقي السكان المحليّين، لجهة دفع الضرائب. فكلّ ذَكَر بلغ الخامسة عشرة يدفع «بيزاناً» واحداً.

3 - المسيحيّون

كانت غالبيّة المسيحيّين المنتشرين في مملكة القدس من الملكيّين ومن اليعاقبة (السريان)، وقد عمّمت تسمية السريان على كلّ المسيحيّين المشرقيّين. الملكيّون كانوا أكثريّة في المدن واليعاقبة في القرى. والأمر الأكيد هو فقط في إمارة أنطاكية، حيث كان الملكيّون هم الأكثريّة. ولربما، كان الوضع كذلك في «كونتيّة» طرابلس.

في صور كان يوجد عنصر مسيحيّ قويّ من السكان المحليّين داخل المدينة. وبعض أحيائها كان مأهولاً فقط بالمسيحيّين المحليّين في القرن الثالث عشر، وبعضهم يسكن خارج الأسوار.

أهل جبّة بشري وسائر تلك النواحي، كانوا جميعهم من النصارى. كما كان المسيحيّون موجودين في راس بعلبك.

استفاد المسيحيّون إلى حدّ ما من وجود الفرنج، بحيث تمكّنوا من ممارسة دينهم بحريّة برغم ابتعادهم عن المسيحيّين الغربيّين.

أعلنت الكنائس الشرقيّة ولاءها للفرنج، ولكنّه كان ولاء ظاهريّاً. كان السريان يستعملون لغة العرب في عقودهم، وفي معاملاتهم، وفي كلّ الاستعمالات الأخرى، ويستعملون اليونانيّة في أمورهم

الكنسيّة، من دون أن يفهموها، بعكس الروم الذين يستعملونها في الطقوس، وفي الحياة اليوميّة. وهم يعلنون الطاعة للأحبار اللاتين، لكن ليس من القلب، بل باللسان، وخوفاً من الأسياد العلمانيّين.

كان السريان يتمتّعون بامتيازات «البورجوازيّة» عينها، من حيث التملّك والاحتكام إلى المحاكم الخاصة، إلا في الشؤون الخطيرة، التي كانت من اختصاص المحكمة «البورجوازيّة».

وكما لم يكن على المسيحيّين تقديم خدمة عسكريّة للمسلمين، كذلك كان وضع المسلمين بالنسبة إلى المسيحيّين. ولكنّ المسيحيّين الشرقيّين، بالإضافة إلى رماة النشّاب الموارنة، عملوا في عسكر الفرنج.

سكن المسيحيّون في المدن، كما في الأرياف.. ولم تكن العلاقات حسنة بين المسيحيّين الشرقيّين والفرنج، بسبب محاولة الأخيرين فرض التراتبيّة الدينيّة اللاتينيّة عليهم، وبسبب معاملتهم معاملة دنيا وعدم إعطائهم وضعيّة مميّزة عن المسلمين.

4 - النساطرة

في أواخر القرن الثاني عشر تحالف «جنكيزخان» مع القيرايتيّين أتباع كنيسة النساطرة. تزوّج «تولي» خليفة «جنكيزخان» من مسيحيّة نسطوريّة فأنجبت منه «مونكو خان» و»قبلاي خان». وأرسل «مونكو» أخاه الأصغر «هولاكو» لاحتلال العراق والشام، ونتيجة لزواج الأخير من «دقز خاتون « إحدى القيرايتيّات النسطوريّات تنفّس مسيحيّو الشرق الصعداء. وخلال سقوط بغداد على يده سنة 1258، أمر، بتأثير من زوجته، بعدم التعرّض للكنائس، ولكن حلم المسيحيّين بأيام أفضل مع المغول انكسر بعد هزيمة هؤلاء في معركة عين جالوت سنة.1260 فدفع مسيحيّو بلاد المشرق ثمن تعاطفهم معهم.

استقلّ «هولاكو» بجزء من الإمبراطوريّة المغوليّة في آسيا الوسطى وإيران والعراق وتركيا. ولكن مسايرته لزوجته لم تحُل دون فتكه بأهالي مدينة تكريت المسيحيّين. عمد «أباقا خان» ابن «هولاكو» إلى استبدال موظفي الدولة المسلمين بمسيحيّين ويهود. وساهمت علاقتهم الحسنة مع النساطرة إلى تنشيط التبشير المسيحيّ النسطوريّ بين المغول الصينيّين وإنشاء المطرانيّات العديدة في الصين.

توفي «أباقا» فتولّى أخوه «تقودار» مقاليد الحكم وحاول استمالة المسلمين إليه، ودمّر كنائس مراغة حيث كانت كرسي البطريرك، ثم أقصي عن الحكم من قبل أخيه «أرغون خان» الذي تعاطف مع المسيحيّين.

في أواخر القرن الثالث عشر بدأ تحالف المغول مع المسلمين وميلهم إلى الإسلام. وبدأ محمود غازان (1295 - 1304) باضطهاد المسيحيّين والتعدّي على الكنائس. وفي عام 1287م سلبت الكنائس ودمّر الكرسي البطريركيّ في مراغة، من قبل المسلمين، فنقل إلى أربيل ثم عاد إلى مراغة بعد توقف الاضطهاد.

توفي غازان سنة 1304م وخلفه على الحكم أخوه «أولجايتو» (1304 - 1316) الذي اعتنق الإسلام. وبدأ بإجبار المسيحيّين على ذلك. وتعرّض مسيحيّو أربيل لمذبحة من قبل المغول المسلمين في 1 تموز 1310م، وكذلك آمد.

ساءت أوضاع المسيحيّين في بغداد بعد 1327م. ونقل البطريرك دنحا الثاني (1336 - 1381) كرسيَّه إلى كرملش شرقيّ الموصل.

تلاشت المسيحيّة في آسيا الوسطى وبلاد فارس وجنوب العراق بشكل دراماتيكيّ بعد حملات تيمور لنك. فسّرع ذلك في تحوّل الناجين من مذابح قوات تيمورلنك إلى الإسلام.

بعد هذه الكوارث تحوّل كرسي البطريركيّة منصباً وراثيّاً ينتقل إلى ابن الأخ بقرار من البطريرك النسطوريّ شمعون الرابع باسيدي (1437 - 1497) سنة 1450.

منذ القرن الخامس عشر سعى البابوات الكاثوليك لتحويل السريان النساطرة إلى الكثلكة، فنجحت المحاولات أثناء مجمع فلورنسا حين اعترف أسقف قبرص طيموثاوس الطرسوسيّ بالإيمان الكاثوليكيّ وحمل لقب رئيس أساقفة قبرص الكلدانيّ (Archiepiscopus Chaldaeorum،qui in Cypro sunt) في 7 آب 1445، فأصبح لقب الكلدان يُطلق على النساطرة الذين تبعوا كنيسة روما. ولكن التحوّل إلى الكثلكة لم يثمر بعد ذلك وانتظر حلول القرن التاسع عشر لاتحاد بعض النساطرة مع روما وحمل تسمية الكلدان المعروفين حاليًّا.

كان النساطرة موجودين في طرابلس وجبيل وبيروت وعكّا. وطبعًا في العراق.

كان معهد الطب في طرابلس على مستوى جامعيّ، يدرّس فيه علماء متخصّصون. وممن تخرّج منه، المؤرّخ واللاهوتيّ ابن العبريّ.

5 - اليعاقبة (السريان الأرثوذكس)

كان لليعاقبة حضور سابق للفرنج. وهم موجودون في سورية وقسم من العراق وقسم من تركيا الحاليّة حيث كان مقام بطريركيّتهم الرئيسيّ منذ عام 518م في دير الزعفران شمال الجزيرة السوريّة الواقعة في ماردين بتركيا.

كما كان اليعاقبة موجودين في جبل لبنان، البترون كانت في القرن الثاني عشر مركز أسقفيّة لليعاقبة.

مارس اليعاقبة الطبّ وتعليم العلوم والفلسفة والحساب والفلك. وكان لهم تأثير كبير نتيجة ذلك عند الفرنج. كانت أنطاكية هي المركز الرسميّ لبطريرك اليعاقبة، ولكن عمليّاً، كان البطريرك مقيماً في دير «مار برصوما»، في أرض المسلمين، وقد نعم اليعاقبة بالحرّية والتسامح من الفرنج.

ومع أن الأرثوذكس كانوا يحرّضون اللاتين على اليعاقبة فإنّ الثلاثة كانوا يعيشون في وئام. في بداية الحروب الصليبيّة كان الفرنج يعتبرون المسيحيّين الشرقيّين من الأرثوذكس والأرمن واليعاقبة والنساطرة كفرة. ولكن الأمر تغيّر في ما بعد. وقد قام ميخائيل السوريّ، بطريرك اليعاقبة بثلاث زيارات للقدس عاصمة مملكة القدس اللاتينيّة سنة 1168م حيث التقى بطرك اللاتين «إيمري» والملك «آموري»، والزيارة الثانية غير محدّدة، والثالثة سنة 1179م حيث استقبله الملك «بودوان».

أ - الموارنة

كان للموارنة موقع خاص في مملكة القدس (في «سنيوريّات» صيدا وبيروت) وفي «كونتيّة» طرابلس. في طرابلس مثلاً يأتي الموارنة بعد الروم فاللاتين فالأرمن وقبل النساطرة. ومن بين الفرق المسيحيّة الشرقيّة كان الموارنة، الذين اشتهروا بأنّهم من الرماة الماهرين، ومن العسكر الجيّدين، هم الوحيدون الذين تقربوا من كنيسة الفرنج.

بدأوا سنة 1112م. في جبل لبنان، دقّ النواقيس من نحاس بدل الخشب، للصلاة والقدّاس، وإنشاء كنائس وأديرة ومدارس.

وإبّان وجود الفرنج في الشرق، كان للموارنة حضور مهمّ في جزيرة قبرص.

اتصال الموارنة بالكنيسة الغربيّة بشكل مباشر، أو الاتحاد معها، كما يذكر المؤيّدون لرأي «غليوم الصوريّ»، سمح للموارنة أن يحتفلوا بقداديسهم على مذابح الكنيسة اللاتينيّة، وكانوا مصنّفين في الدرجة الثانية بعد اللاتين وقبل اليعاقبة والأرمن وغيرهم من المسيحيّين، وقبلوا في «البورجوازيّة» الفرنجيّة.

بعد أربعين سنة تقريباً على وجود الفرنج في المشرق، وعلى مبادرة البطريركيّة المارونيّة الاتصال بروما سنة 1100م عمدت البابويّة إلى طلب التأكيد على الطاعة. وكان لهذا الطلب ولما سيليه أصداء متناقضة بين المؤرخين، فانقسموا فريقين: فريق يأخذ بما قاله «غليوم الصوريّ» عن الموضوع، معتبراً أنّ ذلك كان أول التحاق للموارنة بروما، وفريق ثانٍ يدحض ذلك وعلى رأسه البطريرك الدويهيّ.

وسواء دخل الموارنة في طاعة روما في التاريخ الذي يذكره «غليوم الصوريّ»، أو قبله، فمن المعروف أنّهم كانوا متحفّظين تجاه الفرنج، كما كانوا متحفّظين سابقاً تجاه المسلمين، فلم يستحسنوا إجراء ربطهم بالإقطاع الفرنجيّ.

في سنة 1209 م كانت وفاة البطريرك بطرس واختير بعده البطريرك إرميا من قرية عمشيت. وفي سنة 1215م عقد «زخيا» الثالث، بابا روما، مجمعاً عاماً في كنيسة «اللاتران» Latran حضره 411 من رؤساء الكهنة من بلدان الشرق والغرب. وحضر المجمع البطريرك إرميا. فثبّته البابا «زخيا» بطريركاً على كرسي أنطاكية.

حفّز العهد الفرنجيّ الموارنة على بناء كنائس لا تزال آثارها باقية إلى اليوم مع ما فيها من رسوم جدرانيّة.

يرى «كلود كاهن» أنّ الموارنة كانوا طائفة صغيرة في ذلك الوقت، تركّزت في الجبل اللبنانيّ تدريجيّاً، وظلّت معزولة من قبل المسلمين ومسيحيّي الشرق الآخرين؛ وكانت قد فقدت بالفعل كل صلة بروما والقسطنطينيّة. لكن لهذا السبب ذاته، لم تكن تعتقد أنّها قطعت الصلة بهما. لقد مال الموارنة، مع استعرابهم، إلى اعتبار الفرنج بمثابة أبناء عمومتهم الذين كانوا يتحيّنون لهم الفرصة للخروج من عزلتهم، والثأر من تعاسة حالهم السابقة. وحتى لا نغالي في القول، نذكر أنّ الكنيسة المارونيّة كان لا بدّ لها أن تنتظر ثلاثة أرباع القرن قبل أن تعترف رسميّاً بارتباطها بروما، وفوق ذلك كله لم تفقد شيئاً من استقلاليّتها.

ولم يكن هناك موضع تفكير في تجنيد أي مارونيّ في الجيش، لكنّهم داخل الأقاليم المركزيّة، على الأقلّ، كانوا بمثابة المساعدين الرئيسيّين للفرنج في تكييفهم مع أعراف البلد ومؤسساته. فكان للحملة الصليبيّة، ولا شك، أثر في استقدامهم إلى المدينة وإدماجهم في مجتمع أكثر رحابة.

ب - الأرثوذكس

كانوا موجودين في كلّ مكان. ويشير اليونينيّ إلى وجود مسيحيّين في رأس بعلبك، نرجّح أنّهم من الأرثوذكس.

ج - القرية وحدة الحياة الاجتماعيّة - الاقتصاديّة عند السكان المحليّين، ـ وموازية للـFief الغربيّ الأوروبيّ من ضمن النظام «الفيوداليّ»

كانت القرية إطاراً للتنظيم، لكنّها كانت، من جهة، وحدة في أساس التنظيم الفيوداليّ Féodal، ومن جهة أخرى كانت تمثل الإطار التقليديّ للجماعة الريفيّة. وكانت القرية موازية للفياف Fief أو موزّعة إلى فياف عدّة. لكنّ هذا التوزيع، لم يكن يعني تقطيعاً لمساحة القرية، يقابله تقسيم لعدد الفلاحين، بل توزيع لعائدات القرية. وكان الأسياد يعيّنون وكلاء عنهم في القرى.

وفي أغلب الأحيان، كانت القرى ممثلة بريّس Raicius يمثل مصالح «السنيور».. وريّاس القرى المسيحيّة والإسلاميّة كانوا يتمتّعون بصلاحيات قضائيّة واسعة.

نَعمَ الريّاس المسيحيّون في لبنان بالحصول على «فياف» De Soudée الذي يربطهم بالنظام «الفيوداليّ». ويبدو أنّ عائلات مسيحيّة مشرقيّة دخلت في طبقة النبلاء، وخصوصاً الأرمن. ولا ندري ما إذا كان الحال كذلك عند فئات دينيّة مسيحيّة أخرى.

القرية هي في أساس التنظيم الاقتصاديّ - الاجتماعيّ. فهي كانت تشكل وحدة ضريبيّة في النظام البيزنطيّ، واستمرّت هكذا في النظام الإسلاميّ. وقد استبدل الفرنج، حقوق الدولة على الأرض، بحقوق السيّد الذي يقطع الأرض. ولكن مع هذا استمرّت القرية، التي يطلق عليها الفرنج تسمية casal في الحفاظ على خصائصها. وكانت القرى محاطة بـ gastines التي كانت réserves «احتياط» عقاري أو مزارع. وكانت القرية تقع تحت مسؤولية أعيان هم «الريّاس» وقربهم يوجد ناس وسطاء بين السيّد والسكان. كان ينظر إليهم السيّد كضباط للـ «سنيوريّة» ويتمتّعون بامتيازات

شبيهة بتلك العائدة لـ»فياف السرجنت» Fief de sergenterie. وهؤلاء هم «الدروغمان» الذين لا غنى عنهم يعملون كتراجمة وكتّاب ومسؤولين عن توزيع المياه وعن قنوات الريّ.

كان الريّس المسؤول عن جمع الضرائب، في النظام السابق، يؤمن البوليس المحليّ مع مجلس القرية، بحيث إنّها كانت تدير نفسها بنفسها.

لم يكن الانصهار كاملاً، بين المسيحيّين الشرقيّين والغربيّين. فالقانون المطبّق على الفرنج كان يقاضي الغربيّين فقط، بينما يُقاضى المسيحيّون الشرقيّون أمام محاكم مختلطة، أو مجلس الريّاس الشرقيّ كلّياً، والقانون الذي يقاضي الفرنج غير الذي يقاضي المسيحيّين الشرقيّين، وغير ذلك العائد للمسلمين.

كان على القرويّ دفع الخراج الذي ورثه العرب عن الرومان والبيزنطيّين. وهو يوازي ثلث محصول الأرض، الذي يمكن استبداله بضريبة نقديّة. والأشجار المثمرة، ولا سيّما الزيتون كانت تُدفع عنها ضرائب، وكذلك الذبائح الحيوانيّة.

د - «البورجوازيّة»

ارتبطت التجارة، والحياة الزراعيّة عموماً، بطبقة من الناس دعيت «البورجوازيّة» (البرجاسيّة عند المؤرخين المسلمين)، بمعنى الطبقة الوسطى في المجتمع التي كانت تضمّ التّجار والحرفيّين والمزارعين الذين جاؤوا إلى الشرق منذ الحملة الصليبيّة الأولى. و»البورجوازيّة» هم الطبقة التي تلي الفرسان. وبينما كانت تعني في أوروبا سكان المدن، فقد دلّت في الشرق اللاتينيّ على الطبقة غير النبيلة.

بين عامي 1173 و1180م صدر «كتاب قوانين مجلس البورجوازيّة»

Le livre des Assises de la Cour des Bourgeois

وقد لعبت «البورجوازيّة» دوراً كبيراً بعد سقوط أجزاء كثيرة من مملكة القدس اللاتينيّة بأيدي المسلمين، بعد معركة حطّين. إذ تضاءلت أملاك النبلاء واقتصر وجود الفرنج على السكن داخل القلاع والمدن في الشريط الساحليّ، تقريباً، ولأنّ الثروة المنقولة أضحت، رأس مال «البورجوازيّة»، فأصبحت هذه عماد الاقتصاد، بعدما ضعّفت الثروة غير المنقولة، رأس مال النبلاء.

هـ - المحتسِب

المحتسب Mathessep الذي كان في الأساس وظيفة إسلاميّة، كان مساعداً للـ«فيكونت» ورئيس «السرجنت». وبالقياس على وظيفته الإسلاميّة كان يشغل، كما في الإسلام، الوظائف الآتية: مراقبة الأسواق، والأوزان، والمكاييل، ومراقبة تجّار الحبوب والدقيق، والخبّازين، والقصّابين، والشواة، وطهاة السمك، وصنّاع الحلوى، وتجّار السمن والزيت، ومعلمّي المدارس، والأطبّاء، والبيطريّين، وصرّافي العملة، والدبّاغين، والصاغة، وتجّار الخيول والحيوانات، وتجارة العبيد، وكلّ أنواع الصناعات والتجارات الأخرى وأنواع الغشّ.

و- التأثير الاجتماعيّ في الحياة اليوميّة وفي التمازج العرقيّ

تعلّم الفرنج أساليب العيش الشرقيّ، واستخدموا خدماً من أبناء البلاد، وممرّضات وساسة خيول. وتعرّفوا إلى العديد من الأطعمة وموادها كالسمسم والخرّوب والأرزّ والليمون والبرقوق والكراث والعنصل الذي يُعرف بـ«الاسكال» Scallions نسبة إلى عسقلان. وأدخلوا التوابل في أطعمتهم وتذوّقوا استعمال العطور والأفاويه والسكّر.

في مجال الأزياء والملابس، أدخل الصليبيّون العائدون إلى أوطانهم أنواع البسط والسجّاد والأنسجة الموشّاة. وانتشرت مراكز في أوروبا لصناعة الخزف والسجّاد والأنسجة. وراجت في أوروبا الأنسجة والأقمشة الشرقيّة كالدمقس، تحريفاً للفظة دمشق، و«الساتان» تحريفاً لاسم مدينة في الصين. واشتهرت صور بقماش حرير يُعرف بـ«السانديّ»، وبيروت وطرابلس بتربية دودة الحرير وصنع قماش حريريّ سميك مقصّب مسدّس الخيطان تدخل في حياكته خيطان مذهّبة ومفضّضة ويستعمل كغطاء للمساند. ولبس الفرسان الثوب الطويل، ووضعوا الكوفيّة على رؤوسهم. كما استعمل الفرنج «الديكور» الشرقيّ: بيت مع حديقة، موسيقى وحمّام.

ثالثاً - الاقتصاد

توصّل الفرنج، في الشرق، في الزراعة والصناعة والتجارة، إلى نتائج أعظم من تلك التي توصّلوا إليها في العلوم. ومن النباتات الجديدة التي انتشرت في غربيّ البحر المتوسط السمسم والخرنوب والذرة البيضاء والليمون والبطيخ والمشمش... واكتسب الإفرنج أذواقاً جديدة، أخصّها ما يتعلّق بالروائح العطريّة والتوابل والحلويات. وكان أهم من كلّ ذلك السكّر. فالأوروبيّون كانوا لا يستخدمونَه سابقاً، بل كانوا يستعملون العسل لتحلية طعامهم. ولكن، عندما اكتشفوا قصب السكّر، على سواحل سورية ولبنان وفلسطين، جعلوا له مكانة مهمّة في الحياة الاقتصاديّة وفي تركيب الوصفات الطبيّة.

وظهرت في أوروبا للمرّة الأولى طواحين الهواء سنة 1180م، في «نورمنديا». ولكن عند عودة الفرنج من الشرق حملوا معهم نوعاً مستحدثاً من النواعير، وهذا النوع سوريّ، ولا تزال نماذج منه تُستعمل في ألمانيا وهولندا. أما منشأه في سورية فيعود إلى أيّام الرومان، والمهندسون العرب حسّنوا صنعه، واشتهر في حماة.

أ - العوامل الطبيعيّة

1 - الأوبئة

برغم كثرة القتلى لا يبدو أنّ الأوبئة كانت كثيرة، إذا صدقت المصادر. وأبرزها كان في:

- 506هـ/1112م وضرب بالساحل في البقر.

- 573 - 574هـ/1173 - 1174م، عانى الناس غلاءً شديداً، بسبب انحباس المطر في العراق والشام ومصر، استمرّ إلى سنة 575هـ إلى حين سقوطه وأعقب ذلك وباء شديد عمّ البلاد يُدعى مرض «الرسام» الذي لم يرتفع ضرره إلا سنة 576هـ. فهلك خلق كثير.

- 595 - 596هـ/1199م غلاء وفناء عظيم ووباء كثير في مصر والشام وزلزلة عظيمة.

- 1127م كثرت الفئران في فلسطين ووصلت إلى جبال صور. وبعده حدث فيضان من المطر فجرف الآلاف منها إلى الأودية حيث هلكت وحصل وباء في البلاد بكاملها.

2 - الزلازل وغيرها

خلال 19 سنة من 1137م إلى 1156م ضربت أربعة زلازل مناطق الفرنج والزنكيّين، كان أعنفها في سنة 1156م.

- 532هـ/1137 زلزلة عظيمة بالشام.

- 533هـ/1138م زلازل قوية خرّبت الكثير من بلاد الشام.

- 544هـ/1149م زلزلة شديدة.

- زلازل مدمّرة سنة 551 هـ/1156م بلغ عددها أربعين زلزالاً من يوم الأربعاء 29 شعبان/17 تشرين الأول، إلى 22 شوّال/8 كانون الأول فضربت الحصون بين جبلة وجبيل. ثمّ تكرّرت الزلازل في محرّم 552هـ وجمادى الأولى ورجب ورمضان. وفي هذه السنة هلك خلق كثير بسبب هذه الزلزلة، وتهدّمت مدن عدّة، من بينها طرابلس بما فيها الكنيسة الكبرى، وسقطت قطعة من سورها، وخربت صيدا وبيروت وصور واجتاحت عرقا فأهلكتها.

بعد 15 سنة عادت الزلازل لتضرب بعنف أشدّ أذى في سنة 1169 - 1170م.

- 565 –566هـ/1169 - 1170م زلزلة لم يُسمع بمثلها. ففي تلك السنة، ضربت زلازل مروّعة حصون الفرنج والمسلمين، في 12 شوال 565هـ/29 حزيران 1170م، ودامت أربعة أشهر، وصارت طرابلس شبه مقفرة لم يثبت فيها بيت عامر، وسقط أكثر قلعة بعلبك (مبالغة لربما المقصود بها الأعمدة) وأسوارها فجدّد نور الدين عمارة ما تهدّم وانشّق جبل لبنان المطلّ على بعلبك شقاً لا يُعرف له منتهى وطالت الزلازل حصن الأكراد والعريمة وعرقا وصور. وخربت أنطاكية وجبلة واللاذقيّة وحلب وشيزر وحماه وحمص.

وعادت الزلازل إلى عادتها القديمة بعد تسع سنوات في 1179م واستطابت أرض المشرق فتجدّدت في السنوات 1199م و1200م و1202م و1204م. وكان زلزال 1200 كارثيّاً على لبنان، إذ سقطت معه قلعة بعلبك، وتلتها في 575 هـ/1179م زلزلة عظيمة فسقطت من رؤوس الجبال الصخور وتهدّمت القلاع.

- 595 ـ 596هـ/1199م غلاء وفناء عظيم ووباء كثير في مصر والشام، كما ذكرنا أعلاه، وكانت زلزلة عظيمة بالشام حتى ظنّ الناس أنّ القيامة قامت.

- 597هـ/1200م زلزلة عظمى قوّضت دوراً وأسواراً في طرابلس وصور وعكّا وغيرها في ساحل الشام. وطالت صور وقلاع الساحل وتهدّمت هونين وتبنين. وسقط جبلان على قوم من أهل بعلبك التي تهدّمت قلعتها.

598 هـ/1202م زلزلة هدمت بلاد الساحل في صور وطرابلس وعرقا وجبيل.

600 أو 601هـ/1204م زلزلة أخربت سور صور. وعمّت بلاد الشام وبلاد الروم.

وكان للبرد دوره. ففي 680هـ/1282م جمّد كيزان الفقاع في بعلبك.

ب - الزراعة

1 - المزروعات

2 - الحبوب

تزرع الأرض حبوباً كلّ ثلاث سنوات، وفي السنة التالية ترتاح، وفي السنة الثانية تزرع خضاراً.

3 - الحقول

الحقول الساحليّة تزرع بالليمون والحامض والتين واللوز.

4 - النخيل

كان يزرع أيضاً في الحقول الساحليّة.

5 - قصب السكّر

في سواحل المشرق وجد الفرنج قصباً مملوءاً من السكّر اكتشفوه للمرّة الأولى في حقول طرابلس. ويخبر «ألبير داكس» أنّ المزارعين عند نضجه يعصرونه في أجران، ويتركون السكر ينساب منها ويجمعونه في أوعية حتى ينشف بلون الثلج، ثم يأكلونه مع الخبز، أو يذيبونه في الماء ليصبح مشروبًا، والذين يتذوّقونه يفضّلونه على العسل.

انتشرت زراعته بسبب الطلب عليه من الأوروبيّين، لأنه لم يكن معروفاً لديهم.

كانت هذه الزراعة معفاة من ضريبة العُشر. وقد زرع منه قرب صور وعكّا، الأكثر شهرة في باب هذه الزراعة، نوعان: Jeny ،Moustar.

ونظراً إلى ما كانت تتمتع به هذه الزراعة من أهمّية، ورد ذكرها في نصّ الهدنة التي عقدها السلطان قلاوون سنة 1285م مع «مارغريت» سيدة صور.

6 - السمسم

كان يُزرع أيضاً في السواحل وتُستخرج منه الطحينة.

7 - التين والزيتون والكرمة

نجد لهذه الأنواع ذكرًا في النصوص العائدة لهذه الحقبة وخصوصًا في السواحل والمرتفعات المشرفة عليها.

8 - الفوّة Garance

وهي نبتة صيفيّة كانت منتشرة في «كونتيّة» طرابلس وقرب دمشق.

9 - الغابات

يذكر «غليوم الصوريّ» غابة الصنوبر الموجودة عند مداخل بيروت والتي يقدّر الإدريسي امتدادها بـ 12 ميلاً.

10 - القطن

القطن الصغير التيلة كان يزرع قرب اللاذقيّة وطرابلس وغيرهما.

كان الأسياد يسلّمون إدارة أراضيهم وجمع الضرائب لوكلاء عنهم. والعمل في الأرض يتمّ على أيدي فلاحين من أهل البلاد.

كان على الفلاح تقديم هدايا للسيّد في عيد الميلاد والمرفع والفصح هي: دجاجة وعشر بيضات و12 «بيزاناً» عن كلّ فدان من الأرض؛ وفي المرفع وعيد الفصح يزاد على ذلك نصف رطل من اللبنة

(أو الجبن). وعند تجديد الزرع يقدّم دجاجة عن كلّ فدّان من الأرض، وحِمل خشب عن كلّ فدّان مزروع. والسيّد يقدّم القمح للتذرية والشريك يدفع دجاجة عن كلّ فدّان.

يقوم الفلاح بأعمال سخرة هي عبارة عن يوم فلاحة مجّانية في السنة عن كلّ فدّان.

ويدفع الفلاح للسيّد بدل سكن يوازي 3 «بيزان» و3 دجاجات و30 بيضة ورطل جبن.

كان على الملّاكين، سواء أكانوا من العلمانيين أو من رجال الدين، دفع ضريبة العشر للكهنة.

كان الفلاحون على نوعين، بعضهم في وضع المستعبَدين ويدعون Homeliges، وبعض أسمائهم تدلّ على أنّهم كانوا مسلمين، ويقدّمون ما ذكرناه من دجاج وبيض وغيره. وبعضهم الآخر أحرار يدفعون مستوجبات أقلّ.

كان يتوجّب على الفلاحين دفع ضريبة على الرأس، كانت مفروضة على غير الفرنج، بعكس وضعيّتها السابقة في ظلّ الدولة الإسلاميّة، حيث كانت مفروضة، فقط، على غير المسلمين. كما كانت تُدفع ضريبة على الأرض.

على رأس الجماعة القرويّة نجد رئيساً من صغار النبلاء، مكلّفاً بالشؤون المحليّة، ومسؤولاً تجاه المالك أو السيّد «الفيوداليّ». ونجد هذه الوظيفة في المدن أيضاً. ولكن هذا السيّد كان قبل الحملات الصليبيّة، في سورية وأعلى بلاد ما بين النهرين، قائداً للسكان المحليّين، وأحياناً لجيش شعبيّ، وشكلاً أوّلياً من التنظيم البلديّ أمام الأمير وجيشه.

ج - الصناعات الحرفيّة

اشتُهرت صور بصناعات حرفيّة عدّة تذكرها المصادر العربيّة، وهي: السكّر والخرز والزجاج الجيّد والمخروط والمعمولات والفخّار.

كانت صور تأتي في المرتبة الثانية بعد عكّا في الازدهار والعمران.

1 - صناعة الحرير

وهي قديمة في صور قِدَم المدينة. وقد لفتت الأنظار منذ مطلع عهد الفرنج. ولأهمية الحرير الصوريّ وجودته، كان الطلب كثيفاً عليه، خصوصاً ما كان يُصنع في الحيّ «البندقيّ». وأجمل أنواع

الحرير الملوّن، كان ذلك المصبوغ باللون الأرجواني، وهو اللون الذي اشتهرت به صور منذ القدم. واشتهر اليهود بالصبغ، والسوريّون بالحياكة.

وكان للحرير الطرابلسيّ صيت يوازي صيت ما كان يصنّع في دمشق وأنطاكية وغيرها من مدن الشرق، المشهورة بهذه الصناعة.

ونجد صناعة الشملة Camelot، الأقمشة السميكة الصوفيّة الممزوجة بوبر الحيوانات وتُلقى على الكتفين، أو الحرير، وتنتج في طرابلس وطرطوس، وكانت مرغوبة في أوروبا.

2 - صناعة النبيذ

تذكر الوثائق وجود معاصر للعنب؛ ومن الطبيعيّ أن يكون هذا العصير يُصنَع دبساً أو نبيذاً.

واشتهر بنبيذه كلّ من أنفه والبترون وجبيل. وهذه الأخيرة كانت، من بين المدن اللبنانيّة، من أفضل ما يُنتج في الشرق الفرنجيّ. وكانت مرسيليا تتغذّى منذ القديم بخمر مدن عدّة، منها الصرفند. ويمتدح «بوركاردت» نبيذ طرابلس.

3 - صناعة شراب الفقيع أو الفقاع Focay

يُستخرج من الشعير كالجعة، وهو شراب يُصدِر الفقاقيع.

4 - صناعة الزجاج والخزف

اشتهرت صور بصناعة الزجاج منذ القدم. وقد ازدهرت في طرابلس أيضاً.

كانت بيروت وصور، إضافة إلى دمشق ويافا، مشهورة بصناعة الخزف المصقول واللامع.

5 - صناعة الجلود

نجدها في طرابلس وصيدا وغيرها من مدن المشرق وكانت بيد اليهود.

6 - المطاحن والأفران Furnus والمصابن

كانت توجد في مدن الساحل وفي جميع المدن. أما المصابن فحيث تنتشر زراعة الزيتون.

7 - صناعة النحاس

اشتهر النحاس في صور وطرابلس ومدن سورية ومصر والعراق. وكانت تُنتج منه الصواني والكؤوس والشمعدانات والمصابيح وصفائح الكتابة المطعّمة بالذهب والفضة.

د ـ مدن ساحل المشرق، تسترجع تاريخها المجيد فتُعيد ربط شرق المتوسط بغربه

احتلال الفرنج لمدن الساحل، فتحها على أسواق الغرب الأوروبيّ، وأعاد إليها اعتبارها كهمزة وصل بين الشرق والغرب.

المواد التي كانت تتاجر بها مرافئ الفرنج، هي: القطن، البهار، القرفة، الصدف، الشبّة، المسك، الكتّان، القرنفل، السكّر، زيت السمسم، البخور، الكافور، الزنجبيل، اللبان، الفواكه، الزيتون، الزيت، النبيذ، خيط دوماس، القمح، الشمع وغيرها.

1 - التجارة الداخلية

كانت دمشق، كما حلب، مركزاً أساسيّاً في هذه التجارة. ولم تكن صيدا وبيروت، إلا في الدرجة الثانية. كانت التجارة البرّية تصل إلى اللاذقيّة La Liche أو بواسطة أنطاكية إلى السويدية Soudin التي كانت تحمل أيضاً اسم مار سمعان Port St.Siméon.

كانت التجارة البحريّة بالدرجة الأولى بيد الإيطاليين، وتجري في عكّا وصور وطرابلس. وكانت الأساطيل تترك الشاطئ المشرقيّ في أواخر الربيع وخلال الخريف. وهذا ما يؤكده ابن جبير. فهو يشرح أنّ الرياح الشرقيّة تهبّ خلال هذين الفصلين: من أواسط نيسان حتى آخر أيار، وفي أواسط تشرين الأول، ولكن مدّتها أقلّ.

لم تتغيّر الطرق التجاريّة البرّية التي كانت تربط مملكة القدس اللاتينيّة بجوارها من المناطق الإسلاميّة، عن الخطوط القديمة التي تكلّم عليها الجغرافيون العرب وقبلهم الرومان واليونان.

كانت المواد التي كان يُتّجر بها، تصل إلى صور، من مراكز إنتاجها المتنوّعة، بواسطة القوافل التي تصل إليها عبر طبريّة أو تبنين. وكان طريق طبريّة هو الأسهل، أما طريق تبنين فكان صعباً، لا تسلكه إلا البغال لصعوبة أرضها.

طريق الرواديف يربط دمشق ببعلبك وهو طريق شاق. وطريق من جبل يبوس إلى عين الجرّ فالدلهمية فبعلبك فاللبوة فالزراعة فحمص. وطريق من صفد إلى جبل عاملة فتبنين وهونين فمرجعيون فجسر كامد اللوز. وطريق آخر من عمل صيدا مروراً بوادي التيم. ومن صور إلى دمشق تمرّ بهونين. ومن صور إلى عكّا عبر الناقورة فالطريق ضيّق مطلّ على البحر، بها يضرب المثل لا يعبر بها إلا حمل جمل.

2 - التجارة البحريّة

كانت بيد القوى البحريّة الأوروبيّة، وفي طليعتها أساطيل الدول الإيطاليّة: «البندقيّة» و«جنوى» و«بيزا»، إضافة إلى دور أصغر للمرافئ الفرنسيّة، وفي طليعتها «مرسيليا»، التي كانت تؤمّ صور المرفأ الثاني في المملكة اللاتينيّة وكذلك بيروت وطرابلس.

هذه الأساطيل، كانت تشحن أعداداً كبيرة من المسافرين. فإذا صدق ابن جبير كان على مركبه الجنويّ 2000 حاج.

رحلتان كبيرتان كانتا تجريان كلّ سنة: واحدة قرابة عيد الفصح الغربيّ، أي مع بداية الربيع، والثانية عند عيد القديس يوحنا، أي مع بداية الصيف. ورحلة الربيع هي الأهمّ. بعض المراكب كانت تجوب البحر في تموز وفي آب. ولكن في أيلول لا رحلات باتجاه الشرق. ففي المواقيت المذكورة كانت الرياح مؤاتية، وعادة تستغرق الرحلة قرابة الشهر، بالنسبة إلى السفن المحمّلة جيداً، أما السفن القليلة الحمولة، فبإمكانها اجتياز المسافة بوقت أقلّ. وتنشط الأسواق بعد وصول السفن طيلة فصل الصيف، لأنّ الرجوع ينبغي أن يتمّ قبل اضطراب الطقس في الخريف من جهة، واللحاق بالأسواق الأوروبيّة، قدر الإمكان، لتصريف البضائع الجديدة قبل انتهاء فصل الصيف ومطلع الربيع.

3 - التجارة « البندقيّة»

كانت وضعيّة التّجار «البنادقة» منبثقة، كما رأينا، من اتفاقيات المدن، وفي طليعتها صور.

كان «البنادقة» يحملون إلى الشرق إنتاج إيطاليا وألمانيا من الثمار المجفّفة، والمأكولات المملّحة، والمعادن المصنّعة وغير المصنّعة، والخشب، والفراء المصنّعة. وأقمشة القنّب، والصوف وأقمشته. ويحملون، بالمقابل، إلى أوروبا الثمار النادرة الغريبة عنها، والخمور، والسكّر والأفاويه، والراوند،

والمسك، والقرفة، والبهار، وجوزة الطيب، وكبش القرنفل. والكافور، والألوة، والبخور، والتمر، وزيت الميرون، والصندل، والصمغ، وكلّ ما يأتي من الهند، وأقمشة القطن، والحرير، والأرجوان، والألبسة المطرّزة بالفضة والذهب، وأقمشة دمشق وبغداد، والسجّاد، واللؤلؤ، والحجارة الكريمة، والزجاج، والآنية الناعمة، والعاج، والذهب، وحجر الشبّ، والعنبر.

4 - التجارة «الجنويّة»

في العام 1168م أعطى «هوغ الثاني الأمبرياتشي»، سيّد جبيل، «الجنويّين» الحرّية التامة في التجارة في منطقته.

5 - التجارة «البيزانيّة»

أضحت للـ«بيازنة» امتيازات في صور منذ عهد «هنري دو شامباني» Champagne.

كان «البيزانيّون» يحملون إلى مصر الخشب والحديد والأسلحة. وهي البضائع التي كانت محرّمة من قبل البابا، لأنّها تدخل في صناعة الأسلحة عند المسلمين.

6 - التجارة الفرنسيّة: البروفنس ومرسيليا

كانت «مرسيليا» تحمل إلى الشرق «البيزان» المسلمة وتبادل وتبيع مواد الذهب والفضة. كانت «مرسيليا» أكبر مستودع للحديد في القرون الوسطى.

الزعفران كان مطلوباً، برغم إنتاجه في المشرق، وكان إنتاجه الأكبر في أعالي «البروفانس» ويدخل في الصباغ في المشرق.

الألبسة كانت إحدى مواد التجارة الأساسيّة. فالألبسة المشرقيّة من القطن والحرير، كانت جميلة، ولكنّها غالية الثمن. بينما كانت الألبسة الأوروبيّة، ومنها ألبسة التجارة «المرسيلية» مصنوعة من الصوف، أمتن وأقلّ كلفة. الأقمشة، كانت إحدى مواد التجارة أيضاً، مع أنّ المشرقيّيّن كانوا يخيطون الكتّان، ولكنها ناعمة ودقيقة وغالية الثمن، مما يجعل استعمالها أقلّ. بينما أقمشة أوروبا أقوى مناعة وأقلّ ثمناً. وتأتي خصوصًا من «شامبانيا» و«ريمس» و«ايبرني» و«بال» و«ألمانيا».

كانت سفن «مرسيليا» تحمل، من غير إنتاج بلادها، خيوط «البرغونيا»، والخيوط المذهّبة «الجنويّة»، وأغطية الرأس المذهّبة من صناعة «لوك» والجلود ولا سيّما خصوصًا جلود الثعالب.

ومن بين أهم منتجات تشحن من سواحل الشرق اللاتينيّ ومصر، الأفاويه والعطور: البهار، كبش القرنفل، الزنجبيل، القرفة (كانيل)، المسك، جوز الغال، خشب البرازيل، الكافور، خشب الصندل، الصبر أو الالوة (الوس)، البخور. ويأتي من الهند الزعفران والكحل، وحجر الشبّ لصباغ الأقمشة.

لم تدخل التجارة «المرسيليّة» حيّز العمل الفعليّ إلا بعد المرحلة الثانية من تاريخ الفرنج، بعد معركة طبريّة وقيام عكّا بدور عاصمة بقايا مملكة القدس.

واشتهرت في لبنان تجارة الثلج. فكان الثلج يُحمل بعناية مسافات طويلة، مسيرة أيّام، ويستعمل في تبريد الشراب أو تجميده.

7 - التجارة المسلمة

كان للمسلمين، أيضاً، تجّارهم الذين يحظون بقدر كبير من الاحترام عند أمراء المسلمين والفرنج. وكان هؤلاء التّجار على قدر كبير من الغنى، نتيجة التجارة البرّية، التي كانوا يؤمّنونها بين دمشق ومدن الساحل الفرنجيّ. فكان لهؤلاء التّجار، عملاؤهم، وممثّلوهم، ووكلاؤهم، وبيوت تجارتهم وقوافلهم. كان لبعضهم ثروات طائلة. وكان اليهود يلعبون دور الصرّافين، ويموّلون الهيكلّيين.

كان لكلّ من دول الفرنج في هذه التجارة عملتها الفضيّة. أمّا العملة الذهبيّة فكانت واحدة، «البيزان» Besants. وكان «البيزان» عملة صافية، وأبرز مركز لضربه كان في صور، ولذلك دُعي بالصوريّ. وكان استعماله رائجاً في المناطق الإسلاميّة.

الاقتصاد عمومًا والمجتمع يتأثران بالعوامل الطبيعيّة خصوصًا الزراعة.

رابعاً - الأوضاع الثقافيّة

ثقافة الإفرنج في المشرق كانت دون ثقافة أعدائهم، لأنّهم كانوا، في الغالب، جماعات من العسكر الأجانب نازلة في القلاع وعلى اتصال وثيق بطبقة الفلاحين والصنّاع، وليس بطبقة العلماء والمفكّرين.

وبالمقابل، لا يوجد أدباء وشعراء مميّزون في لبنان من تلك الحقبة.

ومن الذين عرفوا من أهل الأدب من المسلمين: أحمد بن منير الطرابلسيّ (473 - 548هـ/1080 - 1153م) بن أحمد بن مفلح الملقب مهذب الدين عين الزمان، له ديوان شعر.

تعلّم بعض الفرنج العربيّة، ولكن لا يبدو أنّ المسلمين قد تعلّموا اللغات الأجنبيّة. فـ«وليم (غليوم) الصوريّ» و«وليم الطرابلسيّ» كانا يجيدان العربيّة المحكيّة والفصحى.

انتشر في لبنان الرهبان «الكرمليّون»، الذين تأسست رهبانيّتهم في جبل الكرمل في فلسطين سنة 1154م. وأسسوا مركزاً لهم في طرابلس. ثم تلاهم تأسيس الرهبانيّة «الفرنسيسكانيّة» و«الدومينيكيّة». فأسس «الفرنسيسكان» إرساليّة في طرابلس وبيروت. وفي سنة 1227م وصلت إلى طرابلس إرساليّة «دومينيكيّة». وكتب «وليم الطرابلسيّ»، وهو أحد «الدومينيكيّين» من أصل شرقيّ، سنة 1270م، أفضل ما كُتب عن الإسلام في العصور الوسطى «مقال في حالة المسلمين» Tractus de statu Saracenorum.

أمّا «ريمون لُلْ» Raymond Lull فقد اقتنع بأنّ الطرق الحربيّة لا تجدي نفعاً في نشر الدين المسيحيّ. وكان «لُل» أوّل أوروبيّ يشجّع على الدراسات الشرقيّة.

ومن أسماء الفرنج الثقافيّة اللامعة التي ولدت في الشرق، المؤرخ «غليوم (وليم) الصوريّ» Guillaume de Tyr الذي ولد في فلسطين من عائلة إيطاليّة سنة 1130م، وتلقى دراسة جيّدة، فتعلّم اليونانيّة والعربيّة والفرنسيّة واللاتينيّة وأنهى دراسته في فرنسا. وفي سنة 1169م بدأ بكتابة حوليّته التاريخيّة عن الحروب الصليبيّة ومملكة القدس بعد جيلين من بدء هذه الحروب. وقد كتبت الحوليّة باللاتينيّة بعنوان «تاريخ ما وراء البحر» Historia Rerum In Partibus

Transmarinis Gestarum ثم نشرت بالفرنسيّة في القرن الثالث عشر من قبل مؤلف مجهول تحت عنوان: Estoire de Eracles.

واشتهر أيضاً «فيليب الطرابلسيّ»، الذي كان أحد رجال الدين الفرنج وترجم من العربيّة نصّاً منسوباً إلى «أرسطو» بعنوان Livre du secret des secrets الذي انتشر في أوروبا، وكان أحد مصادر كتب الأخلاق التي عُرفت باسم Miroirs des Princes.

كانت معلومات الفرنج الطبيّة بسيطة لذلك نقلوا إلى اللاتينيّة كتاب «كامل الصناعة الطبيّة» لمؤلفه علي ابن العباس المجوسيّ (ت 994م)، وقد نقله رجل إيطالي من مدينة «بيزا» اسمه إسطفان.

كانت مدرسة الطبّ في طرابلس مشهورة بحيث إنّ الطبيب «اهارون السريانيّ» الغربيّ، طبيب أمراء المغول، من ملطية أرسل ابنه في سنة 1246م لدراسة الطبّ في مدرستها والفصاحة على يد السريانيّ الشرقيّ (النسطوريّ) يعقوب. وهذا الطالب، ابن العبريّ، الذي أصبح «مفريان» الشرق، كتب في الطب، وأصبح زميله في الدراسة في طرابلس، «صليبا بن يعقوب الرهاويّ»، أسقف حلب سنة 1247م ثم «مفريان» سنة 1252م.

خامساً - العمران الحربيّ: الحصون والقلاع

في هندسة البناء، نقل الفرنج معهم إلى المشرق من إيطاليا و«نورمنديا» فوائد كثيرة تتعلّق بأصول البناء الحربيّ، وقد أوصلوا بعض هذا العلم إلى العرب. أما أهمّ عمارات الصليبيّين، فكانت الحصون والكنائس، مثل حصن الأكراد وقلعة المرقب وشقيف أرنون وغيرها.

كانت أغلبية قلاع الساحل تقدّم شكلاً هندسيّاً متشابهاً. فصور وطرابلس بشكل شبه جزيرة محصّنة، وصيدا والبترون وجبيل بشكل مربّع منحرف يستند إلى البحر مستفيداً من مرتفع تلّ قديم. هناك دائماً خندق يفصل المدينة المحصّنة عن باقي البلد، يتمّ تجاوزه بجسر. وكانت هذه الخنادق سابقة لوجود الفرنج الذين أعادوا ترميمها أو وسّعوها.

أقام الفرنج في مداخل الموانئ البحريّة، في عكّا وصور وصيدا وطبرجا والفيدار وجبيل ومدن بحريّة أخرى، أبراجاً عند آخر السور أو الحاجز الذي يمنع الموج، أو على جزر صغيرة بالقرب من مداخل هذه الموانئ، أو على التلال المشرفة على المدينة. وقد بُنيت هذه الأبراج من مواد أنقاض أبراج سابقة.

وجميع هذه القلاع يعود زمن بنائها إلى القرن الثاني عشر، وبعضها إلى القرن الثالث عشر.

ومن هذه القلاع والحصون:

أ - في لبنان

1 - رأس الحصن قرب طرابلس لجهة جون عرقا.

2 - في وسط جون عرقا ثلاثة حصون تتقارب بعضها من بعض. اسم أحدها مما يلي طرابلس «لوتورس» والآخر «بابية» على نهر بابية والحصن الثالث يُسمّى حصن الحمام.

3 - برج بحنين يتحكّم في نهر البارد.

4 - البرج Castellum Melechin

يتحكّم في أعالي النهر الكبير بمواجهة حصن الأكراد.

5 - عرقا Archas في وسط عرقا.

6 - القليعات Coliath

وهو على بعد 6 كلم تقريباً من عرقا عن انفصال طريق الساحل وطريق طرابلس حمص.

وعند التوجه إلى الشمال والوصول إلى نهر الأبرش، خارج لبنان الحاليّ، نجد من حصون «كونتيّة طرابلس»، عند أحد روافد النهر المذكور، حصن العريمة Arima، وقرب العين الزرقاء نجد حصن يحمور Castrum Rubrum، ثم نصل إلى طرطوس. وبعد طرطوس نصل إلى نهر مرقية، وعلى بعد 4 كلم منه نجد أقصى حصون «الكونتيّة» في المكان المعروف بخراب مرقية Maraclée وحصن Camel وSarc.

7 - عكّار Gibelacar ou Guibelacard

على علو 700 م يشرف على جنوب البقيعة. ومن حصن عكّار الواقع على صخر صعب المنال يمكن مشاهدة حصن الأكراد وصافيتا Chastel blanc.

8 - حلبا Albe

على بعد 4 كلم من عرقا.

9 - طرابلس Mont pèlerin

حملت القلعة تسمية Mont pèlerin «قلعة صنجيل».

10 – بشراي Buissera

الذي يسيطر على الطريق الجبلية بين طرابلس وبعلبك.

11 - القلمون Calmont

من الممكن أن يكون موقعه في محيط جامع القلمون.

12 - أنفه (أنف الحجر) Nephin

وهو على البحر، على بعد 8 كلم شماليّ الهري نجد بقايا حصن أنفه أو أنف الحجر.

13 - سلعاتا Selaa

على بعد 3 كلم من البترون وموقعه على صخر يُشرف على البحر.

14 - الهري أو رأس الشقعة Puy du connétable

يقع «البوي دي كونّتابل» على تلة تهيمن على الطريق شرقيّ رأس شكا Theouprosopon. وهو لربّما Castrum Constabularii.

15 - بشمزّين Beshmezzin

على بعد 9 كلم من الهري.

16 - المسيلحة

يقع على نهر الجوز على بعد 3 كلم من مصبّه، على صخرة وسط ممر ضيق بين الضفة اليمنى للنهر وطريق قديم تربط البترون بطرابلس.

17 - الحصن في دوما

يقع على علّو 1350م وهي حالياً كتلة من الحجارة وتُشرف على بلدة دوما.

18 - بترون Boutron

وهو حصن على البحر.

19 - جبيل

تمّ بناؤها في ظلّ حكم أسرة «أمبرياتشي» الجنويّة للمدينة بحجارة عمائر المدينة العائدة للعصور السابقة.

20 - سمّار جبيل

على بعد 3 كلم شرقيّ البترون وعلى علو 400 م.

21 - المنيطرة

هو أعلى قلعة بناها الفرنج في لبنان على ارتفاع 1260م. واسمها الإفرنجيّ Le Moinetre، وقد شيّدت لحراسة المعبر الجبلي الذي يربط بعلبك بجبيل.

22 - جونية

وهو حصن كبير على البحر.

23 - نهر الكلب

وهو حصن صغير على البحر.

24 - بيروت

لم يبق من بيروت، من القرون الوسطى، شيء يذكر، سوى بعض بقايا حيطان أسوارها التي تمّ إظهارها من خلال الحفريات في السنوات الأخيرة.

25 - المرداسيّة

على بعد ثمانية أميال من بيروت.

26 - الناعمة

حصن كالمدينة الصغيرة.

27 - الجيّة

حصن على البحر.

28 - قلعتا صيدا: البحريّة والبريّة

بُنيت القلعة البحريّة على جزيرة صغيرة على مراحل من سنة 1227 - 1228م إلى سنة 1291م. وكان يربطها بالمدينة جسر حجريّ طويل.

والى جانب قلعة البحر، اهتم الملك «لويس» التاسع بالقلعة الواقعة على قمّة التلّ القديم للمدينة، من جهة الجنوب، «قلعة البرّ» التي حملت اسمه في جنوب المدينة.

29 - شقيف تيرون Caves de Tyron

تُعرف الآن بقلعة نيحا، أو ربّما تكون قلعة جزين، والاثنتان قرب بعضهما البعض محفورتان في شاهق صخريّ، الأول على علوّ 1300م قبل بلدة نيحا من جهة جزين.

30 - أبو الحسن Belhacem

يقع في أسفل بلدة صفاريه على صخرة مرتفعة بطول 120م رسمها تمايل ومجرى نهر الأولي ترتفع 80م لجهة الضفة اليسرى للنهر.

31 - البير

تقع في قضاء صيدا على ارتفاع 347م.

32 - الشقيف أرنون Beaufort

تقوم هذه القلعة من جهة الشرق على شاهق يلامس ويشرف على مجرى نهر الليطاني كما يدلّ على ذلك اسمها، على علوّ 300م من الجهة اليمنى من مجرى النهر وينحدر ببطء لجهة الغرب لجهة بلدة أرنون.

33 - تبنين Toron

تقع على تلّة تشرف على صور وبإمكانها التحكّم في المدينة والطريق التي تربط دمشق عبر بيت جنين ببانياس وبصور وبالداخل.

34 - ميس

تقع على علو 314م عن سطح البحر.

35 - عدلون

وهو حصن منيع على البحر.

36 - الصرفند

وهو حصن في بلدة الصرفند.

37 - دوبيه

تتوسّط المسافة بين بلدتي حولا وشقرا.

38 - راشيّا

تقع عند أقدام جبل حرمون.

39 - سرايا أو قلعة الشهابيين في بلدة حاصبيّا.

40 - مارون

تقع في قضاء صور في قرية دير كيفا.

41 - اسكندرونا

في قضاء صيدا في بلدة مجدلونا على تلّة يبلغ علوّها 200م.

42 - هونين Château neuf

تقع اليوم على جبل في الأراضي المحتلّة، في آخر جبل عامل من جهة الشرق، وفوقها جبل يُنسب إليها ويقابلها من المشرق جبل بانياس.

43 - قلاع مغاور

إضافة إلى قلاع الشقيف نجد مغارة عاصي الحدث ومغارة الحمام في وادي قاديشا وكهف المنبوح (حالياً دير مار مارون) قرب نبع نهر العاصي ومغارة زلايا لجهة البقاع الغربيّ.

ب - في الأردن

حصن الكرك: الكرك، Kerak وهي القلعة الأكبر بالعرض في المشرق، بدأ بناؤها في عام 1140م.

قلعة مونتريال: الشوبك، Montréal، في شرق وادي عربة تنتصب على أكمة صخريّة مخروطة الشكل.

قلعة وادي موسى.

ج - في سورية

برج صافيتا.

قلعة الحصن (حمص) حصن الأكراد Krak des Chevaliers، Crac des Chevaliers، أو حصن الإسبتار وهو من أهم الحصون والقلاع الصليبيّة في المشرق، وأهميتها أنها أكثر قلعة حافظت على بنائها وهندستها في تاريخ القرون الوسطى.

قلعة المرقب: المرقب، Margat قرب بانياس السوريّة على بعد 6 كلم جنوبها، وعلى بعد 2 كلم عن الشاطئ.

قلعة مصياف.

قلعة يحمور، Chastel Rouge، قلعة صغيرة في شمال غرب سورية في كونتيّة طرابلس وتحمل أيضاً تسمية Castrum Rubrum.

د - في فلسطين

1 - قلعة أرسوف خرائب معروفة أيضاً باسم أبولونيا، وتقع على بعد حوالي 15 كم إلى الشمال من تل أبيب على منحدر فوق البحر الأبيض المتوسط.

2 - قلعة بلفوار، في موقع كوكب الهوا (Belvoir) التي تشرف على وادي الأردن، وعلى بحيرة طبريّة.

3 - قلعة عكا.

4 - قلعة بيسان تقع قرب سرايا عبد الحميد. شمال شرق الهيبودروم في بلدة بيسان.

5 - قلعة قيصريّة.

6 - قلعة كفرلام في القرية التي تحمل اسمها على بعد 26 كلم جنوب حيفا.

7 - قلعة بيت جبرين على بُعد 21 كيلومتراً (13 ميلاً) شمال غرب مدينة الخليل.

خلال الحكم الصليبيّ عُرفت القرية باسم «بيث غيبلين»، وكان عدد سكانها نحو 1،500 نسمة، حيث كانت تُعدّ قرية كبيرة مقارنة مع القرى الأخرى التي كان يتراوح عدد سكانها ما بين 100 و150 نسمة.

وفي سنة 1135 أقام فولك ملك بيت المقدس قلعة على أراضي بيت جبرين، لتكون الأولى من سلسلة التحصينات آنذاك لضمان السيطرة الصليبيّة على موانئ قيسارية ويافا. وأسموها «بيث غيبلين».

تقع بيت جبرين بين السهل الساحليّ غربًا وجبال الخليل شرقًا. كانت تبعدُ نحو 21 كم (13 ميل) شمال غرب الخليل.

فعل المعاينات

8 - كاسال دي بلان.

9 - كاستيلوم ريجيس Castellum Regis.

10 - شاستيليه استولى على قلعة شاستيليه Chastellet التي كانت تحت سيطرة فرسان المعبد Knights Templar.

11 - قلعة عتليت معروفة أيضاً باسم قلعة الحاج وتقع على بعد 13 كم جنوب حيفا.

12 - لو ديترُوا.

13 - قلعة اللطرون بين القدس ويافا على بعد 2 كلم من القدس.

14 - قلعة مونفور Monfort.

15 - قلعة صفورية.

16 - قلعة مريل Merle في حيفا.

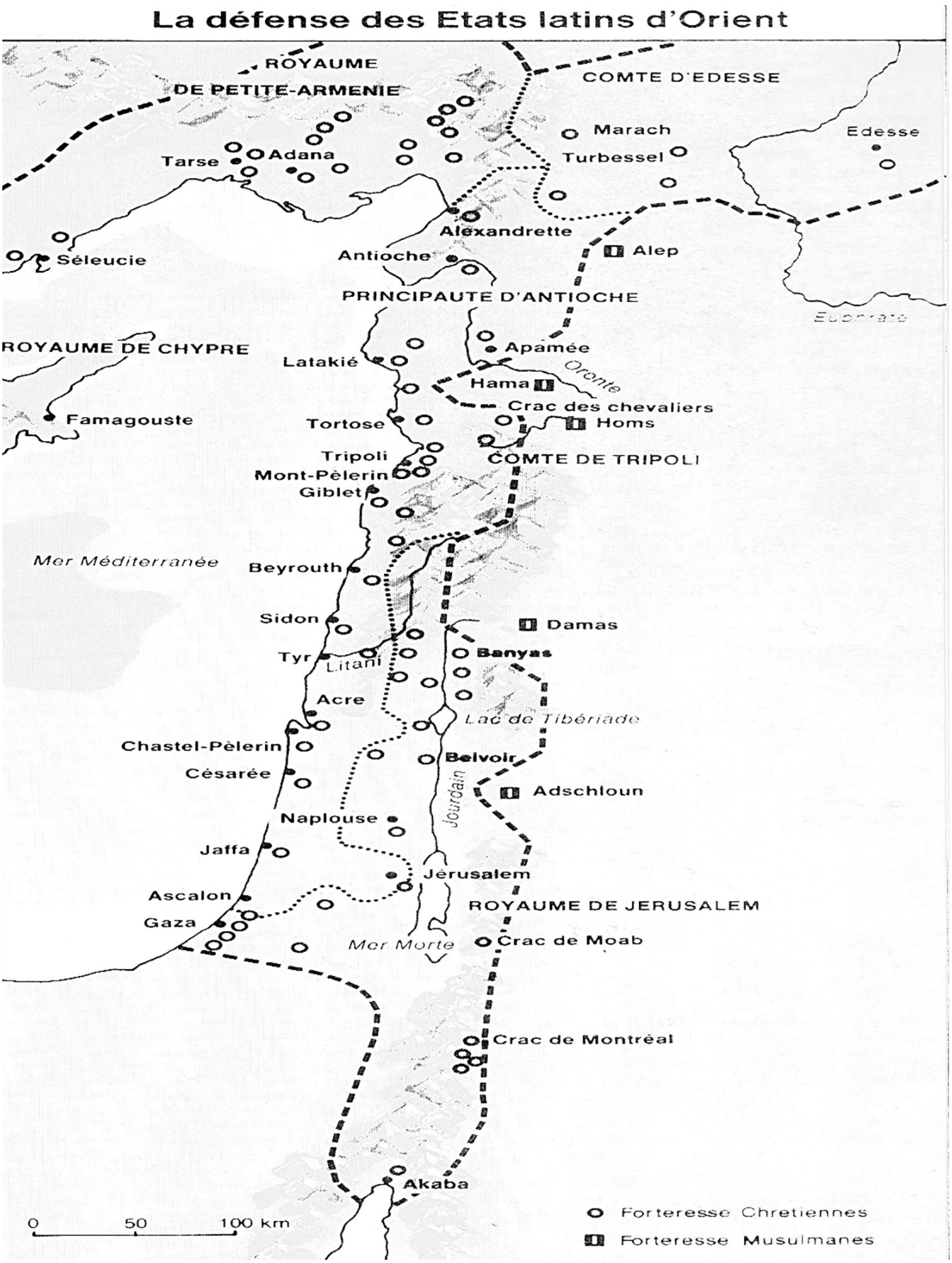

دفاعات ممالك الفرنج

(Seuil 47 (1982 ،d'Histoire ،"des châteaux forts en Palestine" ،Michel Balard

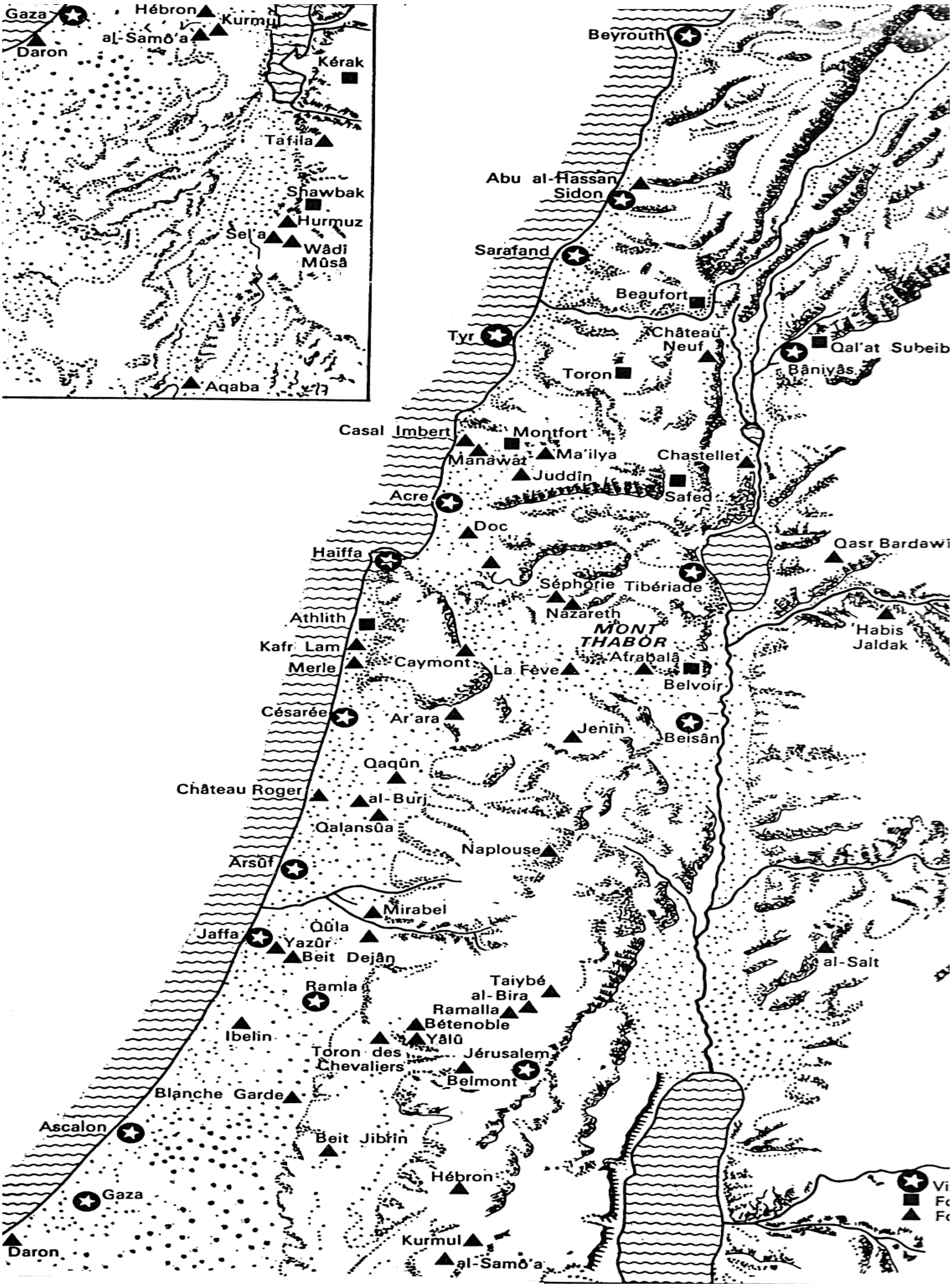

دفاعات ممالك الفرنج

.Prawer، Hist. du Royaume Latin de Jérusalem، I، p. 662

لمزيد من المعلومات عن عهد الفرنج - الصليبيّين تراجع:

Fulcherio) ، ،**Conquête de la Terre Sainte..** Foulcher de Chartres ، ،Albert D'Aix
A signaler que De Chartres ..éd Guizot ،**Historia hierosolymitana** ، (Carnotensi né à Chartres en 1059 partit pour la croisade avec Etienne Comte de Blois et de- ensuite ،d'abord Comte d'Edesse ،chapelain de Baudouin I ،pendant la route ،vint roi de Jérusalem. Et quand Baudouin fut élevé au trône il devient chanoine du **Historia** ، (éd. Guizot. Foulcher de Chartres (Fulcherio Carnotensi ،Saint Sépulcre éd Guizot. Raimond d'Agilles (Chapelain du ،RHC HOcc. III ،**hierosolymitana Histoire des Francs qui ont pris Jéru-** ، (Comte Raimond de Toulouse +1099 Beyrouth ،les éditions l'Orient ،II reprint ،in Conquête de la Terre Sainte ،**salem** ،éd. H.Hagemeyer ،1993. **Gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum l'Es-** ،**Chronique.** Ambroise ،**Bullarium.** Amadi ،Heidelberg 1890. Tobia Anaissi Paris1881 ،.2t ،**toire de la guerre sainte par Ambroise. Archives de l 'Orient latin** ،Burchard) de Monte - Sion ،- 1884. **Assises de Jérusalem.** Burchardus (Burchardi **.La Syrie du Nord à l'époque des Croisades** ،**Peregrinatores.** Cl.Cahen

،Paris 1975 ،2t. Maisonneuve ،**Tyr à l'époque des Croisades**،Maurice Chehab **.Mediaeval painting in the Lebanon** ،Erica Cruikshank Dodd .1979

Histoire de l'île de Chypre sous le règne des Princes de la mai- ،De mas Latrie **Voyage du célèbre Benjamin** ،Paris 1861. Benjamin De Tudèle ،son de Lusignan **Le** ،tr. En fr. par Constantin l'empereur. Guillaume de Tyr ،**autour du monde Les châteaux des Croi-** ،Paul Deschamps .1184 - 1099) ،**Royaume de Jérusalem Histoire des institutions monarchique dans le** ،**sés en Terre Sainte**. G.Dodu **l' Estoire de Eracles** ،Paris 1894. Eracles ،1291 - 1099 ،**royaume latin de Jérusalem et conquête de la terre d'outre mer. Gesta Francorum et aliorum** ،**Empereur Hierosolymitanorum**

tra- ،**Gestes des Francs** ،Recueil de chroniques françaises ،**Gestes des Chiprois** La ،**Histoire des Croisades.** Hayton ،duit du latin par Aude Matignon. R.Grousset **Histoire du com-** ،RHC Doc. Ar. II. W.Heyd ،flor des estoires de Terre d'Orient

Leipzig - 1885 - 1886. **Histoire Anonyme** ،.2vol ،**merce du Levant au Moyen - Age** un) ،RHC HOcc ،**de la première croisade. Li Estoire de Jerusalem et d'Antioche** abrégé de Foucher de Chartres du XIIIes.). **Liber jurium reipublicae genuensis** **Le commerce de** ،vol.1854 - 1857. J.Marchand 2 ،(Historiae patriae monumenta **Chronique** ،**Marseille avec le Levant pendant les Croisades**. Michel le Syrien ،éd. et tr. En français par J. B. Chabot. **Momies du Liban** ،**de Michel le Syrien** **Châteaux et églises du Moyen - âge** ،Edifra 1994. Nordiguian et Voisin ،.G.E.R.S.L **Histoire du** ،préface de Jean Richard. J.Prawer ،1999 ،éd. terre du Liban ،**du Liban** .t.C.N.R.S. Paris 2 ،**Royaume Latin de Jérusalem**

Recueil des Historiens des Croisades. Recueil pub. par 1'Acade- éd. ،**Lois** .1 —.1906 - 1841 ،Paris ،mie des Inscriptions et Belles Lettres **Assises** ،t. II ،**Assises de Jérusalem** ،t.I) .1843 ،t. II ; 1841 ،Beugnot. t. I Publiées par le Comte Beugnot). — 2. **His-** ، **de la cour des bourgeois** t. V ; 1879 ،t. IV ; 1866 ،**toriens occidentaux**. t. I (1 et 2) 1844 - 1859 ; t. Ill ; 1884 ،t. II (1 et 2) 1887 ; t. Ill ; 1872 ،et 2) 1895. — 3. **Historiens orientaux**. t. I 1) **Documents** .5 .1881 ،t. II ; 1875 ،**Historiens grecs**.t. I .4 — .1906 ،t. V ; 1898 ،t. IV **Les familles d'outre** ،Emmanuel - Guillaume Rey .1906 ،t. II ; 1869 ،**arméniens**. t. I ،publ. par E. G. Rey ، (**mer** (Publication d'un commentaire inédit de du Cange **études sur les monuments de l'architecture militaires des Croisés** ;1869 ،Paris III (1895). ،**Revue de l'Orient latin** ،Paris 1871; «Les Seigneurs de Giblet ،**en Syrie** Recherches ;، (IV (1896 ،in **Revue de l'Orient Latin** ،" Les Seigneurs de Barut Paris 1877; ،géographiques et historiques sur la domination des Latins en Orient Les Sei- " ;1883 ،Picard ،Paris، **Les Colonies franques de Syrie aux XII et XIII es** **Le Comté** ،in **Revue de l'Orient Latin** IV (1896). Jean Richard ،gneurs de Barut ،**de Tripoli**; **Le Royaume latin de Jérusalem**; **Histoire des Croisades**. Rothelin **Histoire** ،Paul Rousset ،.II ،.t ،in RHC HOcc ،**continuation de Guillaume de Tyr** ،.vol 3 ،**A history of the Crusades** ،Paris 1978. St Runciman ،Payot ،**des Croisades** .1954 - 1951 ،Cambridge

إبن القلانسيّ، **ذيل تاريخ دمشق**، نشر آمدروز، ليدن 1908، ؛ ط. سهيل زكّار، دار حسّان، دمشق 1983. وإبن القلانسيّ، الذي كان يتولى أعلى منصب مدنيّ في دمشق يقدّم رواية معاصرة للوجود الصليبيّ، خاصة لمملكة القدس، أكثر بكثير من الشمال الفرنجيّ، بقدر ما وصلت أخباره إلى دمشق منذ بدء الحملات حتى سنة وفاته في آذار 1160م. ويبدو أنّه كان يدوّن رواياته ساعة تلقّيها، ثمّ ينقّحها في ما بعد، وقد شكلّت أخباره مصدراً أوّلياً لمن جاء بعده كسبط ابن الجوزي وإبن الأثير في تواريخهما العامة وأبي شامة عن نور الدين، إلى غيرهم من مؤرّخين. ابن الأثير، **الكامل**، ط. تدمريّ. النويريّ، نهاية الأرب في فنون الأدب. شمس الدين محمد الذهبي، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق عمر تدمريّ، 53 جزءاً، دار الكتاب العربيّ، بيروت 1987 - 2004). أحمد بن إبراهيم الحنبليّ، مفضل بن أبي الفضائل، ابن اسباط، ابن الحريريّ في **كتاب منتخب الزمان، ابن** الشحنة، ابن الطوير، بن العبريّ، ابن العديم، ابن العماد الحنبليّ، ابن العميد، ابن الفرات، ابن القلاعيّ، ابن الورديّ، ابن أيبك الدواداريّ، ابن أيبك الصفديّ، ابن تغري برديّ، ابن جبير، ابن خطيب الناصريّة، ابن خلدون، ابن خلّكان، ابن دقماق، ابن شاكر الكتبيّ، عز الدين ابن شدّاد، ابن عبد الظاهر، ابن كثير، ابن منقذ، ابن ميسّر، ابن نظيف الحمويّ، ابن واصل، ابن يحيى، صالح، ابن يوسف الانصاريّ، أبو الفداء، أبو شامة، الإدريسيّ، عماد الدين الأصفهانيّ، بيبرس المنصوريّ، سبط ابن الجوزيّ، شيخ الربوة، النويريّ، اليافعيّ، ياقوت الحمويّ، اليونينيّ.

ومن المراجع: كتابي، **عهد الفرنج – الصليبيّين**. فيليب حتي، **لبنان في التاريخ**. ستيفن رنسيمان، كلود كاهن، **الشرق والغرب زمن الحروب الصليبيّة**، القاهرة 1195.

الباب الرابع
عهد السلاطين المماليك

المقدّمة

حَكَم المماليك بلاد المشرق طيلة قرنين ونيّف من الزمن (648 -922هــ/1250 - 1517م)، وتعاقبت على السلطة فيها دولتان: دولة الأتراك أو المماليك البحريّة (-648 784هـ/ -1250 1382 م) ثم دولة «الجراكسة» أو المماليك «البرجيّة» (784 - 922هـ/ 1382 - 1517م). وقيّض لدولتي المماليك وجود كتّاب إنشاء من العاملين بدواوينهم وضعوا توصيفًا وشرحًا للإدارة المملوكيّة ولما سبقها من إدارات إسلاميّة سابقة.

رأس الدولة هو السلطان الذي لا منازع لسلطته ويستمدّ شرعيته من خليفة قيل إنّه من بقايا الأسرة العبّاسيّة استقدمه السلطان بِيبرس إلى القاهرة، ونصّبه خليفة رمزيّاً وشكليّاً على المسلمين.

وكان أبرز سلاطين المماليك في الدولة المملوكيّة الأولى: المعز أيبك (648 - 655هـ/1250 - 1257م)، المظفر قطز (657 - 658هـ/1259 - 1260م)، الظاهر بِيبرس (658 - 676هـ/ 1260 - 1277م)، المنصور قلاوون (678 - 689هـ/ 1279 - 1290م)، الأشرف خليل (689 - 693هـ/1290 - 1293م)، الناصر محمد بن قلاوون (693 - 694هـ/1293 - 1294م، 698 - 708هـ/1299 - 1309م، 709 - 741هـ/1310 - 1341م)، ثم تتابع نسل قلاوون على العرش، حتى قيام دولة «الجراكسة» في 784هـ/ 1382م. المعروفة بدولة المماليك البرجيّة، (نسبة إلى أحد أبراج قلعة القاهرة، مركز السلطنة، حيث كان يقيم عدد من المماليك من أصل جركسي من بلاد القفقاس).

وأول الملوك الجراكسة كان الملك الظاهر برقوق (784 - 801هـ/ 1382 - 1399م)، وخلفه ابنه الناصر فرج (801 - 815 هـ/ 1399 - 12 14م). ثم خلفه مَن تغلّب على السلطة من الأمراء «البرجيّة». ومن أبرز هؤلاء المؤيّد شيخ (815 - 824هـ/1412 - 1421م)، والأشرف برسباي (825 - 841هـ/ 1422 - 1438م)، والظاهر جقمق (841 - 857هـ/1438 - 1453م)، والأشرف إينال (857 - 865هـ/1453 - 1460م)، والظاهر خشقدم الروميّ (865 - 872هـ/1461 - 1467م)، والأشرف قايتباي (873 - 901هـ/1468 - 1495م)، والأشرف قانصوه الغوريّ (906 - 922هـ/1501 - 1516م).

في العصر المملوكيّ، تمّت الصياغة شبه النهائيّة للأوضاع الاجتماعيّة والنظم الاقتصاديّة والسياسيّة والعمرانيّة للمشرق. بحيث نشأت الفئات الاجتماعيّة أو تمّت صياغة الفئات والطوائف الاجتماعيّة

الدينيّة أو الحرفيّة شبه المستقلة ذاتياً التي هي أبعد ما تكون عن المجتمع الواحد الذي ينشده الدين الإسلاميّ، والأحزاب «القوميّة».

الفصل الأول:
الأوضاع السياسيّة – العسكريّة

أولاً - الحملات المملوكيّة على الشّيعة والموارنة في كسروان في مطلع عهد المماليك وأثرها في جغرافية وجود الطوائف والصراع السياسيّ

دان المشرق لسلطة المماليك، فكان عليهم توحيده بالقوة تحت راية سلطتهم بالقضاء على الجيوب المناوئة لهم، وإبعاد شبح عودة الفرنج والمغول إليه.

لذلك عملوا على تأديب الطوائف المناهضة لهم ولربما الانتقام، من الشّيعة على أنواعهم، مطلقين عليهم تسميات («غلاة» الشّيعة أو «الرافضة» أو «الباطنيّة») وحتى كان للشيعة الإماميّة الإثني عشرية نصيب من التأديب، وكذلك المسيحيّين وخصوصًا الموارنة.

أ - الحملات على المسيحيّين الموارنة

تعرّض الموارنة لثلاث حملات:

الحملة الأولى: كانت في العام 1268م، عندما قامت قوات السلطان الملك الظاهر بِيبرس بالهجوم على قرية الحدث في جبة بشراي.

الحملة الثانية: جرت في العام 1283م. عندما أغار جماعة من التركمان على جبة بشري، فخرّبوا الحدث، وقبضوا على البطريرك البنهراني فانتهى أمره قتيلًا مع جماعته. فأخلد الموارنة إلى السكينة من جهة، وأُخضعوا لمراقبة مشدّدة طيلة حكم المماليك.

الحملة الثالثة: في 1292 من ضمن الحملات على كسروان.

ب - الحملات على كسروان

يبدو أن ثلاث حملات أساسيّة أصابت الجبال الكسروانيّة. كانت قد سبقتها حملتان، واحدة في نهاية عهد الأيوبيّين في العام 1242م. وجرى الاستعداد لحملة أخرى في العام 1287م.

ولربما حدثت غارة على كسروان في ذلك الوقت، بدليل أنّ جماعة من أهالي المنطقة كانوا معتقلين في دمشق في أواخر عهد قلاوون لـ«ذنوب» كثُر تكرارها في نصوص المؤرخين المماليك.

الحملة الأولى كانت في العام 691هـ/1292م. ويبدو أنها كانت موجّهة ضد الموارنة تماماً كما كانت موجّهة ضد «غلاة» الشيعة.

الحملة الثانية جرت في العام 1300م للثأر مما جرى في العام 1292م.

الحملة الثالثة والحاسمة كانت في العام 1305م. فبعد مفاوضات فاشلة جرت بين ابن تيميّة وسكان الجبال الكسروانيّة العاصية في 1304م، على أمل إمالة الشّيعة إلى الإسلام السنيّ، بدأ العمل على إنهاء العصيان في هذا الجيب الخطر ولذلك، وفي 2 محرّم 705 هـ/ 25 تموز1305م، توجّه الجيش إلى كسروان والجرد بقيادة آقوش وبمشاركة ابن تيميّة.

شاركت كل ممالك (نيابات) الشام في الهجوم، وعلى رأس كل جيش منها نائب السلطنة عليها، فصعدوا إلى جبال كسروان والجرد من أصعب مسالكها وأطبقوا عليها من كل الجهات، فتملّكوها ووطئوا أرضاً كان أهلها يظنون أن ليس بمقدور أحد أن يطأها.

معركة العام 1305م أصابت أيضاً الموارنة بقدر ما أصابت الشيعة. فالمطران تادرس المارونيّ، المعاصر للأحداث، يروي أنه لم ينجُ من التدمير أي دير أو كنيسة أو حصن ما عدا كنيسة مار شليطا مقبس. ويخبر تادرس، أيضاً، بأن زعماء الثوار كانوا من عائلة بللمع، العائلة الدرزيّة الشهيرة. ونجا من هذه المجزرة سكان جونيه الذين لاذوا بالفرار في مراكبهم، ولا يمكننا الجزم بهويّة سكان جونية: موارنة أم يعاقبة أم الإثنان معًا، أعتقد أنّهم كانوا من اليعاقبة أو كان قسمٌ منهم.

المنطق التاريخيّ يفترض وجود موارنة في كسروان ومسيحيّين آخرين. وقد أصاب المماليك عصفورين بحجر واحد في هجومهم على كسروان: فمن جهة اقتصّوا من المسيحيّين، ومن جهة أخرى من الشيعة، وخصوصاً «المتطرّفين».

الدروز أيضاً كانوا هدفاً للحملة. وتسمّيهم المصادر «التيامنة» نسبة إلى وادي التيم. وإذا ذهبنا في العمق، لوجدنا أن المشكلة هي في تحديد هوية الشّيعة الذين تصدّوا للحملات.

فبالعودة إلى فتاوى ابن تيميّة، هذه الحملات توجّهت ضد «الرافضة» الذين يفترض أن يشمل مصطلحهم النصيريّة والإسماعيليّة والقرامطة وأنواع الباطنيّة كافة حسبما يفسّر هو، شخصياً، مفهوم الرافضة. وفي عُرف ابن تيميّة، يمكن توسيع مفهوم الرافضة وتطبيقه على كل الذين يرفضون

الجهاد ضد الكفّار، وإجبار أهل الكتاب على دفع الجزية، وذلك يشمل حتى الشّيعة الإماميّة الإثني عشرية.

وبإمكاننا حسم مصطلح الرافضة استناداً إلى شيخ الربوة الدمشقيّ الذي يذكر في كلامه على جبل عاملة، وتبنين، أنّ أهلها رافضة إماميّة.

الحملات الأولى ضد الموارنة في العامين 1268 و 1289م، كانت لها أسباب عسكريّة. فالمماليك كانوا يرغبون في قطع الطريق على أية مساعدة للفرنج في طرابلس، لأنّ ذلك سيؤدي حتماً إلى إطالة عمر الحصار، وبالتالي عدم سقوطها بسرعة في أيديهم.

المماليك، كانوا مقتنعين بأن من أسباب انهيار قوة المسلمين أمام الصليبيّين انقسام الأمة الإسلاميّة إلى ملل ونحل.

حملة العام 1292م، كان الدافع إليها الرغبة في الاقتصاص من أهل كسروان لمساندتهم الفرنج.

أسباب حملة العام 1300م كانت مماثلة للسابقة. زيادة على ذلك، كانت السلطات المملوكيّة غاضبة على تصرّف أهل الجرد وكسروان لأنهم نهبوا المسلمين الهاربين من وجه المغول وباعوهم للصليبيّين (الكفار).

إذاً، أسباب حملتي 1300م و1305م كانت متشابهة. أبعد من ذلك، من بين الأسباب أيضاً: تخوّف المماليك من ازدياد عدد الشّيعة في تلك الجيوب الثائرة وتجاوزهم الحدّ المعقول وازدياد سلطتهم.

النتيجة الأولى: كانت تدمير البلاد وقطع الأشجار وهدم المنازل، ولما كانت الجبال مغطاة بالغابات، ولأسباب استراتيجية، تقرّر قطع أشجارها بحسب فتوى ابن تيميّة، لكشفها وللتمكّن من ملاحقة الهاربين ولمنع الغابات من التحوّل مجدداً معقلًا لثوار جدد. وكان الدمار كاملاً إذ تحولت البلاد مراعي خصبة لقطعان التركمان الذين كلّفوا السكن فيها والسهر على مراقبتها وحراستها.

النتيجة الثانية كانت على الصعيد البشريّ: المهاجمون لم يكتفوا بالتدمير للحجر والشجر، بل عملوا على تصفية العديد من السكان وتشريد الآخرين في البلاد، خصوصاً أعيانهم، ثم أُعطي بعضهم الأمان، إضافة إلى مَن مكث خارج كسروان ولجأ إلى جزين وبلادها وبلاد بعلبك.

النتيجة الثالثة: كانت تحويل كسروان إلى إقطاع أُعطي بادئ الأمر علاء الدين بن معبد البعلبكي وعز الدين خطاب وسيف الدين بَكتَمِر الحسامي وإبن صبح. ولكن الدولة المملوكيّة عادت في العام 1306م إلى إلغاء إقطاع هؤلاء وتحويله إلى عشائر التركمان، مشترطة عليهم تقديم خدمة عسكريّة من 300 خيال لتأمين الدرك لمرفأ بيروت وللطرق المؤدية إليه حتى عمل طرابلس. لذلك أمّن التركمان أعمال الحراسة «البوليسيّة» من إنطلياس إلى مغارة الأسد عند حدود معاملة طرابلس.

وهكذا تكون حملات كسروان قد أدخلت الإقطاع إلى الجبل، كما أسهمت في انتشاره في طرابلس، أيضاً، وأدّت إلى تبديل في جغرافية وجود الطوائف الدينيّة في الجبل طوال العهد المملوكيّ على الشكل الآتي:

فلقد انكفأ الموارنة على ذاتهم في القسم الشماليّ الشرقيّ من الجبل اللبنانيّ الواقع ضمن نيابة طرابلس في جبة بشراي والزاوية وفي سفوح وأعالي البترون وجبيل. فصائل صغيرة منهم جاءت لتسكن كسروان بعد مدّة، بحسب رواية الأسقف تادرس المارونيّ. وقد لاحظ الرحّالة «بولونير» وجود الموارنة في مدينة طرابلس بالذات في العام 1422م. كما أن قسمًا منهم هرب إلى قبرص ليشكل بعد اليونانيّين الطائفة الأكثر عدداً. وقد لاحظ الرحّالة أيضاً وجودًا مارونيّا في القدس.

على الرغم من الخسارة التي لحقت بالدروز في الجرد، بقوا محافظين على مواقعهم بفضل سياسة أمرائهم البحتريّين - التنوخيّين. أما الشيعة، فلقد توجّهت الحملات الكسروانيّة أساساً ضدهم، وقُضي على وجودهم نهائيّاً في جبال كسروان. ولكن ما ينبغي التوقف عنده، هو أن الحملات لم تتخذ الموقف نفسه من كل شيع الشيعة. لذلك كان للدولة المملوكيّة ثلاثة مواقف مختلفة منهم:

فقد قضي على قسم منهم. وقسم أُسكن في طرابلس. وهؤلاء كانوا من النصيريّة.

وقسم لجأ إلى جزين والبقاع وبعلبك. ويعتقد أنّهم من الشّيعة الإماميّة الإثني عشرية.

ومع الزمن، تحوّل قسم من الشّيعة إلى السنة بسبب ممارستهم للتقيّة على المذهب الشافعيّ.

ثانياً - الصراع مع الفرنج في سواحل لبنان

رحل الصليبيّون، عن سواحل لبنان وسورية وفلسطين، غصباً عنهم، إلى جزر المتوسط، وعلى رأسها قبرص ورودس ومالطا وغيرها، فكانت نقطة انطلاق للغزوات الفرنجيّة ضد الموانئ المملوكيّة في المتوسط.

أ - على عهد المماليك البحريّين

بُعَيْد فتح بيروت حضر إليها ستة شوانٍ وواقعت المسلمين.

في العشر الأول من شعبان في سنة 698هـ/ أيار 1299م، وصلت إلى قرب بيروت ثلاثين بطسة بهدف الإغارة على السواحل، ولكنها فشلت في مهمتها.

بعد ثماني سنوات، في العشر الآخر من جمادى الأول سنة 706هـ / تشرين الثاني 1306م توجّه الفرنج إلى صيدا فأخذوها وقتلوا منها جماعة.

لم تكن بيروت وحدها هدفاً للفرنج، إذ بدأ هؤلاء يركّزون عدوانهم على طرابلس منذ العام 711هـ/1311م.

عادت شواني إفرنج جنويّة في العام 734هـ/1333م إلى بيروت للقرصنة على الكيتلان. فحال المسلمون دون ذلك.

كانت ثاني عملية للفرنج ضد شاطئ طرابلس بعد 24 سنة في العام 735 هـ/ 1235م، فحاربتهم الريح.

في العام 756هـ/ 1355م، بدأ القبارصة بهجماتهم على شواطئ طرابلس، حيث أخذوا أسرى، لم يطلقوهم إلا بعد مبادلتهم بكميّة من المال والبضاعة. وفي السنة التالية جدّدوا الهجوم.

وفي 757هـ/1356م والعام 759 هـ/ 1358 م عاودوا الكرّة على السواحل.

بعد أربع سنوات، في العام 763هـ/1361م. تعرّض الفرنج للسواحل، فردّ المماليك على ذلك بمصادرة حواصلهم في دمشق وسجن بعض منهم فيها.

أهم الغارات الفرنجيّة هي تلك التي جرت في 22 محرّم العام 767هـ/8 تشرين الأول 1365م، عند مهاجمة ساحل مصر في أبي قير في 764هـ/1363م.

وانفجر الصراع في العام 767هـ/1365م، عندما هاجم ملك قبرص، بطرس دي لوزنيان الفرنجيّ مدينة الإسكندريّة، طوال خمسة أيام. فبادر المماليك إلى سجن الفرنج الموجودين في دمشق، وإصدار قرار بمسك النصارى من الشام جملة واحدة، وأن يُؤخذ ربع أموالهم لعمارة ما خرب من الإسكندريّة، ولعمارة مراكب تغزو الفرنج. واضطهد النصارى ولم يفهموا ما يُراد بهم، فهربوا كل مهرب.

طال هذا الاضطهاد الموارنة، كما سائر الطوائف المسيحيّة، واستمرّ سنتين من 1365م إلى 1367م، ولربما أكثر، بدليل القبض على البطريرك المارونيّ جبرائيل من حجولا (1357م - 1367م)، وإعدامه حرقاً خارج جامع طيلان، في ضاحية طرابلس.

في العام نفسه في 11 ربيع الأول، هاجم الفرنج طرابلس. وبعد سنة عاود القبارصة الهجوم على طرابلس وكذلك في أيلول 1367م.

بعد هذا الكرّ والفرّ، وقع فرنج قبرص والمماليك هدنة في العام 1375م خرج عنها الجنويّون نتيجة بدء تّسلّط البندقيّة على تجارة المتوسط، الذي سيتحوّل في القرن الخامس عشر احتكاراً لهذه التجارة.

لذلك في العام 780 هـ/ 1378م، حاول الجنويّون مهاجمة طرابلس. وفي العشر الأوسط من جمادى الآخرة العام 784هـ/25 آب 1382م أخذوا صيدا، وهاجموا بيروت.

وفي العام 785هـ/1383م. وردت شوانيهم في البحر لقصد إياس، وبوصولهم إلى بيروت، ملكوا بعض أبراجها. فأدركهم العسكر الشاميّ بطائفة من الأكراد وقاتلوهم حتى قتلوا من الفرنج نحو خمسمئة رجل.

بعد أربع سنوات في 789هـ/1387م، عاد الجنويّون للإغارة مجدداً، وكذلك في العام 792هـ/1389 - 1390م.

ب - على عهد المماليك البرجيّين

عاد الجنويّون للهجوم على طرابلس، في العام 804 هـ/ 1401م..

بعد عامين، في 806هـ/1403م، توصّل الماريشال «بوسيكو» Boucicaut، حاكم جنوى الفرنسيّ، من عقد اتفاق مع جانوس Janus ملك قبرص حلّت بموجبه مسألة احتلال الجنويّين لميناء فماغوستا، واستتبع ذلك توجيه قواته وقوات قبرص ورودس إلى ميناء الإسكندريّة. ثمّ إلى طرابلس وبيروت وصيدا.

حاول السلاطين حلّ مشكلة القرصنة البحريّة بالوسائل الدبلوماسيّة، فلم يفلحوا فقرر السلطان الأشرف برسباي (1422 - 1438م) وضع حدّ للضرر الذي يلحق بصناديقه، وبالدول التي تقوم بينها وبين المماليك معاهدات تجاريّة، وخصوصاً البندقيّة.

فقام المماليك في العام 1410م بغزوة للجزيرة ألزمت «جانوس» بعقد صلح مع السلطان المؤيّد شيخ، ووقع الاتفاق في 24 تشرين الثاني 1413م.

انطلقت الغزوة من طرابلس، في العام 827هـــ/1423م، وتعرف بالغزوة الصغرى، أو غزوة الاستكشاف، وأبحرت الأغربة من طرابلس إلى قبرص، فغزت ساحلها في أوائل شهر شوال في ليماسول.

واصل السلطان برسباي استعداداته، بعد نجاح الغزو، فزاد عدد المراكب، وحصّن الشواطئ. فعمّر السفن الحربيّة في مصر وبيروت وطرابلس وصفد. وتوجّه المؤرخ الأمير صالح بن يحيى البحتريّ معهم مقدّماً على غراب بيروت العتيق، ومعه قريب من مئة رجل بحريّة ومقاتلة.

وفي نهار الأحد 6 رمضان 828هـ/21 تموز 1425م بدأت الحملة. ونزلت القوات الغازية في ميناء فماغوستا في 4 آب العام 1425م، الذي كان بيد الجنويّين الذين طلبوا الأمان، واجتاحت الشاطئ حتى ليماسول، ثم عادت، بعد سلسلة معارك ناجحة.

اجتمع عسكر مصر ودمشق وحلب وطرابلس وحماه وصفد، وكانت نقطة الانطلاق من الإسكندريّة حيث اجتمع أسطول ضخم وتمّ التوجّه إلى قبرص في أواخر شهر شعبان، فأخذت اللمسون (فماغوستا) ومسك ملك قبرص، وقُتِل أخوه، وتمّ الاستيلاء على الجزيرة. وبعد أيام عاد الجيش المملوكيّ من الجزيرة في أواسط رمضان، فوصلوا إلى دمياط، ومنها إلى القاهرة في العشر الأول من شوّال سنة 829هـ/ 1425م. وسار الملك القبرصي المأسور وسط القاهرة لتأدية الخضوع للسلطان، وتوقيع معاهدة. وحمل الملك إلى الإسكندريّة ومنها أبحر إلى قبرص.

وعلى الرغم من هذه الضربة عاود الجنويّون هجماتهم، وخصّوا طرابلس بغزوة في العام 836 هـ/1432م. وكذلك سواحل الشام. وفي شهر رمضان 837هـ/1433م أخذ القطلان (الكتلان) من ساحل بيروت خمسة مراكب فيها بضائع كثيرة جداً ورجال، وجهّز ملك «القطلان» كتابًا للسلطان يحطّ فيه من قدره بسبب كثرة جوره ومنعهم من مشترى الفلفل من التّجار، وإلزامهم شراءه منه مباشرة.

وتتابعت الهجمات المتبادلة بعد سنة، في 838هـ/ 1434م. وفي العام 837هـ أيضاً، هاجم القراصنة طرابلس في شهر صفر 837هـ/أيلول - تشرين الأول 1433م. وجرت غزوة أخرى في السنة التالية في 8 رمضان/18 نيسان 1434م.

ثالثاً - محاربة المغول - التتار

أ - العراق تحت الاحتلال المغوليّ

نجح جنكيزخان (1154 - 1227م) بإقامة إمبراطوريّة واسعة بعد احتلاله أجزاء واسعة من الصين ووسط آسيا وإيران وشرقيّ أوروبا. وعمد هولاكو المغوليّ إلى توجيه التوسّع إلى العالم الإسلاميّ مستفيدًا من الانقسامات التي أنهكت جسم هذا العالم.

بدأ التهديد المغوليّ للعراق عام 618هـ/1221م في وقت لم يكن بمقدور الخليفة العبّاسيّ مقاومة هذا البحر المترامي من الرجال والسلاح والثروة. في البدء قضى المغول على الدولة الخوارزميّة وقُتل زعيمها جلال الدين منكبرتي في 628هـ/1230م. ولم يقدّر الخلفاء العبّاسيّون الخطر المغوليّ حقّ قدره ولم يطبّقوا إجراءات استثنائية لمقاومته. فالسلطة تعاني الانحلال بعد تولي المستعصم بالله الخلافة سنة 640هـ/1242م، وهو ضعيف الشخصيّة ضعف الجند أيامه بعدما ضعفت أرزاقهم، حتى اضطر بعضهم للتسوّل أو الخدمة عند السلطات الحاكمة في بلاد الشام.

في عام 651هـ/1253 أرسل مانغو خان إمبراطور المغول هولاكو لفتح المشرق فدمّر قلاع الإسماعيليّة ووصل إلى همدان وبدأ بإرسال وعيده وتهديده للخليفة العبّاسيّ فلم يستجب المذكور له فتابع سيره في محرّم 656هـ/1258م واصطدم عند الدجيل (بين بغداد وسأمراء) بالجيش العبّاسيّ الذي مُني بالهزيمة فتابعت جحافل هولاكو السير إلى بغداد وحاصرتها. حاول الخليفة إيجاد حلّ سلمي ففشل فخرج مع أسرته لمقابلة هولاكو فبادر الأخير إلى احتجازه ثم قتله. على أثر ذلك دخل المغول بغداد في 5 صفر 656هـ/1258م فاستباحوا المدينة قتلًا للنساء والرجال، وأحرقوا المنازل، وبلغ عدد القتلى قرابة 800 ألف، وهو رقم مبالَغ فيه. ورحل هولاكو عن المدينة تاركًا إدارتها لجماعة معيّنة، مبقيًا على التشكيلات الإداريّة، كما كانت سابقًا بيد من بقي على قيد الحياة من أهل بغداد، ومنهم مؤيد الدين بن العلقمي الوزير ومبقياً على ثلاثة آلاف محارب فيها. ثم تابع المغول سيطرتهم على الموصل وأربيل وواسط وأخضعت غالبيّة مناطق العراق للمغول. وقتل معظم أفراد الأسرة العبّاسيّة ولم ينجُ سوى واحد منهم هو أبو القاسم أحمد بن الظاهر بأمر الله الذي أعلنه بيبرس سلطان مصر خليفة سنة 659هـ/1260م.

قسّم المغول العراق إلى ولايات ثلاث:

1 - العراق ما بين الزاب الأعلى إلى عبادان ومن القادسيّة إلى حلوان.

2 - الجزيرة الفراتيّة. وفيها الموصل وسنجار والعماديّة وأربيل.

3 - بلاد الجبل وفيها مدينة شهزور.

ألغيت الدواوين وكان الحاكم الفعلي الأعلى صاحب الديوان، والى جانبه كاتب السلة المسؤول عن كتاب الولاية، واستبقي على منصب قاضي القضاة، وهو المسؤول عن القضاة. وبقيت وظيفة الحسبة، كما وجدت وظيفتان: الصدر المشرف على إدارة الجند والناظر المسؤول عن الشؤون الماليّة. وكان الشحنة القائد العسكريّ الأعلى، وهو من المغول، والى جانبه نائب الشرطة المسؤول عن المحافظة على الأمن في بغداد. ونتيجة اهمال الإيلخانيّين لنظام الريّ، وتطهير الأنهار والقنوات، غرقت بغداد في السنوات 676 و683 و725 والحلة والكوفة في 685هـ. وأضحى العراق عرضة للأمراض الوبائيّة ولانتعاش البداوة وثقل الضرائب. حكم الإيلخانيّون المغول طيلة قرن من الزمن ونتيجة الصراع بين أمرائهم آلت البلاد إلى حكم الجلائريّ من 738 إلى 814هـ/1337 - 1411م.

وجلائر هي إحدى القبائل المغوليّة المرتبطة بجنكيزخان، ومؤسسها هو الشيخ حسن بن حسين بن آقبوغا المشهور بحسن برزك. وكان إيلكونيان الجد الكبير لحسن الذي قاتل مع هولاكو في احتلال بغداد. وقد تمكّن، حسن، صهر الإيلخان أرغون، من استغلال الصراع بين الأمراء من نسل هولاكو، على أثر وفاة أبي سعيد في 736هـ/،1335 من السيطرة على بغداد في 739هـ/1338م وأعلن استقلاله عن الإيلخانيين، واستمر ذلك في عهد ابنه معز الدين (757 - 1356/776 - 1374) الذي احتل تبريز واتخذها عاصمة له حتى سنة 788هـ/1386م، واتخذ لنفسه لقب سلطان. خلف أويس والده، وبوفاته في 776هـ/،1374 خلفه ابنه جلال الدين حسين الضعيف والمتهتك، ونشب الخلاف بينه وبين أخويه الشيخ علي حاكم بغداد وأحمد حاكم البصرة، وانتهى الصراع بمقتل حسين، واستيلاء أحمد على السلطنة، ثم عاد فانفجر الصراع مع الشيخ علي والشقيق الآخر بايزيد، وقتل أحمد، وجرى صلح مع بايزيد، الذي أضحت منطقة الجبال تحت سلطته.

ما كاد الجلائريّون يرتاحون حتى بدأت تباشير غزو تيمورلنك المغوليّ انطلاقاً من سمرقند في 1369م فأخذ تبريز والسلطانيّة، فانسحب السلطان أحمد إلى بغداد، فلحقه تيمور إليها في

795هـ/1393م وأخذها، فهرب أحمد إلى دمشق، وانتشرت قوات تيمور في العراق ناشرة الموت والتخريب. وتمكّن السلطان أحمد بمساندة السلطان المملوكيّ برقوق من استعادة بغداد، ولكنه تخوّفًا من تهديد قوات تيمور، غادر بغداد ومعه أمير قبيلة الخروف الأسود التركمانيّة وقرّه يوسف حاكم ديار بكر ولجأ إلى السلطان العثمانيّ بايزيد الأول (1389 - 1402م)، فهاجم تيمور بغداد في 26 ذي القعدة 803هـ/1401 ودخلها مجريًا فيها مذبحة عامة، وتهديمًا للمنشآت العمرانيّة. وترك تيمور المدينة لنتانة جوّها من القتلى، وولّى على بغداد حفيده أبا بكر، وإبنه ميران شاه على الجزء الغربيّ من إمبراطوريّته. وعمل السلطان أحمد على استعادة العراق مستغلًا انشغال تيمور بالهجوم على الأناضول في 804هـ/1402م، ولكنّ الأخير أعاد الهجوم على بغداد في عام 806هـ.

نجم عن الهجومات التيمورية الثلاثة تشريد السكان وخفض عددهم وتدهور النشاطات الاقتصاديّة والثقافيّة. وبوفاة تيمور في 807هـ/1405م، تمّ استرجاع السلطان أحمد بغداد في عام 1405م، وقره يوسف تبريز، ولكنّ الخلاف دبّ بين الإثنين، فهاجم أحمد تبريز وخسر المعركة وقتل، فاستغلّ قره يوسف المناسبة واحتلّ بغداد في 814هـ/1411م منهيًا حكم الجلائريّة، وفاتحًا الطريق أمام حكم دولة الخروف الأسود (القره قوينلو) التركمانيّة (1411 - 1467م).

عقب استيلاء شاه محمد بن قرة يوسف على بغداد، أحكم سيطرته على العراق الذي تبع دولة كانت عاصمتها تبريز وعرفت بالخروف الأسود، لاشتهارها باقتناء الشياه السود، أو لأن رايتها تحمل شارة خروف أسود (قره قوينلو)، وهي من قبائل الغز التركمانيّة. وقد رأينا أن قره يوسف قد أوقع الهزيمة بجيش السلطان أحمد الجلائريّ واستولى ابنه محمد على بغداد في 813هـ. لم يهتمّ قره يوسف سوى بمحاربة فلول جيش تيمور بقيادة ابنه شاه رخ، وعند موت قرّه يوسف دبّ الخلاف بين أولاده، عندما حاول أسبان بن قره يوسف انتزاع بغداد من أخيه محمد شاه في 838هـ/1434م، فنجح بأخذ بغداد والحلة وواسط، بعد مقتل أخيه محمد فحكم أسبان بغداد حتى وفاته في 1444م. ثم عاد الصراع بين فولاذ بن أسبان وجهان شاه حاكم إمارة القرّه قوينلو، فتغلّب الأخير على فولاذ، ودخل بغداد سنة 1445م، فعاث فيها تخريبًا، وسلّم السلطة فيها لابنه بير بوداق. مجددًا عانت بغداد من صراع بيربوداق وابيه السلطان جهان شاه، الذي عصى على أبيه، فدخل السلطان بغداد، وأعدم ابنه، ودفعت بغداد ثمنًا غاليًا من المجاعة في 1466م. وما كادت الأمور ترتاح حتى برز أوزون حسن الطويل، زعيم إمارة تركمانية أخرى في ديار بكر، منافسًا للسلطان جهان شاه،

ومتغلبًا عليه في 872هـ/1467م، ومسيطرًا على تبريز، ثم تمكّن ابنه مقصود من احتلال بغداد في 873هـ/1468، لتبدأ معه سيطرة إمارة الآق قوينلو (1467 - 1508م).

والآق قوينلو إمارة تركمانيّة عرفت بالشياه البيض (آق قوينلو)، لاشتهارها باقتناء هذا النوع من الشياه. تمكنت من القضاء كما رأينا على إمارة القرّه قوينلو مع زعيمها حسن الطويل. تولى بغداد ابن المذكور مقصود، وعند وفاة حسن الطويل في 882هـ/1477م اندلعت حركات التمرد على خليفته خليل، وآلت إلى قتله وتسلّم أخيه يعقوب في 833هـ/1478م، وطال حكمه حتى وفاته في 1490م، فتتالت الخلافات بين الأخوة. وانهارت الإمارة أمام إسماعيل الصفوي، مؤسس الدولة الصفويّة التي حكمت إيران والعراق بعد استيلائها على بغداد في 914هـ/1508م.

ب - المغول في سورية ولبنان وفلسطين

استمرّ خطر المغول طوال فترة حكم المماليك.

فالمغول كانوا وباءً بشريّاً، شبيهاً بالطاعون، فالطاعون الأسود في أساس وجوده، مرتبط في نشأته، بالمغول.

فعندما تسلّم غازان (1271 - 1304م) عرش إيلخانية (زعامة) المغول في بلاد فارس في 694هـ/1295م. شجّعه اعتناقه للدين الإسلاميّ، على انتزاع بلاد الشام ومصر من أيدي المماليك.

فأرسل في شتاء 1299 - 1300م، جيشاً كبيراً لتحقيق ذلك.

وقعت المعركة في مجمّع المروج، في وادي الخزندار، بين حماه وحمص، فانتصر المماليك أولاً، ثم ما لبثوا أن خسروا المعركة، ففرّ السلطان الناصر نحو بعلبك فمصر.

زحف المغول إلى حمص فنهبوها، ثم دخلوا دمشق فحكموها، ونهبوا جوارها ثم رحلوا بعد شهرين.

عاود المغول الهجوم، على عهد قازان، على بلاد الشام في العام 702 هـ/ 1302م، فتصدّى لهم السلطان الناصر محمد بن قلاوون بجيوش نياباته، وانتصر عليهم، في نواحي دمشق، في المعركة التي اشتهرت باسم موقعة «شقحب « أو معركة «مرج الصفر» التي تلت شقحب.

عادت جحافل المغول لتهديد المشرق زمن أول سلاطين المماليك البرجيّة الظاهر برقوق (1382 - 1389م، 1390 - 1399م) مع تيمورلنك.

وعلى عهد الناصر فرج بن برقوق (1399 - 1412م)، خرج تيمور من بغداد إلى بلاد الشام وتوجّه إلى حلب، فسارت عساكر المماليك لصدّه. فاقترف مجزرة شنيعة في أهل حلب، ذهب ضحيتها قرابة عشرين ألف شخص، عمل من رؤوسها منابر مرتفعة نحو عشرة أذرع، واغتُصبت الفتيات وسُبيت النساء، وتقدّمت جحافل المغول باتجاه دمشق، فهرب السلطان فرج من دربه وكثيرون عبر طرابلس إلى مصر، وخلت الأسواق من الخبز خمسة أيام وقلّ وجود اللحم.

وصل تيمور إلى دمشق، وعرض الصلح على أهلها. وعندما حُمل إليه المبلغ من سكان المدينة لم يرضَ به، وطالب بمبلغ أكبر. ولم يرضَ تيمور مجددًا بما جُمع له من أموال، فصادر ما تركه العسكر المصريّ والخيل والبغال والحمير والجمال، وجميع آلات السلاح، كما صادر خطط دمشق وحاراتها وسككها. ثمّ بدأ المغول بإيذاء الناس وتعذيبهم، واغتصاب نسائهم وبناتهم وصبيانهم. وبعد تسعة عشر يوماً من هذا البلاء، نهبوا البيوت وسبوا النساء وساقوا الرجال والأولاد، وتركوا مَن عمرُه خمس سنين فما دون. وبعد ستين يوماً من إقامة تيمور في دمشق، رحل بالأموال والسبايا والأسرى.

ولعب المؤرخ ابن خلدون الذي رافق السلطان إلى دمشق مع مجموعة من العلماء. دورًا في محاولة تخفيف أطماع اللنك، فتدلّى من أسوار المدينة، وبقي عند تيمور خمسة وثلاثين يوماً يحاول ثنيه عن تدمير المدينة.

وبعدما استباح جيش تيمور النساء والأموال، وقتل آلاف الرجال وسباهم إلى سمرقند، خصوصًا مهرة الصنّاع والعمّال، غادر دمشق بعد أن تركها مدينة أشباح.

رابعاً - الحرب ضد بلاد الأرمن

في العام 697هـ/1297م، هاجمت قوات المماليك بلاد الأرمن، وتمّ نتيجة ذلك فتح أمكنة عدّة.

وعاد المماليك إلى الهجوم على بلاد الأرمن في العام 703هـ /1303م، وكذلك الهجوم على ملطية في 715 هـ/ 1315م.

في العام 720 هـ / 1320م، في شهر ربيع الآخر، أيار، خرجت عساكر النيابات الشاميّة فأغارت على بلاد سِيس، عاصمة الأرمن، ففتحوا الثغر ثم تلّ حمدون. ووصلوا إلى سِيس، وطرسوس، وأحرقوا وخرّبوا ما طالته أيديهم، ثم رجعوا، فعلموا بموت صاحب سِيس، فشنّوا مجدداً الغارة على بلاد الأرمن.

في العام 722هـ/1322م، أعاد المماليك الكرّة بالهجوم على ميناء آياس، فأخذوه بالقوّة.

وتابع المماليك مهاجمة بلاد الأرمن في العام 737هــ/1337م. وفي العام 738هــ/1337م و744هـ/1343م. إلى أن تمّ فتح أرمينية الصغرى نهائيّا في العام 776هـ/1375م.

خامساً - أحداث المشرق على عهد المماليك البحريّين

ومن الأحداث التي شارك المشرق في صناعتها نجد ما يأتي:

في العام 708 هـ/ 1309م، ترك الناصر محمد بن قلاوون سلطنته الثانية، لمصلحة أستاداره بِيبرس الجاشنكير (708 هـ/ 1309 م) الذي بايعه نائب دمشق جمال الدين آقوش الأفرم، وامتنع عن ذلك نائبا حلب وحماه ونائب طرابلس أسندَمِر الكرجي (1298 – 1299، 1300 - 1309م). لا بل بادر أسندَمِر إلى الاتصال، سريّاً، بالناصر محمد بن قلاوون الذي اعتزل في قلعة الكرك بالأردن، باسم النواب الثلاثة، مشجّعاً إياه على العودة إلى السلطنة. وما إن تمّ ذلك، حتى نقل أسندَمِر إلى نيابة حماه، وحلّ مكانه الحاج بَهادُر الحلبيّ المنصوريّ (1309 - 1310م) الذي كلّف القبض على السلطان بِيبرس إلى جانب قراسنقر نائب دمشق.

ولتمكين سلطته كتب السلطان في العام 710هـ /1310م، إلى نائب دمشق ونائب طرابلس بالقبض على الأمراء المناوئين له.

وبموت بَهادُر، عُيّن جمال الدين آقوش الأفرم نائباً على طرابلس. وفي أثناء نيابته شارك عسكر طرابلس الجيش المصريّ والشاميّ في العام 710 هـ/ 1310م في الهجوم على سيف الدين أسندَمِر نائب حلب، نائب طرابلس سابقاً، بسبب ظلمه وعسفه.

وحين دبّ الخلاف بين قراسنقر، نائب حلب، والسلطان الناصر في العامين 711 - 712هـ مال الأفرم إلى جانب قراسنقر.

في العام 715هـ/1315م، سار العسكر من دمشق إلى حلب، وعلى رأسه الأمير سيف الدين تَنكِز نائب الشام، وتبعه عسكر صفد وحمص وحماه وطرابلس. ولمّا وصل تَنكِز جرّد أحد الأمراء إلى ملطية. ووصل تَنكِز إلى ملطية فحاصرها ثلاثة أيّام فاستسلمت.

في العام 741هـ/1341م، على أثر موت الناصر محمد بن قلاوون، دبّ الخلاف على وراثته، بين المنصور سيف الدين أبي بكر وأخيه الأمير أحمد. وكان الأمير سيف الدين قُطلوبُغا الفخري، والأمير قَوصُون، قد أرسلا من مصر لمحاصرة الأمير أحمد في الكرك، والقبض عليه. وقد طلب قَوصُون من

نائب دمشق، ومن الحاج أرقَطاي (1340 - 1341م)، نائب طرابلس، قتال طَشتمِر نائب حلب. ولكن قُطلوبُغا انقلب على السلطان المنصور، وعلى قَوصُون، وبايع الأمير أحمد الذي اتخذ تسمية الناصر بن الناصر. ودارت الدائرة لمصلحة الفخري، فاضطر نائبا دمشق وطرابلس، المؤيدان للملك المنصور، للهرب إلى مصر، والاحتماء بقَوصُون، وإذ قبض عليه، تسلّم أحمد السلطنة، وقبض على نائبي دمشق وطرابلس وسجنا في قلعة الجبل.

وفي العام نفسه، 745هـ كثر فساد العشير ببلاد الشام، وقطعهم الطرقات، فانقطعت طرقات طرابلس وبعلبك ونهبت بلادهما.

في العام 747هـ/1346م، في جمادى الأولى، خرج نواب دمشق وحلب وحماه وحمص وطرابلس على السلطان الملك الكامل (1345م)، بتحريض من نائب دمشق، بسبب اتهام الملك الكامل بكثرة سفكه دماء الأمراء المماليك، واجتمعت جيوشهم في دمشق، فلما علم أهل مصر ما فعله أهل الشام، ثاروا بالسلطان وخلعوه، وتملك بعده أخوه الملك المظفر حاجي بن الناصر محمد بن قلاوون.

في العام 748هـ/1347م، حُوصر سيف الدين يلبغا في حمص. وكان يلبغا، نائب دمشق السابق، قد رفض امتثال أمر السلطان الملك المظفر حاجي بالتخلّي عن مركزه.

في 23 ربيع الأول 750هـ/ 1349م، قام نائب طرابلس، الأمير سيف الدين ألجيبغا المظفريّ (1348 - 1349 م)، بالاتفاق مع فخر الدين إياس نائب حلب السابق، بالركوب على نائب السلطنة بدمشق، سيف الدين أرغون شاه، فأحاطا به مع طائفة من الأمراء، ودخلا عليه بالحيلة، وهو نائم، حيث قتلاه ذبحاً، ثم حاولاً تغطية جريمتهما بإشهاد أحد القضاة، وشهود، بأنّه قتل نفسه بيده، فلم يفلحا. فأمر السلطان باعتقال النائب. فما كان من عسكر دمشق إلا أن ركب في أثر نائب طرابلس، ثم كتبوا إلى نائب حماه ونائب حلب وإلى العربان بمسك الطرقات عليه. وحُمل ألجيبغا المذكور مقيّداً إلى دمشق. وتم إعدامه مع اياس في يوم الخميس حادي عشرين شهر ربيع الآخر.

في أوائل شهر رجب، العام 753 هـ / 1352م، اشتهر الخبر أن نائب حلب، يلبغا، اتفق مع نائب طرابلس بكلمش (1350 - 1352م) بالخروج على طاعة السلطان الملك الصالح (1351 - 1354م)، لخلافهما مع شيخون وطاز، عضوي الدولة بالديار المصريّة.

في 762هـ/1360م، تغلّب سيف الدين بيدمر، نائب دمشق، وراسل الأمراء بالطاعة له، فحلف له بذلك أمراء دمشق، وأعلن الأمير منجك من القدس عدم رضاه، وعدم طاعته ليلبغا الناصري، ثم حضر الأمير سيف الدين تومان تمر (1358 - 1360م)، نائب طرابلس، في عاشر رمضان، وأعلن انضمامه إلى بيدمر، فجهّز الأخير العساكر الشاميّة وسار باتجاه مصر، وعلى الطريق هاجمت العرب أمراء العساكر الشاميّة، مستغلة فرصة اقتتالهم في ما بينهم، فخارت قوى بيدمر، وانكفأ عائداً بعد خروج السلطان إليه.

وعاد العصيان على السلطان في 768هـ/1366م عصى الأمير أشقْتَمُر، نائب طرابلس، وطيبُغا الطويل، نائب حماه، على السلطة.

في 783 هـ / 1381م، شارك عسكر النيابات الشاميّة والتراكمين والعربان والعشران، في الهجوم على خليل بن قراجا بن دلغادر في بلاد مرعش، فاجتمعوا في حلب، وساروا منها، أوّل شهر ربيع الأوّل، فأخذوا مرعش، وانتهوا في ملطية، ثمّ عادوا في شهر شعبان.

بعد سنتين، في 785 هـ/ 1383م شارك عسكر الشام والثغور والتركمان في قتال التركمان العصاة في بلاد سِيس.

ب – على عهد المماليك البرجيّين أو الشراكسة

كثرت في عهد المماليك الشراكسة الفتن والقلاقل وحالات اللا استقرار.

وأشهر الفتن التي عرفها التاريخ المملوكيّ، هي تلك التي رافقت بداية العهد البرجيّ، مع السلطان الظاهر برقوق، ودامت أربع سنوات.

1 - مشكلات منطاش

في العام 789هـ/1387م، أعلن نائب ملطية تمربغا، المعروف بمنطاش، العصيان على السلطان برقوق، فبادر الأخير، الذي كان يشكّك في ولاء أمراء النيابات الشاميّة له، إلى القبض على بعضهم. وفي العام 791هــ/1389م، انضمّ يلبغا الناصري، نائب حلب، إلى العصيان، وأيّده في ذلك أمراء الشام، فأخذ جميع القلاع في دمشق وبعلبك والكرك، وكان من بين المؤيّدين، كُمُشبُغا المنجكي، نائب بعلبك، الذي عُزل بسبب ذلك، وعيّن مكانه، في نيابة بعلبك، ابن الحنش شيخ العشير. وكان

ابن الحنش، في مطلع الأحداث، قد مال مع عشيره إلى جانب السلطان برقوق، وأمراء نيابة طرابلس الذين قبض بعضُهم على نائبها سيف الدين أسندَمِر الحمويّ المحمديّ، وعلى مَن عارضهم من الأمراء الذين قتلوا بعضهم؛ وعيّنوا بزلار العمري، وهو أحد الأمراء من الثائرين، نائباً على طرابلس، وأطلق كمشبغا، النائب السابق لطرابلس، من سجنه في دمشق. وبذلك، أضحت طرابلس إلى جانب العصيان.

وعمّ العصيان حماه وبعلبك، وأيّدته عشائر التركمان والعرب، إضافة إلى حلب وطرابلس، بحيث أضحت الممالك الشاميّة إلى جانب الثائرين منطاش ويلبغا. وشنّ العصاة هجوماً على مصر انتصروا فيه على برقوق، وعزلوه من السلطنة. ووضع مكانه على العرش المنصور حاجي ابن الملك الأشرف (1389م). وعيّن بزلار، نائب طرابلس، على دمشق، وعيّن صنجق الحسني، نائباً مكانه. وسرعان ما دبّ الخلاف بين يلبغا ومنطاش على مصير السلطان برقوق: فيلبغا يريد سجنه ومنطاش قتله، وأدّى ذلك إلى قتال بين الاثنين حالف الحظ فيه منطاش الذي عزل بزلار.

تمكّن السلطان برقوق من الفرار من سجنه في الكرك في أيلول 791هـ/1389م، فعاضده علاء الدين ابن الحنش، فأوكل إليه السلطان أمر نيابة بعلبك والبقاع. كما عاضد الأمراء البحتريّون السلطان، بينما وقف تركمان كسروان ضدّه.

ثم تغيّرت الأمور، إذ قام نائب حلب، كمشبغا الحمويّ، بالعصيان على منطاش، ومساعدة برقوق بمدّه ببعض العساكر التي مكنته من القبض على المنصور حاجي، واستعادة السلطنة في 792هـ/1389م، مما اضطر منطاش إلى الإمساك بدمشق، والقبض على بعض الأمراء، ومنهم كُمُشبُغا المنجكيّ، نائب بعلبك، كما أخذ بعلبك ووسّط ابن الحنش، وأربعة معه. ولأخذ زمام المبادرة، عيّن برقوق، ألطُنبُغا الجوبانيّ على دمشق، والأمير سيف الدين قرّا دَمِرداش الأحمديّ نائباً على طرابلس، وكانت بينه وبين منطاش عداوة قديمة.

استمر منطاش في عصيانه في العام 793هـ/1391م، واستردّ حماه وحمص وبعلبك وتوجّه إلى دمشق، فسار عسكر طرابلس بقيادة النائب اينال لمساندة دمشق، ومعه ابن الحنش، فتمكّن منهم منطاش، وأردى عدداً كبيرًا منهم، فأرسل برقوق جيشه من مصر، ودخل دمشق وحمص وحماه وحلب. ولم تسترح المنطقة من منطاش إلا في شهر رمضان 795هـ/ 1393م، عندما وقع في قبضة

نائب حلب الذي قطع رأسه، مُنهياً بذلك عصياناً كلّف المنطقة بأسرها التبدّلات في الحكم، وفي الوظائف على نحو سريع.

2 - دور ابن الحنش وغيره من العشير (التركمان والبحتريّون) في لبنان في الأحداث السالفة

استمرّ منطاش في دمشق وعيّن نواباً إلى البلاد الشاميّة. وأمّا ابن الحنش؛ فإنه عصى في قلعة بعلبك هو وجماعته، وأحرقوا المدينة، ونهبوها، وسبوا حريمها، وفعلوا كلّ قبيح، وجرّد إليهم منطاش عسكرًا مع محمد شاه بن بيدمر.

في يوم الثلاثاء حادي عشر شهر ربيع الآخر، «حضر بيري دي من بعلبك وخبر الأمير منطاش أنّهم أخذوا قلعة بعلبك، وأمسكوا ابن الحنش، وإبن قمر الدين. ومعهم خلق كثير، وسمرّ مع جماعته تحت قبة سيار. ثمّ رسم منطاش بتوسيطهم تحت القلعة».

شارك أمراء الغرب البحتريّون في هذه الأحداث فالأمير سيف الدين أبو بكر بن أحمد (ت 830هـ/1426م) حضر مع الملك الظاهر برقوق في حصار دمشق، وكان معه في وقعة شقحب لما كسر منطاش، ثم حضر مع عساكر الشام وملك الأمراء يلبغا الناصري الحروب التي جرت لهم مع منطاش، ثم حضر وقعة الناصري المذكور مع عرب نعير على عدرا بظاهر دمشق.

وبرغم هذه النكبات تسلّم علاء الدين الثاني قيادة عائلة الحنش وشارك في محاربة منطاش، ولكنه سيلقى حتفه في معارك مع نعير أمير العرب.

3 - مشكلات تنم ويونس بلطا

لم تمض تسعُ سنوات على مشكلات منطاش، حتى عمّت الفوضى بلاد المشرق. بسبب ضعف السلطة المركزيّة في القاهرة، وتزاحم نواب السلطنة على السلطة، وإبطال عادة انتقال الملك عن طريق التوارث، وتحوّل السلطنة لمن تغلّب عليها من الأمراء البرجيّة.

ففي العام 802هـ/ 1400م، إبّان حكم السلطان الناصر فرج (1399 - 1412م)، خرج تنم نائب السلطنة في دمشق، عن طاعة السلطان، وراسل نوّاب الممالك الشاميّة للانضمام إليه، فأجابه إلى ذلك نائب طرابلس. ونائب صفد ونائب حلب، وامتنع عن ذلك نائب حماه.

رفض أهالي طرابلس الانصياع لتنم، فعمل نائبا يونس على تأديب المدينة. ونهبت عساكر يونس المدينة، وسُبيت النساء، وقتل القضاة، وبعض أعيان البلد، وقرّر تنم مهاجمة مصر، فجابهته عساكر السلطان عند غزة، فانهزم ووقع في الأسر، هو ونائب طرابلس ونائب حلب فأعدما.

4 - مشكلات الأمير جكم والأمير شيخ

قام أحد أمراء المماليك، المدعو جكم بن عوض في العام 806 هـ/ 1404م، بالاتفاق مع نائب دمشق شيخ المحموديّ، على الوقوف معه ضدّ السلطان.

ومن طرابلس بدأ جكم اتصالاته لتأليب نواب السلطنة إلى جانبه، وجانب شيخ المحموديّ. بدأ جكم يعمل لصالحه عندما رفض دعوة شيخ له إلى دمشق، وسار إلى حماه فسيطر عليها، وتآمر مع بعض أمراء حلب، فدخلها، واستقرّ له الأمر في حلب وحماه وطرابلس، وقطع مع شيخ المحموديّ اسم السلطان من الخطبة.

وأخيراً اتفق جكم مع شيخ على السير إلى مصر لقلب السلطان ولكنّهما عادا منها مهزومين.

دخل بنو بشاره حلبة الصراع بين الناصر فرج بن برقوق والأمراء في بداية الأمر إلى جانب الأمير شيخ المحموديّ نائب دمشق، عندما هاجم صفد العام 807هـ/1405م، بعد أن رفض نائب صفد الأمير بَكتمِر شلق، موافقة شيخ وجكم في عصيانهما على الناصر فرج. وقد كان بنو بشاره آنذاك بقيادة مقدّمهم الأمير أحمد بن بشاره.

وآلت الأمور إلى إعلان جكم نفسه سلطاناً في شوال 809 هـ/ 1407م، ولكن قتله من قبل التركمان في منتصف ذي القعدة من السنة نفسها، وكانوا قد أكثروا الفساد في حماه وطرابلس، قضى على طموحاته.

5 - مشكلات شيخ ونوروز

كان نوروز الحافظيّ حليفًا لجكم، وإثر مقتل المذكور دخل في طاعة السلطان، وعيّن نائباً على دمشق، فعصى شيخ عليه، فطلب السلطان من بَكتمِر، نائب طرابلس، تأمين نيابة دمشق إلى حين وصول نوروز إليها، فما كان من شيخ إلا أن حاول صدّه عن ذلك، وطَرَق دمشق، وملكها فجابهه نوروز بقوة فترك المدينة فدخلها الأمير نوروز. وعاد بَكتمِر إلى طرابلس في ربيع الآخر 810 هـ/

1407م، من دون أن يهنأ سكنه فيها، إذ سيكون فدية لصلح شيخ ونوروز، مما سيُضطر الأخير إلى وضعه في السجن في دمشق، وإعطاء شيخ نيابة طرابلس، الذي سيتمكن منها، على الرغم من فرار نائبها بَكتمِر من السجن، وقرار السلطان باستقراره فيها.

عاد شيخ إلى سيرته الأولى، فطلب رضى السلطان، بعد وعده له بالقضاء على جميع أعدائه، فوافق السلطان على توليته على نيابة الشام، على أن يتعيّن بَكتمِر المذكور على طرابلس، فما إن وصله الجواب، وكان في حصار لقلعة المرقب حتى راسل نوروز، معلماً إياه قرار السلطان بعزله عن دمشق، وأنّه يقف إلى جانبه. فتشجّع نوروز على العصيان. وكان قد بدأ به في محاولة الاستيلاء على نيابة صفد، حيث سيتصدّى له بَكتمِر بجيش نيابة طرابلس في مطلع العام 811هـ/1408م. وسيتمكّن بَكتمِر من امتلاك غزة، والسيطرة على دمشق، ودخولها مع شيخ، الذي سرعان ما انقلب على تحالفه مع نوروز، وتفضيله عليه تطبيق قرار السلطان بتوليته على دمشق.

في نهاية 813هـ/1411م، عمل السلطان على تعيين نوروز على طرابلس، وشيخ على حلب، وتغري بردي على دمشق. وكالعادة وافق شيخ ونوروز على ذلك ظاهرياً، حتى إذا ما استقر الأمر لهما عادا إلى التصرّف على هواهما.

بادر شيخ إلى المجاهرة بالعصيان الكامل، وطلب من نوروز اللحاق به، فسار السلطان الناصر إلى مقاتلتهما، ولكنه سينهزم في محرّم سنة 815 هـ/ 1412م، ويفتح الطريق أمام دخول شيخ ونوروز إلى دمشق.

6 - شيخ سلطاناً

نصّب شيخ نفسه سلطاناً، وحمل لقب الملك المؤيد في شعبان 815 هـ/ 1412م، وكان المذكور قد سُرق من بلاده وهو صغير، فصار إلى تاجر يُقال له محمود شاه، فقدم به إلى القاهرة في العام 782هـ/ 1380م وهو في الثانية عشرة من عمره تقريباً. فأخذه السلطان برقوق بعد موت محمود من تركته، ورقّاه في خدمته فعُرف بشيخ المحموديّ، ثمّ أنعم عليه بإمرة عشرة فإمرة طَبلَخاناه، فرأس نوبة، فأمير ألف. وولي نيابة طرابلس، فنيابة دمشق، وحاربه السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق إلى أن انهزم ومات. فقدم من دمشق مع الخليفة المستعين بالله حيث أُعلن سلطاناً. ووصل الخبر إلى نوروز فتجهّم لذلك.

بعدما نصّب شيخ نفسه سلطاناً، سار لقتال نوروز، فانتصر عليه، وقتله في جمادى الأولى سنة 817هـ/1414م.

7 - الأحداث في أواخر عهد الشراكسة: بنو بشاره وبنو الحنش في صدارة الأحداث

ومن الأحداث التي تدخل أيضاً في إطار المشرق ما جرى في الأعوام الآتية:

استمرّ بنو بشاره أسرة متنفِّذة في منطقة جبل عامل تهادن السلطة حيناً، وتخرج عليها حتى نهاية العهد المملوكيّ. ففي العام 853هــ/1449م. أمر السلطان بتوسيط نجم الدين حسن بن بدرالدين محمد بن ناصر الدين المعروف بإبن بشاره مقدّم العشير ببلاد صفد، الذي شغل هذا المنصب مدّة أربع سنوات، لأنه ارتكب أعمالاً كالسلب والنهب في المنطقة، فأمر السلطان بقتله والتشهير به. فقتل في 19 ذي الحجة 853هـ/10 شباط 1449م.

وفي 11 جمادى الآخرة 855هـ/10 تموز 1451م، صدّ ابن بشاره، مقدّم العشير بالبلاد الصفديّة، هجوماً قامت به البحريّة الأسبانية على صور، عندما كانت تقوم بغارات استكشافيّة لمعرفة مدى تحصينات السواحل والموانئ الشاميّة.

وقد تعرّضت بلاد بشاره لهجوم واسع العام 909هـ/1503 - 1504م، قام به ناصر الدين محمد بن الحنش مقدّم البقاع (في الفترة ما بين 1498 - 1518م)، في محاولة لمدّ سيطرته إلى هذه المنطقة. فنشبت معركة في بلدة شيحين سنة 909هــ/1503 - 1504م، مكان إقامة ابن بشاره، وانتهت بانتصار الأخير ومقتل 200 من جماعة ابن الحنش.

انتهت دولة المماليك وانفتح الشرق على عهد جديد، هو عهد السلطنة العثمانيّة التي احتلّت البلاد بعد معركة مرج دابق التي شارك فيها إلى جانب السلطان قانصوه الغوريّ، كلّ من الأمير جان بردي نائب بيروت، والأمير تمراز نائب طرابلس، واستمرّت في حكمها قرابة أربعة قرون. وقد ترك ابن زنبل الرمّال تفاصيل هذه المتغيّرات كشاهد عيان، لما جرى. وبعدما انتهت المعركة، خرج جيش المماليك الجراكسة باتجاه مصر، فكلف قنبردي (جان بردى) الغزالي الأمير ناصر الدين ابن الحنش بحفظ الشام، بانتظار ما سيكون عليه الأمر، لأنّه كان من أعيان شيوخ العربان بتلك الديار.

وكان الأمير ناصر الدين ابن الحنش شيخ البلاد والأمير خير بك المساعدين للسلطان حين قدومه إلى دمشق، وهما اللذان، إضافة إلى جان بردى الغزالي، شجّعاه على أخذ مصر.

مع حلول العام 922هـ/1516م، كان من الطبيعيّ أن يتقرّب الحكّام المحليّون من العهد العثمانيّ الجديد. لذلك، في يوم الأحد حادي عشريه أرسل النائب تقدمة للسلطان.

وفي هذا اليوم جاء ابن الحنش إلى المزّة، في جماعات من الخيل، حين طلبه الغزالي، وقد كان الغزالي مسك المقدم علاء الدين بن العماد المقدسيّ، الشهير بابن علاق، قبل ذلك، ونهب بيوته وأودعه في الحبس، فأرسل ابن الحنش يقول للغزالي: إن قطعت رقبة ابن علاق، العدو الأكبر لي، فأنا أدرك أمر ملك الروم من بلاد حماه إلى بلادي، على أن تُوليني نيابة حمص، فأمر بقطع رأس ابن علاق في الحبس، وأرسله إليه إلى المزة، ويقال إنه أرشى الغزالي على ذلك؛ ثم جاء ودخل دمشق، فألبسه الغزالي خلعة، وولاه ما طلبه، ثم ألبس الغزالي أيضاً، بعد ذلك، خلعة لصهر ابن الحنش، ابن جانباي البدوي أمير الشام، ودركه بلاد حوران والمرج.

في هذا الوقت رجع متسلّما حماه وحمص، منهزمين من ملك الروم، وأخبرا أن ملك الروم ولّى فيهما متسلمين من عنده، فانزعج لذلك، وتيقن المغلوبيّة، وجهز حريمه إلى مصر، وكذا غالب الأمراء بدمشق، وغالب القضاة - وفي يوم الخميس حادي عشريه أذن الغزالي للغز بالسفر إلى مصر بعد منعهم، فسافر خلق كثير منهم ومن غيرهم.

ويخبر ابن طولون أن ابن الحنش حوّل ولاءه إلى العثمانيّين بعد انتصارهم على المماليك في 3 رمضان سنة 922هـ/1516م.

وكان الخطيب القاضي الشافعيّ الولويّ بن الفرفور أجاد في خطبته، واستطرد في الخطبة الأولى إلى ذكر السبعة، الذين يظلهم الله يوم لا ظلّ إلا ظلّه، ومنهم الإمام العادل، وطبّق ذلك على ملك الروم الحاضر مسجعاً؛ وذكر في الثانية نسبه باختصار عند الدعاء له، ولقبه بالملك المظفّر، وصرح بأنه سلطان الحرمين الشريفين.

الفصل الثاني:
الإدارة - المجتمع - الاقتصاد - العمران

أولاً - الإدارة

مقدّمة عامة

تميّزت الدولة المملوكيّة (1250 - 1517م) بإدارة جيدة.

كان على رأس هذه الدولة سلطان مقيم في القاهرة، والى جانبه خليفة من بقايا نسل العبّاسيّين، استقدمه إليه الملك الظاهر بيبرس بعد سقوط بغداد بأيدي المغول، وذلك لإضفاء شرعيّة دينيّة على السلطنة الجديدة.

قُسّمت السلطنة المملوكيّة ممالك كبيرة عدّة، كانت من بينها الممالك الشاميّة. والمملكة إلى صفقات (تقسيمات إداريّة كبيرة وواسعة) والصفقة إلى نيابات وولايات. والنيابة كانت أهمّ وأكبر من الولاية.

التقسيمات الإداريّة

جُزّئت الممالك الشاميّة إلى ست «ممالك» هي: دمشق، حلب، طرابلس، حماه، صفد، والكرك. تُضاف إليها بعض «النيابات» المستقلة: غزة، حمص، ملطية عندما تدعو الحاجة. وكان لكل «مملكة» في الشام عسكرها الخاص، ودواوينها الخاصة، وكانت القرارات السياسيّة تصدر من القاهرة، فيطبّقها نوّاب السلطنة في الشام، كلّ في مملكته.

كانت نيابة دمشق كبرى «الممالك الشاميّة»، وقد جُزّئت إلى أربع مناطق إدراية كبرى «صفقات»، منها «الشماليّة» التي يديرها نائب بعلبك، وقد جزِّئت إلى أربع ولايات، هي: البقاع البعلبكيّ، والبقاع العزيزيّ، وصيدا، وبيروت، وعلى رأس كلّ منها والٍ يعيّنه نائب دمشق.

يطلق القلقشنديّ تسمية القواعد على هذه «الممالك» الست التي تحمل أيضاً تسمية «النيابات».

المقصد الثاني في ذكر قواعد الممالك الشاميّة المستقرّة وأعمالها، وهي ستّ قواعد. كلّ قاعدة منها تُعَدّ مملكة بل كانت كلّ قاعدة منها مملكة مستقلة بسلطان في زمن بني أيوب:

القاعدة الأولى دمشق؛ وفيها جملتان:

الجملة الأولى في حاضرتها وتسمّى أيضاً جلّق.

الجملة الثانية في نواحيها وأعمالها وما يدخل تحت حكم الولايات.

ولايتها من لدن العريش: حدّ مصر إلى آخر سلميّة مما هو شرق بشمال والى الرّحبة مما هو شرق بجنوب. وقد أضيف إليها في زمن سلطاننا، الناصر محمد بن قلاوون، بلاد جعبر، وكان من حقها أن تكون مع حلب. وحينئذ تكون ولايتها مشتمِلة على الشام الأعلى المتقدّم ذكره وما يليه وما يلي ما يليه، وبعض الشام الأدنى، وليس يخرج عنه من ذلك إلا حماة وما خرج مع صفد وطرابلس والكرك. ويكون في نيابة نائبها نيابة غزّة ونيابة حمص وبعض شيء مما يقتضي الحقّ أن يكون مع حلب.

وتشتمل على برّ وأربع صفقات:

البرّ فالمراد به ضواحيها.

وأما صفقاتها، فأربع صفقات:

الصفقة الأولى الساحليّة والجبلية.

وهي الصّفقة الغربيّة عن دمشق. وهي عبارة عن بلاد غزّة وما جاورها سهلاً ووعرًا.

ثم هذه الصفقة لها جهتان:

الجهة الأولى الساحليّة؛ وهي التي بساحل بحر الروم المتقدّم ذكره، وتشتمل على أربعة أعمال:

الأول - (عمل غزّة) - أكثر الأحيان هي تقدمة عسكر مضافة إلى دمشق، يأتمر مقدّم العسكر فيها بأمر نائب السلطنة القائم بدمشق، ولا يُمضي أمرًا دون مراجعته وإن كانت ولايته من الأبواب السلطانيّة، وتارة تكون نيابة مستقلّة.

وتُضاف إليها الصفقة الساحليّة بكمالها فيكون لها حكم النيابات.

الثاني - (عمل الرّملة) وميناؤها مدينة يافا.

الثالث - (عمل لدّ).

الرابع - (عمل قاقون).

الجهة الثانية الجبليّة، وبها ثلاثة أعمال:

الأول (عمل القدس).

الثاني (عمل بلد الخليل).

الثالث (عمل نابلس).

الصفقة الثانية القبليّة سُمّيت بذلك لأنها قبليّ دمشق. وتشتمل على بلاد حوران والغور وما يتبعهما.

وتشتمل هذه الصفقة على عشرة أعمال:

الأول (عمل بيسان).

الثاني (عمل بانياس).

الثالث (عمل الشّعرا).

الرابع (عمل نوى).

الخامس (عمل أذرعات).

السادس (عمل عجلون).

السابع (عمل البلقاء).

الثامن (عمل صرخد).

التاسع (عمل بصرى).

العاشر (عمل زرع).

الصفقة الثالثة الشماليّة سُمّيت بذلك لأنها عن شمال دمشق. وهي ساحليّة وجبليّة.

وتشتمل هذه الصفقة على خمسة أعمال:

- الأول (عمل بعلبكّ).
- الثاني (عمل البقاع البعلبكيّ).

- الثالث (عمل البقاع العزيزيّ) ومقرّ الولاية به كرك نوح وهاتان الولايتان الآن منفصلتان عن بعلبكّ، وهما مجموعتان لوالٍ جليل مفرد بذاته.

- الرابع (عمل بيروت).

- الخامس (عمل صيدا).

الصفقة الرابعة الشرقيّة؛ وهي على ضربين: الضرب الأول ما هو داخل في حدود الشام، وهو غربيّ الفرات وتشتمل على خمسة أعمال أيضاً:

(أين الثاني؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟)

الأول (عمل حمص) وكانت أولاً مضافة إلى طرابلس ثم أفردت عنها وأضيفت إلى دمشق.

الثالث (عمل قارا).

الرابع (عمل سلميّة) هي بلدة من عمل حمص.

الخامس (عمل تدمر).

الضرب الثاني من هذه الصفقة ما هو من بلاد الجزيرة، بين الفرات والدجلة على القرب من الفرات وهو مدينة الرّحبة. وهي مدينة على الفرات بين الرّقّة وعانة.

ومما أضيف إلى دمشق في زمن سلطاننا يعني الناصر بن قلاوون بلاد جعبر. قال: وحقها أن تكون مع حلب، وهي مستمرّة على ذلك إلى زماننا.

القاعدة الثانية من قواعد البلاد الشاميّة حلب، وفيها جملتان:

- الجملة الأولى في حاضرتها.

- الجملة الثانية في نواحيها وأعمالها.

هي أوسع الشام بلادًا، متصلة ببلاد سيس والرّوم وديار بكر وبرّيّة العراق.

أعمالها على ثلاثة أقسام:

القسم الأول ما هو داخل في حدود بلاد الممالك الشاميّة، ولها برّ وأعمال.

فأما برّها فهو ضواحيها على ما تقدّم في دمشق، وأما أعمالها، ففيها ستة وعشرون عملاً:

الأول (عمل قلعة المسلمين) المسمّاة في القديم بقلعة الروم.

الثاني (عمل الكختا).

الثالث (عمل كركر).

الرابع (عمل بهسنى).

الخامس (عمل عينتاب).

السادس (عمل الرّاوندان).

السابع (عمل الدّربساك).

الثامن (عمل بغراس).

التاسع (عمل القصير).

العاشر (عمل الشّغر وبكاس).

الحادي عشر (عمل شيزر).

الثاني عشر (عمل حجر شغلان)

الثالث عشر (عمل قلعة أبي قبيس).

الرابع عشر (عمل قلعة حارم).

الخامس عشر (عمل كفر طاب).

السادس عشر (عمل فامية).

السابع عشر (عمل سرمين).

الثامن عشر (عمل الجبّول).

التاسع عشر (عمل جبل سمعان).

العشرون (عمل عزاز).

الحادي والعشرون (عمل تلّ باشر).

الثاني والعشرون (عمل منبج).

الثالث والعشرون (عمل تيزين).

الرابع والعشرون (عمل الباب وبزاعا).

الخامس والعشرون (عمل دركوش).

السادس والعشرون (عمل أنطاكية).

القسم الثاني من الأعمال الحلبيّة البلاد المتصلة بذيل البلاد المتقدّم ذكرها في الأعمال الحلبيّة من الشّمال، وهي المعروفة ببلاد الأرمن. وهذه البلاد منها بلاد تُسمّى العواصم، ومنها بلاد كانت تُسمّى قديماً بالثّغور، سُمّيت بذلك لمثاغرتها الروم.

ويشتمل على نيابات عدّة، وهي على ضربين أيضاً:

الضرب الأول الأعمال الكبار؛ وهي صفقتان: ساحليّة وجبلية.

فأما الجبلية، فثلاثة أعمال:

الأول (عمل ملطية).

الثاني (عمل درندة).

الثالث (عمل دبركي).

وأما الساحليّة، فإن فيها خمسة أعمال:

الأول (آياس).

الثاني (عمل طرسوس).

الثالث (عمل أدنة).

الرابع (عمل سرفند كار).

الخامس (عمل سيس).

الضرب الثاني من الأعمال الصّغار بلاد الأرمن وهي ثلاثة عشر عملًا لثلاث عشرة قلعة:

الأول (عمل قلعة باري كروك).

الثاني (عمل كاورّا).

الثالث (عمل كولاك).

الرابع (عمل كرزال).

الخامس (عمل كومي).

السادس (عمل تلّ حمدون).

السابع (عمل الهارونيّتين).

الثامن (عمل قلعة نجمة).

التاسع (عمل قلعة حميمص).

العاشر (عمل قلعة لؤلؤة).

الحادي عشر (عمل قلعة تامرون).

الثاني عشر (عمل سنياط كلا).

الثالث عشر (عمل بلسلوص).

القسم الثالث من الأعمال الحلبيّة البلاد المجاورة للفرات من شرقيّه من بلاد الجزيرة الواقعة بين الفرات ودجلة؛ وهي ثلاثة أعمال:

الأول (عمل البيرة).

الثاني (عمل قلعة جعبر).

الثالث (عمل الرّها).

القاعدة الثالثة من قواعد المملكة الشاميّة حماة. تأتي بعد حلب وفيها جملتان:

الجملة الاولى في حاضرتها.

الجملة الثانية في نواحيها وأعمالها.

ولها ثلاثة أعمال:

الأول (عمل برّها).

الثاني (عمل بارين).

الثالث (عمل المعرّة).

القاعدة الخامسة من قواعد المملكة الشاميّة صفد، وفيها جملتان:

الجملة الأولى في حاضرتها.

الجملة الثانية في نواحيها وأعمالها.

لها أحد عشر عملًا:

الأول (عمل برّها).

الثاني (عمل النّاصرة).

الثالث (عمل طبريّة).

الرابع (عمل تبنين وهونين).

الخامس (عمل عثليث).

السادس (عمل عكّا).

السابع (عمل صور).

الثامن (عمل الشّاغور).

التاسع (عمل الإقليم).

العاشر (عمل الشّقيف)، ويُعرَف بشقيف أرنون، وعلى القرب منه شقيف آخر يُعرف بشقيف تيرون.

الحادي عشر (عمل جينين).

القاعدة السادسة من قواعد المملكة الشاميّة الكرك، وفيها جملتان:

الجملة الأولى في حاضرتها وتُعرف بكرك الشّوبك.

الجملة الثانية في نواحيها وأعمالها.

ولها أربعة أعمال:

الأول (عمل برّها).

الثاني (عمل الشّوبك).

الثالث (عمل زغر).

الرابع (عمل معان).

أمّا بالنسبة لنيابة طرابلس وأعمالها. فمملكة طرابلس. هي: مملكة الساحل وكرسيّها طرابلس. وأعمالها الساحليّة البترون وله عمل متّسع. وأنفة مدينة ساحليّة. وحصن عرقا وحصن حلبا. وجومة عكار وجومة بشرّيّة والكورة والحدث بأذيال لبنان المطلّة على البحر ولها أعمال يزيد عددها على ألف قرية.

وقيل إنّ المملكة الطرابلسيّة وتوابعها تشتمل على قريب من 3000 قرية.

كانت نيابة طرابلس من قواعد المملكة الشاميّة ومكوّنة من جزءين (جملتين) أساسيّتين:

الجزء الأول (الجملة الأولى)، الحاضرة.

الجزء الثاني (الجملة الثانية): النواحي والأعمال.

وكانت الأعمال على قسمين: القسم الأوّل: الأعمال الكبار التي يكاتب أهلها عن الأبواب السلطانيّة وهي على ضربين.

الضرب الأول: مضافاتها نفسها وهي ست نيابات.

الضرب الثاني: قلاع الدعوة.

القسم الثاني: الأعمال الصغار، وهي ستة أعمال.

الجزء الأول (الجملة الأولى): الحاضرة (طرابلس).

الجزء الثاني (الجملة الثانية) : النواحي والأعمال.

القسم الأول: الأعمال الكبار، النيابات الست:

الأول عمل حصن الأكراد.

الثاني عمل حصن عكار.

الثالث عمل بلاطنس، (حالياً بلاطنس هي المهلب).

الرابع عمل صهيون.

الخامس عمل اللاذقيّة.

السادس عمل المرقب.

أ- الضرب الثاني: قلاع الدعوة

سُمّيت بذلك لأنها كانت بيد الإسماعيليّة: عمل الخوابي، عمل القدموس، عمل الكهف، عمل المينقة، عمل العليقة.

القسم الثاني: الأعمال الصغار الستة، سوى ما نقل في تلك القلاع مما له ولاية وهذه الأعمال هي: الأول عمل أنطرطوس. الثاني عمل جبّة المنيطرة، والمنيطرة بلدة صغيرة في أعالي بلاد جبيل. الثالث عمل الظنيّين، وهو اليوم الضنيّة في شمال لبنان. الرابع عمل بشرّي، وهو أحد الأقضية في شمال لبنان. الخامس عمل جبلة. السادس عمل أنفة، وهي بلدة على البحر المتوسط. ونجد ذكراً لولاية البترون، ولولاية جبيل.

يبدو أنّه كانت توجد نيابة في طرف سهل البقاع هي نيابة زلايا، لربّما كانت قائمة في مطلع العهد المملوكيّ.

ب - الوظائف الإداريّة

كانت الإدارة في نيابات السلطنة، صورة مصغّرة لنظام السلطنة في الإدارة المركزيّة، بحيث إنّ كلّ نائب كان في الحقيقة سلطاناً في نيابته. وجميع الوظائف التي في حضرة السلطان لها نظيرها في كل مدينة من قواعد المملكة.

ومَن تصدر عنه التولية والعزل في عمل نيابته: وهم نواب السلطنة بالممالك الشاميّة السبع المقدَّم ذكرها: من النيابات الصغار، والوظائف الديوانيّة، والوظائف الدينيّة، ووظائف مشايخ التصوّف، والوظائف العاديّة: كرياسة الطب ونحوها، ووظائف زعماء أهل الذمّة: من رياسة اليهود، وبطركيّة النصارى، وغير ذلك.

فأمّا النيابات الصغار التي في أعمال النيابات العظام: فما كانت نيابته إمرة عشرة فأكثر يولي فيه النواب، وربما ولّى فيه السلطان. وما كانت نيابته إمرة طبلخاناه فأكثر: يولي فيه السلطان، وربما ولّى فيه النواب. وما كانت نيابته تقدمة ألف، فولايته مختصة بالسلطان دون النواب.

وأما الوظائف الديوانيّة، فما كان منها صغيراً ككتابة الدرج وما في معناها، فأكثر ما يوليها النواب. وما كان منها جليلاً: ككتابة السر وما في معناها، ونظر الجيش، ونظر المال، فتوليته مختصة بالسلطان. وما كان منها متوسطاً بين الطرفين: ككتابة الدست ونحوها: ففي دمشق تارةً يولي فيها السلطان، وتارةً يولي فيها النائب. وفي ما دونها من النيابات غالب مَن يولي فيها النواب، وقد يولي فيها السلطان.

وأمّا الوظائف الدينيّة، فما كان منها صغيراً: كالتداريس الصغار، والخطابات بالجوامع الصغار، ونظّار المدارس والجوامع الصغار، ونحو ذلك، فإنه يولي فيها النواب ولا يولي فيها السلطان إلا في ما ندر. وما كان منها جليلاً: كقضاء القضاة، فإن توليته مختصة بالسلطان. وما كان منها متوسطاً بين الرتبتين: كقضاء العسكر، وإفتاء دار العدل، والحسبة، ووكالة بيت المال، ومشيخة الشيوخ، ونحو ذلك: فتارةً يولي فيها السلطان، وتارةً يولي فيها النواب. إلا أن تولية السلطان فيها في النيابات الكبار كالشام أكثر، وتولية النواب فيها في ما دون ذلك أكثر.

وأمّا مشيخة الخوانق فقد يولي فيها السلطان، وقد يولي فيها النواب: إلا أن تولية السلطان في مشيخة الشيوخ بالشام أكثر، وتولية النواب في غير مشيخة الشيوخ بدمشق وفي غيرها من وظائف الصوفيّة في غير دمشق أكثر.

وأمّا الوظائف العاديّة كرياسة الطب ونحوها، ففي جميع النيابات توليتها من النواب أكثر، وربما ولى فيها السلطان.

وأمّا وظائف زعماء أهل الذمّة: كرياسة اليهود، وبطركيّة النصارى، فيستبدّ بها النواب دون السلطان لزيادة حقارتها في الوظيفة والبعد عن حضرة السلطان.

وفي معرض كلامه على مَن تصدر عنه التولية والعزل في عمل نيابته يذكر القلقشنديّ، بخلاف ما ذكر أعلاه عن النيابات الستّ، أنّه قد تقدّم في الكلام على ترتيب الممالك بالبلاد الشاميّة أنه كان بها سبع ممالك عظام استقرّت سبع نيابات.

وُزّعت الإدارة في هذا التقسيم الإداريّ على نحو تراتبيّ.

فعلى رأس النيابة، نائب سلطنة يسوسها، يأتي بعده تدريجاً نواب النيابات وولاة الولايات.

واستناداً إلى التقسيم الإداريّ المذكور سابقاً، كانت نيابة السلطنة مقسّمة إداريّاً ثلاثة أجزاء أساسيّة. فهناك الحاضرة المدينة أولاً، والنيابات ثانياً، والولايات ثالثاً.

ج - الوظائف الإداريّة في النيابة

الوظائف الإداريّة تقسم نوعين كبيرين:

النوع الأول: ما هو بحاضرة المدينة.

النوع الثاني: ما هو خارج عن حاضرتها.

النوع الأول: ما هو بالحاضرة؛

الوظائف في الحاضرة كانت على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: أرباب السيوف.

الصنف الثاني: الوظائف الدينيّة.

الصنف الثالث: الوظائف الديوانيّة.

الصنف الأول: أرباب السيوف

كان يوجد في المدينة الحاضرة من وظائف أرباب السيوف ما يأتي: نائب السلطنة حاجب أو أكثر - مهمندار - شاد الدواوين – شاد الخاص - شاد البريد - شاد الميناء - نقيب النقباء - أميرآخور - شاد الأوقاف - مقدّم البريد - أمير أخور البريد - والي المدينة - شدّ المهمات: وموضوعها التحدّث في الاحتياجات السلطانيّة. ونجد في دمشق وظائف لا أثر لها في النيابات الأخرى كطرابلس مثلاً ومنها: نقابة القلعة - الخزندارية - نقابة الجيش - شدّ الزكاة - شدّ العشر - شدّ دار الطعم - شدّ دار البطيخ والفاكهة - شدّ المسابك من الحديد والنحاس والزجاج شدّ المواريث الحشرية - شدّ مطابخ السكر - وظائف أخرى غير محددة وكلها يوليها النائب بها.

كان أرباب السيوف على طبقتين.

الأولى: مَن يُكتَب له تقليد.

الثانية: من يُكتَب له مرسوم شريف في قطع الثلث، والمجلس السامي.

اعتمد المماليك ثلاثة أنظمة للبريد هي:

- المناور، أي إشعال النيران في قمم الجبال لإرشاد البريديّة، من جهة، وإرسال الإنذارات إلى الداخل في حال تعرّض السواحل لهجمات عدوّ، من جهة أخرى. مثلًا بخصوص بيروت، كانت النيران تُشعَل في بيروت، ثم في بيت مري، فجبل بوارش (بوارج، أي جبل الكنيسة)، فجبل يبوس (قرب الجمارك السوريّة في جديدة يبوس)، فالصالحيّة (جبل قاسيون) فقلعة دمشق.

- الحَمَام الزاجل.

- البريد العادي، أي الخيل.

وقد نُظّمت مراكز البريد من دمشق إلى طرابلس بالشكل الآتي:

تتفرّع طريق البريد من دمشق إلى الغسولة ومنها تتشعّب إلى طرابلس على القصب ثم من حمص إلى الرستن ثم منها إلى حماه ثم إلى لطمين ثم منها إلى طرابلس، ثم منها إلى المعرّة.

ومَن أراد من بعلبك، حمص توجّه منها إلى القصب إلى الغسولة. ومن أراد منها طرابلس توجّه منها إلى القصب ثم منها إلى قدس ثم منها إلى أقمار فالشعرا فعرقا فطرابلس. ومن دمشق إلى طرابلس ركوب مراكز حمص فالغسولة المقدّمة الذكر ثم إلى القصب.

وكانت توجد مراكز توصل طرابلس بمرقية وبانياس ثم اللاذقيّة فصهيون فبلاطنس. ومَن شاء من صهيون إلى برزيه، ومَن شاء فمن بلاطنس إلى القليعة (أو العليقة)، ثمّ منها إلى الكهف فالقدموس فالخوابي فالرصافة فمصياف.

وأما طريق بيروت: فمن دمشق إلى ميسلون، ومنها إلى زبداني، ومنها إلى الحصين، ومنها إلى بيروت.

وأما طريق صيدا (صيداء): فمن دمشق إلى خان ميسلون، إلى جزيرة صيدا، إلى كرك نوح، ثم منه إلى بعلبك. وصيدا إلى بيروت قدر مركز.

وأما بعلبك، فلها طريقان: إحداها من خان ميسلون المقدّم الذكر إلى كرك نوح إلى بعلبك. والثانية من دمشق إلى الزبداني إلى بعلبك.

ومَن أراد من بعلبك حمص، توجّه منها إلى القصب، ثم إلى الغسولة المتقدّمة الذكر، وبعدها شمسين فحمص على ما تقدّم ذكره.

الفضل، في اعتماد هذا النظام المركّب للبريد يعود إلى الظاهر بيبرس الذي أعاد إحياءه في الدولة الإسلاميّة بعد توقف دام ثلاثة قرون.

كان بيبرس يدير شخصياً أجهزة البريد، ثم أضحى ذلك مرتبطاً بكاتب السرّ منذ عهد الناصر محمد بن قلاوون. وبعد وفاة الناصر محمد تقلّصت صلاحيات كاتب السرّ في الإشراف مع السلطان إشرافاً مباشراً على إدارات البريد، وصارت أموره متعلّقة بالدوادار. وبقي الأمر كذلك حتى عهد الظاهر برقوق عندما جرت محاولة لإعادة شؤون البريد إلى كاتب السرّ. ولكن العمل بالبريد المنتظم

توقّف مع مطلع القرن التاسع الهجريّ، الخامس عشر الميلاديّ، مع الاجتياح المغوليّ، وتعطّل العمل به نهائيّاً مع السلطان المؤيّد شيخ المحموديّ.

والى جانب البريد كان الاتصال بين أرجاء السلطنة يتم بواسطة الحمام الزاجل الذي كان له مراكز تُدعى مراكز البطائق التي هي الأبراج أو «مطارات الحمام».

كانت طرابلس مرتبطة بدمشق عبر مراكز: دمشق - صيدا - بيروت - تربلة - طرابلس. وكان لهذه المراكز ولأبراجها: برّاجة وخدّام وأقفاص وأبغال للتدريج ومرتبات وأرزاق لتصير الأخبار متّصلة مساعة. الحمام الأزرق كان يحمل ورقًا خفيفًا صغيرًا، وفي كل ثلاثة مراكز بريد مركز للحمام، يستبدل فيها الحمام بحمام جديد يحمل الرسالة نفسها.

د - الوظائف الديوانيّة

كانت الوظائف الديوانيّة على مرتبتَيْن:

المرتبة الأولى مَن يكتب لأربابها من الأبواب السلطانيّة، وهم: - ناظر المملكة. - ناظر الجيش. صاحب ديوان المكاتبات أو أمين السرّ.

المرتبة الثانية: من ولايتهم من نائبها، وهم: - كتاب دَسْت. - كتاب دَرْج.

هذه الوظائف كانت أرزاقها في مصر مشاهرة من مبلغ عين وغلّة، تُضاف إلى ذلك عطاءات الغذاء والحلوى وغيرها وهناك وظائف ديوانيّة أخرى بالمقارنة مع دمشق وحلب لا نجد في كلام المصادر على طرابلس ما يشير إلى وجودها وهي الآتية: الوزارة. نظر المهمات الشريفة. نظر الخاص. نظر الخزانة. نظر البيمارستان. نظر الجامع. نظر خزائن السلاح. نظر البيدق. نظر بيت المال. نظر ديوان الأسرى. نظر الأسواق. نظر مراكز البريد. نظر الحوطات. نظر المسابك.

هـ - الوظائف الدينيّة

من أسماء الوظائف الدينيّة: قضاء القضاة من المذاهب الأربعة، وقاضيا عسكر شافعي وحنفي، ومفتيا دار عدل شافعي وحنفي ومحتسب ووكيل بيت المال. وظيفتا قاضيي العسكر ومفتي دار العدل بطُلت وأُهملت. وقرّاء للحديث النبويّ إلى غير اولئك من أرباب الوظائف.

و - المحتسِب

الحسبة في بلاد الشام كما في الديار المصريّة، من حيث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وولايتها عن النائب في دمشق بتوقيع كريم. ولا مجلس في دمشق لمتولّيها بدار العدل كما يجلس محتسِب القاهرة بدار العدل في الديار المصريّة، وإليه ولاية نواب الحسبة بجميع أعمال دمشق. ولهذه الوظيفة أهميّة في الحياة الاجتماعيّة - الاقتصاديّة إضافة إلى الحياة الدينيّة.

الحسبة مصطلح من مصطلحات القانون الإداريّ. معناه الحساب أو وظيفة المحتسِب، ثم اكتسبت الكلمة معنى خاصاً هو الشرطة، وأصبحت أخيراً تدلّ على الشرطة الموكلة بالأسواق والآداب العامة. الحسبة نظام إسلاميّ شأنه الإشراف على المرافق العامة، وتنظيم عقاب المذنبين وهو اليوم من اختصاص النيابة العامة والشرطة. وصاحب الحسبة أو المحتسِب منصب دينيّ يتصل بالقضاء.

هذه الوظيفة الدينيّة، شبه القضائيّة، التي عرفها التاريخ الإسلاميّ، والتي تقوم على فكرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد خُصِّص لها في بعض العصور الإسلاميّة موظف خاص يُسمّى المحتسِب أو المتطوِّع بالحسبة.

ومن صفات المحتسِب وشروطه أن يكون مكلّفاً قادراً مسلماً، فيُستثنى من ذلك المجنون والصبي والكافر والعاجز.

ولا يوجد مصدر يتكلّم على الحسبة سابق للقرن الخامس الهجريّ/ الحادي عشر الميلاديّ، أي بعد قرنين على ظهور هذه الوظيفة. وكما قلنا، فهذه المصادر على نوعَيْن، نوع يهتمّ بالناحية الأخلاقيّة (كمؤلفات الماورديّ والغزاليّ وابن حزم، إلخ)، ونوع آخر يهتم بالتفاصيل التقنيّة بعملية المراقبة المطلوبة من المحتسِب، خصوصاً على المهن، وله طابع الإرشاد الوظيفيّ. وهذا النوع من الكتب لم يصدر في الشرق العربيّ - الإسلاميّ إلا في نهاية القرن الثاني عشر الميلاديّ. ومن هذه الكتب، **نهاية الرتبة في طلب الحسبة** لعبد الرحمن الشيزري المتوفّى في العام 1193م، وكتاب آخر من أول العهد المملوكيّ هو: **معالم القربة في أحكام الحسبة**، للمصري ابن الأخوة من مطلع القرن الرابع عشر، وهو من الكتب الموسّعة عن هذه الوظيفة.

في الأساس وظيفة الحسبة، جاءت لتحلّ مكان وظيفة صاحب أو عامل السوق. وأصل هذه الوظيفة، من الحضارة اليونانيّة - البيزنطيّة، ومن الممكن أن تكون قد نشأت من دون هذا الأصل

الغريب في مدن الأسواق في حضارة الجزيرة العربيّة، وعلى عهد المأمون استبدلت لفظة صاحب السوق بالحسبة، وأخذت معنييها: الخلقيّ والوظيفيّ. وأضحى لوظيفة المحتسِب معنى أكبر، بحيث تدخل وظيفة مراقبة السوق في واجب أشمل، أساسه دينيّ، غايته تمتين التصرّف الاجتماعيّ الجيّد. ووظيفته تمتدّ من وظيفة القاضي إلى وظيفة الشرطة، وهو بعكس هاتين الوظيفتين لا يهتمّ إلا بالأمور غير المعترَض عليها، ولا يقوم بالاستقصاءات، بل يتدخّل من تلقاء نفسه، من دون انتظار ورود الشكوى إليه. وبالإضافة إلى دوره في مراقبة الأسواق، عليه السهر على تطبيق الواجبات الدينيّة، وانتظام التصرّف المشترك بين الرجال والنساء في الشارع والحمّام، وتطبيق الشروط على أهل الذمّة.

المحتسِب يراقب الأسعار، ولكنه عملاً بالتراث الاقتصاديّ للإسلام، ليس له السلطة الكافية لتبديلها، مع أنّ له الحق بقصاص التاجر الذي لا تتفق أسعاره مع سعر السوق.

ويُعيَّن المحتسِب عادة من قبل الدولة، بعض الأحيان مباشرة، أو غير مباشرة من قبل الحكّام المحليّين والقضاة. ويتعيّن عليه أن يكون من الفقهاء عادة، وقد يكون من بعض التّجار. ويعاونه في وظيفته مساعدون له، وقد يعوّل على مساعدة القضاء والشرطة له.

وفي عهد المماليك، فسدت وظيفة المحتسِب، وأصبحت تُشرى وتُباع، مما جعل المحتسِبين يعوّضون على أنفسهم، بفرض ضرائب غير شرعيّة على التّجار. وكانت هذه الوظيفة، بسبب الفساد الذي لحقها، تُعطى للعسكريّين.

كانت هذه الوظيفة في عصر المماليك في مصر، من وظائف الإدارة العامة، فكان صاحبُها يُشرف على الأسواق والطرقات ويحافظ على الآداب العامة وتطبيق القوانين المرعيّة، وكان له نواب يطوفون الشوارع والمساجد والأسواق والمدارس والحمامات لهذا الغرض.

أسماء الوظائف والحِرَف التي كانت تدخل تحت إشراف المحتسِب هي:

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- النهي عن الخمر والآلة المحرّمة (الزمر والطنبور والعود والصنج).

- الحسبة على أهل الذمّة.

- الحسبة على أهل الجنائز.

- المعاملات المُنكَرة، كالبيوع الفاسدة: الربا والسلع الفاسدة والإجارة والشركة الفاسدة.

- فيما يُحرّم على الرجال استعماله: لبس الحرير والذهب وتمويه أسنان الخاتم من الذهب واتخاذ الأواني من الذهب، وما لا يُحَرّم.

- في مُنكَرات الأسواق: جلوس السوقة في الأزقة، وإخراج مصطبة عن سمت أركان السقائف إلى الممر الأصليّ.

- معرفة القناطير والأرطال والمشاقيل ومعرفة الموازين والمكاييل والأذرع.

- الحسبة على: العلّافين والطحّانين. الفرّانين والخبّازين. الشوّايين. النقانقيّين: (أصول صناعة النقانق). الكبوديّين: (مفردها كبد الحيوان)، والبواردیّين، الكرنب واللوبياء واللفت. الجزّارين. الروّاسيّين: (طبخ الرؤوس). الطبّاخين. الشرائحيّين. الهرائسيّين. قلائيّين السمك. قلائيّين الزلابية. الحلوانيّين. الشرّابيّين. العطّارين. البيّاعين. اللبّانين. البزّازين. الدلّالين. الحياكة. الخيّاطين والرتّائين والقصّارين. الحريريّين. الصبّاغين. القطّانين. الكتّانين. الصيارفة. الصيّاغ. النحّاسين والحدّادين. الأساكفة. البياطرة. سماسرة العبيد والجواري والدواب والدور. الحمّامات. السدّارين. الفصّادين والحجّامين. الأطباء والكحّالين والجرائحيّين. المؤدّبين للصبيان. القومة والمؤذّنين. الوعّاظ. المنجّمين وكتّاب الرسائل.

- معرفة الحدود والتعزيرات. في القضاة والشهود. في الأمراء والولاة وما يتعلّق بهم من أمور العباد. في ما يلزم المحتسِب فعلُه.

- الحسبة على: أصحاب السفن والمراكب. باعة قدور الخزف والكيزان. الفاخرانيين والغضّارين. الاتجاريّين والمسلّاتيين. المرادنيّين. الحناويّين وغشهم. الأمشاطيّين. معاصر الشيرج والزيت. الغرابليّين. الدبّاغين والبطّيّين. اللبوديّين. الأفرائيين. الحصريّين العبدانيّ والكركر. التبّانين. الخشّابين والقشّاشين. النجّارين والنشّارين والبنّائين، والدهّانين والمبيّضين والضبيّين والجبّاسين والجبّارين.

ز - وظائف أُخَر خارج الأصناف الثلاثة (سيوف، ديوانيّة، دينيّة)

إضافة إلى وظائف أرباب السيوف والديوانيّة والدينيّة، كانت في دمشق وظائف أخرى، لا ذكر لها في طرابلس، ومنها:

الصنف الرابع: من الوظائف بدمشق وظائف أرباب الصناعات.

(فمنها) رياسة الطبّ، ورياسة الكحّالين، ورياسة الجرائحيّة - وكلّها على نحو ما تقدّم في الديار المصريّة، وولاية كل منها بتوقيع كريم عن النائب. أما مهتاريّة البيوت وما في معناها، فهناك تختصّ بالنائب لقيامه مقام السلطان واختصاص البيوت به.

الصنف الخامس: وظائف زعماء أهل الذمّة بها.

وفيها بطرك النصارى اليعاقبة، وبطرك النصارى الملكانيّة، ورئيس اليهود القرّايّين والربّانيّين، ورئيس السامرة، ولكنه مقيم في مدينة نابلس.

ح - الوظائف في النيابات خارج الحاضرة

الوظائف خارج الحاضرة. أي في النيابات والولايات التابعة لنيابة السلطنة. كانت على ثلاثة أصناف: الصنف الأول: أرباب السيوف. وهم على طبقتين: الطبقة الأولى: الطبلخاناه، ومنهم نواب قلاع.

الطبقة الثانية: العشرات، ومنهم نواب قلاع أيضاً.

الصنف الثاني: الوظائف الدينيّة.

الصنف الثالث: الوظائف الديوانيّة.

ثانياً - المجتمع

أ - المسيحيّون

أطلقت موسوعات العهد المملوكيّ على الطوائف الدينيّة المسيحيّة تسمية «ملّة» أو «طائفة»، من دون أن نتمكّن من حصر معنى هاتين التسميتين.

هذه الطوائف المسيحيّة كانت تنعم بتسامح الإسلام بوجودها ضمن إطار نظام الذمّة. وبنتيجة هذا النظام أو المعاهدة، كما ذكرنا سابقًا، سُمح لغير المسلمين، من أهل الكتاب، المقيمين على الأرض المفتوحة من الإسلام، التنعّم بحقوقهم المدنيّة والخاصة.

وبرغم ضرورة أخذ هذا الأمر بعين الاعتبار صدر في العام 755 هـ/ 1354م، مرسوم فرض على المسيحيّين تنظيم إرثهم بحسب الشرع الإسلاميّ.

على صعيد الحق الشخصيّ، كان باستطاعة المسيحيّ شرعاً، إنشاء الأوقاف، سواء أكان الوقف بناء أم قطعة أرض، وكذلك اقتناء الأبنية والأراضي وتوريثها لغيره من الذميّين أو لورثته الشرعيّين.

ولكن بعض علماء المسلمين كانوا لا يُجيزون للذميّين إنشاء الوقف، ومن بين هؤلاء العالم الشهير ابن تيميّة.

وعلى الرغم من اجتهادات ابن تيميّة، يُعطينا إنجيل «ربّولا» نماذج لأوقاف عدة عند الموارنة في منطقة جبّة بشراي.

كما أن البطريرك الدويهيّ يخبر، بأنه كان للأديار وللكنائس أوقافها في القرى.

1 - الموارنة

كان في حوزة الموارنة في القرون الوسطى، إنجيل يحمل تسمية إنجيل «ربّولا»، يُعَدّ، إضافة إلى قيمته الفنيّة العالية، مصدراً من مصادر التاريخ المارونيّ للقرون الوسطى، لما يحتويه من نصوص من تلك الحقبة مدوّنة على هوامشه.

الإنجيل المذكور، هو عبارة عن مخطوطة تتضمّن الأناجيل الأربعة باللغة السريانيّة، نسختها في العام 586م مجموعة من الرهبان، كان على رأسهم الراهب «ربّولا» في دير مار يوحنا بيت زغبا في سورية. والمخطوطة تحتوي على نسخة الإنجيل القديمة المعروفة بالـ «بسيطة». كما تحتوي في صفحاتها الأول على صور تمثل أبرز الحوادث في حياة السيّد المسيح والعهد الجديد والقديم، وتعطي فكرة عن جمال الفن السريانيّ. وهذا الإنجيل هو من أقدم الأناجيل التي تضمّ صوراً، وله تاريخ محدد، ويعتقد أنّ فيه أول صورة تاريخيّة للمسيح المصلوب، وأول صورة تاريخيّة للعذراء أمّ الله الهادية، حاملة الطفل يسوع.

ودير مار يوحنا بيت زغبا يقع بين أنطاكية وحلب، ومنه انتقل الإنجيل المذكور، حسبما تذكر إحدى الحواشي الواردة فيه، إلى كنيسة مار جرجس في أنطاكية، ومنها انتقل إلى مكتبة دير مار مارون في سورية. وإلى بطاركة الموارنة، الذين حملوه معهم إلى كرسيّهم في إيليج ومنها إلى قنّوبين التي انتقل منها في العام 1652 م إلى أوروبا، إلى أن استقر بالمكتبة اللورنسيّة في فلورنسا، حيث اكتشفه اسطفان عوّاد السمعانيّ، وأَبرَزه إلى الوجود في كتابه عن المخطوطات الشرقيّة في مكتبة فلورنسا، الصادر في العام 1742م.

أقدم الوثائق الواردة على هوامشه تعود إلى منتصف القرن الثاني عشر. وعلى صفحاته نجد طلائع النصوص المارونيّة المُؤكدة أنها لهم، وتغطّي جزءاً من الحكم الفرنجيّ - الصليبيّ، والفترة المملوكيّة، ومطلع العهد العثمانيّ.

طبعت الموارنة في العهد المملوكيّ شخصيتان: فرا غريفون وجبرائيل ابن القلاعيّ:

«فرا غريفون» (1405 - 1475م) : شخصية دينيّة فرنسيسكانيّة غربيّة لعبت دورًا مهماً في ثقافة الموارنة الدينيّة.

ولد «فرا غريفون دو كورتري» في القرن الخامس عشر في بلجيكا. تعلّم أولاً في باريس، حيث نال درجة الدكتوراه من جامعتها وهو في الثانية والعشرين من عمره. وكان من البارعين في علوم عصره. دخل الرهبانيّة الفرنسيسكانيّة، فعيّنه رؤساؤه أستاذاً في شرح الكتاب المقدس. لكنه طلب أن ينضمّ إلى المرسَلين في الشرق الذي كان محطّ أنظار العالم الغربيّ.

في العام 1442م التحق فرا غريفون بالرسالة الفرنسيسكانيّة في القدس حيث درس اللغات الشرقيّة من يونانيّة وسريانيّة وعربيّة، ثمّ أُلحق بدير في بيروت في العام 1450م. ومن بيروت، بدأ الاتصال بالموارنة.

أخذ غريفون على نفسه مهمة إرشاد الكهنة الموارنة والمؤمنين، وتعليمهم أسس الدين الكاثوليكيّ، وتحصينهم ضدّ خطر البِدع المسيحيّة، بما أنّهم كانوا يعانون فقر ثقافتهم الدينيّة. ووضع لهذه الغاية كتاباً في شرح الكتاب المقدس وتفسيره. وكتاباً آخر في حوادث الضمير.

أمّا الأسقف المارونيّ: جبرايل بن القلاعي، فقد ولد في لحفد من بلاد جبيل بين 1445 و1450م، وترهّب في القدس عند الفرنسيسكان العام 1471م. تابع دروسه طوال أكثر من عشرين عامًا في معاهد روما، ثم عاد إلى بلاده مبشّرًا ومعلّمًا. وضع عشرات المصنّفات والرسائل والمدائح. مات مطرانًا على قبرص للموارنة العام 1515 أو 1516م.

كانت إدارة الطائفة مدنياً بيد حكّام محليّين، المقدّمين، منتشرين في جهات بلاد الموارنة الأربع. وبين سلطة المقدّم وسلطة البطريرك كانت الغلبة للبطريرك.

كان المقدّمون يجمعون الضرائب في المقدّميّات التي تختلف المصادر في عددها. المقدّمون الموارنة الذين كانوا على رأس كلّ مقدّمية، كانوا في إطار نيابة طرابلس. وظيفتهم وراثيّة، ولهم موقع اجتماعيّ مرموق متقدّم على غيرهم من الناس، وموقع دينيّ من حيث إضفاء صفة الشدياق عليهم (الدرجة الكهنوتية الدنيا عند الموارنة)، وهذا ما يؤكد هويّة طبيعة العلاقة بين المقدّمين والكنيسة، وتغلّب السلطة الدينيّة، نظريّاً، على الأقل، على السلطة الزمنيّة.

2 - الروم الملكيّون

كان الروم الملكيّون خاضعين دينيّاً لسلطة بطريرك أنطاكية الذي كان متوجباً عليه أن يكون من أصل يونانيّ. بعد مجمع فلورنسا كان «دوروتاوس» بطريركاً على أنطاكية، وكان معارضاً للاتحاد مع روما، وكان من العاملين النشيطين على حرم المجمع الفلورنسيّ، وأظهر ذلك في المجلس الأورشليميّ، وفي رحلته إلى القسطنطينيّة العام 1450م، إذ اتفق مع بطريرك أورشليم والإسكندريّة لعقد مجمع حرّم مجمع فلورنسا وعزل بطريرك القسطنطينيّة الذي كان يميل إلى الاتحاد.

بعد موت دوروتاوس العام 1454م أبدى خلفاؤه التساهل للتقرّب من روما فكان فرا غريفون قاصد البابا للتفاوض معهم.

كانت طقوس الملكيّين في تلك الأيام بالعربيّة والسريانيّة، ولا تزال عشرات المخطوطات تشهد بذلك.

3 - اليعاقبة والأحباش

تزايد عدد اليعاقبة في لبنان في القرن الخامس عشر، بعدما شهدت مناطقهم الأصليّة صراعات دامية، وكثرة غزو من التركمان والأكراد والبدو والمغول فاضطروا إلى الهرب من طور عبدين وماردين وصدد والموصل وغيرها، واللجوء إلى سورية وجبل لبنان.

اشتهر منهم ديوسقورس ونوح البقوفانيّ.

ولد ديوسقورس عيسى بن ضو في قرية لحفد، في جبل لبنان، وتوشح بالإسكيم الرهبانيّ في دير مار موسى الحبشي بجوار النبك في سورية.

ارتقى ديوسقورس العام 1445م إلى الأسقفية على كرسي القدس. وفي العام نفسه أنيطت به أبرشيّة طرابلس، بعدما جُمعت مع كرسي القدس. وكان ديوسقورس أيضاً أسقفًا على دير مار موسى قرب النبك في العام 1468م.

نوح البقوفانيّ «عمود دين النصرانيّة» أصبح بطريركاً لطائفة امتدّت حتى أذربيجان، وأفغانستان، والهند (وما زالت).

ولد نوح في العام 1451م في بقوفا (قرية غربة اليوم)، قرب إهدن في جبل لبنان، من عائلة مارونيّة. انتقل إلى المعتقد اليعقوبيّ بعد لقائه الأسقف ديوسقورس بن ضو في بقوفا.

تعلّم في دير مار مرقس للسريان في القدس، وترهّب في دير مار موسى (الحبشيّ) في النبك. سيم في العام 1480م مطراناً على حمص وسائر بلاد فونيقي وسُمّي قورلس نوح.

في العام 1490م تمّ استدعاء نوح، من قبل البطريرك إغناطيوس يوحنا إلى ماردين، ونصّبه مفريانًا (رتبة بين البطريركيّة والأسقفيّة) في دير الزعفران، وسُمّي باسيليوس نوح؟ ثم سار إلى الموصل كرسي المفارنة وظلّ فيها حتى 1493م.

وفي العام 1493م (أوائل تشرين الثاني) بعد انعقاد المجمع الثامن (من مجامع دير الزعفران)، أجمع الأساقفة في دير الزعفران على المناداة به بطريركاً على السريان، فسُمّي إغناطيوس نوح. وتمكّن مدة ولايته من إلغاء بطريركيّة طور عبدين وضمّها إلى بطريركيّة أنطاكية. جعل مركزه في حمص (في كنيسة والدة الله وهي أمّ الزنار حاليًا). توفّي العام 1509م، ودُفن في تل الباشورة في حماة، ولقب بقاموس الزمان.

حتى منتصف القرن 15م كان الموارنة واليعاقبة يعيشون في قرى جبل لبنان الشماليّ من دون نزاعات تذكرها المصادر التاريخيّة.

غير أنّه في العام ألف وأربعمئة وثمانٍ وثمانين مسيحيّة تمّ تشتيت اليعاقبة من جبّة بشري؛ بعد هذه الأحداث دُمّرت بقوفا مسقط رأس البطريرك نوح، كما هدم دير الغوبه كرسيّ مفريانهم، ووضع الحُرم على كلّ مَن يرجع ويعمّر القرية.

ب - المسلمون

1 - الشّيعة الإماميّة

بعد ترحيلهم عن الجبال الكسروانيّة، أضحى الشّيعة أقليّة غير متماسكة، وفوضويّة. بحسب التقاليد الشيعيّة، انتظمت الحياة الاجتماعيّة من خلال نظام الإقطاع الذي برز في جبل عامل في القرن الثالث عشر، مع آل بشاره. ولكن لا نعتقد أن الشّيعة كانوا منضوين في نظام الإقطاع. فلربّما، كان هؤلاء مقدّمين على طريقة الموارنة، مكلّفين جباية الضرائب.

اشتهرت عند الشّيعة الإماميّة مدرسة جزين، التي نمت مع الإمام الشهير: شمس الدين محمد بن مكّي، الشهيد الأول في القرن الثامن الهجريّ/الرابع عشر الميلاديّ.

يذكر شيخ الربوة أنّ من أعمال دمشق: شوف الميادنة وأهله رافضة وشوف العدس وشوف الحيطى وشوف الخرّوب وشوف الشومر وإقليم التفّاح وإقليم العيشيّة وجبل الظنيّة وجبل عاملة

وجبل البقيعة من صفد وكل هؤلاء حاكميّة وأمريّة ودروز وحلوليّة وتناسخيّة وحفظيّة وزنادقة وهم كفّار بالشرائع ومسلمون على ما يزعُمون...

ويذكر شيخ الربوة أيضاً:... وجبل عاملة أهله رافضة إماميّة وجبل جبع كذلك أهله رافضة... وجبل تبنين وله قلعة ولها أعمال وولاية وهم رافضة إماميّة...

ويخالف شيخ الربوة ما ذكره سابقًا فيقول ومن أعمال صفد: عكا وصور وأعماله وصيدا وأعمالها وهي مدن قديمة ولها أعمال كبار. عمل تبنين وهونين وهما حصنان وأهل هذا العمل شيعةٌ رافضة.

صور وهي خراب. وسكان هذا العمل رافضة لا يشهدون جمعةً ولا جماعة. وأهل عمل الشقيف رافضة.

ولم يكن في نيابة صفد عربان سوى عرب ابن بشاره وهم عربان ولم يكن لهم أمير ولا مقدّم.

ترك الإمام شمس الدين مكي كتاباً في الفقه الشيعيّ مهمّ جدّاً يُدعى «**اللمعة الدمشقيّة**». فهو مع أنّه كتاب في الفقه النظريّ، يعكس صورة خاصة عن عصره.

في تاريخ 10 جمادى الأولى العام 786هـ/29 حزيران 1384م عُقد مجلس للشمس محمد بن مكي العراقيّ الأصل المقيم بقرية جزين، وكان له في السجن مدّة وأثبِت في حقه محضر عند قاضي بيروت يتضمّن رَفْضَه وإطلاقه في عائشة وأبيها وعمر عبارات منكَرة، مكفِّرة على ما أفتى به جماعة من الشافعيّة والحنفيّة وغيرهم، فاجتمع القضاة والعلماء بدار السعادة، وادعى عليه عند القاضي المالكيّ. ثم حكم القاضي المالكيّ بكفره وإراقة دمه وإن تاب، بعد أن استخار الله. وجعل حكمه مقيّداً بشرطين، أحدهما إلا يكون سبقه حكم بإسلامه، الثاني: أن ينفّذ القضاة حكمه ويوافقه الحنبليّ أيضاً، فحكم الحنبليّ أيضاً بزندقته وإراقة دمه، ونفّذه القاضيان فأُخرج إلى تحت القلعة فضربت عنقه. وهو مشهور بالرفض لكنه عالم في الأصول والقراءات وغير ذلك.

ولربما، من أسباب مقتل محمد بن مكيّ، نظريّته الفقهية التي تقوم على مفهوم نائب الإمام المعصوم. وبأنّ كل فقيه اجتمعت فيه أوصاف معلومة يكون نائباً عن الإمام وعن الخليفة الحقيقيّ، وبالتالي فهو يطرح سلطة بديلة للسلطة المملوكيّة. وتشكيل ابن مكي مرجعيّة شيعيّة في بلاد الشام عموماً ولبنان خصوصاً، مع نظريّاته الفقهية أثار حفيظة السلطة المملوكيّة ضدّه، ما استدعى قتله.

نما التشيّع في بعلبك وفي كرك نوح فكان الشّيعة المذهب الغالب. ونجد تراجم لبعض علماء الشّيعة في الهرمل.

2 - النصيريّون العلويّون

كانوا موجودين في شماليّ لبنان، بجوار طرابلس، في الضنيّة وفي عكّار، وفي سورية في جبال اللاذقيّة التي كانت معروفة سابقاً باسم جبال العلويّين.

في العام 1305م تعرّضوا لعملية إبادة منظمة تكرّرت العام 1516م، عندما فتح العثمانيّون بلاد الشام. فلما دخل السلطان حلب أخذ من بعض العلماء السنّة الفتوى المشهورة، التي تكرّر الفتوى السابقة لابن تيميّة، بإباحة دماء النصيريّين. فجمع السلطان سليم «عموم الأمراء والمشايخ العلويّين بحجة أن يُعطي لكل واحد منهم سلطة رسميّة ويصادقهم على وظائفهم، فجاء الأمراء والمقدّمون والمشايخ العلويّون من كل جانب، حتى اجتمع إليه تسعة آلاف وأربعمئة رجل منهم، فقتلهم بموجب تلك الفتوى، ثم أمر بقتل العلويّين باسم الدين.

فلقد بدأ عهد المماليك بمجزرة بحق النصيريّة، وانتهى عهدهم بمجزرة أخرى. وما بين هذه البداية والنهاية المأساويّة، سلسلة من المجازر والاضطهاد.

عانى النصيريّون، كما عانى الإسماعيليّون والنصارى، كثرة اضطهاد المماليك لهم وشدّته.

في العام 1305م خصوصًا، امّحى الوجود النصيريّ والإسماعيليّ والشيعيّ تقريبًا من الجبال الكسروانيّة.

قام الملك الظاهر بيبرس بإجبارهم على بناء الجوامع في نواحيهم. وقاموا فعلًا ببنائها، ولكنهم لم يدخلوها، ولم يقوموا بصيانتها. أما بالنسبة إلى ضغوط السلطان محمد بن قلاوون، فبعد إجراء روك المملكة الطرابلسيّة في 717هـ/1317م أمر السلطان النصيريّة ببناء مسجد في كل قرية، وأن يُفردوا من أراضي القرية أراضي برسم المسجد ومنع النصيريّة من الخطاب لمصلحة دينهم، ولكن مصادر تلك الحقبة تبرز أنهم لم ينصاعوا لهذا القرار.

في ذي الحجة من العام 717هـ/1317م. وبنتيجة إجراءات السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ظهر جَبْليٌّ (أي من سكان مدينة جبلة) ادّعى أنه المهديّ. وخرجت النصيريّة عن الطاعة وسمّت الرجل محمد بن الحسن المهديّ القائم بأمر الله.

وثار معه خلق من النصيريّة فسار إليهم عسكر طرابلس وقتل زعيم الثورة.

جاءت هذه الثورة نتيجة ما أمر به السلطان الناصر محمد بن قلاوون. وقد لاحظ ابن بطوطة العام 1327م، أن لا شيء تغيّر لأن النصيريّة لم يطبقوا شيئاً مما فُرض عليهم.

3 - الدروز ودور الأمير السيّد عبدالله التنوخيّ

كان الدروز في هذه الحقبة، طائفة منطوية على ذاتها، لها شرعُها الخاص.

العائلة الكبرى كانت محور تنظيمهم الاجتماعيّ.

كان الدروز يعيشون ظاهرة «التقيّة»، التستُّر المبالّغ فيه.

ولد الأمير السيّد عبدالله التنوخيّ في 22 ربيع الأول سنة 820هـ/8 أيار وجاءت إصلاحاته، كمحاولة لوضع الديانة الدرزيّة في إطار الإسلام، إطارها الطبيعيّ. ولذلك انتشرت المساجد في زمانه.

عُرف الأمير السيّد بتسامحه، فدشّن سياسة إسكان الفلاحين المسيحيّين في خدمة المقاطعين الدروز.

في مجموعة من 14 جزءاً، علّق على «كُتُب الحكمة».

لقد نجح الأمير السيّد في تركيز الاستقلاليّة الاجتماعيّة الروحيّة للجماعة الدرزيّة، وخلق أطراً خاصة لتطبيق العدالة على صعيد الحقّ الشخصيّ، بطريقة تسمح بسحب الموضوع من يد القضاة المكلفين من قبل ممثلي السلطة الرسميّة. وقد عمل على تثقيف جماعته، وقد نشأت عند الدروز سلسلتان متوازيتان من القضاة:

واحدة تطبق الشرع الإسلاميّ في المسائل المدنيّة والجزائيّة على الدروز، كما على المواطنين الآخرين في الجبل، فهي رسميّة وعموميّة.

وأخرى منظّمة استناداً إلى سلاسل من الفروع الروحيّة.

ففي وسط التجمّعات الكبرى، والمناطق المنسجمة المكوّنة من قرى عدّة، والجماعات التي تنتسب إلى الوظيفة نفسها، أو العائلة نفسها، كان يعيش شخص مؤمن وفاضل «السائس»، تُوصي به سمعته العامة، كان يستمدّ سلطته بشرعنة عقود الحياة العائلية وحلّ المشكلات. وفوق هذا الشخص نجد من دون أن نعرف كيف، عاقلاً آخر يؤمّن العلاقة مع رأس هرم العارفين.

اعتمد الدروز الشرع الحنفيّ مع تعديلات في مسائل الإرث وتحديد الطلاق وعدم السماح بتعدّد الزوجات.

ووضع الأمير السيّد شروطاً للزواج عند الموحّدين، بأن تكون البنت بالغاً، والبلوغ هو إكمال الخامسة عشرة من عمرها، وألاّ تتزوج إلا بعد سنة أو سنتين من بلوغها، وأن يكون الشاب بالغاً، ولا يتزوّج إلا بعد أن يبلغ العشرين من عمره في حال كان موسراً، أمّا إذا كان فقيراً، فالأولى به أن يتزوّج عندما يُغنيه الله بمال يسدّ به حاله وحال زوجته وإعالة أولاده.

لقد فكّر السيّد عبدالله بمساواة المرأة بالرجل في تشريعه. وأوجب على الزوج مساواتها بنفسه في الدين والدنيا، وإنصافها من جميع ما في يده.

ودعا الأمير السيّد إلى تقليل الأولاد لأنهم يصرفون والديهم عن الاشتغال بالدين. فولدان للفقير كحدّ أقصى، وأربعة للغنيّ كحدّ أقصى هو المطلوب، شريطة أن يكون بين الولد والولد أربع سنوات لتفي المرأة بين الولدين، وتتمكّن من مساعدة زوجها. فكثرة الأولاد ملهاة عن الدين والدنيا.

ج - فئاتُ الشعب والفتن الاجتماعيّة

ليس لدينا معلومات مفصّلة، دقيقة، وكميّة عن فئات الشعب، ولكن لتوضيح ذلك، سنلقي الضوء على بعض أطر التنظيم العام الذي كان قائمًا في السلطنة المملوكيّة عموماً. فالمقريزيّ يقسم المجتمع سبع فئات هي:

- أرباب الدولة.

- الميسورون (تجّار، رجال دين).

- الفئة المتوسّطة: تجار صغار، الموظفون.

- الفلاحون.

- سكّان الأرياف.

- الحِرفيّون.

- المُعدَمون.

هذا المجتمع، على ما يبدو، كان طبقيّاً وجامداً، ويصعب لربما الترقيّ الاجتماعيّ فيه. ويقسم أربع «طبقات» هي:

- أرباب الدولة من عسكريّين وإداريّين.

- رجال الدين والتجار والصناعيّون من أصحاب الدخل الجيّد.

- الصنّاع والحِرفيّون وأصحاب المعاش.

- ذوو الحاجة.

وكل طبقة من هذه الطبقات كانت تنقسم بدورها إلى أكثر من مستوىً واحد.

ونحن نميل إلى تحاشي استعمال لفظة الطبقات، واعتماد مصطلح الفئات بديلاً عنها، لأنه حتى في زماننا الحاضر، أضحى من المتّفق عليه أنه لا وجود لطبقات عندما لا يكون لأفرادها وعي طبقي، كما نميل إلى اعتماد التقسيم الكلاسيكيّ إلى ثلاث فئات هي: أرباب الدولة، ما قد تجوز تسميتُه بـ «البورجوازيّة» المكوّنة من التّجار وأصحاب المهن العاديّة والحرفيّين، وأخيراً (العامّة).

د - التمييز الدينيّ

فُرضت الشروط العُمَريّة على الذميّين. ولما كان الموارنة يعيشون في جبالهم فكانوا لا يتأثرون بهذه الشروط، ولكن عند دخولهم طرابلس، كانوا، حكماً، عرضة لتطبيق هذه الشروط التمييزيّة، ومنها: عدم الأكل والشرب أثناء صيام رمضان، عدم رفع الصوت أمام مسلم، عدم اقتناء الخدم، الابتعاد إلى المكان الضيّق عند مرور مسلم، ارتداء لباس خاص يشير إلى نوعية الذميّ (نصرانيّ. يهوديّ، صابئة). ولتخفيف هذه الشروط عنهم، لربما، اعتمد زعماء الموارنة التقيّة في أسمائهم، وما لبثت أن تعمّمت هذه التقيّة على الناس كلهم بألقاب تُخفي الاسم الحقيقيّ. هذه الحريّة النسبيّة،

سمحت للموارنة بأن يبلوروا في جبالهم تنظيماً داخلياً خاصاً، نشأ لربما بقرار من السلطة المملوكيّة، ولكنه تكيّف مع ظروف الجبل حيث للموارنة نظام، هو نظام المقدّميّة، الذي سيصبح إلى جانب تنظيم الكنيسة المارونيّة الركيزة الثانية في تنظيم الطائفة وتماسكها.

ونتيجة التمييز الدينيّ فُرض في العام 700 هـ/1310 م على النصارى واليهود (العمائم الصفر والزرق) ومُنعوا من ركوب الخيل بالسروج وسائر الشروط العُمَريّة.

وعلى الرغم من هذا التمييز الدينيّ. الذي قاد إلى جملة اضطهادات، والى انطواء على الذات، قامت هذه الطوائف، بمحاولات للانسجام مع محيطها، وتجاوز العزل المفروض عليها من المماليك.

عاشت الأقليّات الدينيّة، الإسلاميّة والمسيحيّة حالات متعددة من الضغوط النفسيّة والماديّة، فحلّت الأقليّات المسلمة المشكلة جزئيًّا باعتماد التقيّة، أما المسيحيّة فكان ذلك صعباً عليها.

اعتماد نظام الذمّة، نظّم علاقة المسيحيّين بالمسلمين، ولكنه نمّى عندهم الشعور بالمفارقة. الإجراءات المتشدّدة التي لحقت بالمسيحيّين عمومًا، وبالموارنة خصوصًا، على عهد المماليك هي:

- الحملات المملوكيّة على الجبل في نهاية القرن الثالث عشر ومطلع الرابع عشر الميلاديّ.

- في العام 1306م: الجيش المملوكيّ يغزو جبّة بشراي.

- في العام 1364م: إجراءات انتقاميّة ضد الموارنة تنتهي بحرق البطريرك حجولا في طرابلس، كردّ فعل على هجوم الفرنج على الإسكندريّة.

- في العام 1440م: البطريرك يوحنا الجاجيّ يُجبَر على ترك مركز كرسيِّه البطريركيّ في ميفوق لينتقل إلى قنوبين.

- في العام 1465م: السلطان خشقدم يمنع النصارى من تعاطي الترجمة والسمسرة انتقاماً من سقوط غرناطة بيد الأسبان ومن أعمال الفرنج.

- في العام 1510 م: عودة الاضطهاد إلى سالف عهده.

- ممارسة الشروط العُمَريّة على نحو مستمر في المدن.

وكانت الإجراءات العامة التي نفّذها المماليك بحق أهل الذمّة في مصر والشام هي التالية:

في العام 1290م: أُخرج أهل الذمّة من الخدمة في الدواوين وفرضت عليهم الألبسة المميّزة في العام 697 هـ/ 1297 م. وأُلزموا مجدداً بالشروط العُمَريّة، وأُغلقت الكنائس وأُخرجوا من الوظائف في العام 700 هـ / 1300م.

في العام 709هـ/ 1309م: فرض السلطان الناصر محمد بن قلاوون، بمسعى من ابن تيميّة وكبار العلماء، «إعادة أهل الذمّة إلى لبس العمائم البيض» و«قمع اليهود والنصارى وذلّهم... «. وكانوا قد ألزموا ذلك أيضاً في العام 1300م.

وفي العام 740هـ/1339م: تمّ الاقتصاص من بعض النصارى بسبب اتهامهم بحرق الأسواق وبعض الأماكن في دمشق. وقد أُمسك ستون من رؤوس النصارى وصُودرت أملاكهم وأُحرقوا.

وفي العام 742 هـ/ 1341م: في عهد شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد بن قلاوون (1342م) نائب دمشق يُصادر الجزية زيادة عن المتعارَف عليه.

وفي العام 754 هـ/ 1353م: أفتى جماعة من المفتين جواز استعادة ما استهدم من الكنائس، فتعصّب عليهم قاضي القضاة تقي الدين السبكيّ فقرّعهم في ذلك، ومنعهم من الإفتاء، وصنّف مصنّفًا يتضمن المنع من ذلك سمّاه «الدسائس في الكنائس».

وفي العام 755 هـ / 1354م: ورد على عهد الصالح صلاح الدين بن الملك الناصر محمد (1351 - 1354م)، كتاب بإلزام أهل الذمّة الشروط العُمَريّة وزيادات أُخَر: منها أن لا يُستخدموا في شيء من الدواوين السلطانيّة ولا في شيء من الأشياء، وأن لا تزيد عمامة أحدهم عن عشرة أذرع ولا يركَبوا الخيل ولا البغال، ولكن الحمير بالأكفّ عرضًا، وأن لا يدخلوا إلا بالعلامات من جرس أو بخاتم نحاس أصفر، أو رصاص، ولا تدخل نساؤهم مع المسلمات الحمّامات، وليكن لهنّ حمّامات تختص بهنّ، وأن يكون إزار النصرانيّة من كتّان أزرق واليهوديّة من كتّان أصفر، وأن يكون أحد خفيّها أسود والآخر أبيض، وأن يُحكم حكم مواريثهم على الأحكام الشرعيّة.

وفي 765هـ/1363م: نودي في البلد على أهل الذمّة بإلزامهم بالصغار وتصغير العمائم، وأن لا يُستَخدموا في شيء من الأعمال وأن لا يركبوا الخيل ولا البغال. كما في إجراءات العام 1324م. وأن يكون في رقابهم ورقاب نسائهم في الحمامات أجراس، وأن يكون أحد النعلين أسود مخالفًا للون

الآخر، ففرح بذلك المسلمون ودعوا للآمر بذلك. وكان هذا على عهد السلطان الأشرف ناصر الدين شعبان (1363 - 1376م).

في العام 765هـ/1363م: فتح باب كيسان في دمشق، ويقول ابن كثير، فسلك الناس في حارات اليهود وانكشف دخلُهم وأمن الناس من دخنهم وغشِّهم ومكرهم وخبثهم.

في العام 767هـ/1365م: ورد المرسوم السلطانيّ بردّ ما كان أخذ من نساء النصارى مع الجباية. ثم صُودرت خمورهم وأُريقت، ونُودي بمنع النساء من دخول الحمّامات كما في المنع السابق، كما مُنع الرجال الذميّون من دخول حمامات المسلمين إلا وعليهم علامات الكافرين من أجراس وخواتيم.

في العام 767 هـ/ 1365م أيضاً، رفض المسلمون نقل مركز بطريركيّة أنطاكية إلى دمشق.

وفي كتب الحسبة إشارة واضحة إلى التمييز الدينيّ العنصريّ الواجب فرضه على أهل الذمّة. ففي كتاب «معالم القربة في أحكام الحسبة»، الباب الرابع، تحت عنوان في «الحسبة على أهل الذمّة» مطالعة قانونيّة فقهيّة لتاريخ هذا التمييز ولما هو واجب تطبيقه من إجراءات.

وقد حددت «معالم القربة» الجزية المأخوذة من أهل الكتاب. المعيل دينار، وعلى المتوسط ديناران وعلى الغني أربعة دنانير عند رأس الحول (أي السنة).

وجرت محاولات للانسجام والخروج من العزلة بواسطة الثقافة، كانت طلائعُها مع الموارنة الذين انفتحوا على الثقافة الغربيّة الأوروبيّة منذ أواسط القرن الخامس عشر الميلاديّ.

أثارت الإجراءات ضد النصارى، جدلاً دائماً، بين المؤرّخين، لا يُخفي أحياناً، الموقع الدينيّ أو «الأيديولوجيّ» الذي ينتمي إليه الكاتب. وبرغم أنّ المصالح الغربيّة، حتى في الجامعات الغربيّة، تمتهن «التقيّة» في قراءتها للممارسة الإسلاميّة، فلا بدّ من سؤال كيف أصبح الشرق مسلماً، هل بحرارة الايمان؟ أم بالإغراءات الماديّة أم بشتى الضغوط حتى العنيفة منها؟

وبينما يرى فيها بعضهم حالة إسلاميّة عامة، يرى فيها آخرون ممارسة من المسلمين لضرورات سياسيّة ظرفيّة وآنيّة. واختلفت الرؤية لها بين غربيين وشرقيّين، ومسلمين ومسيحيّين ويهود.

هـ - المدارس في المشرق في العهدَيْن الأيوبيّ والمملوكيّ

1 - المدارس في سورية: في دمشق

عدّد المؤرخ التعيميّ ما يقارب من 100 مدرسة في دمشق في مطلع القرن العاشر الهجريّ أشهرها العادليّة والظاهريّة والجقمقيّة.

المدرسة النوريّة التي أنشأها نور الدين زنكيّ بدمشق، وتقع في منطقة سوق الخيّاطين، تُعتبر من أقدم مدارس المدينة.

ونجد أيضاً: المدرسة الشافعيّة - المدرسة الحافظيّة - المدرسة الخاتونيّة البرانيّة - المدرسة القصاعيّة - مدرسة العالمة ودار الحديث - المدرسة الشومانيّة - المدرسة الجهاركسيّة في الصالحيّة نسبة لفخر الدين جهاركس (ت 608هـ/1210م.) - مدرسة مكتب عنبر - المدرسة الطاووسيّة - المدرسة السيبائيّة وهي آخر المدارس التي أُنشئت في العهد المملوكيّ.

المدارس التي بُنيت في دمشق في العهد الأيوبيّ واستمرّت في العهد المملوكيّ

اهتمّ السلاطين الأيوبيّين بالدرجة الأولى ببناء المدارس الشافعيّة، لأنهم كانوا على المذهب الشافعيّ وتلا ذلك بالدرجة الثانية المدارس الحنفيّة ووجدت مدارس قليلة للحنابلة. المماليك لم يوجّهوا إلى مذهب فقهيّ معيّن ولكن المذهب الشافعيّ حظي منهم برعاية أكبر.

عهد السلطان صلاح الدين 582 - 570هـ

اسم المدرسة واسم بانيها

المدارس الشافعيّة

المدرسة الصلاحيّة: قيل إن منشئها نور الدين زنكيّ ونُسبت إلى صلاح الدين.

المدرسة العصرونيّة: شرف الدين عبدالله بن عصرون الحديثيّ ثم الموصليّ الفقيه الشافعيّ.

المدرسة الإقباليّة: جمال الدولة خادم نور الدين وصلاح الدين وعتيق ست الشام.

المدرسة التقويّة: الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن أخ صلاح الدين.

المدرسة الظاهريّة البرانيّة: غياث الدين غازي بن صلاح الدين.

المدرسة البدريّة: أنشأها في العهد الأيوبيّ الأمير بدر الدين حسن بن الداية في النصف الثاني من القرن السادس الهجريّ/الثاني عشر الميلاديّ. وهي تقع الآن في وسط حديقة ساحة حطّين في دمشق. سكنها سبط ابن الجوزيّ ودرّس بها، وأبو شامة صاحب الروضتَيْن. ولا أثر لها اليوم.

المدارس الحنفيّة

المدرسة الخاتونيّة الجوانيّة: أنشأتها في العهد الأيوبيّ عصمة الدين خاتون بنت الأمير معين الدين أنر، زوجة نور الدين زنكيّ، ثمّ صلاح الدين الأيوبيّ بعد وفاة نور الدين. وتقع بمحلة حجر الذهب، حي سيدي عمود في دمشق. وقد اندثرت.

المدرسة الإقباليّة: جمال الدين إقبال.

المدرسة المقدميّة الجوانيّة: الأمير شمس الدين محمد بن المقدم.

المدرسة الفرخشاهيّة: نشأت في سنة 579هـ/1182م وتقع في آخر شارع الجلاء. وتنسب إلى حظ الخير خاتون ابنة إبراهيم بن عبدالله والده عز الدين فرخشا.ه وهي زوجة شاهنشاه أخ صلاح الدين.

المدارس المشتركة

المدرسة الأسديّة: أسد الدين شيركوه الكبير.

المدرسة العذراويّة: الست عذراء بنت نور الدولة شاهنشاه بنت أيوب.

المدارس المالكيّة

المدرسة الصلاحيّة: صلاح الدين الأيوبيّ.

المدارس الحنبليّة

المدرسة العُمَريّة: أبو عمر المقدسيّ والد شمس الدين الحنبليّ.

عهد الملك الأفضل نور الدين592 - 582 هـ

المدارس الشافعيّة

المدرسة الشاميّة البرانيّة: والدة الملك الصالح إسماعيل ست الشام.

المدرسة الأكزيّة: الأمير أسد الدين أكز صاحب نور الدين زنكيّ.

المدرسة العزيزيّة: أنشأها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين الأيوبيّ سنة 592هـ/1195م بجانب الجامع الأمويّ وفي قاعتها المتبقية نجد قبر السلطان صلاح الدين الأيوبيّ.

المدارس الحنفيّة

المدرسة القيمازيّة: الأمير صارم الدين قايماز النجميّ.

عهد الملك العادل ونيابة ولده المعظّم عيسى 615 - 592 هـ

المدارس الشافعيّة

المدرسة العادليّة الكبرى: بدأ بتأسيسها نور الدين زنكيّ وأتمها الملك العادل ثم ابنه المعظّم عيسى.

المدرسة الصارميّة: صارم الدين أزبك علون الأمير قايماز النجميّ.

المدرسة الفلكيّة: فلك الدين سليمان أخو الملك العادل.

المدرسة الدولعيّة: العلامة جمال الدين أبو عبدالله الدولعيّ.

المدرسة الرواحيّة: زكي الدين هبة الله المعروف بابن رواحه.

المدرسة المسروريّة: مسرور الطواشيّ.

المدارس المشتركة (الشافعيّة والحنفيّه)

المدرسة الدماغيّة: عائشة بنت فارس الدين دفاع زوجة شجاع الدين محمود بن الدماغ.

عهد الملك المعظّم عيسى 624 - 615 هـ

المدارس الحنفيّة:

المعظميّة: ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

الماردانيّة: عزيزة الدين أخشا خاتون بنت قطب الدين صاحب ماردين.

الشبليّة البرانيّة: نشأت في سنة 623هـ/1226م على يد الطواشيّ شبل الدولة الحساميّ الحنفيّ.

الشبليّة الجوانيّة: شبل الدولة كافور المعظميّ.

المدارس الحنبليّة

الضيائيّة المحمديّة: الفقيه ضياء الدين محمد.

المدرسة الدخواريّة: مدرسة طب بناها مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار.

عهد الملك الأشرف موسى بن العادل 635 - 625 هـ

المدارس الشافعيّة

البهنسيّة: الوزير مجد الدين إسماعيل لمعروف بأبي الأشبال.

الركنيّة الجوانيّة: أنشأها الأمير ركن الدين منكروس الفلكيّ، غلام فلك الدين أخي الملك العادل في سنة إحدى وعشرين وستمئة في حي ركن الدين بسفح جبل قاسيون.

الأحمديّة:

الشاميّة الجوانيّة:

الجنونيّة: شرف الدين الزرزايّ المعروف سبع المجانين.

المدارس الحنفيّة

الركنيّة البرانيّة: الأمير ركن الدين منكوس الفلكيّ.

العزيّة البرانيّة: أنشأها نائب صلخد عز الدين أيبك في سنة 626هـ/1228م.

الفتحيّة: الملك الغالب فتح الدين صاحب بارين.

العلميّة: الأمير علم الدين سنجر المعظميّ الحنفيّ.

الميطوريّة: أوقفتها فاطمة خاتون بنت السلار.

المدارس الحنبليّة

الصحابيّة: ربيعة خاتون بنت نجم الدين أيوب.

الصدريّة: أوقفها صدر الدين ابن منجاة.

الأشرفيّة البرانيّة: أنشأها الملك الأشرف موسى سنة 630هـ/1232م.

عهد الملك الصالح إسماعيل بن العادل 643 - 635 هـ

المدارس الشافعيّة

الصالحيّة: والده الملك الصالح إسماعيل.

الأتابكيّة: بنت نور الدين ارسلان بن أتابك صاحب الموصل.

المدارس الحنفيّة

العزيزيّة:

البدريّة: الأمير بدر الدين المعروف بلالا.

المدارس الحنبليّة

الجوزيّة: محيي الدين ابن الشيخ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن الجوزيّ.

عهد الملك نجم الدين أيوب بن الكامل 643 - 647 هـ

المدارس الشافعيّة

النجيبيّة:

القليجيّة: أنشأها الأمير سيف الدين بن تميم النوريّ سنة645هـ/1247م. أوصى بوقفها الأمير سيف الدين علي بن قليج النوريّ.

المدارس الحنفيّة

المدرسة اليغموريّة: نشأت في الصالحيّة في سنة647هـ/ 1249م

عهد الملك الناصر يوسف الأيوبيّ 658 - 648 هـ

المدارس الشافعيّة

الناصريّة الجوانيّة: أنشأها الملك الناصر يوسف حفيد صلاح الدين الأيوبيّ في محلة العمارة 654هـ/1256م.

العادليّة الصغرى: زهرة خاتون بنت الملك العادل.

الباذرائيّة: أنشأها سنة 655هـ/1257م الإمام نجم الدين أبو محمد عبد الله بن أبي الوفاء محمد بن حسن بن عبد الله بن عثمان الباذْرَائِيّ، الشافعيّ، وتقع شمال شرقيّ الجامع الأمويّ.

المدارس الحنفيّة

- المرشديّة: نشأت في سنة 654هـ/1256م، في الصالحيّة على يد بنت الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل.

- الدنيسريّة الربعيّة: مدرسة طبّ.

ومن مدارس دمشق المملوكيّة:

المدرسة الجقمقيّة: أنشأها نائب دمشق سيف الدين جقمق الأرغنشاويّ وتقع عند المدخل الشماليّ للجامع الأمويّ، على أنقاض مدرسة سابقة كانت قائمة عام 762هـ/ 1361م، وتحوّلت إلى خانقاه عام 769 هـ / 1367م. ودمرت عند غزو تيمورلنك لدمشق عام 803هـ/ 1401م. فاستعمل جقمق المبنى السابق لبناء مدرسته.

المدرسة الظاهريّة: المعروفة بالمدرسة العادليّة الكبرى الظاهريّة وفيها المكتبة الظاهريّة التي كانت تضمّ نفائس المخطوطات واليوم نقلت إلى مكتبة الأسد. أسسها الظاهر بيبرس عام 676 هجريّة بجانب المسجد الأمويّ في دمشق .

المدارس التي بُنيت في حلب في العهد الأيوبيّ

اسم **المدرسة واسم بانيها والسنة**

المدارس الشافعيّة

المدرسة الصاحبيّة: القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع ابن شداد 601 هـ.

المدرسة الظاهريّة: نشأت عام 613 هـ/ 1217م من قبل السلطان الظاهر غازيّ، وتقع بين المدرسة الكامليّة وجامع الفردوس وتمّت إعادة بنائها في الفترة الأيوبيّة أيام الناصر يوسف.

المدرسة الأسديّة: أسد الدين شيركوه بن شادي 594 هـ.

المدرسة الرواقيّة: هبة الله بن محمد بن عبد الواحد بن أبي ألوفا الحمويّ 594هـ.

المدرسة الشرفيّة: شرف الدين عبد الرحمن بن أبي صالح بن العجمي 594هـ.

المدرسة البدريّة: بدر الدين عتيق عماد الدين شادي 594هـ.

المدرسة الزيديّة: إبراهيم المعروف بأخي زيد الكيال 655 هـ.

المدرسة السيفيّة: سيف الدين علمي بن حيدر 617 هـ.

المدرسة الظاهريّة: ظاهر حلب.

الملك الظاهر غازي بن يوسف 616 هـ.

المدرسة الهرويّة: علي بن أبي بكر الهرولّي السائح 616هـ.

المدرسة الفردوسيّة: المكانة ضيفة خاتون بنت الملك العادل 616هـ.

المدرسة القمريّة: الأمير حسام الدين حسن بن أبي الفوارس 646 هـ.

مدرسة الجبيل: شمس الدين أحمد بن صالح بن العجميّ 595 هـ.

مدرسة أنشأها الأمير شمس الدين لؤلؤ.

مدرسة بالمقام بهاء الدين المعروف بابن سبال.

مدرسه أنشأها عز الدين أبو الفتح مظفّر بن محمد الحمويّ 622 هـ.

المدارس الحنفيّة

المدرسة الأتابكيّة: شهاب الدين طغريل أتابك الملك الظاهر غيات 620 هـ.

المدرسة الحداديّة: حسام الدين محمد بن عز بن لاجين 620هـ.

المدرسة الجرويكيّة: الأمير عز الدين جرويك النوري 596 هـ.

المدرسة الفطيسيّة: سعد الدين سعود بن الأمير عز الدين أيبك 596 هـ.

مدرسة الدقاقية: مهذب الدين بن علي بن فصل الله الدقاق 622 هـ.

مدرسة النقيب: النقيب عز الدين أبو الفتوح المرتضى 654 هـ.

المدرسة العلانيّة: علاء الدين علي بن أبي الرجا.

المدرسة الكماليّة: كمال الدين عمر بن أحمد بن العديم 649 هـ.

المدرسة الشاذنجتيّة: جمال الدين بن شاذ بخت 589 هـ.

مدرسة تحت القلعة: الأمير سيف الدين علي بن سليمان بن جندر 589هـ.

المدارس التي بُنيت في حلب في دولة المماليك

اسم المدرسة اسم الباني أو الواقف والسنة

المدارس الشافعيّة

المدرسة الناصريّة: القاضي ابن الزملكانيّ 727 هـ.

المدرسة الصاحبيّة: الأمير أحمد بن يعقوب بن عبد الكريم بن أبي المعالي الحلبيّ ابن الصاحب منتصف القرن الثامن الهجريّ.

المدرسة القرناصيّة: الأمير بكتمر القرناصيّ 770 هـ.

المدرسة السحلوليّة: القاضي عبد الرحمن بن سحلول 773 هـ.

المدارس الحنفيّة

المدرسة الاشقتمريّة: النائب اشقتمر المارديني 773 هـ.

المدارس المشتركة بين المذاهب الأربعة

المدرسة الصلاحيّة: أوقفها الأمير يوسف بن الأسعد الدوادار 737 هـ.

مدرسة بإعزاز: الحاج إسماعيل بن عبد الرحمن العزاريّ 737 هـ.

المدارس التي بُنيت في حماه في عهد دولة المماليك

اسم المدرسة اسم الباني أو الواقف السنة

المدرسة العزيّة: أبو سالم يحيى بن حمزة العزيّ 657 هـ.

المدرسة الخاتونيّة: خاتون بنت الملك المظفر محمود.

المدرسة المخلصيّة: 659 هـ.

مدرسة دار القرآن: محمد بن أبي بكر الشافعيّ 765 هـ.

وقد أقيمت مدارس أخرى في مدن بلاد الشام. ومنها: مدرسة صرغتمش في عمان على يد الأمير صرغتمش الناصريّ سنة 759 هـ/ 1357 م. والمدرسة السيفيّة في السلط على يد الأمير سيف الدين بكتمر الحساميّ. والمدرسة اليقينيّة في عجلون، ومدرسة في حسبان. ومدرسة في حصن الأكراد على يد بكتمر بن عبد الحر الأشرفيّ سنة 719 هـ/ 1319. ومدرسة في غزة أنشأها الأمير علم الدين سنجر

الجاوليّ. والمدرسة الزبدانيّة التي أوقفها محمد بن عبد الصمد عبد الله بن حيدرة سنة 656 هـ/ 1258م. والمدرسة الأمينيّة بمدينة بصرى الشام. ومدرسة معرة النعمان.

في مدينة بصرى سورية

1 - مدرسة الدباغة

2 - المدارس في العراق

في بغداد

المدرسة النظاميّة - المدرسة المستنصريّة - المدرسة الشرفيّة - بيت الحكمة - مدرسة الآصفيّة - المدرسة المرجانيّة

في النجف

حوزة النجف من عهد السلجوقيّين.

3 - المدارس في لبنان في العهد المملوكيّ

- مدارس طرابلس:

تختلف المدارس في طرابلس من حيث حجم البناء: بعضها أشبه بالجامع، وبعضها مدارس كتاتيب بحجم غرفة واحدة. سنكتفي هنا بذكر الاسم فقط. وأهمّ هذه المدارس هي:

- المدرسة التدمريّة أو القادريّة - المدرسة النوريّة - مدرسة الخيريّة حسن - المدرسة الشمسيّة - المدرسة القرطاويّة - المدرسة البرطاشيّة - المدرسة الخاتونيّة - المدرسة الزريقيّة - المدرسة الناصريّة - مدرسة المشهد الأثريّة - المدرسة الطوشيّة - المدرسة العجميّة - المدرسة السقرقيّة - المدرسة الظاهريّة - مدرسة سبط العطّار - المدرسة العمريّة أو العنبريّة - مدرسة للشافعيّة مجهولة الموقع مبنية من القاضي.

ومن المدارس التي لا نعرف تاريخ بنائها، وتوحي أنها، لربما، من عهد المماليك:

- مدرسة ومزار «حسن البشناتيّ» - مدرسة ومزار السبسبيّة - مدرسة الرفاعيّة - المدرسة القادريّة، أو مدرسة العقّادين - المدرسة البطريركيّة - مدرسة النسر بن عجبور - المدرسة الكريميّة - مدرسة المشهد.

- مدارس بعلبك والبقاع وجزين:

المدرسة الأمينيّة - المدرسة النجميّة - المدرسة النوريّة بالجامع الكبير

وهي من عهد نور الدين زنكيّ - مدرسة الحنابلة - مدرسة كرك نوح

مدرسة شيعيّة جعفريّة.

وقامت للشيعة مدارس في مشغرة وجزين وميس الجبل. وأشهرها مدرسة جزين.

الشائع أن هذه المدرسة الشيعيّة الجعفريّة ازدهرت زمن الشهيد الأول محمد بن مكيّ الجزينيّ كما ذكرنا سابقًا. ويبدو أنّ جزين كانت مركزاً فقهيّاً قبل ذلك بقرنَيْن من الزمن. فقد كانت مركزاً لأئمّة من آل العود الذين كان لهم دور في ممانعة شيعة كسروان لحكم المماليك في بداياته، ما أدّى إلى الحملات الدامية على المنطقة.

وقد قيل في أبي القاسم بن الحسين بن العود شعر يدلّ على ما كانت عليه جزين من موقع علميّ قبل محمد بن مكيّ:

«عرّج بجزين يا مستبعِد النجف ففضل من حلّها يا صاح غير خفي»

ازداد النشاط الدينيّ الشيعيّ في جزين بعد هجرة الشّيعة إليها من كسروان، في أعقاب الحملات المملوكيّة على الجبال الكسروانيّة. وكان يدرّس فيها الفقه والأصول والحكمة والحساب. وعُرف عن الشيخ شمس الدين محمد بن مكيّ المطلبيّ الجزينيّ العامليّ المعروف بالشهيد الأول تميّزاً له عن الشهيد الثاني زين الدين بن علي العامليّ الجبعيّ، أنّه روى مؤلفات من تسمّوا بالسنيّين عن أربعين شيخاً من علمائهم.

- مدارس الموارنة والدروز:

في دولة المقدّمين في جبل لبنان عمرت المدارس، وبلغ عدد النساخ ما ينيف عن مئة وعشرة ناسخ أهملوا الخط الإصطرنجالي المربّع وتمسكوا بالسريانيّ المدوّر.

وأقام اليعاقبة في القرن الخامس عشر المدارس للصبيان والبنات في جبّة بشري.

وعمرت الكنائس والمدارس في 1470م.

4 - المدارس في فلسطين

لقد أُحصي في مدينة القدس في عهد المماليك حوالي 46 مدرسة، كما تبرز ذلك اللائحة المدرجة أدناه استناداً إلى مجير الدين الحنبليّ العليميّ، و50 مدرسة في مصادر معلومات أخرى. والمدرسة هي ما يصحّ أن نسمّيها اليوم المدرسة الثانويّة التي يلتحق بها الطالب بعد أن يكون قد أنهى مرحلة التعليم الابتدائيّ؛ وهي في بعض الحالات قد تكون في مستوى الكليّات المعاصرة. وكان الحظّ الأوفر في فلسطين في إنشاء المدارس لكلّ من القدس والخليل دون أن تُهمَل المدن الأخرى كصفد وغزة والرملة ونابلس.

- مدارس القدس

مدارس بيت المقدس كمدارس دمشق وحلب من حيث البناء والترتيب والوقوف عليها، ومعظمها مما أقامه الملوك والأمراء والأغنياء والعلماء.

وأقدم مدارس بيت المقدس ما بُني على عهد صلاح الدين، ثم توفّر أهل الخير من الأمراء والأغنياء، ومنهم النساء والإماء، فأنشأوا منها ما أنشأوا تحت عنوان الغيرة على العلم وبثّ الفضائل. وقد عدّد مجير الدين الحنبليّ ما كان على عهده منها في القدس والخليل فقال: إنه كان في بيت المقدس من المدارس:

- المدرسة الفارسيّة:

بداخل المسجد الأقصى بالقرب من بئر الورقة، منسوبة لوقف المدرسة الفارسيّة التي بشرقي المسجد، وقفها الأمير فارس البكي، وهي عامرة، وفيها دار كتب المسجد الأقصى.

- المدرسة النحويّة:

من العهد الأيوبيّ. على طرف صحن الصخرة من جهة القبلة إلى الغرب، بانيها الملك المعظم عيسى سنة 604 هـ/1207م.

- المدرسة (زاوية) الناصريّة:

نسبة للشيخ نصر المقدسيّ. كانت من العهد الأيوبيّ، على درج باب الرحمة. عرفت بالغزاليّة نسبة لأبي حامد الغزاليّ، وقد اعتكف فيها وأتمّ تأليف كتابه إحياء علوم الدين. ثمّ جعلها الملك المعظم عيسى زاوية لقراءة القرآن والاشتغال بالنحو، وتاريخ وقفها سنة 610هـ/1213م. ويقول مجير الدين أنّها دُثرت في عصره.

المدرسة الفخريّة:

بناها القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله، ناظر الجيش في مصر (ت 732هـ/1331م)، وهي مجاورة لجامع المغاربة، وهي داخل سور المسجد.

- المدرسة التنكزيّة:

واقفها الأمير تنكز الناصري نائب الشام (ت741هــ/1340م). وهي مدرسة عظيمة ليس في المدارس أكثر إتقاناً من بنائها. كان ابتداء عمارتها في شوّال سنة 727هـ/1326م، وانتهى في العام 729هـ/1328. وهي بخطّ باب السلسلة مجاورة للسور من جهة الغرب.

- المدرسة البلديّة:

بجانب باب الحرم جوار باب السلسلة، واقفها الأمير منكلي بغا الأحمديّ نائب حلب ودفن فيها سنة 782هـ/1380م وما برحت عامرة.

المدرسة الأشرفيّة:

بناها السلطان الأشرف قايتباي، وتقع في رواق حرم بيت المقدس لجهة الغرب، وقد تكاملت عمارتها سنة 887هـ/1482م.

- المدرسة العثمانيّة:

بباب المتوضأ بجوار الحرم. واقفتها امرأة من أكابر الروم اسمها أصفهان شاه خاتون وتُدعى خانم، وعليها أوقاف ببلاد الروم وغيرها، وعلى بابها تاريخها سنة 840هـ/1436م.

- المدرسة الخاتونيّة:

تقع في محلّة باب الحديد بجوار الحرم، واقفتها أغُل خاتون بنت شمس الدين محمد بن سيف الدين، القازانيّة البغداديّة، ثمّ أكملت عمارتها ووقفت عليها أصفهان شاه بنت الأمير قازان شاه سنة 782هـ/1380م.

- المدرسة الأرغونيّة:

بباب الحديد جوار الحرم. واقفها أرغون الكاملي نائب الشام. أكمل عمارتها سنة 759هـ/1357م.

- المدرسة المزهريّة:

بباب الحديد بجوار الحرم. وقفها المقرّ الزينيّ أبو بكر بن مزهر الأنصاريّ صاحب ديوان الإنشاء بالديار المصريّة، وبعضها راكب على ظهر الأرغونيّة، وكان الفراغ من بنائها سنة 885 هـ/1480م.

- المدرسة الجوهريّة:

بباب الحديد جوار الحرم الشريف وبعضها على رباط كرد. واقفها الصوفيّ جوهر زمام الآدر الشريفة في سنة 844هـ/1440م.

- المدرسة المنجكيّة:

بباب الناظر جوار الحرم وقفها الأمير منجك نائب الشام ونقل مجير الدين أن الأمير كان وصل إلى القدس الشريف ليبني المدرسة للسلطان الملك الناصر حسن، فلما قُتل السلطان سنة 762هـ/1360م، بناها لنفسه ونسبت إليه، وقد تلاشت أوضاعها في عصر مجير الدين.

- المدرسة الجاوليّة:

في الجهة الشماليّة، واقفها الأمير علاء الدين سنجر الجاولي نائب غزة (ت 744هـ/1343م).

- المدرسة الصبيبيّة:

في الجهة الشماليّة. واقفها الأمير علاء الدين علي بن ناصر الدين محمد نائب قلعة الصبيبّة. ولّي نيابة القدس وعمّر بها المدرسة وتوفي بدمشق سنة 809هـ/1406م، ونقل جثمانه إلى هذه المدرسة.

- المدرسة الإسعرديّة:

جوار الحرم إلى الشمال، واقفها الخواجا مجد الدين عبد الغني الإسعرديّ، وتاريخ وقفها سنة 760هـ.

- المدرسة الملكيّة:

إلى شمال الحرم، عمّرها الحاج آل ملك أبو بكر الجوكندار، وكان بناؤها مستهلّ المحرّم سنة 741هـ/1340م. ووقفها من زوجته في السادس عشر من ربيع الآخر سنة 745هـ/1344م.

- المدرسة الفاسيّة:

إلى شمالي الحرم. واقفها الأمير فارس البكي ابن الأمير قطلو ملك بن عبد الله نائب السلطنة بالأعمال الساحليّة والجبليّة ونائب غزة، وهو الذي نسبت إليه المدرسة الفارسيّة بداخل المسجد الأقصى.

- المدرسة الأمينيّة:

بباب شرف الأنبياء المعروف بباب الدواداريّة بجوار المسجد، واقفها الصاحب أمين الدين عبد الله في سنة 730هـ/1329م. ونجد توقيعاً لها مدرجاً في «صبح الأعشى».

- المدرسة الدواداريّة:

بباب شرف الأنبياء جوار الجامع، واقفها الأمير علم الدين أبو موسى سنجر الصالحيّ النجميّ. تمّت عمارتها عام 694هـ، وتاريخ وقفها سنة 696هـ/1296م.

- المدرسة الباسطيّة:

بباب شرف الأنبياء، بعضها على المدرسة الدواداريّة، واقفها زين الدين بن عبد الباسط بن خليل الدمشقيّ ناظر الجيوش سنة 834هـ/1430م.

- **المدرسة الكريميّة:**

بباب حطّة جوار الحرم، واقفها الصاحب كريم الدين بن المعلم هبة الله بن مكانس ناظر الخواص السلطانيّة بالديار المصريّة سنة 718هـ/1318م.

- **المدرسة الغادريّة:**

بباب حطّة جوار الحرم، بُنيت سنة 836هـ/1432م، واقفها الأمير ناصر الدين محمد ابن دلغادر بعد أن عمّرتها زوجته مصر خاتون وثبت وقفها سنة 877هـ/1472م.

- **المدرسة الطولونيّة:**

داخل المسجد على الرواق الشماليّ. أنشأها أحمد بن الناصري محمد الطولونيّ الظاهريّ زمن الملك الظاهر برقوق، ولم يكتب لها كتاب وقف إلا سنة 827هـ/1423م.

- **المدرسة الفنزيّة:**

مقابل الطولونيّة من جهة الشرق، وهي من إنشاء شهاب الدين الطولونيّ، عمرها مع مدرسته المقدم ذكرها وجعلها للملك الظاهر برقوق. فلما توفّي الظاهر وآل الأمر لولده الملك الناصر فرج، رتّب لها قرّاء وأقام نظامها وجعل لها معاليم تُصرَف عليها. ولما لم يكن لها كتاب وقف، اشتراها محمد شاه بن الفنزيّ الروميّ ووقفها فنسبت إليه.

- **المدرسة الحسنيّة:**

على باب الأسباط، وقف شاهين الحسنيّ الطواشيّ من دولة الملك الناصر حسن (ت 762 هـ/1360م).

- **المدرسة الصلاحيّة:**

بالقرب من السور من جهة الشمال بباب الأسباط وقف صلاح الدين على الشافعيّة. وهي التي بناها صلاح الدين الأيوبيّ بعد تحريره للقدس. وهي كنيسة من زمن الروم تُعرف بصند حنّة نسبة لحنّة امّ العذراء مريم.

- المدرسة الكامليّة:

بخط باب حطّة بجوار الكريميّة من جهة الشمال، واقفها الحاج كامل من أهالي طرابلس، كتب محضر بوقفها سنة 816هـ/1413م.

- المدرسة المعظميّة:

من العهد الأيوبيّ، واقفها الملك المعظم عيسى.

- المدرسة السلامية:

بباب شرف الأنبياء تجاه المعظميّة وهي بجوار المدرسة الدواداريّة من جهة الشمال، واقفها الخواجة مجد الدين أبو الفدا إسماعيل السلاميّ، والظاهر أنها وقفت بعد عام السبعمئة.

- المدرسة الوجيهيّة:

بخط درج المولة. وقف الشيخ وجيه الدين محمد بن عثمان بن أسعد بن المنجا الحنبليّ المتوفى سنة 701هـ/1301م.

- المدرسة المحدثيّة:

بالقرب من الوجيهيّة عند قبو باب الغوانمة بجوار الحرم، واقفها عز الدين أبو محمد عبد العزيز العجمي الأردبيليّ سنة 762 هـ/1360م.

- المدرسة الحسنيّة:

بباب الناظر على رباط علاء الدين البصير، واقفها الأمير حسن الكشكيليّ ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس الشريف، وكان بناؤها سنة 837هـ/1433م

- المدرسة القشتمريّة:

تقع عند باب الناظر بالقرب من الحسنيّة، واقفها الأمير قشتمر السيفيّ سنة 749 هـ/1348م.

- المدرسة الباروديّة:

بباب الناظر بالقرب من القشتمريّة، واقفتها الست الحاجّة سفري خاتون ابنة شرف الدين أبي بكر بن محمود المعروف والدها بالباروديّ، تاريخ وقفها سنة 768هـ/1366م.

- المدرسة الجهاركسيّة:

بجوار اليونسيّة من جهة الشمال. كانت كنيسة من بناء الروم قسمت نصفين، جعل الأول المدرسة الجهاركسيّة، والثاني جعل الزاوية اليونسيّة. والجهاركسيّة نسبة لواقفها الأمير جركس الخليليّ المتوفّى سنة791هـ/1388م.

- المدرسة الحنبليّة:

بباب الحديد، واقفها الأمير بيدمر نائب الشام. فرغ من بنائها سنة 781هـ/1379م.

- مدرسة دار الحديث:

من العهد الأيوبيّ، بجوار التربة الجالقيّة من جهة الغرب، نسبة لركن الدين الكبير العجميّ المعروف بالجالق. واقفها الأمير شرف الدين عيسى بن بدر الدين أبي القاسم الهكاريّ سنة 666هـ/1267م.

- مدرسة دار القرآن الإسلاميّة:

تجاه دار الحديث، واقفها سراج الدين عمر بن أبي بكر أبي القاسم السلاميّ سنة 761هـ/1359م.

- مدرسة الطازيّة:

بخط داود بالقرب من باب السلسلة، وقف الأمير طاز المتوفّى سنة 763هـ/1361م.

- المدرسة الأفضليّة:

وتعرف قديماً بالقبة بحارة المغاربة، وهي وقف من عهد الملك الأفضل نور الدين أبي الحسن على ابن الملك صلاح الدين على فقهاء المالكيّة.

- المدرسة اللؤلؤيّة:

بخط مرزبان بجوار حمّام علاء الدين البصير من جهة الشمال أو بباب العامود، واقفها الأمير لؤلؤ غازي عتيق الملك الأشرف شعبان بن حسن. توفّي واقفها في 787هـ/1385م.

- المدرسة البدريّة:

قرب اللؤلؤيّة بخط مرزبان، واقفها بدر الدين محمد ابن أبي القاسم الهكاريّ سنة 610هـ.

- المدرسة الميمونيّة:

عند باب الساهرة، وكانت كنيسة من بناء الروم، واقفها الأمير فارس الدين أبو سعيد ميمون القصريّ سنة 593هـ/1196م.

- المدرسة الأباصيريّة:

مدرسة تنسب للأمير علاء الدين الأباصيريّ، كانت بجوار باب الناظر.

- المدرسة الموصليّة:

بباب شرف الأنبياء بجوار المسجد الأقصى، نسبت للخواجة فخر الدين الموصليّ.

- مدارس خارج القدس

لا نعرف عنها الشيء الكثير ومنها:

مدرسة الحرم الإبراهيميّ

ونجد عنها توقيعاً مدرجاً في «صبح الأعشى».

المدرسة القيمريّة:

عند باب المسجد الشماليّ بالقرب من عين الطواشي في الخليل.

ويبدو أن التعليم في صفد كان شبه معدوم مما اقتضى دراسة الصفديّين في دمشق.

ويفترض أن تكون المساجد قد ساهمت في التعليم في كلّ أرجاء لبنان وفلسطين، في علوم الفقه والتفسير والحديث واللغة، وكان النظام السائد فيه نظام الحلقات.

5 - موضوعات التدريس

كما هو الحال العام، كانت موضوعات التدريس في المدارس السنيّة تطال الموضوعات الإسلاميّة التقليديّة: دراسة القرآن، وعلم التفسير وعلم القراءات دراسة الحديث والفقه والشريعة والسيرة وعلم التاريخ واللغة العربيّة وآدابها. وكان علم الفقه يتناول المذاهب الإسلاميّة الأربعة. وعند الشّيعة يدرّس، طبعاً، الفقه الشيعيّ، من دون استثناء الفقه السنيّ كما في حالة الشهيد محمد بن مكيّ.

كان التعلّم يطال أيضاً الاشتغال بالنحو وكتب إصلاح المنطق. وما عدا هذه الإشارة لم نجد معلومة أخرى عن مواد التدريس.

6 - تمويل المدارس ورواتب المدرّسين

يفترض أن يتمّ تمويل المدارس من دخل ثابت، لذلك، كان الوقف أفضل أداة لتمويل قيام المدارس، واستمرارها، ورعاية مدرّسيها، ومعيديها، ونظّارها، وإدارييها، وطلابها.

كانت أجرة معلّم في طرابلس يعلّم الأيتام قراءة القرآن والكتابة ويتقاضى أجراً شهرياً، قدره 30 درهماً، وأن يصرف إلى كل واحد من الأيتام كل يوم ربع درهم، ويُكسى كلّ منهم كسوة كاملة حسبما رآه الناظر من قميص وقبع ولباس وجبّة ومتاع ومال..

وراتب المعلّم هذا أقل بعشرة دراهم من راتب المؤذن المذكور في وقفيّة تربة طينال في طرابلس التي كان الموظفون فيها يتقاضون: الإمام: 40 درهماً، المؤذن 25 درهماً، القيّم 30 درهماً. القارئ: 10 دراهم.

وكذلك عشرة دراهم عن المؤذن في المدرسة السقرقيّة في طرابلس في أواسط القرن الرابع عشر التي كان الموظفون فيها يتقاضون: الإمام: 40 درهماً، المؤذن 25 درهماً، القيّم 30 درهماً. القارئ: 10 دراهم.

أمّا المؤذّن في وقفيّة برج جلبان في القرن الخامس عشر فكان الإمام المؤذن فيها يتقاضى 100 درهم.

هذه الأرقام بعيدة عمّا كان يتقاضاه المدرّسون في القدس.

ففي تلك المدينة تظهر الدراسات أنّ الرواتب لم تكن ثابتة. وبالقياس على دمشق لم يتجاوز راتب المدرّس زمن ابن كثير في القرن الرابع عشر في العام سبع وستين وسبعمئة 10 دنانير (80

درهمًا) والمعيد 20 درهماً ومعاش الطالب 10 دراهم. وهذا يشكّل تراجعاً في رواتب المدرّسين في مصر وبلاد الشام بالقياس إلى العهد الأيوبيّ.

تدنّي الرواتب جعل المدرسين يدرّسون في أكثر من مدرسة في آن واحد. أو يُضطر المدرس للتدريس في مدرستين في مدينتين في آن معاً. أو كان المدرس يُشغل وظيفة التدريس ووظيفة أخرى كأن يجمع الخطابة إلى التدريس.

الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد الحلبيّ ثمّ الدمشقيّ قاضي كرك نوح ولي قضاء الدرس والتدريس في البادرائيّة بدمشق. ثمّ درّس بها القاضي شمس الدين محمد بن كامل التدمريّ وناب في الحكم بدمشق وولّي قضاء القدس.

كلّ مدرّس كان له مساعدون عديدون، يُدعَون معيدين، تبعاً لعدد الطلاب.

ثالثاً - الاقتصاد

أ - المناخ الاقتصاديّ

عُرف تاريخ المماليك، بعد العهد الذهبيّ الذي امتدّ من نشأة الحكم المملوكيّ إلى نهاية عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، بالفوضى على أكثر من صعيد. فكثُر تغيير السلاطين، وتقلّب الواقع الاقتصاديّ والسياسيّ، بحيث كثُرت الفتن، وبلغ ذلك الذروة مع عهد المماليك الشراكسة. وقد ساهم الغزو المغوليّ، في مطلع القرن الخامس عشر في ازدياد حالة التدهور. فعرف هذا القرن مصاعب ماليّة، ومصادرات، وفساداً في الإدارة، ولا أخلاقيّة في العمل الحكوميّ والخدمات العامة، وضعفت الخزينة العامة ففرغت الصناديق من المال.

زاد في تردّي الأوضاع الاقتصاديّة كلّ من الطاعون والأوبئة والجراد والزلازل والعوارض المناخيّة والحرائق والرياح وتدهور أوضاع العملة.

1 - الطاعون والأوبئة

فتك الطاعون والأوبئة بالناس مرّات عدّة في السنوات الآتية: 735هـ/1334م. 742هـ/1341م. 749هـ1348م. 753هـ/1352م. 764هـ/1362م. 796هـ/1393م. 812 - 813هـ/1409 - 1410م. 814هـ1411م. 819هـ/1416م، 841هـ/1437م. 873هـ/1468م. 897هـ/1491م. 904هـ/1498م. 909هـ/1503م. 917هـ/1511م.

أدّت هذه الأوبئة إلى تناقص عدد السكان، وبالتالي إلى تدنيّ عدد اليد العاملة، والإنتاج الاقتصاديّ.

الطاعون الأسود، في العام 748هـ/1348م حوّل بلاد الشرق وأوروبا مقبرة جماعيّة، ستولّد فيها جرحاً ديمغرافيًا واقتصاديًا كبيراً.

مصدر هذا الطاعون، حسب الدراسات الطبيّة الحديثة، كان في بلاد المغول، قرب بحيرة «بلخاش» التي تحمل أيضاً تسمية «هتايي». فقد تكاثر عدد الناس هناك، وأنشأوا حياة مدنيّة، من دون أرضيّة لبناء المدن. فكَثرَةُ العدد في محيط يفتقر إلى القواعد الصحيّة ولّد الطاعون. ومن هناك اتجه

الوباء الأسود، عبر حركة التبادل إلى المحيط الهنديّ، فالبحر الأحمر، فمصر، فإيطاليا، وفي طريق ثانٍ، عبر سمرقند إلى بحر قزوين، فالقسطنطينيّة، والطريق الثالث عبر نهر سيرداريا، فالفولغا، فالقرم، فأوروبا عموماً. وكان التّجار الأوروبيّون المنتشرون في الشرق الأوسط والأقصى، أفضل حاملين لجرثومة هذا المرض إلى أوروبا. وقد توزّع الطاعون بسهولة عبر المرافئ المتوسطية.

أدّى وباء الجدري إلى تخفيض عدد البقر في المشرق. لذلك في القرن السادس عشر اضطر السكان، إلى الاعتماد على الأحصنة لحراثة الأرض.

2 - الجراد

وكما الأوبئة، كذلك كان للجراد دوره في إضعاف مناعة المشرق اقتصاديًّا على عهد المماليك. ويمكن أن نُحصي السنوات التي غزا فيها البلاد كالآتي: 1303م، 1363م، 1364م، 1368م، 1400م، 1422م، 1456م، 1516م، 1519م. وكانت نتائجه مصيبة للزرع وللأشجار.

تقدّم وثيقة منشورة في أزمنة الدويهيّ وصفاً دقيقاً لما جرى، قبيل، رحيل تيمورلنك عن دمشق وبعده فتخبر بالآتي:

«ويقول المطران يعقوب من قنيا في كتاب الناموس الذي كتبه في دير السيدة بأرض لحفد باسم المطران داوود بن جوسلين الحدشيتيّ في سنة ألف وسبعماية وثلاث عشرة يونانيّة (أي سنة 1402م) إن بتلك السنة جاء فناء حتى وقف ناس كثيرة بلا دفن، وجاء غلاء حتى مات ناس كثيرة من الجوع وأبصرت الناس ديقه (ضيقة) وشدة وهمّ وجوع وحزن وبلاء لم يكن مثله من إبتدى الخليقة. وأن قبل ذلك بسنة خرج من المشرق تمرلنك من مدينة سمرقند بعساكر متوافرة وأسبى وأحرق وأضرب واستأسر ناس كثيرة، ولم أحد أشهر بوجهه سيف وعاد لبلاده بغنايم جزيلة. وفي سنته ظهر الجراد في كط (29) من آذار وأكل الزريعة وبقيت الأرض كما كانت في الكوانين، ثم أكل الزرع، وحملت الكروم حملًا زائد، وفي كب (12) من أيار طلع الزحاف فارتعى الزروع والعروق والأثمار والأشجار حتى الحرش والغابات، وعرّى الأرض بالكليّة. وغلت الأسعار حتى أنّ شنبل القمح زاد عن الخمسين والدكن عن الثلاثين. وفنيت أكثر الماشية، وجاء على الشام ضيقة شديدة».

وإضافة إلى الكوارث المعهودة، كان للفأر دوره أيضاً. ففي العام 770هـ/1368م خرج بالمشرق جراد مضرّ، وكثر الفأر بها في البيادر، فتلفت الغلال، وفشا بها الوباء.

3 - الزلازل

الزلازل في بلاد الشرق، وخصوصاً في لبنان وسورية وفلسطين الحاليّة، لها تاريخها الحافل بالتدمير والخراب.

زلزلة عظيمة في العام 701هـ/1301م.

بعد 38 سنة، في العام 739هـ/1338م، ضرب الزلزال طرابلس الشام.

وفي العام 806هـ/1403م، حدثت زلزلة هدمت مناطق عدّة من نيابة طرابلس، وهلك تحت الردم جماعة.

وحدثت في العام 811هـ/1408م زلزلة أخرى هلك فيها كثيرون، وكانت بالساحل والجبال، وقد انحسرت مياه البحر ثم عادت إلى ما كانت عليه بسبب الزلزلة من دون أن تتضرّر المراكب التي كانت قد رست على البر.

4 - العوارض المناخيّة

كثر الثلج في العام 690هـ/1291م.

وفي العام 692هـ/1292م وقعت ببعلبك أمطار وسيول خارجة عن الحدّ.

وتميّز العام 712هـ/1312م بشحّ أمطار. وكان عكسه في العام 716هـ/1316م الذي كثرت فيه الثلوج في السواحل. فقد جرت الأمور بخلاف المعهود في ربيع الأول 716هـ/1316م، عندما وقع المطر في بعلبك وقارا وحمص وغيرها، وعقبه برَد قدر النارنج، فيها ما زنته ثلاث أواقٍ شامية، فهلك من الناس والحيوانات شيء كثير، وخربت ضياع عدّة، ثمّ نزل ثلج عظيم طمّ القرى وسدّ الطرقات والأودية، وامتنع السفر حتى بعث النوّاب الرجال لفتح الطرقات. وفي 7 صفر 716هـ/1316م عقب نزول المطر ببعلبك سيل عظيم، سبقته غمامة سوداء في وسطها عمود نار من السماء إلى الأرض، ثمّ أرعدت رعدًا مخيفًا تبعه مطر كأفواه القرب، فأتلف شيئًا كثيرًا، وهدم قطعة من السور، وغرّق المدينة، وتلف بها شيء كثير، ومات ألف وخمسمئة إنسان سوى من مات تحت الردم، وانهدم منه بستان، وثلاثة عشر جامعًا ومدرسة ومسجدًا، وسبعة عشر فرنًا، وأحد عشر طاحونًا، وهدم برجًا من

السور ارتفاعه ثمانية وثلاثون ذراعًا ودوره من أسفله ثلاثة عشر ذراعًا، ودخلت المياه إلى الجامع الكبير فوصلت المياه إلى القناديل فمات من فيه، ولم ينج سوى شخص واحد تعلّق بأحد الأعمدة.

في العام 740هـ/ 1339م كانت رياح عاصفة فيها سموم (بمعنى الريح الشماليّة شديدة البرد) بجبل طرابلس، ورافقها سقوط نجم اتصل نوره بالأرض مع رعد قوي، وعلقت منه نار في الجون أحرقت أشجار ومنازل عدّة.

وضرب فيضان نهر أبي علي في طرابلس في العام 745هـ/1345م، فاجتاحها سيل عظيم في شهر رمضان، هلك فيه خلق كثير. وكان العام نفسه قد شهد ثلجًا عظيمًا.

في العام 757هـ/ 1356م كان حريق عظيم ببلاد الساحل وأراضي كسروان، عمّ من بلاد طرابلس إلى معاملة بيروت، أتلف كثيرًا من الوحش والأمتعة، وشجر الزيتون، ثمّ وقع مطر فأطفأه.

وتميّز العام 761هـ/1359م برعد عظيم وصواعق ومطر عظيم وبرد بحجم البيض، وقد نتجت من ذلك إبادة الكروم، وهلك خلق من السيول.

وعلى نحو غير معهود غطّى الثلج البقاع وطريق طرابلس في 2 نيسان في العام 800هـ/1397م.

وعادت قصة فيضان نهر أبي علي لتضرب طرابلس في العام 810هـ/1407م، فهدمت السيول أبنية في المدينة وأهلكت خلقًا كثيرًا.

يذكر الأسقف المارونيّ، داود الحدشيتي، في أخبار العام 1466م، أنّ بأيام الملك الظاهر خشقدم، بان نجم بو ذنب في الشرق، فلحقته أيام حارّة، فأمحل الزرع والحبوب، وبلغ شنبل القمح إلى سبعين، والعدس إلى ستين، والذرة والدخن والشعير إلى خمسين درهماً، ورطل الدبس إلى أربعة عشر، فهلك من السواحل كثير من الناس والكلاب والبهايم من شدة الجوع. ويخبر المذكور أنّ الحرّ طال نحو سنتين، والغلاء ثلاث وأربع سنين، والناس تقتات من العشب.

ويروي، المصدر اللبنانيّ، ابن اسباط، أنّ في العام 1503م بقي الطقس ممطرًا حوالي 27 يومًا، ولم ينقطع المطر في إحدى المرّات عن السقوط على نحو مستمرّ خمسة أيام وخمس ليالٍ، مما أدّى إلى تدمير الجسور، والطواحين على ضفاف الأنهر والسواقي، وعماير على ضفاف الليطاني، والحوانيت في طرابلس، والأشجار، وهاج البحر حتى دخل الخان الذي بالميناء ببيروت، وأهلك البحر والسيول

خلقًا لا تُحصى، وهبطت قطعة ثلج، قدر الجمل الكبير، بسبب تكاثف الرياح والأمطار في أرض قرية عاليه. وفي شهر تموز في الصيف حدث سيل زاد بنتيجته نهر الصفا حتى أخرب ما على جانبه من سكور الطواحين. وقد تلا هذه الكارثة، أخريات في العامين 1507م و1508م، وقد سقط الثلج في العام 914هـ/ 1508م، ودام من شهر شباط إلى شهر نيسان، مما عطّل المواصلات حتى على السواحل، وأدّى إلى نفوق عدد من الطروش.

5 - الرياح الشديدة

في العام 718هـ/1318م، ضربت ريح شديدة طرابلس، فأصابت ذوق التركمان بضرر كبير، فقتلت منهم (18) شخصاً. وإذا صدقت الروايات، كانت الرياح ترفع البعير في الهواء مقدار عشرة أرماح.. وتلا هذه الريح مطر شديد، وبَرَد عظيم فكان مقدار حبة البَرَد ثلاث أواقٍ وأكثر، فأتلف الزرع في نحو أربع وعشرين قرية.

ومثل هذه الريح الشديدة حدثت في العام 841هـ/1437م، وبقيت أياماً، وأهلكت الزرع والأشجار بكثرة.

وفي العام 844هـ/1440م، هبّت ريح شرقيّة في طرابلس هدمت الدور وأضرّت بأقصاب السكّر.

6 - تدهور العملات

كان ضرب العملة في النصف الأول من القرن الثامن الهجريّ/النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلاديّ، بالشكل الآتي:

الدراهم ثلثاها فضّة والثلث نحاس. والدرهم ست عشرة حبّة خرّوب. الخروبة ثلاث قمحات، والمثقال أربع وعشرون خروبة. والدرهم منها قيمته ثمانية وأربعون فلساً. والدينار الجيشيّ مسمّى عنه ثلاثة عشر درهماً وثلث درهم من العادة عنه مسمّى أربعون درهمًا سودًا، والدرهم منها ثلث درهم مما ذكر.

يشرح القلقشندي هذا الواقع عندما يقول إنّه في العام 800هـ/1397م أضحت الفضة قليلة لأسباب داخليّة وخارجيّة هي الآتية:

من جهة، لأن الفضة صرفت في صناعة الحلي والسروج وآنية الفضة، ومن جهة أخرى، لأن استيرادها من بلاد الفرنج توقف. وكانت النتيجة أنّ السلطة عمدت إلى سكّ دراهم، نسبة الفضة فيها منخفضة ولا تحتوي إلا على الثلث من الفضة، والباقي من النحاس الأحمر. أيضاً الفلوس فقدت وزنها، وحجمها، بسبب نضوب معدن النحاس وارتفاع سعر شرائه. ولذلك، فصرف العملة، لم يعد مستقرًا، وتغير سعر صرف الدينار على نحو كبير، وكان في العام 1388م يوازي 20 درهمًا.

هذا الواقع المالي كان السمة الأساسيّة للقرن الخامس عشر.

فذهب السودان الشرقيّ، وهو المورد الأساس للتموّن بالذهب في السلطنة المملوكيّة، نضب إلى حدّ كبير. وهذا ما يشرح ضرب الدنانير بأوزان خفيفة:

فتحوّل الأشرفي (نسبة إلى السلطان الملك الأشرف خليل) من 4,25 غرامًا إلى 3,45 على عهد برسباي في العام 1425 م.

نضوب الثروة الذهبيّة، ليس السبب الوحيد لهذا التدهور، ولعلّ ذلك مردّه إلى رغبة السلاطين بالحدّ من تبادل العملة الفرنجيّة بشعاراتها المسيحيّة، فعمدت إلى سك دنانير مملوكيّة من الوزن ذاته.

وعلى الرغم من كل شيء، فالذهب السودانيّ، استمرّ بالوصول إلى مصر في القرن الخامس عشر، ونضوبه لم يتحوّل إلى مصيبة إلا بعد وصول البرتغاليّين إلى شواطئ غينيا.

أما بالنسبة إلى الدرهم، فقد عرف المشرق، في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، أزمة في إيجاد الفضة. وعلى عهد السلطان بيبرس (1260 - 1277م) كان سعر صرف الدرهم في غالب الأحيان 1/20 من الدينار، ومزيج الذهب - الفضة كان بين 1 إلى 9,1 إلى 10. وقد سكّ بيبرس دراهم من مزيج جيد. وقد حسّن مزيج الدرهم، فكان درهمه الظاهريّ يحتوي على 70% من الفضة.

في القرن الثالث عشر، تدفّقت كمية من الفضة على السلطنة المملوكيّة، مصدرها آسيا الوسطى، بواسطة غزوات المغول. وهذا كان سبب جودة العملة عند السلاطين المماليك الأوائل.

في القرن الرابع عشر، أدّى فتح مملكة كيليكيا الأرمنيّة في العام 1323م إلى تدفّق الفضة على السلطنة المملوكيّة، وكانت الفضة الأوروبيّة تصل إلى المشرق عبر أرمينيا الصغرى، ولكن هذه الكمية من الفضة، سرعان ما تبخّرت من الشرق، بسبب نوعيّة «الاقتصاد - الإسفنجيّ» الذي كان قائمًا.

منذ منتصف القرن الرابع عشر، بدأ الدرهم يفقد مزيجه، وحدث تراجع في الثروة الماليّة للدولة.

في نهاية القرن الرابع عشر أضحت الفضة قليلة جدًّا، وخفّ ضرب الدرهم، وكان ما يُضرب منه مكوّنًا من مزيج متدهور، وازداد بالمقابل عدد العملة النحاسية أي الفلوس. وكانت تحتوي هذه الدراهم 50 إلى 60 % من الفضة. وفقدان المعدن الأبيض يعود إلى كثرة الطلب عليه من جهة، وإلى ازدياد سعر شرائه في إيطاليا، من جهة ثانية.

بقيت مصر من دون عملة فضيّة، من مطلع القرن الخامس عشر إلى العام 1415م. وحتى التاريخ الذي عمد فيه السلطان شيخ (1412- 1421م) إلى ضرب الدراهم، وكانت قيمتها أقلّ من قيمة الدراهم السابقة. وكلما كانت نسبة الفضة تنخفض، كان سعر الدينار يرتفع. وفي هذه الحقبة كانت البلاد المشرقيّة أغنى بالفضة من مصر، لأنه كان فيها مخزون يعود إلى أيام الغزو المغوليّ، ولوجود كنوز من عملة البندقيّة من زمن الصليبيّين على طول الساحل المشرقيّ. كان حجم دراهم السلطان شيخ أقل من الوزن الشرعيّ على الرغم من أن نسبة المزيج كانت صحيحة. وكلّ الدراهم التي تلت ذلك، كان مزيجها حسناً، ما عدا دراهم السلطان قانصوه الغوريّ التي افتقرت إلى حسن المزيج والى الوزن الصحيح. وبعكس مصر، كانت دراهم المشرق سيئة المزيج والوزن.

وعلى الرغم من أن عدد الدراهم الصادرة قد خفّ، فإنّ ضربها لم يتوقّف أبدًا.

بالنسبة إلى الفلوس، كان النحاس يستورد فقط من أوروبا. وكانت كميات النحاس المستوردة لا يُستهان بها في أواخر القرون الوسطى. ولقد كثرت العملة النحاسية، الفلوس، مما أدّى إلى تضخّم حقيقي ولّد أزمة اقتصادية في مطلع القرن الرابع عشر. في ما بعد، وعلى عهد خلفاء محمد بن قلاوون، ازداد حجم الفلوس الجارية وبالتالي التضخم.

وبينما كان سعر النحاس مرتفعًا في القرن الرابع عشر، كان منخفضًا في القرن الخامس عشر.

في نهاية القرون الوسطى، افتقر الشرق الأوسط، وذلك نتيجة الاكتشافات البرتغاليّة من جهة، وكثرة مصاريف المماليك وانهيار سعر صرف العملة من جهة أخرى.

تدهور سعر صرف العملة انعكس على الطبقات الوسطى والفقيرة في المجتمع، التي ازداد فقرها، بينما التّجار، كالعادة، أفادوا من هذه التقلّبات النقديّة. وفي معرض كلام «ابن إياس» على العام 1475م يُذكر أن السلطان سكّ عملة نحاسيّة جديدة وكان سعر صرفها 36 بالرطل، بينما كان سابقاً 24 بالرطل ما أدّى إلى تكبيد الناس خسارة توازي الثلث.

ب - الزراعة

تتميّز الحياة الريفيّة خصوصاً، والحياة الزراعيّة عموماً، في المشرق. بقِدَمِها.

فما زُرع أيام المماليك، وحتى في العصور الحديثة، كان يزرع في العصور القديمة أيضاً. ووسائل الزراعة هي هي، ومَنْ يراجع ما كُتب عن الزراعة «النبطيّة» يرَ أن الأمور لم تتغير من العصور القديمة حتى دخول مزروعات وتقنيّات جديدة إلى المنطقة في أواسط القرن العشرين عموماً.

1 - المزروعات

والمزروعات التي يرد ذكرها هي:

العنب، والزيتون والتين والتوت وقصب السكر (على سواحل لبنان وسورية وفلسطين الحاليّة).

وإذا كانت حياكة الثياب القطنيّة قائمة، فلا ندري إذا كانت زراعة القطن قائمة. أم كان يؤتى بالقطن من بلدان أُخَر.

ومن أفضل الوصف وأشمله عن الزراعة الشاميّة، ما نجده عند ابن فضل الله العمريّ، في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلاديّ، حيث يقول:

«قلت: وأما «الشام» فيزرع غالبه على المطر، وهو من جميع ما ذكر في مصر من الحبوب. ومنه ما هو على سقي الأنهار، وهو قليل.

وبها أنواع الأشجار وأجناس الثمار من التين، والعنب، والرمان، والسفرجل والتفاح، والكمثرى، والأجاص، والقراصيا، والتوت، والفرصاد، والمشمش، والزعرور، والخوخ - وهو المسمّى عندهم الدراقن - وأجلّها بدمشق من غالب ذلك على أنواع منوّعة وأجناس متعدّدة شتى. ومنها فواكه تأتي في الخريف وتبقى إلى الربيع كالسفرجل، والتفاح، والرمّان، والعنب.

وبها الجوز، واللوز، والفستق والبندق.

وبها الليمون، والأترج، والنارنج، والكبّاد، والموز، وقصب السكر من أغوارها يحمل إليها من نحو يومين وأزيد.

وبها البطيخ الأصفر والأخضر على أنواع، والخيار، والقثاء، واليقطين، واللفت، والجزر، والقنبيط، والهليون، والباذنجان، والملوخية، والبقلة اليمانيّة، والرِجلة، وغير ذلك من أنواع الخضراوات المأكولة...

وبها العسل متوسّط، ويعمل بها السكر ومنه المكرّر وهو بأزيد من سعره بمصر ولا يكثر.

وبها أنواع الرياحين: الآس، والورد، والبنفسج، والنيلوفر، والخلاف، والنرجس، والمنثور، والياسمين، والترنجان، والمزدنجوس، والنمام، والنسرين. والى وردها وبنفسجها النهاية، حتى أنه عطّل وردها، وما يستخرج من مائه ما كان يذكر من جوري نصيبين. وماء الورد ينقل إلى غالب البلاد.

وبالشام الزيتون الكثير، ومنه يُحمل إلى كثير من البلاد. وبها أشياء كثيرة خاصة بها...».

2 - التقنيّات الزراعيّة

تقنيّات العمل في الزراعة لم تكن مختلفة كثيراً عن تلك التي لا تزال قائمة في بعض مناطق لبنان وسورية وفلسطين. فالمحراث كان آلة الفلاح الأولى.

الثيران كانت تربّى للفلاحة.

ولا نجد معلومات مهمّة عن طريقة تسميد الأرض، على الرغم من أنّ فنّ التسميد كان معروفاً منذ القرن العاشر في البلاد الإسلاميّة. فسماد الطروش هو أفضل أنواع السماد.

واعتمد تجفيف المستنقعات للمساهمة في إحياء الزراعة. ويبدو أنّ نائب دمشق الشهير تنكز عمد إلى تجفيف المستنقعات بين كرك نوح وعنجر وإلى زراعة الأرض المجفّفة.

وللتعرّف إلى أحد وجوه هذه التقنيّات الزراعيّة، يمكن الرجوع إلى نصّ للنويريّ يتكلم فيه على الأراضي الخراجيّة في المشرق، يرشدنا إلى معلومات مهمّة جدّاً هي الآتية:

الزراعة في بلاد الشام مرتبطة بهطول الأمطار. فبعد هطولها في فصل الخريف، تفلح الأرض وتبذر الحبوب، ثم تعاود فلاحة الأرض للمرة الثانية لإخفاء الحبوب عن الطيور. ويبقى الحبّ

في التراب إلى أن ينبت في مطلع الربيع، وينمو مع مياه الأمطار إلى شهر نيسان، حيث يتلقى آخر الأمطار قبل أن يعقد الحَبّ.

من عادة الفلاحين في المشرق اعتماد نظام الدورة الزراعيّة، بحيث يزرع قسم من الأرض سنة، ثم يرتاح في العام المقبل، لكي تختزن الأرض المواد العضوية الضروريّة للموسم الثاني، يكون الإنتاج أكبر.

ولا تعتمد كل أراضي المشرق فقط على الري بواسطة الأمطار، بل تستعمل مياه الينابيع والأنهار في حال وجودها، لأن ذلك يعطي محاصيل أوفر من الأرض البعليّة ويكون ثمن الأرض المرويّة أعلى من ثمن الأرض البعل.

وكان مباشرو الدولة المكلفون جمع الخراج، يعملون على إلزام أناس زراعة الأرض، في زراعة شتويّة أو صيفيّة. فالشتويّة تنتج ما لا تزال تنتجه حتى اليوم من قمح وشعير وحبوب، والصيفيّة تنتج الخضراوات والذرة والأرز والسمسم والقطن وغيره. ويدوّن المباشر ما يطلب من الفلاح زراعته، فإذا توانى عن ذلك، كان عليه دفع ما كان يُفترض به أن ينتجه.

وعندما ينضج الموسم تبدأ مراقبته من قبل وكلاء المباشرين، لئلا يعمد الفلاح إلى تهريب إنتاجه، وبعد الحصاد ينقل الموسم إلى البيادر فيحفظ فيها ويدرس ويذرّى فيوضع الحبّ على حدة والقشور على حدة، فيأتي المباشر لتحديد الضريبة.

وكانت نسبة الضريبة بالشكل الآتي:

- النصف في الأراضي المرويّة.
- الثلث أو الربع في غالب البلاد.
- الخمس أو السدس في الأرض الخالية من السكان ويزرعها مستكرون.
- السبع أو الثمن في النواحي القريبة من السواحل والقريبة من بلاد العدوّ.

وبعد تحصيل الضريبة اللازمة، يتأكّد المباشرون من عدم وجود محاصيل متأخرة، لأن في هذا الحال يُجبى ما يتوجب للديوان.

وفي بعض النواحي يؤخذ من الفلاح بعد الرسوم عشر ما بقي له. ولا يؤخذ العشر من الأوقاف وجهات البرّ.

وفي الأراضي المقطّعة وأراضي الخاص يؤخذ مما بقي للفلاح جزء من عشرة.

وفي بعض الأقاليم لا يؤخذ العُشر من الذميّين.

وإذا كانت الأرض إقطاعاً أو ملكاً عشرياً للديوان، تؤخذ ضريبة سنويّة مقطوعة، بقطع النظر عن الإنتاج، أو أن بعضها يقدّر إنتاجه ويؤخذ منه العشر قبل الإنتاج ثم يُحصّل ما تبقى في ذمّة الفلاح من قروض وغيرها.

ولكيل الموسم كان يعتمد على الكيل المعروف في المنطقة.

ولم تكن قسمة الموسم تتمّ بصورة اعتباطيّة، بل بموجب أوراق ثبوتيّة.

ويلفت النصّ النظر إلى وجود أراضٍ في المشرق كانت تؤجّر لقاء شيء معلوم، وخصوصًا في البلاد الساحليّة.

وتدفع البساتين خراجها عيناً. وتعدّ الخدم من الخراج، وكذلك مقرّر القصب والبريد، كما تعدّ الأحكار أرض خراج.

3 - المواشي والوحوش والطيور

في المشرق جميع ما تقدّم من مواشي مصر من الإبل والبقر والغنم والخيل والبغال والحمير، إلا أن أبقاره لا تبلغ في العظم مبلغ أبقار مصر، وأغنامه لا تبلغ في طيبة اللحم مبلغ أغنامها، وحميره لم تبلغ في الفراهة مبلغ حميرها.

وأمّا وحوشه، ففيه الغزلان والأرانب والأسود وكثير من أنواع الوحوش المختلفة مما لا يوجد مثله في مصر.

وأمّا طيوره، ففيه الإوز والدجاج والحمام وأنواع طيور الماء المختلفة الأنواع، ولا تكون الفراريج فيها إلا بحضانة ولا تنجع فيها المعامل التي تعمل لإخراج الفراريج في مصر.

وضمن هذه الحيوانات المذكورة أعلاه، كان الماعز بكثرة في المناطق الريفيّة.

الأسد كان لا يزال موجوداً في منطقة الغرب، الواقعة قرب مدينة بيروت، وحكماً في براري المشرق. وكذلك الدبّ. فحرائق، العام 1356 م قضت على النمر والدب والثعلب والخنزير البرّي في السواحل من طرابلس إلى بيروت.

ولقد كان لتربية العسل، دور مهم في حياة المواطنين.

تربية دود القزّ، كانت منتشرة في بعض نواحي سواحل المشرق عمومًا.

كانت المناطق الشماليّة البحريّة من المشرق، مشهورة بمصايدها وملاحاتها. كذلك المصايد التي في الشطر الغربيّ من نهر العاصي.

4 - الأوزان والمكاييل

إنّ معاملة دمشق هي نظير معاملة مصر في الأوزان «خلا أنّ الصنجة تتفاوت فتنقص كل مائة مثقال شامي مثقالًا وربعًا في مصر، وكذلك الدراهم (كل مائة درهم درهم). والرطل إثنا عشر أوقيّة، الأوقية خمسون درهمًا فيكون الرطل ستمائة درهم».

وأما في مصر، التي تشابه، إذاً معاملتها دمشق، فالأوزان هي بالشكل الآتي:

«الإردب وهو ست ويبات، الويبة أربعة أرباع، الربع أربعة أقداح، القدح مائتان وإثنان وثلاثون درهماً... «.

وتستعمل الغرارة للغلّات، وهي: «إثنا عشر كيلا، كل كيل ستة أمداد، المدّ ينقص قليلاً عن الربع المصريّ. ونسبة ما بين الغرارة والإردب أن كل غرارة ومدّ ونصف ثلاثة أرادب بالمصريّ تحريرًا. وفي برّ دمشق ربما زاد الرطل والغرارة على الدمشقيّ حتى يكثر تفاوت ما بينهما لعظم زيادة بعض المواضع. ولكن كيل دمشق ورطلها هو المعتبر وإليه المرجع.

وأما حلب وحماه وحمص فأرطالها أزيد من الدمشقيّ، ولا تعرف الغرائر وإنما تعرف المكاكيك وتختلف زيادة بعضها على بعضها الآخر، منها ما هو معتدل الغرارة مكوكان ونصف وما بين ذلك.

ج - الصناعة

1 - الصناعات والحرف

لا تذكر النصوص العائدة إلى عهد المماليك سوى اسم عدد قليل من الصناعات، كصناعة السكّر وصناعة الأسطول الحربيّ ودبغ الجلود، والحدادة، والحرير، وصناعة الصابون، ومعاصر وطواحين للإنتاج الزراعيّ.

ونظراً إلى كثرة إنتاج قصب السكّر، ازدهرت في طرابلس وصور صناعة السكّر.

أما الصناعة الحربيّة، فقد جاءت وليدة سياسة دفاعية، فرضتها هجمة الفرنج على السواحل المملوكيّة. ومن الصناعات الأُخَر: صناعة الزيتون وبالتالي صناعة الصابون، كما نرجّح وجود صناعة لماء الزهر والحلويات والمربّيات المتعدّدة وصناعة الذهب والنحاس.

صناعة الحرير، كانت متوافرة نظرًا إلى وجود أشجار التوت. ويذكر المقريزيّ أنّه كان في طرابلس أربعة آلاف نول. والمقريزيّ يشير إلى كون قيسرية بيبرس الثاني في القاهرة التي كانت تضم إنتاج بلاد الشام تبدو فارغة. ولا ندري ما إذا كان ذلك ينطبق على القرن الرابع عشر.

في العام 1422م زار «بولونير» طرابلس فوجد في المدينة ألفًا ومئتي حائك. كما تذكر النصوص وجود سوق للبزّ في نيابة طرابلس في قرية حصن الأكراد.

وبسبب ازدهار هذه الصناعة، تحوّل خان الخياطين إلى خان الحريريّين. كذلك ازدهرت معاصر الزيت والعنب.

2 - التنظيم الحرفيّ

أدّت الطوائف الحرفيّة دورًا مهمًا في المجالات الاقتصاديّة والاجتماعيّة والإداريّة في المشرق، في العهد العثمانيّ، ولا ندري إذا كانت قد أدّت الدور نفسه على عهد المماليك.

ظهر حديثاً كثير من الجدل حول نشأة الطوائف الحرفيّة، وبنيتها، ودورها في التاريخ العربيّ والإسلاميّ في القرون الوسطى، نستقرئ منه أنّ التنظيم الحرفيّ كان سابقًا للعهد العثمانيّ.

د - التجارة البحريّة: الحركة التجاريّة العامة في البحر المتوسط منذ أواسط القرن الخامس عشر بعد سقوط القسطنطينيّة

بتدمير موانئ مدن الشواطئ، التي عرفت ازدهاراً كبيرًا على عهد الفرنج - الصليبيّين، تراجعت التجارة، إذا لم نقل توقّفت في فترة ما، وشذّت بيروت عن هذه القاعدة، بعدما عاد إليها النشاط في القرن الخامس عشر لتصبح مع الإسكندريّة ركيزتي التجارة البحريّة المملوكيّة.

بعد ترحيل الفرنج - الصليبيّين، اضطربت العلاقات التجاريّة مع الغرب. فوجّه هؤلاء نشاطهم إلى مرافئ مملكة كيليكيا الأرمنيّة التي كانت لا تزال مستقلة.

لكن في سنة 1347م، سقطت إياس آخر المرافئ الأرمنيّة المستقلة بيد المماليك. فاضطر الفرنج المعتادون استهلاك منتجات شرقيّة - (بهارات، الصمغ، والقماش المزيّن والحرير وغيره) - كانت تنقلها القوافل المسلمة من آسيا الوسطى، أو تلتقطها عن شواطئ الخليج الفارسيّ (العربيّ) وبحر أريتريا، للتوجّه إلى مرفأي الإسكندريّة وبيروت المسلمين.

في البدء أدّت قبرص دور صلة الوصل بين الشرق والغرب.

1 - الدول التجاريّة الأوروبيّة

من الدول التجاريّة التي أمّت المدن اللبنانيّة أو عرّجت عليها نجد: قبرص والجمهوريّات الإيطاليّة ومملكة قشتالة في أسبانية وفرنسا. ومن جمهوريّات إيطاليا ذات الصلة بشرق البحر المتوسط: البندقيّة التي ركّزت تجارتها أساساً في موانئ السلطنة المملوكيّة بعد سقوط القسطنطينيّة بيد العثمانيّين، حتى أنّها احتكرت تجارة المتوسط. وتأتي بعد البندقيّة فلورنسا بقيادة أسرة آل مديتشي منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر بعد حلولها مكان بيزا. وقد عملت هاتان الدولتان تجاريّاً بنشاط، على الرغم من تحريم البابويّة الاتّجار مع المماليك. وكان الجنويّون من المزاحمين للبنادقة وفي حرب معهم ومع شواطئ المماليك.

كان الأسبان يحصلون على حاجتهم من التوابل الشرقيّة، حتى وصول البرتغاليّين إلى الهند، من أسواق المتوسط الشرقيّة. وقد بدأوا يختطون لأنفسهم طريقًا تجاريًا مهمًّا بعد استيلائهم تدريجاً على ممالك المسلمين في الأندلس، وإنهائهم وجود هؤلاء في تلك البلاد بسقوط غرناطة في العام 1492م. وقد عانت التجارة من احتكارها زمن السلطان برسباي. فقد ألزم التجار في العام 1424م

عدم بيع بضائعهم قبل الحصول على تسعيرة يفرضها بنفسه. وفي العام 1423م فرض شراء بيع الأفاويه العائدة له. وعاد السلطان إلى سياسته الاقتصاديّة على نحو أسوأ في العام 1426م، إذ فرض على الفرنج شراء البهار (الفلفل) بالسعر الذي فرضه، وبزيادة في السعر.

وفي العام 1428م أضحى برسباي السيّد المطلق لسوق البهار فصادر كلّ ما كان يأتي منه من الهند إلى مدينة جدّة، بحيث إن ما كان يُباع بـ50 أو 80 ديناراً ارتفع سعره إلى 120 أو 130 دينارًا.. وعندما مال البنادقة إلى مقاطعة الاتّجار مع شواطئ السلطان، تراجع عن مظالمه الاقتصاديّة، فاستعاد البنادقة تجارتهم شيئًا فشيئًا. ولكن سرعان ما عاد برسباي إلى سياسة الاحتكار، والبيع بالإكراه، وسجن الفرنج، ما أعاق الحركة التجاريّة وجمّدها حتى وفاته في العام 841هـ/ 1437م.

بعد برسباي احتكرت البندقيّة تجارة القطن المستورد من بيروت والإسكندريّة لحاجتها إليه في صناعتها. وبمقابل الإجراءات السلبيّة التي اعتمدها برسباي عمد السلطان أينال (1453 - 1460 م) إلى إصدار عدد من القوانين الاقتصاديّة المهمة، منها، مثلًا، محاربة تزوير العملة. كما عمد إلى مساندة الموالين له في جزيرة قبرص. واستمرّ خشقدم (1461 - 1467 م) في سياسة أينال تجاه قبرص، وكذلك فعل قايتباي (1468 - 1496 م). وعندما وصل قانصوه الغوريّ إلى السلطة كانت السلطنة في قمة العجز، وخصوصًا على الصعيد الاقتصاديّ. ولحلّ مشكلة إفلاس الخزينة، لجأ الغوريّ إلى جمع الضرائب بوسائل شتى.

كان لسقوط القسطنطينيّة أثره في تدفّق الأعداد الضخمة من التّجار الأجانب إلى شواطئ المماليك، وقد عمد السلطان أينال إلى زيادة الإعفاءات الممنوحة لهم، وتوسيع وكالاتهم وتجديدها، وإنشاء المصارف والمخازن والفنادق. كما أجاز تعيين وكلاء لقناصلهم في بعض المرافق والموانئ. وكان التّجار المُبعَدون من القسطنطينيّة يفضلون موانئ النيابات الشاميّة لقربها من مراكز التجارة في وسط آسيا وآسيا الصغرى والخليج الفارسيّ.

منذ عهد أينال، بدأت وفود الجمهوريّات الإيطاليّة تصل إلى مصر لتدعيم مراكزها التجاريّة وحذت حذوها فرنسا وكاتالونيا.

طبعاً، كانت للبندقيّة حصة الأسد في هذه التجارة. وقد عمدت إلى تنظيم رحلات لسفنها التجاريّة القاصدة موانئ بيروت وصيدا والإسكندريّة.

حتى عهد السلطان أينال ظلّت جزيرة قبرص محطًا بحرياً على الطرق التجاريّة بين شرق البحر المتوسط وغربه، بل إنّها كانت تستخدم في كثير من الحالات مركزًا احتياطيًا تبقى فيه السفن التجاريّة في فترات النزاع بين الأجانب والسلطات المملوكيّة في مصر والشام، واستمرّت منذ العام 1453م تتاجر مع موانئ المتوسط الشرقيّ. ومع أن الجزيرة كانت تخضع سياسيّاً وحربيّاً وتجاريّاً لسلطة المماليك، إلا أنّ الإدارة الماليّة فيها كانت لمصرف «سان جورج» الجنويّ، إلى أن استولى الملك «جيمس الثاني»، على السلطة، فاستردّ الإشراف الفعلي ماليًا وتجاريّاً.

على عهد السلطان قايتباي، وبسبب الحروب على الحدود الشماليّة بين المماليك والعثمانيّين، ازدادت نفقات الدولة المملوكيّة، فعمد السلطان المذكور أعلاه إلى احتكار التجارة في بعض أنواع المتاجر الشرقيّة في العام 1480م، وخصوصًا في التوابل المعروفة بالشريفة، وبالسعر الذي حدّده، وفي الوقت نفسه أطلق حرية البيع والشراء في التوابل الأُخَر. إضافة إلى الاحتكار، كان التّجار يعانون الغشّ في التوابل والمعادن الثمينة والمخمل والأجواخ.

كان التّجار يعانون مشكلات عدّة في النيابات الشاميّة تتعلق بمرور التجارة من الموانئ الساحليّة إلى الداخل. فالبنادقة يدفعون رسوماً معيّنة للسلطات المحليّة على مرور متاجرهم من موانئ الشاطئ، ويحصل نائب دمشق على جزء من هذه الرسوم. وسلطات كل ميناء تحرّم التعامل مع السفن التي تُفرغ حمولتها في الميناء الآخر، ومثلاً على ذلك، ما جرى في العام 1473م، عندما أنزل قنصل البندقيّة في دمشق حمولة من الأصواف والأقمشة في ميناء طرابلس، فغضب أمير بيروت ونائب دمشق لهذا التصرّف.

في العام 1499م وصلت بعض السفن من البندقيّة إلى طرابلس، وأنزلت بها سلعًا بلغت رسوم جماركها عشرة آلاف دوكا فقط، فغضب نائب الشام «قصروه» لأنّه كان ينتظر إفراغ الحمولة في بيروت، ميناء نيابته، وقبض على التّجار وفرض عليهم غرامات ضخمة.

وللتخلّص من هذه الإجراءات التعسفية عمدت البندقيّة، بالتفاهم مع ملك قبرص الذي كان قد بدأ يتملّص من سيطرة المماليك، مبقياً على التبعيّة الشكلية وعلى الجزية، إلى أن جعل قبرص محطة لقوافل تجارتها إلى سواحل المماليك والعثمانيّين، ثمّ في العام 1489م حوّلت الجزيرة إلى إشرافها المباشر، مبقية على إرسال الجزية إلى سلاطين القاهرة بطريقة منتظمة.

وكان ينافس البنادقة على التمتع بثقة المماليك، القوة الإيطاليّة الجديدة في فلورنسا، التي كانت ترسل دوريّاً سفارات لها إلى القاهرة للحصول على امتيازات جديدة، وقد أقرّ السلطان في العام 1488 م تداول «الفرنتي» عملة فلورنسا، في مصر والشام.

ومع أن العلاقات بين السلطان قايتباي والتّجار الأجانب من الطوائف كافة كانت طيّبة، فإنّها لم تكن كذلك مع القطالنة (الكتلان) على الرغم مما تمتعت به طائفتهم من رعاية على عهد السلاطين أينال وأحمد وخشقدم، بسبب خطف قراصنتهم بعض البحّارة المسلمين في العام 1470م، ثمّ استيلاء بلادهم على غرناطة ولم تُصلح الأمور بينهم إلا على عهد السلطان الغوريّ في العام 1502م.

ومع اكتشاف طريق جديدة للهند على يد البرتغاليّين، اهتزّت التجارة في السلطنة المملوكيّة، وعمد السلطان الغوريّ إلى احتكار تجارة التوابل والسلع الشرقيّة وقصر شحنها على ميناء الإسكندريّة دون الموانئ الأُخَر، وخصص أسواق الشام للسلع الواردة من وسط آسيا.

وقد عمد البنادقة إلى الاتصال بقانصوه الغوريّ لإقناعه بمدى خطورة وصول البرتغاليّين إلى الهند، والطلب منه مقاومة البرتغاليّين عسكريّا. وهذا ما كان، إذ عمد الغوريّ إلى إنزال أسطوله البحريّ في البحر الأحمر لمجابهة سفن البرتغاليّين وتمكّن من الانتصار عليهم في العام 1508 م. ولكن هذا النصر لم يدم طويلًا، إذ استعاد البرتغاليّون هيمنتهم على مياه بحر الهند في 3 شباط 1509م.

هذه العلاقات المتأرجحة، بين المماليك والدول الأوروبيّة، وخصوصاً البندقيّة، آلت في العام 1512 م إلى توقيع معاهدة بين المماليك والبنادقة عرفت بالمعاهدة الشاملة، وهي من أهم المعاهدات المعقودة بينهما. وحصلت البندقيّة لتجارها، بنتيجة هذه المعاهدة، على أوامر وتعليمات لعمّال السلطان فى الموانئ والمدن لراحة تجارها. كما حصلوا على اتفاقيّة بالتجارة في طرابلس وحلب.

2 - خطوط التجارة

كانت تجارة الهند عبر السلطنة المملوكيّة، تتم عبر طرق عدّة، إحداها ينطلق من الصين - الهند - إلى الخليج العربيّ فمدينة مكة المكرّمة، حيث يتفرّع إلى ديار بكر والى دمشق ومنها إلى موانئ ساحل المتوسط، وقد استعملت هذه الطريق على نحو خاص منذ القرن الرابع عشر، وتخصّصت هذه الطريق التي تمرّ بدمشق بتجارة المواد المرتفعة الثمن. وطريق أخرى من الشرق الأقصى إلى

البحر الأحمر ومنه إلى مصر والى ساحل البحر المتوسط. وكانت أهمّ مراكزها، في النيابات الشاميّة: في دمشق وبيروت وحلب.

وعلى ساحل شرق البحر المتوسط، تنتهي الطرق البريّة والتجاريّة الآتية من الشرق الأقصى ومن الخليج العربيّ ومن البحر الأحمر، في الفرع الممتدّ بين خليج العقبة عبر سيناء إلى المشرق، والفرع الآتي من آسيا الصغرى والفرع الآتي من أوروبا برّاً ثم الطريق البحريّة الرئيسة من غرب أوروبا وإيطاليا. وقد اعتاد الأوروبيّون منذ الحروب الفرنجيّة - الصليبيّة الحصول على أغلبية طلباتهم التجاريّة من السلع الشرقيّة من مدن الشام وموانئها، وكثر ورودهم في القرن الخامس عشر بعد سقوط القسطنطينيّة في العام 1453 م.

3 - أبرز الصادرات من المواد التجاريّة

القطن - الثلج (وكان الثلج يُجمع، من الجبال اللبنانيّة، ويرسل إلى قصور السلاطين في مصر لتبريد المياه) - الصابون والزيت والكرو - البوطاس - أملاح الكي والسود - السكّر - الرماد القلي الذي كان يستعمل في صناعة الصابون والزجاج. وكان الرماد المشرقيّ أفضل من ذلك الموجود في الإسكندريّة.

4 - ازدهار بيروت

لاحظ الرحّالة الذين مرّوا في بيروت أنّها مدينة صغيرة الحجم، ولكن بعض الدراسات الحديثة حاولت الخروج من هذه الصورة بتحليل هذا الكلام بمنطق آخر مركّزة على ازدهار المدينة، ولكن المعلومات المتوفرة لا تتكلم على كثرة الخانات والحمّامات والأسواق والقصور والقلاع والأبراج كما في طرابلس مثلاً، فالعدد منها بالمفرد، وهذا لا ينبئ عن توسّع في المدينة كما هو شأن طرابلس، كما أنّ الجامع الكبير والمساجد لا تنبئ عن حجم المدينة، لأنّها كانت من زمن الفرنج ورمّمت. ولذلك فالكلام على ازدهار فائق، مبالغ فيه. هناك ازدهار ولكن ليس بالكبير، ولو كان الازدهار بحجم لافت للنظر، لكثرت المدارس. فلا نكاد نجد في المدينة مدرسة قديمة، وأخرى جديدة بناها الأمراء من بني الحمرا بعد عملية تخريب لأحد معالم المدينة، ولا تسجّل الحوليّات المملوكيّة مدرّسين مشهورين في بيروت.

الكلام على وجود حمّام عتيق وحمّام جديد يثير إشكالاً حول احتمال الخدمة في الحمّامين معاً.

وإذا اعتبرنا أنّ الحمّامين يشتغلان، واستناداً إلى تقديرنا عن طرابلس أنّ الحمّام فيها يستوعب أقلّ من 3000 نسمة، فيكون سكان بيروت لم يتجاوزوا 6000 نسمة، وبما أنّ بيروت هي أصغر بكثير من طرابلس، فتقديرنا أنّ حمّاماتها كانت أصغر، وبذلك لا يمكن أن يكون سكان بيروت قد تجاوزوا 5000 نسمة، مع كلّ التفاؤل المطلوب. وهذا يُعيدنا إلى ضرورة عدم المغالاة في تقديرنا لازدهار المدينة، وكأنّها مدينة كبيرة، فهي أشبه ببلدة منها بمدينة.

كان عدد التجار البنادقة شبه المقيمين في بيروت أربعة في العام 1419م، وسبعة جنويّين ثم تضاءل عدد الأخيرين بعد هذا التاريخ، وبلغ عدد البنادقة سبعة بين 1482 - 1486م، وستة في طرابلس في هذا التاريخ. أمّا التجار الكاتالونيّون فيبدو وجودهم ضئيلًا جدًّا، ولكّن هذه الأرقام ترتفع إبّان الرحلات التجاريّة، بحيث نجد 45 تاجرًا بندقيّاً في العام 1366م، على الرغم من الحالة السياسيّة المتوتّرة بين المماليك والبنادقة في العام 1366م، إثر غزوة الإسكندريّة، وكان لهذه الجاليات قناصل أو ممثّل للقنصل المقيم في دمشق.

كان التّجار البنادقة يدفعون رسميّاً مكسًا يوازي 10% على الصادر والوارد في القرن الرابع عشر، وحتى أواخر القرن الخامس عشر. وكذلك غالبيّة الجاليات التجاريّة.

ولا شيء يحول دون الظنّ بأن المسيحيّين سكنوا بيروت أيضاً.

فالسيد D'Aramon يذكر أنّه كانت توجد كنيسة في بيروت في القرن الخامس عشر يخدمها الروم. هكذا، ستتخذ بيروت الشكل الذي ستحافظ عليه حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلاديّ، مدينة مسلمة مع أقليّة مسيحيّة من الروم، لأنّ المماليك لم يكونوا متحمّسين لسكن المسيحيّين المحليّين فيها بسبب علاقتهم بالغرب.

في مطلع القرن السادس عشر الميلاديّ كان المسلمون كثراً في بيروت. وكان للأوروبيّين كنائس، مخازن ومكاتب تجاريّة؛ وكان للمرسلين الفرنسيسكان كنيسة ودير. فالفرنسيسكان عادوا إلى بيروت في العام 1335م ورمّموا ديرهم، وكانوا يؤمّنون الخدمة الدينيّة داخل المدينة في كنيسة المخلص (جامع الأمير منصور بن عساف) في طابق العقد. وكان الموارنة يحتفلون بالقداس في أقبية الكنيسة. وكانت توجد في بيروت كنيسة على اسم مار نقولا، يفترض أن تكون للروم الأرثوذكس.

كان يوجد في بيروت سوق للنبيذ ومشتقات العنب ويستهلك من السكان المسيحيّين المحليّين، وقسم منه يصدّر للخارج.

في عهد السلطان برقوق، كانت العائدات الجمركيّة موزّعة بين نائب دمشق وكاتب سر السلطنة وناظر الجيش في مصر، لاحقًا، 3/2 الحاصل كان يذهب إلى المباشرين في دمشق ومصر.

يبدو أنّ جمرك بيروت كان تحت رحمة مزاج السلطان ونائبه في دمشق، الذي عمد إلى إقطاع مرفأ بيروت.

5 - دول التجارة الأوروبيّة

الأمم المتاجرة مع الشرق، وخصوصاً البندقيّة، اتخذت موطأ قدم لها فيه قبل سقوط الساحل، وعلى الرغم من تحذير الكنيسة من التجارة مع المسلمين، ولا سيّما تجارة الخشب والحديد لإضعاف قدرات المماليك العسكريّة البحريّة من جهة، وإضعاف دولتهم اقتصادياً من جهة أخرى، من حيث إن خزنتها كانت تتغذى من تجارة الموانئ.

في أوّل الأمر تضايقت التجارة من نواهي البابوات، ولكن بالتدريج تمكنت الدول المتاجرة من الحصول على أذونات مدّة محدودة. وفي العام 1364م ازدادت الأذونات.

منذ نهاية القرن الرابع عشر الميلاديّ، نظّمت البندقيّة خدمة ملاحيّة منتظمة مع بيروت. حملت تسمية «سفن بيروت» Galee de Baruti. حوالى العام 1440م، تبحر بين 8 و25 آب. وفي العام 1500م جرى تقريب الموعد بحيث تنطلق السفن بين 15 نيسان و15 أيار. وكلّ موكب يضم ثلاثاً إلى أربع سفن، وأحيانا أكثر، ونادراً أقلّ من ذلك. وهناك إبحارات أُخَر في شهر كانون الثاني، وتحمل تسمية «سفن سورية» Navi di Soria التي كانت من دون شكّ ترسو مرّات عدّة في موانئ المشرق. وفي شهر حزيران هناك موكب آخر خاص بتجارة القطن؛ وفي الخريف موكب آخر Galee di traffico يتجه إلى بيروت وطرابلس.

يختلف مؤرخو التجارة المتوسطيّة في الرأي حول مواقيتها. فبالنسبة إلى جاك هيرس، كان يوجد نوعان من السفن التي تؤمن هذه التجارة في القرن الخامس عشر الميلاديّ: فالبندقيّة وفلورنسا تستعملان سفناً تدعى Galeazza ،Galee «غاليه، غاليزيا»، وجنوى تستعمل سفناً تدعى Navi.

فالسفن البندقيّة الجديدة «غاليه» كانت أكبر وأوسع وأعلى من «الغاليريا» القديمة التي كانت تعمل في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديّ. فـ«الغاليه» الجديدة كانت تسير بشراعَيْن، وبعضها باستطاعته حمل 290 طناً بميزان اليوم. «النافي» الجنويّة كانت «النف» Nef اللاتينيّة السابقة التي حُوّلت في القرن الثالث عشر إلى مركب ضخم، بحيث إن إحدى السفن التي أبحرت من سردينيّا في العام 1465 - 1466م كانت تحمل 20000 كنتار (أي 953000 كلغ).

مؤرخ آخر يعتقد أنّ رحلة واحدة كانت تتمّ بين بيروت ومرافئ أوروبا في القرن الخامس عشر، بينما في القرن الرابع عشر كانت تتم رحلتان.

كانت البندقيّة تحتلّ المركز الأول في التجارة المتوسطية؛ فالأفاويه وخصوصًا البهار كان المادة الأكثر طلبًا عليها. وقد عانى البنادقة من احتكار السلطان برسباي ثم السلطان جقمق (1438 - 1453م) للسكّر والبهار.

بعد أخذ «فماغوستا» في العام 1373م كان الجنويّون يبحرون إلى بيروت من مرّة إلى أخرى، حتى لو كانوا يستعملون المرفأ المذكور كمحطة، فقد كانوا يحمّلون الفلفل poivre من مرافئ المشرق والقرفة cannelle والزنجبيل gingembre واللك laque (صمغ تصبغ به الجلود) والسكّر والأقمشة الحريريّة، ويأخذون حجر الشب alun والعاج. ومن المؤكد أن المرجان كان في أساس تجارتهم في المشرق. فقبرص لم تكن سوقًا للجنويّين، وحتى البنادقة كانوا يحطّون رحالهم فيها بكثرة.

التجارة الجنويّة لم تكن منتظمة شأن التجارة البندقيّة التي كانت تمارس احتكارًا على تجارة المتوسط، كما أنّ العرب كانوا يمارسون احتكارًا على التجارة من سواحل شبه الجزيرة العربيّة إلى موانئ المتوسط الشرقيّة.

الدول والأمم الأوروبيّة الأُخَر كانت تجارتها أيضاً غير منتظمة. وقد شهدت التجارة الفرنسيّة انتعاشا مع «جاك كوير» Jacques Coeur الذي أقام مكاتب لها في بيروت في العام 1432م.

ولتسهيل العمليات التجاريّة عيّن الأوروبيّون قناصل لهم في بيروت، ومنذ ذلك الزمن بدأت تتبلور قوانين ترعى المحاكم القنصليّة التي تنظر في الإشكالات بين أهل البلاد والأجانب.

التجارة البندقيّة

نجد أنّ البنادقة قد باشروا تجارتهم منذ العام 1300م.

وتسجّل الوثائق قيام رحلات سنويّة إلى سورية من العام 1305م إلى العام 1308م وفي العام 1311م وفي العام 1313م. ولكن في العام 1323م، وبتأثير من البابوات، اتخذ مجلس الشيوخ البندقيّ قراراً بتحريم التجارة مع بلاد السلطان المملوكيّ، ويبدو أنّ الحظر طال سنوات، حتى حلّت الكارثة المغوليّة بتجارة البحر الأسود فعاد البنادقة لالتماس موافقة البابا على التجارة مع موانئ المشرق في العام 1344م، وتلا ذلك توقيع معاهدة مع المماليك بعد سنة في العام 1345م، جدّدت في العام 1355م، بعد عشر سنوات على قيامها، والحصول على أذونات من قبل البابوات لفكّ الحظر استثنائياً. وفي العام 1374م، مع هيمنة جنوى على قبرص، بسيطرتها على «فماغوستا»، اضطرت البندقيّة إلى فتح بوابة أخرى لها، فوقع اختيارها على بيروت لتأمين رحلاتها المنتظمة منذ العام 1374م. تلا ذلك توقيع معاهدة مع السلطان في العام 1375م، مع امتيازات لتجّار البنادقة، وعادة كانت الرحلة تمرّ بـ «راغوز» Raguse وكورفو Corfou فجزيرة كريت وجزيرة رودوس ثمّ قبرص فبيروت. ومن الأخيرة تنطلق بعض السفن باتجاه طرابلس وغيرها، بإذن مسبق من قبل السلطة البندقيّة. وتستمرّ الإقامة في بيروت من 20 إلى 28 يومًا، أو أقلّ أو أكثر، تبعًا للوضع السياسيّ، وتستغرق الرحلة قرابة الشهرين من الوقت، ذهابًا وإيابًا، من ضمنها محطّات عدّة للاستراحة.

كانت السفن البندقيّة تحمل إلى الشرق العملة الفضيّة والذهبيّة والفضة والذهب والمعادن والخشب والأقمشة والزجاج الذي تفوّق على الزجاج الشرقيّ، والكريستال. وتختلف الحمولة تبعًا للظروف السياسيّة والعسكريّة والاقتصاديّة والأمنيّة، وخصوصًا مع تعرّض السفن لهجمات القراصنة واللصوص. ونعرف في أواخر القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر، على نحو أكثر تفصيلًا، ما كانت تحمله السفن البندقيّة المتوجهة إلى الشرق: الجوخ، والنحاس والقصدير والمرجان والعنبر، والزنجفر (cinabre)، والزئبق، والحديد، والرصاص، والفضة والفراء، والرماد. والأجواخ المذهبة والحريرية، والصرج (نسيج صوفي متين)، والورق والفراء على أنواعها، والبسط، وشبكات للتطريز عليها، وأنسجة، ومسابح، وبراميل، ومنتوجات معدنية من أسلحة وآلات حرب (merze)، وتحتل الأقمشة (الجوخ، أنسجة، والأقمشة) مركزًا مرموقًا في هذه التجارة، وهي من مختلف النماذج

والأشكال والمذهّب والحرير، وتقدّر الأجواخ المحمولة كلّ سنة إلى بيروت بـ 3000 قطعة، أي تقريبًا 394 بالة. وعلى الرغم من أنّ الأجواخ كانت تصنّع في الشرق، وخصوصاً في دمشق، فالأجواخ البندقيّة الفخمة كانت تلقى رواجًا أكبر عند الأمراء المماليك، والعاديّة عند عامة الناس، بعد التحسينات التقنيّة التي أدخلت على الصناعة في أوروبا، فزادت النوعيّة والكميّة، ما ساهم في رخص الأجواخ البندقيّة التي زاحمت بسهولة الإنتاج الشرقيّ الذي كان يعاني سوء الإدارة الرسميّة المملوكيّة، ما ولدّ تراجعًا مخيفًا في الإنتاج.

كانت تشحن من بيروت الأفاويه والتوابل الآتية إلى البندقيّة: الفلفل (البهار)، الزنجبيل، القرنفل وكبش القرنفل، جوز الطيب، السكر، القرفة، خشب الصندل (santal)، الهال، النيلة، البسباسة وهي القشرة الداخلية في جوزة الطيب (macis)، الحفص، صمغ اللاك (la laque)، البخور، المرّ، محلول النشادر، الحلبانية (galbanum). المكر أو الالوه (aloes)، حبّ النيل (scamonée)، حلتيت (assa - foetida). استرق (styrax)، الكافور، الخلنجان (galanga)، الخزامى، المنّ، الراوند، الزدوار أو الزرنباد (zédoire)، تربيد وهو نبتة مطهرة (turbith)، الازخير (squinante)، كزبرة البير، خشب البكم في تلوين الجلود والأقمشة (bois de bresil). النيل، الابنوس، دودة القرمز (cremex)، البورك (borax)، رهج أصفر (orpiment)، اللؤلؤ، الألماس، الياقوت، الزبيب، الشراب، حبّ العروس (cubèbe)، الحرير، الشملة وهي على نوعين: تلك المصنوعة من وبر الجمال وتلك المصنوعة من شعر الماعز، bocassino وهي مجرد قماش من الكتان اللمّاع يغش النظر كما ولو أنّه الحرير وكان يصنع في المشرق وخصوصاً في بعلبك، الكتان، السكر، القمح.

المواد الأكثر طلبًا عليها هي الفلفل والزنجبيل طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وتراجع ذلك في القرن السادس عشر بسبب هيمنة البرتغاليّين على تجارة المحيط الهنديّ، بعد اكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح.

يأتي الحرير والأنسجة بالدرجة الثانية بعد الأفاويه. وفي نهاية القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر سيحتل الحرير المركز الأول في تصدير الأقمشة.

1 - التجارة الجنويّة

كانت السفن الجنويّة تحمل إلى بيروت الأقمشة على مختلف الأنواع وخصوصًا (draps et toile)، وهي الوارد الأهمّ الذي يتجاوز 60% يلي ذلك المرجان واللوز والرصاص والقصدير والذهب

والعملة والجلود. وكانت الأقمشة الصوفيّة الفلورنسيّة تنتشر بكثرة. وفي المقابل كانت السفن الجنويّة تشحن من بيروت غالبيّة المواد التي كان يشحنها البنادقة، ولكن في العام 1377م وخلال العام 1380م كانت الصادرات من بيروت لغايات صناعيّة، خصوصاً من إنتاج القطن والأقمشة والسكر، أو ما يوجد في سوق بيروت من alun أكثر من الأفاويه، ومنذ العام 1390م وحتى بداية القرن الخامس عشر ازداد نشاط جنوى في مرفأ بيروت وازداد الطلب على الفلفل والزنجبيل، بحيث كان يشحن ما بين 20 و50 طناً وهي كميات متواضعة قياساً بما كان يشحنه البنادقة.

وفي القرن الخامس عشر عرفت تجارة جنوى مع المشرق انحطاطًا كبيرًا نتيجة عدم وجود أسواق لبيع الأفاويه أمام جنوى في أوروبا، وتراجع تجارة الرقيق والخشب بعدما تمكّن المسلمون من تأمين ذلك مباشرة، ونتيجة السياسة العدوانيّة التي انتهجها الجنويّون تجاه المماليك. وعلى الرغم من هذا الانحطاط في العلاقات التجاريّة لم تنعدم حركة الاتجار، بحيث كانت تؤم مدن لبنان سفينة أو سفينتان، وكان الجنويّون يقايضون الأقمشة والمرجان بالأفاويه. ففي العام 1417م أرسلت 7 علب مرجان بقيمة 1200 دوكا من الجنويّين في رودوس على متن سفينة متّجهة إلى بيروت، وبيعت لتاجر بندقيّ مقابل شراء الأفاويه.

2 - التجارة الكاتالونيّة

منذ العام 1380م استعاد الكاتالونيّون تجارتهم مع المشرق، وخصوصًا مع بيروت، ولكن حجم التبادل تراجع في القرن الخامس عشر. بدأت التجارة، التي لم تتجاوز السفينتين أو السفينة الواحدة، بمحاولة فكّ الحرم البابويّ على التجارة مع المشرق، ونجح ذلك، كما رأينا، بالنسبة إلى البندقيّة بعد إغلاق طرق الداخل الآسيوي بسبب الوجود المغوليّ، فأعطي للكاتالونيّين كما للبنادقة أذونات منذ العام 1344م. وكان الزعفران في طليعة المواد التي تاجر بها الكاتالونيّون، إذ بلغت النسبة ما يزيد على نصف الواردات. وقد استورد الزيت على الرغم من إنتاجه المحليّ بوفرة لمصلحة الطبقات المملوكيّة العليا لجودته. ويبدو أنّ العسل، على الرغم من وفرة إنتاجه محليّاً أيضاً، كان يستورد عندما تكون مواسمه في الشرق سيئة. واستورد أيضاً اللوز والرصاص والفضة، وكانت هذه المواد تستغل للمبادلة بالأفاويه، وخصوصًا الفلفل والسكّر، ويلاحظ غياب الأقمشة الكاتالونيّة في مطلع القرن الرابع عشر. ولم تستفد التجارة الكاتالونيّة، من زيادة حجم المبادلات وعدد الرحلات، إلا إبّان انشغال البنادقة والجنويّين بالحرب في ما بينهم (1378 - 1381م). وطوال السنوات 1394 - 1408م

أمّت مرفأ بيروت 224 سفينة آتية من كاتالونيا (برشلونة ومايوركا). ففي نهاية القرن الرابع عشر والعشر الأول من القرن الخامس عشر شهدت التجارة الكاتالونيّة أوجها مع مرفأ بيروت. كانت السفن الكاتالونيّة طوال هذه الفترة الذهبيّة تحمل إلى الشرق الأقمشة الصوفيّة المصنوعة في كاتالونيا، الزعفران، المرجان، العسل، الزبيب، اللوز، الجوز، الزجاج، وفي المقابل يشتري الكاتالونيّون الصوف والقطن والفلفل والزنجبيل وكبش القرنفل والسكر والفراء والأرز وغير ذلك، ومقابل هذا الاستيراد كانت سفن كاتالونيا تحمل من بيروت القطن الضروريّ لصناعاتها ويأتي البهار في درجة ثالثة.

إضافة إلى كاتالونيا قامت تجارة بين بربينيان وبيروت.

3 - التجارة الفلورنسيّة

كان لمدينة بيزا مع شرق البحر المتوسط تجارة مهمّة. فكان لها وكالات وفنادق في مدن المتوسط، ثم انضمت إلى فلورنسا فآلت منشآتها وتجارتها إلى الوكالة الفلورنسيّة في بلاد المماليك.

منذ مطلع القرن الرابع عشر ازدهرت في فلورنسا صناعة الأقمشة، وخصوصًا الصوفيّة، والتجارة والبنوك. ومع تطور التجارة المتوسطيّة، ولا سيما بعد العام 1370م، نشطت تجارة فلورنسا في تلك النواحي. وبسيطرة فلورنسا على بيزا وكولرتونا وليفورنو في النصف الثاني من القرن الخامس عشر أضحى لهذه الدولة مدخل إلى البحر ومساحة كبيرة. وساهم في تنشيط تجارتها بناؤها أسطولًا خاصًا بها، وإقامة رحلات تجاريّة منتظمة مع المشرق. قبل ذلك كان الفلورنسيّون يحملون إلى البندقيّة بضائعهم لبيعها في أسواق المتوسط، ويحصلون منها في المقابل على الأفاويه والحرير والصوف، وكذلك كانوا يسوّقون بضائعهم عبر الجنوييّين والبيزانيّين. وتغيّر وضع فلورنسا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر بعد توسّعها كما رأينا أعلاه. لذلك، في عهد السلطان برسباي، أبحرت سفينتان وعليها سفيران لمفاوضة السلطان في العام 1422م، ومعهما تجّار فلورنسيّون، وأقمشة، وعملة فلورنسا، لشراء الأفاويه. ونجحت السفارة بالحصول على امتيازات تجاريّة موازية لتلك التي ينعم بها البنادقة في المشرق. ولكن بسبب حروبها مع جيرانها، تراجعت تجارة فلورنسا بعد العام 1425م، لتعود في العام 1444م باتجاه الإسكندريّة، ثمّ بيروت في العام 1447م، ثم توقفت التجارة بين 1449م و1454م لأسباب حربيّة، لتعود فعلياً في العام 1465م عندما أبحرت ثلاث سفن عادت

محملة بالحرير وخشب البرازيل والفلفل والزنجبيل وكبش القرنفل والقطن والشمع والأرز، الذي كان مصدره فلسطين، والرماد والسجاد وغيرها والصمغ، ولكن السوق الأساسيّة لاستيراد الأفاويه إلى فلورنسا، كانت الإسكندريّة لا بيروت. ويلاحظ غياب السكّر عن الحمولة، لأنّ إنتاجه في النصف الثاني من القرن الخامس عشر خفّ بسبب عدم المقدرة على مزاحمة إنتاج سائر أرجاء المتوسط.

4 - تجارة جنوب فرنسا

شهدت مدن جنوب فرنسا إقبالاً على التجارة مع المشرق منذ العام 1380م، لم يكن طبعاً بحجم تجارة البندقيّة وجنوى، ولكنّه أصبح غير مستقرّ في القرن الخامس عشر. ولقد حاول ملوك فرنسا، حتى نهاية العهد المملوكيّ، عقد معاهدات تجاريّة مع المماليك، وكانت السفن الفرنسيّة تحمل المرجان والأقمشة إلى المشرق. في البدء كانت جنوى الواسطة في تجارة مرسيليا مع المشرق. ثم أخذت مرسيليا المبادرة بالاتجار مباشرة مع المشرق منذ العام 1379م.

رابعاً - العمران: مدينة طرابلس نموذجًا

تأتي طرابلس في المشرق بالدرجة الثالثة بعد دمشق وحلب إدارياً ولكنها تسبقهما من حيث العمران المملوكيّ.

وهي إلى حدّ كبير «مدينة مستحدَثة» بنيت بعد طرد الفرنج من المشرق، عِلمًا أن بعض المباني الأساسيّة فيها كما تنبئ بذلك هندسة البناء هي من بقايا الفرنج وقد رمّمت بعد فتحها.

بنيت المدينة «المستحدثة» على بعد ميلين من البحر، لربما لإبعادها عن خطر الغزوات الفرنجيّة المباشرة لها.

أ - العمران في آخر القرن الثالث عشر والنصف الأول من القرن الرابع عشر

أدار بلبان الطباخيّ الذي كان أول من سكن طرابلس، كنائب للسلطنة، إعمار المدينة، ودُشّن الجامع الكبير على عهد السلطان الأشرف خليل إبّان نيابة عزّ الدين أيبك الخازندار.

وضع «بلبان الطباخي» حجر الأساس للجامع المنصوريّ الكبير فوق أنقاض كنيسة «ماري دو لاتور» الصليبيّة أو كاتدرائية «سان جان» في رواية أخرى. وتمّ بناؤه في العام 1294م. ثم بنيت أروقته في العام 1315م، بأمر من السلطان محمد بن قلاوون. ومظهر الجامع من جهة، وتصميمه الفرنجيّ، كما يؤكد ذلك المستشرق «سوبرنهايم»، خير شاهد على عملية التحويل هذه.

وهناك شَبَهٌ أكيد بينه وبين فنّ البناء في دير البلمند، ويظهر ذلك في الحيطان التي هي بشكل أبراج وفي النوافذ والأقبية.

فالجامع كان كنيسة صليبيّة حوّلها قلاوون إلى جامع، وحوّل الأشرف خليل بوابتها الغوطيّة الجميلة إلى بوابة على الطراز العربيّ، وأضاف محمد بن قلاوون قناطر الباحة والمنبر.

وبنى عزّ الدين أيبك المسجد والبيمارستان المعروفَيْن باسمه.

وفي العام 1297م بُنيت المدرسة «الزريقيّة»، وهي أقدم مدارس طرابلس المملوكيّة وغير قائمة حاليًاً.

وبنى عز الدين المذكور أعلاه الحمّام المعروف باسمه، الملاصق لخان الخيّاطين، وعليه كتابة لاتينيّة، والى جانبه ضريحه.

والى عزّ الدين المذكور يعود الفضل في بناء البيمارستان المعروف باسمه.

وفي حوالي العام 1297م أنشئت بركة الملاحة، التي كانت تُملأ عصيراً (ليمون، خروب أو سوس) لثلاثة أيام في ذكرى مولد النبي محمد، فيشرب منها الأهالي مجانًا ليلًا ونهارًا.

في النصف الأول من القرن الرابع عشر، بُني جامع طينال وهو أفخم جوامع طرابلس وأجملها. بناه نائب السلطنة الأمير سيف الدين طينال الحاجب العام 736 هـ/ 1336م على أنقاض كنيسة قديمة. ويظهر أثر الكنيسة في العقد. وبُني جامع التوبة أو جامع الناصريّ، نسبة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون ما بين 1309 و1341م. كما بني جامع العطّار نسبة إلى ناصر الدين أو بدر الدين العطّار. وقد بُني على أنقاض كنيسة فرنجيّة. وبُني جامع أو مدرسة البرطاسيّ نسبة إلى بانيه عيسى بن عمر البرطاسيّ (ت 725 هـ/ 1325م). كان بناؤه حوالى العام 710 هـ / 1310 م. وهو من أجمل جوامع طرابلس بقبته المزخرفة ومئذنته ذات الطابع الأندلسيّ ومحرابه الرائع. القناطر الثلاث فيه متأثرة بالهندسة الفرنجيّة. أمّا مسجد السيّد عبد الواحد المكناسيّ فبُني حوالى العام 705 هـ/ 1305 م. وبنى نائب طرابلس أرغون شاه الإبراهيميّ (ت 801 هـ / 1399 م) الجامع الذي يحمل اسمه. ونجد ذكرًا لجامع القرطاويّ.

ومن خانات هذه الفترة خان المنزل، وهو معروف بقيسارية أسندمر بُني بين عامي 700 و709هـ/ 1300 و1309م، من قبل نائب طرابلس سيف الدين اسندمر الكرجيّ. ويُدعى أيضاً «قصر البرنس». ويُرجّح أنه كان قصرًا إفرنجيًا تهدّم وحوّلت حجارته إلى خان.

وبُنيت المدرسة التدمريّة أو القادريّة حوالي العام 1324م والمدرسة النوريّة حوالي العام 733هـ/ 1332 م.كما بُنيت مدرسة الخيريّة حسن بين العامين 709 و725هـ/1309 و1324م. والمدرسة الشمسيّة للتدريس على المذهب الشافعيّ. والمدرسة القرطاويّة بناها نائب السلطنة سيف الدين قرطاي العام 738 هـ/ 1338 م أو بين سنتي 6 1 7 و6 72 هـ/ 1316 - 1326م، وهي أفخم مدارس طرابلس المملوكيّة وأضخمها. والمدرسة البرطاشيّة الملاصقة للجامع البرطاشيّ.

ونجد حمّام أسندمر، أو حمّام الحاجب من العام 1305م. وحمّام النوريّ. وحمّام القاضي القرميّ وزاويته. بُني بين العامين 716 و723هـ. ونجد حمّامات أخرى غير محددة.

وكان في طرابلس في أواخر النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلاديّ بيمارستانان.

وتمّ تجديد حصن صنجيل وتحويل أحد مساكنه إلى دار يجلس فيها نائب السلطنة عُرفت بـ «دار السعادة»، وبُنيت أبراج حربيّة، عند ساحل البحر.

وأنشأ مماليك أسندمر مساكن حسنة البناء.

وجُرّت قنوات المياه إلى أبنية السكن.

وبُنيت الأسواق: وإلى اسندمر يعود الفضل في بناء السويقة المعروفة باسمه والقيساريّة المعروفة باسمه أيضاً، وبناء طواحين على نهر أبي علي.

كما نجد تربة طينال: وقد أنشأها طينال الأشرفيّ الناصريّ الحاجب، نائب طرابلس ثم صفد، قرب الجامع المعروف به.

ب - العمران في النصف الثاني من القرن الرابع عشر

يخبر ابن فضل الله العمري أنه كان يوجد في طرابلس في أواخر النصف الثاني من القرن الرابع عشر مدارس وزوايا عدّة.

ومن هذه المدارس: مدرسة «سبط العطّار» التي بناها ابن بنت ناصر الدين العطّار في النصف الثاني من القرن الثامن الهجريّ / الرابع عشر الميلاديّ. وقد أزيلت بعد إصلاح مجرى النهر. والمدرسة الظاهريّة التي بناها الأمير تغري برمش الظاهريّ في العام 799 هـ/1399 م. والمدرسة الناصريّة التي بُنيت بين سنتي 755و762هـ/1354و1360م. والمدرسة السقرقيّة التي بُنيت في العام 760 هـ/ 1359م، قرب جامع أرغون شاه. والمدرسة الخاتونيّة من العام 775 هـ / 1374 م. والمدرسة العجميّة من سنة 766 هـ/1365م.

ومن حمّامات النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلاديّ، حمّام العطّار. ولم يبقَ منه سوى واجهته الغربيّة.

ومن أبراج هذه الفترة، برج الديوان أو برج السراي، أو برج النبط، أو برج أيتمش بين العامين 792 و801هـ/ 1390و1399م.

ومن الترب: تربة محمد السكر من سنة 766هـ/ 1365 م. وتربة أرغون من العام 775هـ/ 1373 - 1374م.

ج - العمران في النصف الأول من القرن الخامس عشر

ومن أقدم سبل الماء المتبقّية من عصر المماليك، نبع عين التينة، وهو ملاصق للحمّام الجديد من العام 816 هـ/ 1413م.

ومن أبراج النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلاديّ نجد الآتي: برج الشيخ عفّان أو التكيّة. وبرج المغاربة أو برج عزّ الدين. وبرج السباع أو برج برسباي على شاطئ البحر، بعد برج قايتباي لجهة الغرب. وبرج أيتمش. كما نجد برگًا من هذه الفترة.

د - العمران في النصف الثاني من القرن الخامس عشر

ومن مساجد النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلاديّ، نجد: جامع الأويسة من العام 865هـ / 1460 م.

ومن مدارس هذه الفترة نجد: المدرسة العمريّة أو العنبريّة من العام 870هـ/1466م. وقد أزيلت وأضيفت إلى أرض مدرسة الأخوة المريميّين. والمدرسة الطواشيّة.

ونجد خانقاه الست صالحة، التي بُنيت حوالى العام 1467م.

ونجد من أبراج النصف الثاني من القرن الخامس عشر، في مدينة طرابلس، برج رأس النهر.

هـ - آثار عمرانيّة مملوكيّة من دون نقوش تحدّد تاريخها

ومن المساجد المملوكيّة التي لا نعرف تاريخ بنائها: مسجد الحجيجيّة. مسجد الطحّام: (أو الطحّان أو الطحّال). جامع الدبّاغين.

ومن الأسواق والخانات المجهولة تاريخ البناء: سوق حراج. خان المصريّين، أو خان العجم. خان الخيّاطين أو الحريريّ.

ومن المدارس التي لا نعرف تاريخ بنائها، وتوحي أنها، لربما، من عهد المماليك: مدرسة ومزار حسن البشناتي. مدرسة ومزار السبسبيّة. مدرسة الرفاعيّة. المدرسة القادريّة، أو مدرسة العقّادين. المدرسة البطريركيّة. مدرسة النسر بن عجبور. المدرسة الكريميّة. مدرسة المشهد.

ومن المزارات التي لم نتمكّن من تحديد تاريخ بنائها: مزار السيدة للروم الأرثوذكس. مزار عائشة البشناتيّة. مصلى الأويسة. مزار عبد اَلسَّلام اَلْمَغْرِبِيّ الشيشيّ. مقام الشيخ فضل الله اَلْمَغْرِبِيّ.

ومن الدور المملوكيّة التي نجهل تاريخ بنائها: دَار الأمير سيف الدين الطنطاش. دور كبيرة في سفح ظهر المغر شمالي حمّام الحاجب. دار في الطريق إلى بركة الملاحة وعليها كتابة من العام 820هـ/ 1417م.

ونجد من البرك في طرابلس من عهد المماليك وليس لها تاريخ بناء: بركة الدبّاغة: كانت قرب جامع التوبة وأزيلت. سبيل ماء وسط سوق الصاغة والعطّارين والكندرجيّة والبازركان.

لكلّ مدينة إسلاميّة - شرقيّة، أربع وظائف أساسيّة: سور المدينة، طرقاتها، سوقها، أحياؤها السكنيّة.

كان لطرابلس، وفق ما يذكر ابن فضل الله العمريّ، «أسوار جليلة. فلقد شكّلت طرابلس بمنازلها كتلة متراصّة من البيوت وعلى طرفها بيوت متلاصقة متراصّة تزيد جدرانها الخارجيّة عن المتر وتنفتح على الخارج ببوابات تربط داخل المدينة بخارجها، فتفتح نهاراً وتقفل ليلاً وتحميها أبراج.

في الجنوب بوابتان: بوابة الحدّادين، والثانية بوابة الرمل أو الباب الأحمر. في الشمال: نجد باب المسلخ أو باب الحديد. في الغرب: أبواب غير محدّدة باتجاه التلّ والمرج والمينا. في الشرق: باب تحت القلعة.

واستناداً إلى إحصاء 1519 م العثمانيّ، نجد أسماء الأبواب الآتية: الحجّارين - دار السعادة - باب الحديد - عقبة الحمراويّ - الدبّاغة - القلعة - الطواحين - الأمير محمد - الغنشاه - التبانة - باب حلب - باب بيروت.

ومن الأسواق التي يرد ذكرها في النصوص المملوكيّة نجد: العطّارين، سوق الدبّاغين، المسلخ، سوق الحلاوين، السوق الشرقيّ، سوق السلاح، سوق الحدّادين، سويقة القاضي. كما نجد أسواقًا أُخَر يمكن استقراؤها من استمرارية وجودها واستمرارية تسميتها، وهي: سوق البازركان، السوق الجديد، سوق النحّاسين، سوق الصيّاغين المعروف قديماً بـ «عديمي المسلمين»، سوق العطّارين. سوق الكندرجيّة.. إلخ.

وإذا عدنا إلى السجل الأول من سجلات المحكمة الشرعيّة في طرابلس (1666 - 1667م) لوجدنا أن مدينة طرابلس قد قسمت في منتصف القرن السابع عشر إلى 26 محلّة أو حارة هي: التبّانة، ساحة عميرة، قبّة النصر، اليعقوبيّة، الجسرين، باب الحديد، التربيعة، حجّارين النصارى، حجّارين المسلمين، سويقة النوريّ، الصبّاغة، القنواتيّ، أق طرق، زقاق الحمص، سويقة الخيل، مسجد الخشب،

المزابل، شيخ فضل الله، العوينات، الرمانة، الاي كوز، الناعورة، اليهود، القواسير، عديمي المسلمين، عديمي النصارى.

من الواضح أنّه كان في طرابلس حي للنصارى قائم بهم، وكان ذلك معروفًا في العهد العثمانيّ، كما كانت توجد محلّة لليهود حيث يقع خان العسكر.

إضافة إلى المحتسِب، الذي كان يؤدي أحد أدوار «البوليس» في المدينة، كانت مسؤولية حفظ الأمن تقع تقليديًّا على عاتق هيئتين: الأولى جند الحلقة والثانية الشرطة التي تأتمر حكمًا بنائب السلطنة وبالقضاء. هذا، علمًا أن والي المدينة هو صاحب الشرطة.

شوارع طرابلس كانت، كأكثريّة شوارع المدن الإسلاميّة، مظلمة، تحيط بها حيطان كبيرة تدعم المنازل التي تتوالى على جوانبها وتغطيها الأبنية في غالب الأحيان، وتكون أرضها مرصوفة بالحجارة.

غالبيّة المساكن كانت من أكثر من طبقة واحدة. وأول دليل على ذلك أنّ ابن فضل الله العمريّ والنويريّ يذكران أن المياه كانت تصل إلى الطبقات العليا من المدينة.

أشاد ابن حبيب الحلبيّ (منتصف القرن الرابع عشر الميلاديّ) بمساكن طرابلس الأنيقة.

منذ مطلع العهد المملوكيّ، جُرّت قنوات المياه من نهر قاديشا إلى المساكن، وكانت تصل إلى الطبقات العليا منها.

على صعيد التغذية في مدينة طرابلس، نرجّح أن يكون الزيت في البساتين المجاورة لطرابلس، وخصوصاً في سهل الكورة، الذي لا يزال حتى اليوم المصدر الأساسيّ لتأمين حاجات المنطقة. وأمّا العنب، فكانت كرومه منتشرة بجوار المدينة. ويذكر ابن فضل لله العمري أنّ الجبال المحيطة بطرابلس كانت «ذوات أشجار وكروم».

ازدهرت في طرابلس صناعة الحلويات وصناعة السكر، كما يؤكد ذلك شيخ الربوة.

وفي مطلع العهد المملوكيّ، أشار ابن شداد وشيخ الربوة إلى كثرة قصب السكر في أرض طرابلس.

الثلج كانت تجارته مزدهرة في العهد المملوكيّ. ونظرًا إلى ارتفاع جبال لبنان، وخصوصًا تلك المحيطة بطرابلس، كان الثلج يدخل المدينة لترطيب حرّها منتصف الصيف.

كان الأرزّ، لربما، يصل إلى طرابلس إما من منطقة الحولة المشهورة بزراعة الأرزّ، أو من مصر، مصدر الإنتاج الأساسيّ. ويعدّ الأرزّ من الكماليات. والى جانب الأرزّ، كانت مصر تصدّر العدس والفول وكانت طرابلس غنية بالقلقاس.

لا تزال الشواطئ القريبة من طرابلس نقطة غنيّة باستخراج الأملاح من الشاطئ اللبنانيّ. وملح طرابلس، كان لا يُستهلك في المدينة فقط، إذ إنّ جزءًا منه كان يُرسَل للاستهلاك خارجها، كما تؤكد ذلك وثائق مطلع القرن السادس عشر الميلاديّ.

بساتين طرابلس والمناطق المجاورة هي مصدر تموين المدينة بالخضراوات والفواكه.

ونقدّر أن يكون الخبز الذي يباع في الأسواق، في عهد المماليك، هو نفسه في العهد العثمانيّ. وهذا الخبز هو: الخبز الأبيض «الكماج» ثم التنوريّ ثم الطابونيّ، وقد لوحظ أن أكثر الخبّازين كانوا من النصارى.

المطاحن والمخابز كانت متوافرة بكثرة على نهر أبي علي ورشعين وغيرهما، كما تشير إلى ذلك نصوص أوقاف العهد المملوكيّ ومطلع العهد العثمانيّ.

وقد أتت نصوص الأوقاف هذه على ذكر بعض الأفران التي كانت قائمة في طرابلس.

لمزيد من المعلومات عن عهد السلاطين المماليك تراجع:

المصادر: في طليعتها الموسوعات (ابن الأخوة، ابن شاهين الظاهريّ، ابن الشحنة، بهاء الدين الخالديّ، السبكيّ، الشهرستانيّ، ابن فضل لله العمريّ، القلقشنديّ، المقريزيّ، النويريّ) ومن أبرز الحوليّات: ابن أبي الفضائل، ابن الأثير، ابن كثير، ابن آياس، ابن أيبك الدواداريّ، ابن تغري بردي، ابن طولون، ابن العبريّ، ابن الفرات، ابن قاضي شهبة، ابن الوردي، أبو الفداء، بيبرس المنصوريّ، السيوطيّ، اليافعيّ، اليوسفيّ، اليونينيّ، سبط ابن الجوزيّ، ابن خلدون، الذهبيّ، السخاويّ، العينيّ والبطريرك اسطفانوس الدويهيّ والسير والتراجم: ابن الجيعان، ابن حجر، ابن خلكان، ابن شدّاد، ابن عبد الظاهر، والجغرافيا: ابن بطوطة، الإدريسيّ، ابن شدّاد، شيخ الربوة الدمشقيّ، والرحّالة الأجانب.

وعلى صعيد المراجع نذكّر بكتابي: **نيابة طرابلس ولبنان في عهد السلاطين المماليك**، وكتاب **الشرق العربيّ**. أضف إلى ذلك كتب عمر تدمري وكمال الصليبيّ وأحمد حطيط وانطوان ضومط والطراونة وباللغة الفرنسيّة سوبرنهايم وغودفروا دوموبين وسوفاجيه ولابيدوس وهايد واشتور وبيار مكرزل.

خاتمة عامة

انتهت القرون الوسطى في المشرق ليبدأ معها التاريخ الحديث مع احتلال العثمانيّين منذ 1516م للمشرق ومصر والقسم الأكبر من شماليّ أفريقيا وغيرها من أجزاء البلاد العربيّة. ولكن العجب في الموضوع، أنّ العثمانيّين لم يُدخلوا حداثة تُذكَر على تاريخ شعوب هذه المنطقة لتلصق بها تسمية التاريخ الحديث، بل أمعنوا في تجهيلها وتعميق انتسابها إلى زمن الانحطاط الذي بدأ يتدحرج ككرة الثلج في منطقة كان جدير بها أن تكون منارة التاريخ الإنسانيّ.

توالت على المشرق خلافات وسلطنات منذ الفتوحات الإسلاميّة – العربيّة، كان أكثرها رحابة وحبّاً للحياة الخلافة الأمويّة التي حققت للإسلام ما لم تحققه خلافة أخرى من حيث نشره في الشرق وصولاً إلى ما وراء النهر، وفي مغرب البلاد العربيّة وصولاً إلى أسبانيا وأجزاء من فرنسا وايطاليا.

ومع هذا دفع الأمويّون ثمن حبّهم للحياة وانفتاحهم على شعوب المشرق سقوطهم أمام صراعهم مع العبّاسيّين من جهة، المستغلّين لمبدأ الوراثة البدويّة بحصر الإرث بالعمّ في حال انتفاء وجود الوريث الذكر، ومن جهة أخرى شيعة الإمام علي، المنادين بوراثة الرسول بتكليف منه، وبأحقيّة الأنثى بقطع الميراث.

انتقلت الخلافة إلى العبّاسيّين الذين أزاحوا من طريقهم كلّ الذين ساعدوهم بالوصول إلى السلطة بمن فيهم شيعة علي. وعملوا على إضفاء الهيبة الدينيّة على الخلافة وإرساء الإسلام على قواعد ومعايير عبّرت عنها المدارس الفقهيّة السنيّة، خصوصًا المدارس الأربع المعروفة والمستمرة حتى اليوم.

في الزمن الأول من الحكم العبّاسيّ غدت بغداد واجهة الحضارة لقرن من الزمن، فزهت فيها الأفكار والآداب المترعة بنبض الحياة، والفلسفة والعلوم والموسيقى، وعمّ الانشراح حياة الناس. ولكن ما إن وصل المتوكل إلى سدّة الخلافة واستتب الأمر بالتدريج للشعوب التركيّة في السلطة، حتى بدأت مسيرة الانكماش الاجتماعيّ والتّسلّط الفقهيّ وغزو الفقر للأرياف. فسارت الخلافة العبّاسيّة مسارًا جديدًا تفككت فيه بعض أجزائها إلى إمارات ودويلات شبه مستقلة. ولئن لمع في داخلها شعراء مميّزون، كانوا بمثابة آخر حبّات عنقود الإبداع في الأدب والفلسفة، فلم يحل ذلك

دون تسارع وتيرة مسيرة التراجع الثقافيّ وتحنيط الفكر وتوقف الخلق والإبداع والسير في ركاب التقليد.

جاءت الحروب الفرنجيّة - الصليبيّة واحتلالها للمشرق لتحدث صدمة وجوديّة للمسلمين. فقد اجتاح هؤلاء هذه البلاد متأثرين بشعائر الإسلام، بحجة الجهاد لتأمين طريق الحجّ إلى القدس وغسل الذنوب. ولكن في الدين المسيحيّ لا توجد أية دعوة للجهاد كما أنّ الذنوب لا تُغسل بالحجّ بل بالتكفير عن الخطايا بطرق قاسية جدّا أقلّها الصوم.

وحدث ما حدث، ودفع الشرق والغرب ثمنَ هذا الاحتلال مئات آلاف البشر. وبعد قرنين من الزمن طُرد الفرنج من الشرق على يد الآلة العسكريّة المملوكيّة وانتصر المسلمون. ولكن المفارقة أنّ المسلمين خرجوا من هذه الحرب الضروس منتصرين عسكريّا ولكن خاسرين حضاريّا؛ بينما الغرب خرج خاسرًا عسكرياّ ورابحًا حضارياّ. ارتاح المسلمون عسكريّا فعاشوا في ظلّ هذا الارتياح على أمجاد النصر ولم يعملوا شيئًا لإطلاق عجلة نهضة ما تعيد الحياة إلى بدايات العصر العبّاسيّ الأول. بينما استفادت أوروبا من احتلالها للشرق فحملت منه ثقافته، واغتنت دولها المطلّة على البحر المتوسط من حركة التجارة، فبدأت معها الاستفادة من الثروة الماديّة بتوظيفها في الفنّ والهندسة والفكر والعلم وغيره، لتبدأ مسيرة نهضة كبرت جيلاً بعد جيل وصولاً إلى النهضة الكبرى وما تلاها حتى اليوم من حركات نهضويّة عمرانيّة وعلميّة وفنيّة وفكريّة وسياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة.

تسلّم المماليك قيادات بلاد المشرق، باستثناء العراق، وتركوا بصمة عمرانيّة في مصر تجلّت خصوصًا في المباني الضخمة والجميلة في شارع المعزّ، المقريزيّ سابقًا، في القاهرة، وفي أبنية طرابلس – لبنان المستحدَثة. في عهدهم نحت الكتابة نحو التقليد، فصدرت الموسوعات الضخمة الإداريّة والسياسيّة وعلى رأسها: الشهرستانيّ، ابن فضل لله العمريّ، القلقشنديّ، المقريزيّ، النويريّ، ابن آياس، ابن أيبك الدواداريّ، ابن تغري برديّ، ابن طولون، اليونينيّ، سبط ابن الجوزيّ، ابن خلدون، الذهبيّ، الخ... بعضها قدّم خدمة ذهبيّة للتأريخ الإداريّ من حيث نشره لنصوص نماذج المعاملات الإداريّة من مطلع التاريخ الإسلاميّ، من حيث إنّ كتبتها كانوا من موظفي الإدارة في القاهرة. واليوم غالبيّة هذه الوثائق لم تعد موجودة وضاع. بكل الأحوال الميل إلى كتابة الموسوعات، على أهميّة هذا العمل، هو دليل على جمود حركة الإبداع والخلق. فالعهد المملوكيّ لم يسجل جديدًا في الشعر

والأدب والفكر والفقه، بل التقليد هو المسيطر. وليس غريبًا أن يشتهر ابن تيميّة في هذا العهد. فالميل إلى التعصّب والأصوليّة كان سمة هذا العهد ونبع الحركات الأصوليّة اللاحقة.

انتهى العهد المملوكيّ ولم ينته معه القمع الدينيّ والقمع الاجتماعيّ والسياسيّ، وانتهى المشرق في نهاية القرون الوسطى مسرحًا للانحطاط والتخلّف والقمع.